

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تم فهرس الجـــزء السابع من كتاب صبح الأعشى)



الجـــــزء السابع

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف
الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء السابع

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الطَّرَف العاشر

فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

(ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها فى الدولة الأخشيدية والطُّولُونيَّة وما قبلهما)

والذى وقفتُ عليه من رسم المكاتبة عنهم أن تُفتتَح بلفظ: «من فلان إلى فلان».

كما كتب ابنُ عبد كان عن أحمدَ بن طولونَ إلى ابنه العباس حين عصى [عليه] (١) بالإسكندرية، منذرًا له وموبِّخا له على فعله، وهو:

«من أحمدَ بنِ طولونَ مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه، العاصى لربه، المُلِمِّ بذنبِه، المُفسدِ لكَسْبه، العادى لطَوْره، الجاهلِ لقَدْره، الناكِصِ على عَقِبه، المَرْكُوس فى فتنته، المَبْخُوس [من] (١) حَظِّ دنياه وآخرته» !

سلامٌ على كل مُنِيبٍ مستَجِيب، تائبٍ من قريب؛ قبلَ الأَخْذ بالكَظَم، وحلُولِ الفَوْت والنَّدَم.

---

(١) الزيادة من الضوء لمؤلف ص ٤٦٦، ٤٦٧.

وأحمَدُ الله الذى لا إلهَ إلا هو حمدَ معترِفٍ له بالبلاء الجميــل ، والطَّول الجليل؛ وأسأله مسألة مخلِصٍ فى رجائه ، مجتهِدٍ فى دعائه ؛ أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبى ؛ صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فإن مَثَلَك مثَلُ البقرة تُثير المُدْيةَ بقرنيها ، والنملةِ يكون حَتفُها فى جناحيها ، وستعلَمُ ـ هَبِلتْك الهوابل ! أيها الأحمقُ الجاهل ؛ الذى ثَنَى على الغىِّ عِطفَه ، واغترّ بضجاج المواكب خلفَه ـ أىَّ مَوْرِدةِ هَلَكةٍ بإذن الله توردتَ ، إذ على الله جل وعز تمرّدتَ وشَرَدتَ ، فإنه تبارك وتعالى قد ضَرَب لك فى كتابه مثلا : ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

وإنا كنا نُقرِّبك إلينا ، ونَنْسُبُك إلى بيوتنا ، طَمَعًا فى إنابتك ، وتأميلا لفَيْئتك ؛ فلما طال فى الغىِّ انهماكُك ، وفى غَمْرة الجهل ارتباكُك ، ولم ترَ الموعظة تُلين كبِدَك ، ولا التذكيرَ يُقيم أوَدَك ، لم تكن لهــذه النِّسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينــا موضعا ومحلّا ؛ بل لا نكْنِى بأبى العبّاس إلا تكرّهًا وطمعًا بأن يهب الله منك خَلَفًا تقلده اسمك ونُكْنَى به دونك ، ونَعُدُّك كنتَ نِسيا مَنسيّا ، ولم تكُ شيئا مقضيًّا ؛ فانظر ولا نظرَ بك إلى عارٍ نسبتَه تقلّدت ، وسَخَطٍ من قِبَلنا تعرّضتَ ؛ واعلم أن البــلاء بإذن الله قد أظلّك ، والمكروهَ إن شاء اللهُ قد أحاطَ بك ؛ والعساكرَ بحمد الله قد أتتك كالسَّيل فى الليل ، تُؤذِنُك بحربٍ وبوَيلٍ ؛ فإنّا نُقسم ، ونرجو ألا نجورَ ونظلم ؛ أن لا نثنى عنك عِنانا ، ولا نُؤثر على شانك شانا ؛ ولا نتوقّلَ ذِرْوةَ جبل ، ولا نَلِجَ بطن واد ؛ إلا جعلناك[1] بحول الله وقوّته فيهما ، وطلبناك حيثُ أممتَ منهما ؛ مُنفقين فيك كلَّ مالٍ خطير ، ومستصغِرين بسببك كلَّ خَطْب جليل ؛ حتى نستمرّ من طَعْم العيش

(١) لعله "تبعناك" والمراد اقتفاء أثره حيث يمم .

ما آستحليت، وتستدفع من البلايا ما آستدعيت، حين لادافع بحول الله عنك، ولا مزحزح لنا عن ساحتك، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت، وتود أنك هبلت ولم تكن بالمعصية عجلت، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت؛ فحينئذ يتفرى[1] لك الليل عن صبحه، ويسفر لك الحق عن محضه؛ فتنظر بعينين لاغشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لاوقر فيهما؛ وتعلم أنك كنت متمسكا بحبائل غرور، متماديا فى مقابح أمور: من عقوق لاينام طالبه، وبغى لاينجو هاربه؛ وغدر لاينتعش صريعه، وكفران لايودى قتيله؛ وتقف على سوء رويتك، وعظم جريرتك؛ فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول، وأنت عليه محمول؛ وإذ السيف عنك مغمود، وباب التوبة إليك مفتوح؛ ولتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعا، وآنقدت إليه متنصحا.

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ماورد به كتابك على بعد نفوذى على الفسطاط من التمويهات والأعاليل، والعدات بالأباطيل؛ من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ماذكرت أنه فسد على، حتى ملت إلى الإسكندرية، فأقمت بها طول هذه المدة. وآستظهارا عليك بالحجة؛ وقطعا لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة، ولا أنه خالجنى شك ولا عارضنى ريب فى أنك إنما أردت التروح والآحتيال للهرب، والتروع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك، ولعل مصيرك إليها يكفينيك؛ ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك، لأنك إن شاء الله لاتقصد موضعا إلا تلوتك، ولاتأتى بلدا إلا قفوتك؛ ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تحميك إلا آستعنت بالله عز وجل فى جد حبلها، وفصم عروتها؛ فإن أحدا لايؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين

(١) أى ينشق يقال فراه فانفرى وتفرى انظر المختار.

من دِينٍ أو دُنْيا . فأما الدِّين فأنتَ خارجٌ من جملتـه لمُقَامك علىٰ العُقُوق ، ومخالفةِ ربِّك وإسْخاطِه . وأما الدُّنيا فـا أُراه بقِيَ معك من الحُطَام الذى سَرَقْتَـه وحمَلْت نفْسَك علىٰ الإيثار به ، مايتهيّأ لك مكاثَرتُنا بمثلِه ، مع ما وهَب الله لنا من جَزِيل النعمة التى نستَودِعه تبارك وتعـالىٰ إيّاها ، ونرغَبُ إليه فى إنمائها ، إلىٰ ماأنت مقيمٌ عليه من البغْيِ الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبُك .

وأمّا مامنَّيتناه من مَصيرك إلينا فى حُشُودك وجُمُوعك ، ومَنْ دخَل فى طاعتك ؛ لإصلاح عملنا ، ومكافحةِ أعدائنا ، بأمر أظهَروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسبَبِك فأصلحْ أيها الصبىُّ الأخرقُ أمرَ نفْسك قبل إصلاحك عملَنا ، وآحْزِمْ فى أمرِك قبلَ آستهالك الحَزْمَ لنا ؛ فما أحوجَنا اللهُ وله الحمد إلىٰ نُصْرتك ومُوازرَتك ، ولا اضْطرِرنا إلىٰ التكثر [بك] علىٰ شِقاقك ومعصيتك : ﴿وما كُنْتُ متّخِذَ المُضِلّينَ عَضُدا﴾

وليتَ شِعْرى علىٰ مَنْ تَهوِّل بالجُنود ، وتمَخرَقُ بذكر الجيوش ؛ ومَنْ هؤلاء المسخَّرون لك ، الباذلون دِماءَهم وأموالَهم وأديانهم دُونك؟ دُونَ رِزْق ترزقهم إيّاه ، ولا عطاء تُدِرّه عليهم ؛ فقد علمتَ إن كانَ لك تميز ، أو عندك تحْصيل ، كيف كانتْ حالُك فى الوقعة التى كانتْ بناحية أطرابُلُس ، وكيف خذَلك أولياؤُك والمرتزِقةُ معك حتّى هُزِمت ، فكيف تغتَرُّ بمَنْ معك من الجنود الذى لا آسمَ لهم معك ، ولا رِزْق يجرى لهم علىٰ يدِك؟ فإن كان يَدْعُوهم إلىٰ نُصْرتك هَيبتُك والمداراةُ لك والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيجِدُونهم أضعافَ ذلك مِنّـا ، ووجودُهم من البَـذْل الكثير والعطاءِ الجزيل عندنا ما لا يجدُونه عندك ، وإنهم لَأحرىٰ بخذْلك ، والميـل إلينا دُونَك . ولو كانوا جميعا معك ومقيمين علىٰ نُصْرتك ، لرجَوْنا أن يمكِّن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائرةَ السَّوْء عليك وعليهم ، ويُجْرِيَنا من عادته فى النّصْر وإعزاز الأمر علىٰ مالم يزَل . يتفضَّلُ

علينا بأمثاله، ويتطوّلُ بأشباهه . فما دعانى إلىٰ الإرجاء لك، والتسهيل من خناقك، والإطالة من عِنانك، طُولَ هذه المدّة إلا أمران : أغلبهما كان علىّ آحتقارُ أمرك وآستصغارُه، وقلةُ الآحتفالِ والآكتراثِ به؛ وإنى آقتصرت من عُقُوبتك على ما أخلقته بنفسك من الإباق إلىٰ أقاصى بلاد المَغْرب شَريدا عن منزلك وبلدك، فريدا من أهلك وولدك ـ والآخر أنّى علمتُ أن الوَحْشةَ دعتْك إلىٰ الآنحياز إلىٰ حيثُ آنحزتَ إليه، فأردتُ التسكينَ من نِفارك، والطمأنينةَ من جأشك ؛ وعملتُ علىٰ أنك تَحِنُّ إلينا حَنينَ الوَلَد ، وتَتُوق إلىٰ قُرْبنا تَوَقانَ ذى الرَّحِمِ والنَّسب ؛ فإنّ فى رِفْقنا بك ما يَعْطِفُك إلينا ، وفى تآخينا إيّاك ما يردُّك علينا ، ولم يَسْمَع منا سامع فى خَلاء ولا مَلإٍ آنتقاصًا بك، ولا غَضًّا منك، ولا قَدْحا فيك ؛ رِقّةً عليك، وآستبقاءً لليَد عندك ؛ وتأميلا لأن تكونَ الراجعَ من تِلْقاء نَفْسك ، والموفّق بذلك لرُشْدك وحَظّك ؛ فأما الآنَ مع آضطرارك إيّاىَ إلىٰ ما آضطرَرْتنى إليه من الآنزعاج نحوك، وحَبْسك رُسُلى النافذين بعهد كثير إلىٰ ما قِبَلك ؛ وآستعمالك المُواربةَ والخِداع فيما يجرى عليه تدبيرك . فما أنت بموضع للصِّيانه، ولا أهلٍ للإبقاء والمحافظه، بل اللعنةُ عليك حالّه ، والذِّمّة منك بريّه، والله طالبُك ومُؤاخِذك بما آستعملتَ من العُقُوق والقطيعه، والإضاعة لرَحِم الأُبوّه ـ فعليك من وَلَد عاقّ شاقّ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين، والملائكةِ والناسِ أجمعين ؛ ولا قَبِل اللهُ لك صَرْفا ولا عَدْلا ، ولا ترَكَ لكَ مُنْقلَبا ترجع إليه ، وخَذَلك خِذْلانَ من لا يُؤْبَه له ، وأثْكَلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حَفِظك . فوالله لأستعمِلَنّ لَعْنتك فى دُبُر كلّ صلاة ، والدعاءَ عليك فى آناء الليل والنهار ، والغُدُوّ والآصال ؛ ولأكتبَنّ إلىٰ مِصْر، وأجناد الشامات والثُّغور ، وقِنَّسرينَ ، والعَواصِم، والجَزِيرة ، والحِجاز ، ومكّةَ ، والمدينة كُتبا تُقرأ علىٰ مَنابرها

(١) مراده على ما اختزنه لنفسك الخ

فيك، باللّعن لك، والبراءة منك، والدلالة علىٰ عُقُوقك وقَطيعتك ؛ يتناقَلها آخِرٌ عن أوّل، ويأثُرها غابرٌ عن ماض، وتُخلَّد فى بطون الصحائف، وتحملها الرُّكبان، وتُحدَّثُ بها فى الآفاق، وتُلحِق بك وبأعقابك عارا ما اطَّرد الليلُ والنهار، واختلَف الظّلامُ والأنوار .

فحينئـذٍ تعلَم أيُّها المخالفُ أمرَ أبيه، القاطعُ رحِمَه، العاصى ربَّه ؛ أىّ جناية علىٰ نفسك جنيت؟ وأىّ كبيرةٍ اقترفت واجتنيت، وتتمنّى لو كانتْ فيك مُسكة، أو فيك فضلُ إنسانيّة ؛ أنك لم تكنْ وُلِدت، ولا فى الخلق عُرِفت ؛ الا أن تُراجِع من طاعتنا والإسراع إلىٰ ما قِبَلنا خاضعًا ذليلا كما يلزمك ، فنُقيمَ الاستغفارَ مُقَامَ اللعنه ، والرقّةَ مقامَ الغِلْظه ؛ والسلامُ علىٰ من سَمِع الموعظة فوعاها ، وذكر الله فاتّقاه، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وكما كتب الأخشيد محمد بن طُغْج [صاحب الديار المصرية](١) وما معها من البلاد الشامية، والأعمال الحجازيّة، إلىٰ أرمانُوس: ملكِ الروم، وقد أرسل أرمانوسُ اليه كتابا يذكُر من جملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادتُه أن يكاتِبَ إلا الخليفةَ ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكُتّاب عدّةَ أجوبة ورفَعُوا نُسَخها إليه، فلم يرتضِ منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النّجيرمىّ وكان عالما بوجُوه الكتابة .

ونسختُه علىٰ ماذكره ابن سعيد فى كتابه "المُغرب فى أخبار المَغرِب" :

من محمد بن طُغْج مولىٰ أمير المؤمنين، إلىٰ أرمانُوسَ عظيم الروم ومَنْ يليه .

سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحِقّون ، فإنا نحمدُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ونسأله أن يصلّيَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من ضوء الصبح للؤلف ص ٤٦٧ .

أما بعدُ، فقد تُرجِم لنا كتابُك الواردُ مع نُقُولا وإسحاقَ رسولَيْك ، فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلةِ الرَّحمة، وما نُمِيَ عنا إليك، وصَحَّ من شيَمِنا فيها لَدَيْك ، وبما نحن عليه من المَعْدِلَة وحُسْنِ السِّيرة فى رعايانا ، وما وصلتَ به هــذا القول من ذكر الفِداء والتوصُّل إلىٰ تخليص الأسرىٰ، إلىٰ [غير] ذلك ممـا اشتمل عليه وتفهَّمناه .

فأما ماأطنبتَ فيه من فضيلة الرحمة فمن سَدِيد القول، الذى يليقُ بذوى الفضل والنُّبْل ؛ ونحنُ بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارِفُون ، وإليه راغِبُون ، وعليه باعثُون ، وفيه بتوفيق الله إيَّانا مُجتَهِدون، وبه مُتَواصُون وعامِلون . وإيَّاه نسأل التوفيقَ لمَرَاشد الأمور وجوامع المَصَالح بمنّه وقُدْرته .

وأما مانسبتَه إلىٰ أخلاقنا من الرحمة والمَعْدِلة، فإنا نرغَبُ إلىٰ الله جلّ وعلَا الذى تفرَّد بكمال هذه الفضيلة، ووهبَها لأوليائه ثم أثابهُم عليها، أن يُوَفِّقنا لهـا ، ويجعلَنا من أهلِها، ويُيَسِّرنا للاجتهادِ فيهـا، والاعتصام من زَيْغ الهوىٰ عنها، وعِزَّة القَسْوة بهـا ؛ ويجعلَ ما أودَع قلوبَنا من ذلك موقوفًا علىٰ طاعتــه ، ومُوجِبات مَرْضاته ؛ حتَّى نكونَ أهلًا لمـا وَصفْتنا به، وأحقَّ حقًّا بمـا دعوتَنا إليه؛ وممَّنْ يستحِقُّ الزُّلْفىٰ من الله تعالىٰ ، فإنا فُقَراءُ إلىٰ رحمتــه . وحَقٌّ لمن أنزله اللهُ بحيثُ أنزلَنا ، وحمَّله من جسيمِ الأمرِ ما حمَّلنا ؛ وجمعَ له من سَعَة الممالك ما جَمَع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يبتَهِل إلىٰ الله تعالىٰ فى معُونته لذلك وتوفيقه وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده : ﴿ وَمَنْ لم يجعَلِ اللهُ لَهُ نوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وأما ما وصفتَه من ارتفاع محلِّك عن مَرْتَبة مَنْ هو دُونَ الخليفة فى المكاتبة لمـا يقتضيه عِظَم مُلْككم ، وأنه المُلْك القديم الموهوبُ من الله، الباقى علىٰ الدَّهر ، وأنك إنمـا خصَصْتنا بالمكاتبة لمـا تحقَّقته من حالِنا عندك ، فإنَّ ذلك لو كان حقًّا

وكانت منزلتُنا كما ذكرته تقصُر عن منزلة من تكاتبُه ، وكان لك فى ترك مكاتبتِنا غُنْم ورُشْــد ، لكان من الأمر البيّن أنّ أحظىٰ وأرشدَ وأولىٰ بمن حلّ محلّك أن يعمل بمـا فيه صلاحُ رعيّته ، ولا يراه وَصْمةً ولا نَقِيصةً ولا عَيْبا ، ولا يَقع فى معاناةِ صغيرةٍ من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركَبُ الأخطار ، ويخُوضُ الغمار ، ويُعرِّض مُهْجتَــه ، فيما ينفَع رعيّته ؛ والذى تجشّمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمرٌ سَهْل يسير ، لأَمْرٍ عظيم خطير ، وجُلّ نَفْعه وصلاحِه وعائدته تُخُصّكم ، لأن مذهبنا آنتظارُ إحدىٰ الحُسنَيَيْن ، فمَنْ كان منّا فى أيديكم فهو علىٰ بيّنة من ربه ، وعزيمةٍ صادقةٍ من أمره ، وبصيرةٍ فيما هو بسَـبيله ؛ وإن فى الأسارىٰ مَنْ يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأَسْر وشِدّةِ البأساء علىٰ نَعيم الدنيــا وخيرها لِحُسْن منقَلَبه ، وحميد عاقبته ؛ ويعلم أن الله تعــالىٰ قد أعاذه من أن يفتِنه ، ولم يُعِذْه من أن يبتليَه . هــذا إلىٰ أوامر الإنجيل الذى هو إمامُكم ، وماتُوجِبه عليكم عزائمُ سياستكم ، والتوصــلُ إلىٰ آستنقاذ أُسَرائكم ؛ ولولا أنّ إيضاحَ القول فى الصواب ، أولىٰ بنــا من المُسامحة فى الجواب ؛ لأضربْنا عن ذلك صَفْحا . إذ رأينا أنّ نفْس السبب الذى من أجْله سَمَا إلىٰ مكاتبة الخلفاء عليهم السلام مَنْ كاتبهم ، أو عَدَا عنهم إلىٰ مَنْ حلّ محلّنا فى دولتهــم ؛ بل إلىٰ من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منْعه ، وردّ ملتمَسه ممن جاوره ، فرأىٰ أن يقصِد به الخلفاءَ الذين الشّرفُ كلّه فى إجابتهم ، ولا عار علىٰ أحد وإن جلّ قدره فى ردّهم ؛ ومن وَثِق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قَصْده أسهلَ السبيلين عليه ، وأدناهما إلىٰ إرادته ، حسب ماتقدّم لنا من تقــدّم . وكذلك كاتَبَ مَنْ حل محلّك من قَصُر عن محلنا ، ولم يقرُبْ من منزلتنا ؛ فمالِكُنا عِدّة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كلَّ مملكة منها ملكٌ عظيمُ الشان .

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطغىٰ فرعونَ علىٰ خَطَر أمره، حتّى آدّعىٰ الإلٰهية وآفتخر علىٰ نبيّ الله موسىٰ بذلك .

ومنها ممالكُ اليمن التى كانتْ للتبابعة، والأقيال العَبَاهِلة : ملوكِ حِمير، علىٰ عظم شأنهم، وكثرة عَدَدهم .

ومنها أجنادُ الشام التى

منها جُنْدُ حِمْص، وكانت دارَهُم ودارَ هِرَقْلَ عظيمِ الروم ومَنْ قَبْله من عظمائها .

ومنها جُنْدُ دِمشقَ علىٰ جَلَالته فى القديم والحديث، وآختيارِ الملوك المتقدّمين له .

ومنها جُنْد الأُرْدُنّ علىٰ جَلَالة قدره، وأنه دارُ المَسِيح صلّى الله عليه وسلم وغيرِه من الأنبياء والحواريّين .

ومنها جُنْد فِلَسْطِينَ، وهى الأرض المقدّسة ، وبها المسجدُ الأقصىٰ، وكرسيُّ النصرانية ، ومعتقَدُ غيرها ، ومَحَجّ النصارىٰ واليهود طُرًّا ، ومقرّ داودَ وسليمانَ ومسجدُهما . وبها مسجدُ إبراهيم وقبرُه وقبر إسحاقَ ويعقوبَ ويُوسفَ وإخوته وأزواجِهم عليهم السلام، وبها مولِدُ المسيح وأمّه وقبرُها .

هذا إلىٰ ماانتقلْته من أمر مكة المحفوفةِ بالآيات الباهره، والدلالات الظاهره؛ فانا لو لم نتقلّد غيرها لكانت بشرَفها، وعِظَم قدرها، وماحوتْ من الفضل تُوفِي علىٰ كل مملكة، لأنها مَحَجّ آدَم ومحجّ إبراهيم ووارثه ومُهاجَرُهُ، ومَحَجّ سائر الأنبياء ، وقبلتُنا وقبلتُهم عليهم السلام ودارُه وقـبره[1]، ومَنْبِت وَلَده، ومحجّ العرب علىٰ مَرّ الحِقَب، ومحلّ أشرافها ، وذَوِى أخطارها ، علىٰ عظم شأنهم، وفخامةِ أمرهم . وهو البيتُ

(١) كذا فى "المغرب" أيضا ويظهر أنه مقدم علىٰ مابعده ويكون الضمير فيه عائدا علىٰ سيدنا إسماعيل فان مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحرّم المحجوجُ إليـه من كل فَجّ عميق ، الذى يعتَرِف بفضله وقِدَمه أهلُ الشرف، من مَضىٰ ومَنْ خَلَف ، وهو البيتُ المعمور، وله الفضلُ المشهور .

ومنها مدينةُ الرسول صلّى الله عليه وسلم المقدّسةُ بتُربته ، وإنها مَهْبِطُ الوحْى ، وبيضةُ هذا الدِّين المستقيم الذى آمتدّ ظلُّه علىٰ البرّ والبحر، والسّهْل والوَعْر، والشّرْق والغَرْب ، وصَحَارىٰ العَرَب علىٰ بعـد أطرافها ، وتـازُح أقطارها ، وكثرة سُكّانهـا فى حاضِرَتها وبادِيَتِها، وعظمِها فى وفودها وشتّتها، وصِـدْق بأسها ونَجْدتهـا ، وكِبَر أحلامها، وبُعْدمَرَامها، وآنعقاد النصر من عند الله براياتها. وإن الله تعالىٰ أبادَ خَضْراء كِسرىٰ ، وشَرّد قيصرَ عن داره ومحل عِزّه ومَجْده بطائفة منها . هـذا إلىٰ ماتعلَمُه من أعمالنا، وتحتَ أمْرنا ونَهْينا ثلاثةُ كراسِىّ من أعظم كراسِيّكم: بيتُ المَقْدِس، وأنطاكيةُ، والإسكندريةُ . مع ما إلينا من البحر وجزائره، واستظهارنا بأتمّ العَتاد. وإذا وفّيت النظر حقّه علمت أن الله تعالىٰ قد أصفانا بجُلّ الممالك التى ينتفع الأنامُ بهـا ، وبشَرَف الأرض المخصوصة بالشّرف كلّه دُنْيا وآخرة، وتحقّقت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوقَ كلّ منزِلة . والحمد لله ولِىّ كلّ نعمة .

وسـياستُنا لهذه الممـالك قريبِها وبعيـدِها علىٰ عِظَمها وسَعتهـا بفَضْل الله علينا وإحسانه إلينا ومَعُونته لنا وتوفيقه إيّانا كما كتبْتَ إلينا وصحّ عندك من حُسْن السِّيرة، وبمـا يؤلّف بين قُلوب سائر الطّبَقات من الأوليـاء والرعية ويجمَعُهم علىٰ الطاعة وآجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمنَ والدّعةَ فى المعيشة ويُكسبها المودّة والمحبة .

والحمد لله ربّ العالمين أوّلا وآخرا علىٰ نِعَمه التى تفوتُ عندنا عَدَدَ العادّين ، وإحصاءَ المجتهدين ، ونَشْرَ الناشرين، وقولَ القائلين، وشُكْرَ الشاكرين . ونسألُه أن يجعلنا ممن تحدّث بنعمته عليه شُكْرا لها ، ونَشْرا لمـا منحه الله منها [ومَن رضى

اجتهاده فى شكرها، ومن أراد الآخرة[١] وسعى لها سَعْيها، وكان سعيهُ مشكورا، إنه حميد مجيد.

وما كنت أُحبُّ أن أُباهيك بشىءٍ من أمر الدنيا، ولا أتجاوزَ الاستيفاءَ لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرّمه وأظهره، ووعدنا فى عواقبه الغلبةَ الظاهره، والقُدرةَ القاهره، ثم الفوزَ الأكبر يوم الدِّين. لكنك سلكت مَسْلَكا لم يحْسُن[٢] أن نَعْدِل عنه، وقلت قولا لم يَسعْنا التقصيرُ فى جوابه، ومع هذا فإنا لم نقْصد بما وصفْناه من أمرنا مكاثَرتَك، ولا آعتمدْنا تعيين فضل لنا نعُوذ به، إذ نحن نُكْرَم عن ذلك، ونرى أن نُكْرِمك عند محلك ومنْزلتك، وما يتّصلُ بها من حُسن سياستِك ومَذْهبك فى الخير ومحبّتك لأهله، وإحسانِك لمن فى يدك من أسْرى المسلمين، وعَطْفِك عليهم، وتجاوُزِك فى الإحسان إليهم، جميعَ من تقدّمك من سَلَفك. ومن كانَ محمودًا فى أمره، رُغِب فى محبته، لأن الخيْرَ أهلٌ أن يُحَبَّ حيث كان. فإن كنت إنما تُوَهِّل لمكاتبتك ومماثلتك من آتسعتْ مملكتُه، وعظُمتْ دولتُه، وحَسُنت سيرتُه، فهذه ممالكُ عظيمةٌ، واسعةٌ جَمّة، وهى أجلُّ الممالك التى ينتفِعُ بها الأنام، وسِرُّ الأرض المخصوصة بالشرف. فإنّ الله قد جمع لنا الشرف كلّه، والولاء الذى جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مخصوصين بذلك إلى مالنا بقديمنا وحديثنا وموْقعنا. والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنّه وإحسانه، ومنه نرجو حُسْنَ السعْى فيما يرْضيه بلطفه. ولم يَنْطوِ عنك أمرُنا فيما آعتمدناه،

وإن [كنت] تجرى فى المكاتبة على رسم مَنْ تقدّمك فإنك لو رَجَعْت إلى ديوان بلدِك، وجدْتَ من كان تقدّمك قد كاتب مِنْ قِبَلنا مَن لم يحُلّ محلّنا، ولا أغنى

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب".

(٢) فى المغرب "لم يجز لنا أن نعدل الخ".

غَنَاءَنا ، ولا ساسَ فى الأمور سياسَتَنا، ولا قلّده مولانا أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلّدنا ، ولا فوّض إليه ما فوّض إلينا ؛ وقد كُوتِب أبو الجيْش خُمَارويه بن أحمد ابن طُولون ، وآخر من كُوتِب تِكين مولى أمـير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مِصْرَ وأعمالِها .

ونحن نحمد الله كثيرا أوّلا وآخرا على نِعَمه التى يفوت عندنا عدَدُها عدَّ العادّين ، ونَشْر الناشرين . ولم نرد بمـا ذكرناه المفاخرةَ ، ولكنّا قصدنا بمـا عدَدْنا من ذلك حالاتٍ : أولُها التحدُّث بنعمة الله علينا، ثم الجوابُ عما تضمّنه كتابك من ذكر المحلّ والمنْزلة فى المكاتبة، ولتعلم قَدْر مابسطه الله لنا فى هذه المسالك، وعندنا قوّةٌ تامةٌ على المكافأة على جميل فِعْلك بالأسارى ، وشكرٌ وافٍ لمـا تُوليهم وتتوخّاه من مسرّتهم إن شاء الله تعـالى وبه الثقة ، وفّقك اللهُ لمواهب خيراتِ الدنيا والآخرة، والتوفيق للسَّداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يُحِبه ويرضاه ويثيب عليه، ويرفعُ فى الدنيا والآخرة أهلَه ، بمنّه ورحمته .

وأما المُلْك الذى ذكرت أنه باقٍ على الدهر لأنه موهوبٌ لكم من الله خاصّة، فإنّ الأرض لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتقين . وإن المُلْك كلّه لله يُؤْتِى المُلْكَ من يَشَاء وينْزِع المُلْك ممن يَشَاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء بيَدِه الخير وإليه المَصير، وهو على كل شيءٍ قدير، وإن الله عزّ وجل نسخَ مُلْك الملوك وجَبَرِيّةَ الجبّارين بنُبوّة محمد صلّى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين، وشَفَع نبوّتَه بالإمامة وحازها إلى العِترة الطاهرة من العُنْصُر الذى منه أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه، والشجرة التى منها غُصْنه، وجعلها خالدةً فيهم يتوارثُها منهم كابرٌ عن كابر، ويُلْقِيها ماضٍ إلى غابر، حتّى نُجِز أمرُ الله ووعدُه، وبهر نصرُه وكلمته، وأظهر حجته وأضاء عمودَ الدين بالأئمة

المهتدين ، وقَطَع دابرَ الكافرين لِيُحِقّ الحَقّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِه المُشْرِكُون حتّى يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها وإليه يرجعون .

وإنّ أحقّ مُلْكٍ أن يكون من عنـد الله، وأَوْلاه وأخلقَه أن يَكْنُفَه الله بحراسته وحياطته، ويَحُفَّه بعزّه وأيْده، ويجلّله بهاءَ السكينة فى بَهْجة الكرامة ، ويجمّله بالبقاء والنّجاء مالاحَ فجر، وكَرّ دهر، مُلْكُ إمامةٍ عادلة خلَفَتْ نبوّةً فجرَتْ علىٰ رَسْمِها وسَنَنِها، وارتسمَتْ أمْرَها، وأقامت شرائعَها، ودعَتْ إلىٰ سُبُلها، مستَنْصرة بأيدها، منتجزةً لوعدها، وإنّ يومًا واحدًا من إمامة عادلةٍ خيرٌ عند الله من عُمُر الدنيا تملُّكا وجَبَريّة.

ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يُديم نِعَمَه علينا، وإحسانَه إلينا بشَرَف الولاية، ثم بحسن العاقبــة بمـا وَفَّر علينا نَحْرَه وعُلاه، وبجدّه وإحسانه إن شاء الله، وبه الثقة، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأما الفِدَاء ورأيك فى تخليص الأسرىٰ ، فإنا وإنـ كُنّا واثقينَ لِمَنْ فى أيديكم بإحدىٰ الحسنيين، وعلىٰ بينةٍ لهم من أمرهم، وثَبَات من حُسْن العاقبة وعِظَم المَثُوبة، عالمين بمـا لهم ، فإن فيهم من يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأَسْر وشـدّةِ البأساء علىٰ نعيم الدنيا ولَذّتها، سكونا إلىٰ مايتحقّقُه من حُسْن المنقلَب وجَزِيل الثواب. ويَعلم أن الله قد أعاذه من أن يَفْتِنَه، ولم يُعِذْه من أن يبتليه ، وقد تبيّنّا مع ذلك فى هــذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضُون، والسلَفُ الصالحون، فوجدنا ذلك موافقا لمـا التمسته، وغيرَ خارج عمـا أحببْتَه ، فسُررْنا بمـا تيَسّر منه، وبعثْنا الكتُبَ والرُسُلَ إلىٰ عُمَّالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع [كلّ من قِبَلهم وأتباعهم بمـا وفر الإيمـان فى إنفاذهم، وبذلنـا فى ذلك(١)] كلّ ممكن ، وأخّرنا إجابتك عن كتابك ليتقــدّم فعلُنا

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب" .

قولنا ، و إنجازُنا وعْدَنا ؛ و يُوشِـك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وَقَع أحسنَ المَوْقِع منك إن شاء الله .

وأما ما آبتدأتنا به من المُواصلة، وآستشعرته لنـا من المودّة والمحبة، فإنَّ عندنا من مقابلة ذلك ماتُوجِبه السياسةُ التى تجمعنا علىٰ آختلاف المَذاهب،وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلِّفنا علىٰ تبايُنِ النحل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخُصُّنا و إيّاك . ورأينا من تحقيق جميل ظَنِّك بنا إيناسَ رُسُلك وبَسْطهم، والاستماعَ منهم والإصغاءَ اليهم والإقبال عليهم، وتلقينا آنبساطَك إلينا ،و إلطافَك إيّانا بالقَبُول الذى يحِقُّ علينا؛ ليقع ذلك موقِعَه . وزدنا فى توكيدِ ماآعتمدته ماحَمَّلْناه رسـلك فى هذا الوقت علىٰ آستقلالنا إيّاه من طرائف بَلَدِنا وما يَطْرأ من البلاد علينا، و إن اللهَ بفَضْله وحكمته أودَعَ كلَّ قريةٍ صِنْفا ، ليتَشوّف إليه من بَعُد عنه ، فيكون ذلك سـببا لعِمارَة الدنيا ومَعايِش أهلها . ونحن نفردك بمـا سلَّمناه إلىٰ رسولك لتقِفَ عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذْتَه للتجارة فقد أمكَنَّا أصحابَك منــه ، وأذِنّا لهم فى البيع وفى آبتيــاع ما أرادُوه وآختارُوه، لأنا وجَدْنا جميعه ممـا لايَحْظُره علينا دينٌ ولا سياسةٌ . وعندنا من بَسْطك وبَسْط مَنْ يَرِد من جِهَتك ، والحرص علىٰ عِمَارة مابدأْتَنا به ورِعايَتِه ، ورَبِّ ما غَرسـتَه ، أفضلُ ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يُعين علىٰ ما نَنْويه من جميل، ونَعتَقِده من خير، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومَنِ آبتدأ بجميل لزمه الجرْىُ عليه والزيادة، ولاسيما إذا كان من أهله وخليقًا به . وقد آبتدأتنا بالمؤانَسة والمُباسَـطة ، وأنت حقيقٌ بعِمارة ما بيننا ، وبآعتمادِنا بحوائجك وعوارضك قِبَلَنا؛ فأبْشِرْ بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمــــد لله أحقُّ ما آبتدِئَ به ، وخُتِم بذكره ؛ وصـلَّى الله علىٰ محمد نبىِّ الهدىٰ والرحمة، وعلىٰ آله وسلَّم تسليما .

الحـالة الثانيـــة

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان الحالُ عليه بعد الدولة الفاطمية فى الدولة الأيوبية)

وقد ذكر « عبدالرحيم بن شيث » أحد كُتّاب الدولة الأيّوبيــة فى أواخر دولتهم مصطلَحَ ما يُكتَب عن السلطان فى خِلال كلامه، فقال : إن الناس كانوا لايَكْتُبون « المجلس » إلا للسُّــلْطان خاصّة، ويكتُبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحَضْرة » ثم أفردُوا السلطان بالمَقَام والمَقَرّ، وصاروا يكتُبونَ «المجلس» لمن دُونَه، ولم يُسوِّغوا مكاتبةَ السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحَضْرة. قال: ويكْتُب السلطانُ إلىٰ ولده المستخلَف عنه بـ«المجلس» دُونَ المقام. وآصطلَحُوا علىٰ الآختصار فى نُعُوت المُلُوك المكتوبِ إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحتَ أمر السلطان وتحتَ حَوْزته، فإنه كُلَّما كثُرت النعوتُ والدعاءُ له فى مكاتبــة السلطان إليه، كان أبلغ : لأنّ ذلك فى معنىٰ التشريف من السلطان ، وأنه لا يقال فى المقام «السامى» بل «العالى» . وأنه إذا كتب السلطانُ إلىٰ مَنْ هو دونَه من ذوى الأقدار عبّر «بالمجلس السامى» ، ولا يُزاد علىٰ ذلك ، ثم يفرد عن النَّسب بعــد السامى ، فيقال : الأمير الأجل من غير ياء النسب . وأنه لا يقال العـالى مكانَ السامى فى الكتابة عن السلطان ، وقد يُجمَع بينهما لذَوِى الأقدار، وأنه يُضاف فى نَعْت كل أمير« عمدةُ الملوك والسلاطين عزُّ الإسلام،أو نُصرة الإسلام، أو فارسُ المسلمين» أو ماشابه ذلك من غير ضَبْط ولا تخصيص لأحدٍ دُونَ أحد إذا أحرزوا النعْتَ الذى آشــتهر به المكتوبُ إليه . وأنه يقال: «عمدةُ الملوك والسلاطين» و«عدّةُ الملوك والسلاطين» و«ذُخر الملوك» ودُونَها «آختيارُ الملوك» . وللأقارب «فَخْر الملوك» و«جمالُ الملوك» و«عزُّ الملوك» و « زين الملوك » . وللأماثل «مُعين الملوك» و «نُصْرة الملوك» وما أشبه ذلك .

وأنه يكتب للأُمَراء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و «سيفُ أمير المؤمنين» . ولكُبَراء الدولة من الكُتّاب : « خاصّةُ أمير المؤمنيـــن » و « ولىُّ أمير المؤمنين » و « صفوةُ أمير المؤمنين » . و « ثِقةُ أمير المؤمنين » و « صَنيعة أمير المؤمنين » على مقدار مراتبهم. وأن نعتَ الأجلّ يذكر بعد العُلو والسُّمو بأن يقال: «المجلس العالى الأجَلّ» أو « السامى الأجلّ » وربمـا كان بعـد ذكر الإمرة أو القضاء فيقـال «الأمير الأجلُّ» أو «القاضى الأجلُّ». وأن السلطان لايبتدئ بالدعاء فى كتبه إلى أحدٍ إلا من ماثله فى المُلْك . وأن الســلطان لايكتب إلى أحد ممن هو تحتَ أمره «بلا زَالَ» «ولا بَرِح» فى الدعاء، وإنما يكتب بذلك إلى من ماثله من المُلُوك، أو إلى ولده المستخلَف عنه فى المُلْك. وأن الدعاءَ للملوك يكون مثل «أدام اللهُ أيّامه» و « خلّد سلطانه وثبّت دولته » وما أشـبه ذلك . وأن التحميد فى أوائل الكُتُب لايكون إلا فى الكُتُب الصادرة عن السلطان . وأنّ غاية عَظَمة المكتوب إليه أن يكون الحمدُ ثانية وثالثة فى الكتاب، ثم يؤتى بالشهادتين، ويصلّى على النبىّ صلّى الله عليه وسلم. وأنه يكتب فى الكتب السلطانية «صدرَتْ» و«أصدرناها» ولايكتب « كتبت » . وأن الذى تُخاطَب به الخلافةُ عن الســلطان : « المواقف المقدّسة الشريفة ، والعَتَبات العاليــة ، ومَقَرّ الرحمة ، ومحلّ الشرف » . والذى يخاطَبُ به الملوك : « المقام العالى، والمَقرّ الأشرف » ولا يقال « المَقَـام السامى » . والذى يخاطب به الوزراء : «الجناب العالى، والمحلّ السامى» . ومَنْ دون ذلك «المجلس السامى» ودونه «مجلس الحضرة» . ودونه «الحَضْرة» . وأنه لايكتب عن السلطان لمن هو تحت أمره إلا بنون الجمع لدلالتها على العَظَمة، ولا يُكْتَب «تشعر» إلا عن السلطان خاصّةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن الســلطان تكون طويلة الطرّة، وتكون بقلم جليلٍ غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين الســطور حتّى يكون بين كل

سطرين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لايخرج عن سَمْت البسملة فى الكتابة، ولا يحتمل ذلك إلا فى الحَمْدلة . وأنه لايكثر النقط والشكْل فى الكتب الصادرة عن السلطان لاسيَّما فى الألفاظ الظاهرة. وأن الدعاء علىٰ العدوّ كان محظورا فى الكتب الصادرة عن السلطان إلىٰ مَنْ دُونه ، ثم آستعمل ذلك . وأنه لاتترك[1] فضلة فى آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب فى حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان فى كتبه لمن تحت أمره أعلاهم وأدناهم، العلامة ؛ فان أراد تمييز أحد منهم كتب له شيئا بخطه فى مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلىٰ البسملة من السلطان أقرب، وأنه لاحرجَ علىٰ السلطان أن يترجم للقُضاة والعلماء والعُبَّاد بأخيه وولده . وأن عَنْونة الكتاب وختْمَه مختصٌّ بصاحب ديوان الإنشاء ليدُلَّ ذلك علىٰ وقوفه علىٰ الكتاب. وأنه لا يجوز عنونةُ الكتاب قبل أن يكْتُب عليه السلطان ترجمته أو علامته . وأن الكتبَ لاتبقىٰ مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكِتَاب ختمه ، ولا أكْرَم من كتب السلطان ؛ ويكون طَيُّ الكتاب الصادر عن السلطان عَرْضَ ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتباتهم علىٰ أربعة أساليب :

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبةُ بالدعاء للمجلس أو الجَنَاب)

مثل : أدام اللهُ أيامَ المجلس، أو أدام الله سلطانَ المجلس ، أو أدام الله نعمةَ المجلس، أو أدام الله آقتدارَ المجلس، أو أدام الله سعاداتِ المجلس، أو خلّد الله أيام المجلس أو سلْطان المجلس، أو ثبّت الله دولةَ المجلس، وما أشبه ذلك ممـا فيه معنىٰ

(١) فى الضوء " وأنه يترك " بغير لا النافية وإثباتها أوضح .

الدوام؛ وربمـا أبدل لفظ الدوام وما فى معناه بالمُضاعفة، مثل: ضاعفَ اللهُ نعمة المجلس. ويؤتى على الألقاب إلى آخرها، ثم يقـال: نُشْعِر المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك، ويؤتى على المقصود إلى آخره، ويُختَم بالدعاء وقد يُختم بغيره.

وهـذه نسخةُ مكاتبةٍ من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح غَزّة واقتلاعها من الفرَنْج الديوية، الذين كانوا مستَوْلِين عليها، وهى:

« أدامَ الله سـعاداتِ المجلس، وأحسن له التدبير، وأصفى عَيْشَه من التكدير، وحَقَّق له وفيه أحسنَ الرجاء والتقدير، وجعل وَجْهه من أهِلّة الأكابر والتكبير، وأعاذ تأخيرَ أجلِه من التقديم وتقديمَ حَظِّه من التأخير.

نُشْعِر المجلس بمـا مَنَّ الله تعالى به من فتح مدينة غَزَّة يوم الجمعة الجامع لشَمْل النصر، القاطع لحَبْل الكُفْر؛ وهـذه المدينة قد علم الله أنهـا من أوسع المدائن، وأملإ الكَنائن، وأثرى المَعادِن؛ وهى كُرسِىُّ الدَّيويّة ومَهْبِط رُءوسهم، ومَحَطّ نفوسهم، وحِمَى كليبهم بل كِلابِهم، وظهيرُ صَلِيبهم بل أصـلابهم؛ وما كانت الأبصارُ إليها تَطْمَح، ولا الأفكارُ بها قَبْلنا تَسْمَح؛ ولهـا قلعةٌ أنفُها شامخ فى الهواء، وعِطْفها جامحٌ عن عطفة اللواء؛ قد أوغلَتْ فى الجوّ مرتفِعَه، وأومضَتْ فى الليل مُلْتَمِعه، وبِرِداء السَّحاب ملتفِعه؛ قد صالَحَتْها أيدى الأنام بالسلامة من قَوارِعها، وهادَنَتْها حوادثُ الأيام على الأمن من روائعها؛ إلى أن أُتِيحَ لهـا مَنْ أتاح لهـا الحَيْن، وقُيِّض لهـا مَنِ اقتضى منهـا الدَّيْن؛ فصَبَّحها بمـا ساء به صَبـاحُها، وزَعْزعها بالزَّئير الذى خَرِس له نُباحُها. وكان من خبرها أننا لمـا أطللنا عليهـا مُغـيرين، وأطَفْنا بهـا دائرين، ولكُئُوس الحرب مُديرين؛ تَغَلَّبت الأنجادُ والأبطال على الزَّحف، وأعجَلَ ارتيـاحُ النصر عن انتظام عِقْد الصَّف؛ وانقَضُّوا عليها، انقضاضَ البُزاة على طرائدها، وأسرعُوا إليها، إسراعَ العِطَاش إلى مَوارِدها؛

ورُفعت الألويةُ خافقةً كذوائب الضِّرام ، طالعةً برسائل الحِمَام ، مُشيرةً بالعَذَبات إشارةً لم يطمئنوا إليهـا بالسَّلام؛ وجاءهم الموتُ من كلِّ مكان، وأمطرت الشُّهُب من كل سِنَان ؛ فرأَوْا مَثْواهم الحَبِيب ، ومَحَلَّهم الخَصِيب ؛ وقد ركَضَتْ فيه خيولُ الغِيَر، وآعترضَتْ فيه سُيُولُ العِبَر، وجُرِّدت فيه نُصُول القَدَر؛ والنارُ قد لَعِبتْ فيه بُجـدّه ، وآحمرّت فيـه خدودُها بخدّه؛ وأقواتُهم المُدَّخَره ، وأموالُهم المثمَّره ؛ نَفَلا مُبَاحا، وزَبَدا مُطاحا، ومَغْنَما مُشَاعا، ونَهْبا مُضَاعا، فدمُلئت منه الرِّحال وأخصبت ، وآتّسعَتْ به الأيدِى وضاقَتْ به الأرض بمـا رَحُبَتْ .

الأسـلوب الثـانى
(أن تُفْتتح المكاتبـةُ بلفظ الإصـدار)

مثل : أصدَرْنا هذه المكاتبة، أو أُصْدِرت ، أو صدرت ؛ ويؤتىٰ علىٰ المقصود علىٰ ما تقدّم .

وهذه نسـخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضى الفاضلُ، عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ أخيه سيفِ الإسلام سلطانِ اليمن، يستقدِمه إليه معاوِنًا له علىٰ قتال الفرَنْج خذَلَم الله! ويبشّره بفتح كَوْكب ، وصَفَد ، والكَرَك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو :

«أصدرنا هذه المكاتبة إلىٰ المجلس، ومما تجدّد بحضرتنا فتوحُ كَوْكب : وهى كرسىُّ الاستبارِيّة ودارُ كُفرهم ، ومستقَرُّ صاحبِ أمرهم، وموضعُ سِـلاحِهم وذُخْرهم ؛ وكانت بمجمع الطُّرُق قاعدا، ولمُلْتقىٰ السُّبُل راصـدا؛ فتعلّقتْ بفتحه بلادُ الفتح وآستوطَنَتْ، وسُلِكت الطُّرُقُ فيهـا وأَمِنَت ، وعُمِرت بلادُها وسكنَتْ ؛ ولم يبقَ فى هذا الجانب إلا صُور، ولولا أن البحرَ يُنجِدها، والمَرا كبَ تَرِدها ؛ لكان قِيادُها

قد أمكن، وجماحُها قد أذعن ؛ وما هم بحمد الله فى حِصْن يحْميهم ، بل فى سِجْن يَحْويهم ؛ بل هم أسارىٰ وإن كانوا طُلَقاء ، وأمواتٌ وإن كانوا أحْياء ؛ قال الله عز وجل : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ولكلِّ امرئٍ أجلٌ لابُدَّ أن يَصْدُقه غائبُهُ، وأملٌ لابدّ أن يكْذِبه خائبُـه ـ وكان نزولُنا علىٰ كَوْكبٍ بعد أن فتحت صَفَدُ بلدُ الديوية[(1)] ومعقِلُهم، ومشتَغَلُهم وعملُهم، ومَحَلُّهم الأحصَنُ ومنزِلُهم ؛ وبعد أن فتحنا الكَرَكَ وحصونَه ؛ والمجلسُ السيفىُّ أسماه الله أعلمُ بمـا كان علىٰ الإسلام من مئُونَتِه المُثقِله ، وقضِيَّته المُشْكِله ، وعِلَّتِه المُعضِله ؛ وأن الفرنْج ـ لعنهم الله ـ كانوا يقْعُدون منـه مَقَاعِدَ للسَّمْع ، ويتبوَّءُون منه مواضِعَ للنَّفْع ؛ ويحولُون بين قات وراكبهـا ، فيتَلَّلون الأرضَ بمـا كان منه ثِقْلا علىٰ مَنَاكِبها ؛ والآنَ ماأَمْنُ بلادِ الحرَمين ، بأشدَّ من أمْنِ بلاد الحرَمين ؛ فكلُّها كان مشترِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعةِ التى كانت تُرامِى ولا تُرام ، وتُسامِى ولا تُسام ؛ وطالمَـا استفرغْنا عليها بيوتَ الأموال ، وأنفقْنا فيها أعمـارَ الرجال ، وقرَعْنا الحديدَ بالحديد إلىٰ أن ضَجّت النِّصالُ من النِّصال ؛ والله المشكورُ علىٰ ما انطوىٰ من كلمة الكُفْر وانتشَرَ من كلمة الإسْلام . وإنَّ بلاد الشام اليومَ لاتَسْـمَع فيها لَغْوا ولا تأثيما إلا قيلًا سَـلَامًا سَلَامًا . وكان نزولُنا علىٰ كوكب والشتاءُ فى كَوْكَبه ، وقد طلع يُمْن الأنواء فى مَوْكبه ؛ والثلوجُ تنْشُر علىٰ البلاد مُلاءَها الفَضِيض ، وتكْسُو الجبالَ عمائمَها البِيض ؛ والأوديةُ قد عَجَّتْ بمائها ، وفاضَتْ عند امتلائها ؛ وشمَخَتْ أنُوفُها سُيُولا ، نَخرقتِ الأرضَ وبلغَتِ الجبالَ طُولا ؛ والأوحالُ قد اعتقلَتِ الطُّرُقات ، ومشىٰ المُطلَقُ فيها مِشْيَةَ الأسيرِ فى الحَلَقات ؛ فتجشَّمْنا العَناءَ نحن ورجالُ العساكر ، وكاثَرْنا العدوَّ والزمانَ وقد يُحْرِزُ الحظَّ المكاثِر ، وعلِم الله النيـةَ فأنجدَنا بفضلها ، وضميرَ الأمانة فأعانَ علىٰ حَمْلها ؛ ونزلنامنْ رُءُوس الجبال بمنازلَ كان

(١) فى "الروضتين" ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الديوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أصعبَ من نقلها، والوقوفُ بساحتها أهونَ من ثُقلها؛ ﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾ .

والحمد لله الذى ألهمَنا بنعمته الحديث، ونصرَ بسيف الإسلام الذى هو سيفُه وسيف الاسلام الذى هو أخونا الطيبَ علىٰ الخبيث ؛ فذَبحُ السيف ينقسِم علىٰ حدّيه، ومنحُ الكريم يتعدّى إلىٰ يديْه ؛ والآنَ فالمجلس ــ أسماه الله ــ يعلمَ أن الفرنج لايَسْلُون عما فتَحْنا، ولا يصْبِرون علىٰ ما جرَحْنا ؛ فإنهم ــ خذلهم الله ــ أممٌ لاتُحْصىٰ، وجيوشٌ لاتُستقصىٰ ؛ وورائهم من ملوك البحر مَنْ يأخُذُ كلَّ سفينة غَصْبا ، ويطمعُ فى كل مدينة كَسْبا ؛ ويدُ الله فوقَ أيديهم ، والله محيطٌ بأقربيهم وأبعديهم ؛ و﴿سيجعلُ الله بعد عُسْرٍ يُسْرا﴾ ، ﴿لاتدْرِى لعلّ الله يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمْرا﴾ .

وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ ، وشياطينُ قد تغاوَتْ ؛ وإن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانب دُحُورا ، ويُتْبَعوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحورا ، آستاسَدُوا وآستكلَبُوا ، وتألَّبُوا وجلَّبُوا وأجلَبُوا ، وحارَبُوا ، وحزَّبوا ؛ وكانُوا لباطِلِهم الداحض ، أنصرَ منّا لحقّنا الناهض ؛ وفى ضلالِهم الفاضح ، أبصرَ منّا لهدانا الواضح . ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ ينصُرُ الكَرَمَ آبْنُها ، * وآبْنُ اللئيمةِ لِلِّئامِ نَصُور !

فالبِدَارَ إلىٰ النَّجدة البِدَار! والمُسارعةَ إلىٰ الجنة فإنها لاتُنالُ إلا بإيقاد نارِ الحرب علىٰ أهل النّار؛ والهِمّةَ الهمةَ! فإن البحار لاتُلْقىٰ إلا بالبِحار، والملوكَ الكِبار لايقِفُ فى وجوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلا * لِيَومِكَ ماحَنَّتْ رَوَازِمُ نِيبُ !

ونحنُ فى هذه السنة ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ نَنْزِل علىٰ أنطاكِيَةَ ، وينزل ولدُنا الملك المظفّر ــ أظفره الله ــ علىٰ طَرابُلُس ؛ ويستقرُّ الركاب العادلىّ ــ أعلاه الله ــ

بمصر، فإنها مذكورةٌ عند العدوّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق، وأن الطلب علىٰ الشام ومصر تفرّق ؛ ولا غِنَىٰ عن أن يكون المجلس السيفيُّ ـ أسماه الله ـ بحرًا فى بلاد الساحل يزْخر سلاحا، ويجرّدُ سيفا يكون علىٰ مافتحْناه قُفْلا ولما لم يُفتح بعدُ مِفْتاحا؛ فإنه ليس لأحدٍ ماللأخ من سُمْعةٍ لها فى كل مَسْمع سَمْعه، وفى كل رُوع رَوْعه، وفى كل مَحْضَر مَحْضَر، وفى كل مسجد مِنْبر، وفى كل مَشْهَدٍ مَخْبر، فما يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم و[لا يُرْجىٰ](١) لموقف الصبر الكريم إلا الكريم [هذا](١) والأقدارُ ماضيه، وبمشيئة الله جاريه، فإن يشإ اللهُ ينصر علىٰ العدوّ المضعّف، بالعدد الأضعف؛ ويُوصِّلْ إلىٰ الجوهر الأعلىٰ بالعرض الأدنىٰ؛ فإنا لانرتابُ بأن الله مافتح علينا هذه الفتوحَ ليُغْلِقَها، ولا جَمَع علينا هذه الأمّة ليفرّقَها ؛ وأن العدوّ إن خرج من داره بَطَرا ، ودخل إلىٰ دارنا كان فيها جَزَرا ، وما بقِىَ إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلىٰ ناهبها، ورقابٌ تقادُ إلىٰ ضاربها، وأسلحةٌ تحمَل إلىٰ كاسبها ؛ وإنما نُؤْثِر أن لاتنطوىَ صحائفُ الحمد خاليةً من آسمه، ومواقفُ الرشد خاويةً من عَزْمه؛ ونؤثر أن يُساهِمَ آلَ أيُّوبَ فى ميراثهم منه مَوَاقعَ الصبر، ومطالعَ النصر، فوالله إنا علىٰ أن نُعطيه عطايا الآخرةِ الفاخره، أشدُّ مِنّا حِرصا علىٰ أن نُعطِيَه عطايَا الدنيا القاصره؛ وإنا لايسُرُّنا أن ينقضىَ عمرُه فى قتالِ غيرالكافر، ونزالِ غيرالكُفْء المناظر؛ ولا شكَّ أن سيفَه لو آتصل بلسانٍ ناطقٍ وفَمْ، لقال مادُمْتُ هُناك فلسْتُ ثَمْ؛ وما هو محمول علىٰ خُطّة يخافُها، ولا متكلَّفٌ قضيةً بحكمنا يعَافُها ؛ والذى بيده لا نَستكْثره، بل نَستقْصِره عن حقه ونستَصْغِره، وما نَاوَلْناه لفتح أرضه السِّلاح، ولاأعرْناه لِملْك مركَزِه النَّجاح، إلا علىٰ سخاءٍ من النفس به وبأمثاله، علىٰ علمٍ مِنّا أنه لا يقْعُد عنّا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نكُنْ به ظَنًّا أحسنَ منه فِعْلا، ولا نَرْضىٰ وقد جعلنا الله أهلًا أن لانراه

---

(١) الزيادة من الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ .

لنَصْرِنا أهلا ، وليستَشِرْ أهلَ الرَّشاد فإنهم [لايألونه](١) حقًّا وآستِنْهاضا ، وليَعْصِ أهلَ الغَوَاية فانهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضا ،(٢) ومن بيته يَظْعَن ، وإلى بيته يَقْفُل ؛ وهو يُجيبنا جوابَ مثله لمثلنا ، ويَنْوِى فى هذه الزيارة جمعَ شَمْل الإسلام قبلَ نِيَّة جمع شملنا ، ولا تَقْعُد به فى الله نهضةُ قائم ، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم ، ولا يستفت فيها فوت طـالب ولا تأخُذُه فى الله لومةُ لائم ؛ فإنمـا هى سَـفْرةٌ قاصده ، وزَجْرةٌ واحده ؛ فاذا هـو قد بَيَّضَ الصـحيفةَ والوجهَ والذِّكْرَ والسُّـمْعه ، ودانَ اللهَ أحسنَ دِيْن فلا حرجَ عليـه إن فاء إلى أرضه بالرَّجْعه ؛ وليتدبَّرْ ما كتبناه ، وليتفهَّمْ ما أردْناه ؛ وليُقدِّم الآسـتخاره ، فإنهـا سراجُ الآستثاره [وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فانها مكانـ الآسـتغضاب والآستثارة](٣) وليَحْضُرْ حتّى يشـاهد أولادًا لأخيـه يستشعِرُون لفُرْقته غمًّا ، وقد عاشُوا ما عاشُوا لايعرِفُون أنـ لهم مع عمِّهم عمًّا ؛ والله سـبحانه يلهمه توفيقا ! ويسلُكُ به إليه طرِيقا ، ويُجِدُّنا به سيفًا لرقبة الكفر مَرُوقًا ودمِه مُرِيقا ، ويجعلُه فى مِضْمار الطاعات سابقًا لا مسبُوقا .

الأسـلوب الثـالث

(أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ «هذه المكاتبة إلى المجلس»)

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أَيْلة التى تحت العَقَبة فى ممرِّ حُجّاج مصر ، وهى :

هذه المكاتبة إلى المجلس الفلانى أعلى الله سلطانَه ، وعَمَر بالنجاح آمالَه وبالسعادة أوطانَه ؛ ولا زالَتْ يدُ النَّصْر تُصرِّف يومَ اللِّقـاء عِنانَه ، ويدُ لطف الله تُفيض على

---

(١) فى الأصل فانهم يألوه والصواب ما أثبتناه فى الصلب .

(٢) كذا فى الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضا لنوال مصالحهم الذاتية .

(٣) الزيادة ممـا سيأتى له فى المهيع الثالث من هذا الجزء .

الخلق يومَ العلياء عَنَانه، وتمكّن من هامِ الأعداءِ ونُحورِهم سيفَه وسِنانَه؛ (نُشعِره) أنه لم تزلْ عوائدُ الله سبحانَه عندنا متكفِّلةً مايُوجِب أن يُبدَأ الحمد ويُعاد، مقرِّبةً لنا من الآمال كلَّ ما كان رَهينَ نَأْيٍ وبِعاد، موافقةً لنـا بالتوفيق فكأننا وإيّاه على ميعاد، مُعينَةً لنا على ما يعتدُّه الغاشُّ معاش وعيدِ مُعَاد . وقد كان ماعلِم من غزوتنا إلى أيلةَ التى آتخذها العدوّ مَعْقِلا ، وتديَّرها مَنْزِلا، وعدَّها مَوْئِلا ؛ وغاض بها رونَقُ الجمله ، وفاض بهـا أهلُ القبله ؛ وصارتْ على مَدَارج الأنفاس ، وعلى مَراصد الاَفتِراص والاَفتِراس؛ وخصّتِ الجرمين بأعظم قادح، وآشتدّ عن حادثتها من لُطْف الله أعظمُ فاتح؛ ولمـا توجَّهْنا إليها، ونزلنا عليها ؛ شاهَدْنا قلعةً يحتاجُ راميها إلى النَّظَر المَديد، والأملِ البعيد، والزاد العَتيد، والبأسِ الشديد؛ تَنْبُو بِعِطْف جامح عن الخِطْبه، وتُعرِض بِذِكْر مانع عن الضربه؛ وتَعطِف بأنْفٍ على السَّحاب شامخ، وتطلُعُ فى الصَّباح بوجهٍ شادخ؛ كأنما بَيْنها وبين الأيّام ذِمام، وكأنّ نار الحوادث إذا بلغتْ ماءَها بردٌ وسلام؛ فأطَفْنا بهـا متبصِّرين، ونزلنا من ناحيـةِ البَرِّ بها مفكِّرين؛ وبيْنَا نحنُ نأمر بالحرب أن يُشَبَّ أُوارُها، وبالخيـل أن تُسيِر أسرارُها، وبنار اللّقاء أن يسـتطيرَ شرارُها، وبقَناطيرِ الموت من القِسِىّ أن تُعقَد أوتارُها، وبالمجـانيق أن تُعقَد حناياها وتُحلّ أزرارُها، وبالكواكب أن تُذيقهم طعمَ الصَّغار كبارُها؛ إذ نادى منادٍ من أعلى قِمّتها، ورأس قُلّتها، مُعْلِنا بالأمانـ، ناسخًا لآية الكفر بآية الإيمـان؛ فأعارته الأسماعُ إنصاتَها، وآستحقت القلوب حَصاتَها؛ وعمدت إليـه بنت بحر، عادتْ بابَ نصر، وساعة بدهر؛ وبَشَّرنى بغلام على كِبَر، وبظَفَر فى سَـفَر على قَدَر؛ فأعطى فرَجُها ما طلبوا، وأتى اللّطفُ للسامين بما لم يحتَسِبوا؛ وفى الحال رُفعتْ عليها ألويةُ الإسلام ونُشرت، وأوَتْ إليها فئةُ الحق وحُشِرتْ، وتظاهرت عليها أوليـاءُ الله وظهرَتْ؛ وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين .

الأسلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : « كتابنا » وباقي الأمر على نحو ما تقدّم)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهي :

كتابُنا هذا إلى الأمير، معزّين بالرُّزْء الذي كَمُلَتْ أقسامه وتمّتْ ، ورمتْ أحداثُه القلوبَ فأصْمَتْ وطرقتْ أحاديثُـه الأسماعَ فأصمّتْ ، وأبى أن تعفو كُلُومُه ، وكاد لأجله الأفقُ تتكسف بُدُورُه وتنكدر نُجُومه ، وثَلَم جانبَ الدِّين لفقـد مَنْ لولاه لَدَرَسَت أعلامُه ولم تُدْرَس علومُه، وفَجَأ فاستولى على كلّ قلبٍ وَجِيبُه وعلى كلّ خاطرٍ وُجُومه؛ بانتقال المولى «نورالدين» إلى سُكْنى دارالسلام، وقُدومه على ما أعدّه الله من جزاء ذَبّه عن الإسلام؛ وبكى أهله على فَقْد عزائمه التي بها حُفِظتْ وحُرِسَتْ، وشَكَت الممالكُ وحشةَ بُعْده وإن ابتهجَتِ الملائكةُ بقُرْبه وأَنِسَتْ ؛ فلله هو! من مُصَابٍ أغرى العيونَ بفيضها ، والنفوسَ بفَيْظها ؛ ونقَلَ الأولياءَ من ظلِّ المَسَرَّة ونعيمها إلى هَجِير المَسَاءة وقَيْظها ؛ وأوجبَ تناجيَ الكُفَّار بالنَّجاة من تلك السَّطْوة التي لم تزل تزيدُهم غمًّا وتردُّهم بغيظها .

ومهنئين بما أسا الكَلْمَ وداواه، وحَوَى الحقَّ إلى الجانب الأمنع وآواه؛ من جلوس ولده «الملك الصالح» ذي التصويب والتسديد مشمولًا منّا بالعُرْف العميم، والطَّوْل الجسيم؛ جاريًا على سُنَنه المعهوده، وعادَته المحموده؛ في رفع صالح أدعيته عن صفاء سريرته ، وخُلُوص عقيـدته ؛ مستمرًّا على جميـل نحيته ، في إمدادنا ببركته ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : والمصطلح الجارى عليـه الحالُ فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية فى زماننا مأخوذةٌ من الأساليب الثلاثة : الأوّل والثانى والثالث المقدّم ذكرها . على أن فى الدولة الأيوبيـة أساليبَ أُخْرىٰ لا يسع ٱستيعابها ، ويغنىٰ عنهـا بمـا تقدّم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد ٱنفردوا عن كُتَّاب المشرق وكُتَّاب الديار المصرية بأمور :

منها أنَّ المخاطبة تقَع للكتوب إليـه بميم الجمع مع الآنفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الآنفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنىٰ الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : «كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا» .

ومنها أنهم يترضَّوْن عن الخليفة القائمين بدعوته فى كتبهم .

ومنها أنهم يذكُرون ٱسمَ المكتوب إليه فى أثناء الكتاب ، وباقى مكاتباتهم على نحوٍ من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ؛ وكتُبهم تُختَم بالسلام غالبا ، وربما خُتِمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عنـدهم بلفظ الرياسة مثل أن يقال : رِيَاستكم الكريمة ونحو ذلك . ولهـا حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقدم، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تُفتتحَ المكاتبةُ بلفظ "من فلان إلى فلان" ويُدْعىٰ للمكتوب إليه، ثم يقع التخلُّص إلى المقصود بأما بعد، ويُؤْتىٰ عليه إلى آخره، ويُختَم بالسلام)

كما كتب أبو بكر بنُ هشام عن أبى محمدِ بنِ هودٍ، فى قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلدٍ من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة، أدام الله كرامَتَهم وآثرهم بتقواه، وعرّفهم عوارفَ نُعْماه، وكنَفَهم فى حَرَمه المنيع وحِمَاه، وجعلهم ممن وُفِّق إلى رضاه، وحُفَّ بخَيْرِ ماقدّره وقضاه، بسلام

أما بعدَ حمد الله علىٰ مُتتابِع واسع فَضْله ، هازمِ الباطلِ وأهلِه، وموَرِّطِ الجاهل فى مَهْواة جَهْله ، المالئِ بدعوة الحق ما اتّسع من حَزْن المعمورِ وسَهْله ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد نبيِّه المصطفىٰ خاتَمِ رُسُله ، المؤيدِ بالقرءان الذى عجزت الجنُّ والإنسُ أن يأتُوا بمثله، وعلىٰ آله وصحبه الجارين علىٰ قويم سُنَّته وواضح سُبُله ، والرضَا عن الإمام العباسىّ أمير المؤمنين، الذى لا إمامَ سواه للسلمين، المفرَّع من مَحْتِده الكريم وأصله ، المُدافِع عن حرم أمره بسَديد نَظَره وحَديد نَصْله، والدعاءِ لمقامه العلىّ ، ومكانِه السنىّ ، بالسَّعْد المصاحب بمصاحبة ظِلّه ، والعَضُد الفاتح مالم يُفتَح لأحد من قبله ، فإنا كتبناه لكم ـ كتبكم الله ممن انتفَع بقوله وعمله ، وتوجَّه إلى رضاه بمبسوط أمله ، وجرَتْ له الأقدار بأفضل معتادٍ وأجمله ـ من فلانة ، والتوكلُ علىٰ الله سبحانه نتائجُ تُبْرِزُها الأيّام ، ويستنجِدُها السَّعْد والحُسام ، ويستدنيها التفويضُ

إلىٰ الله سبحانه والاستسلام ؛ والدعوةُ العليةُ ـ أدام الله أيّامها ، وأسعد أعلامَهَا ؛ ـ الآثار التى تجلت بهـا المَذَاهب ، والأنوار التى وَضَحَت بهـا المَسارى والمَسارِب ، وأضاءت بهـا المشارق والمغارب . والحمـد لله حمدا كثيرا ـ المكانُ الذى تجدّدُ حُرْمتُه ، وتتأكّدُ ذِمّتُه ؛ ولا تُوضَع عن يَدِ الاعتناء والاهتمام أزِمّتُه ، وإذا أُنْهِضتِ العزائمُ لمصالح العباد تقدّمتْ كلَّ العَزَمات عَزْمته ؛ لأنه المكانُ الذى صرف وُجوهَ الأعداء ، وصابر مكابدةَ الإضرار والاعتـداء ، واحتمَل مكروهَ الدواء ، فى مُعالجة الشّفاء ومعاجَلَة حَسْم الداء ؛ فكرُمت آثارُه ، وتعيّن تخصيصُه بالمَزِيد وإيثارُه ؛ وطابتْ أخبارُه ، وطالت فى مَضَايِق مَجَال الرجال أسِنّتُه وشِفَاره ، فنحن نُوجب تكرِيمَه ، ونُؤْثِر تقديمه ؛ ونُتْبِـع حديثَه فى الاعتناء قديمَه ، والله يتولّى تكميل قصدِنا الجميل فيه وتتميمَه ! .

وقد بَلَغ ـ بلّغكم الله أملكم ، وأتم نعمته قِبلَكم ـ تحرُّكُ ذلكم الخائنُ للإضرار بالبلاد ، وإيثارُه دَوَاعِى الشر والفَسَاد ؛ ومتىٰ احتيج إلىٰ إعلام جهة من الجهات بأحواله ، وما يتصوّره بفاسد خَيَاله ؛ وتَقَلُّب كِبْره المردِى واختياله ، وما يصدُر عنه من قبيح آثاره وأعماله ؛ فإنمـا يُستَعْلم تحقيقُها منكم ، ويُتَعرَّف تصديقها من لدنكم ؛ لِصِدْق جِوَاركم ، ودُنُوّ داركم ، وتداخُل آثارِه مع آثارِكم ؛ فأنتم أقربُ اطّلاعا علىٰ خُبْث سِرِّه ، وسُوءِ مَكْرِه ، وما يُضْمِر للسلمين من إذايته وضُرِّه ؛ فمتىٰ انصرفَتْ وجوهُ المسلمين إلىٰ جهادهم ، واشتغلُوا بتأمين بلادهم ؛ انتهز الفُرصةَ فى فسادٍ يُحْدِثه ، وعَقْد ينْكُثه ، واستعجالِ ما يعجِّل عليه ولا يلبِّثه ؛ ونحن نُعْرِض عنه إعراضَ من يرجُو مَتَابه ، ويرتقب رُجوعَه إلىٰ الحق وإيابه ؛ وهو متخبِّط فى أهوائه ، مستمرٌّ علىٰ غُلَوائه ، مُصِرٌّ علىٰ إضراره واعتدائه ؛ لا يكُفُّ الكَفُّ عنه من استطالتِه ، ولا يُرِيه الاستبصارُ وِجْهةَ جهالته ؛ فوجب علينا بحكم النظَر للبلاد التى لحِقَها عُدْوانه ، وأضرّ بها مكانُه ،

وتكرّر عليها امتحانهُ، أن نُعاجل حَسْم عِلّه ، ونَسُدّ مَوَاقعَ خَلَله ، ونردّ عليه كلّ مضَرّةٍ لاحقةٍ من قِبَله، حتّى يَستريح الناسُ إلىٰ أمن مبسوط، وكَنَف مضبوط ، وحَوْزٍ بالكِفاية والوِقاية مَحُوط ، وقد كُنّا عند الفَرَاغ من مصالح البلاد الغَرْبيه ، وانتهاء الفَتْح فيها إلىٰ مالم يدُرْ بالخاطر ولم يُحْسَب بالنّيه ، نظَرْنا فى إعداد جموعٍ من أجناد الغَرْب، وتخيّرنا منهم كلَّ من دَرِب بالطَّعْن والضَّرْب، وسَعِد لكم (؟) من جَمَاهير الأعراب وجَزُولة وسائر القبائل النازلين بالبِلاد، المتأهِّبين لمـا يُطلَبون به من الغزو والجهاد ، ورسَمْنا لهم أن يلحَقُوا بنا عند الاستدعاء، علىٰ ماجدّدْنا لهم فى الانتخاب والانتقاء، لتأخُذَ الجموعُ كلُّها من محو أثرهذا الخائن بنصيب، وتَضْرب فيه، وفى كلّ عملٍ يَعفِّيه، بسهمٍ مُصيب، لكن لما تعجّل حركتَه التى تعجّل بها الحَيْن، وساقه إليها القَدَرُ الذى أعمىٰ البصيرةَ والعَيْن، رأينا أن نُنْفِذ إليه قصْدَنا، وأن نعاجِلَه بما حضر عندنا ، متوافرةَ الأعداد، غنيةً عن الاستمداد ، غير مفتقرةٍ إلىٰ الازدياد ، ومع هذا فقد أمرْنا أهلَ الجهات كلِّها بالّلحاق بنا، وأن ينهَض جميعُ أعدادهم من الخيل والبَطَل والرُّماة علىٰ سبيلنا ومذهبنا ، لتكونَ الأيْدى فى هذه المصلحة العامّة واحده، والعقائدُ فى دفع هذا الضرر عن الكافة متعاقِده، حتّى يذهبَ أثرُ هذه النَّكْبة وعينُها، ويزُولَ عن بَهْجة الإحقاق والاتّفاق شَيْنها ، وإذا وجب علىٰ أهل هذه الجهات أن يَنْفِروا فى هذه الدَّعاة خِفَافا وثقالا ، ويُبادروا رُكْبانا ورِجَالا ، كان الوجوبُ فى حقِّكم وجو بين، والفرضُ عليكم فرضَيْن، لمـا يَخُصُّكم من هذه المصلحة التى أنتم أَوْلىٰ من يجتلى صُوَرها ، ويجتَنِى ثمرَها ، ويجِـدُ فى حالهِ واستقباله إثرها ، فليكُنِ استمدادُكم بحسَبِ ذلكم، واستوعِبُوا جميع أنجادكم، من خَيْلكم ورُماتكم ورجالكم ، وكونُوا واقفين على قَدَم التأهُّب إلىٰ أن يكون الاجتياز من هُنالكم ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام" .

الأســـلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أما بعد» وهو على ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن تُعقَّب البعدية بالحمد لله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها، ثم يتخلّص إلى المقصود ويختَم بالسلام على نحو ما تقدّم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبى عبـد الله بن هُود أيضا إلى أكابر بلده بالرِّفق بالرعية عند وُرود كتابهم عليه بتحصين البلد، و بلوغه جورُ المستخْدَمين بهـا على الرعية، وهو:

أما بعدَ حمد الله تعالى مُعْلِى منَارِ الحقّ و رافِعه، ومُولى مُتَوالِى الإنعام ومُتَابِعه؛ والصلاةِ على سيدنا محمد عبدِه ورسوله مشفَّع الحَشْر وشافِعه، المبعوثِ ببدائع الحِكَم وجوامِعِه؛ وعلى آله وصحبه المبادِرين إلى مَقَاصِـده العلية ومَنَازِعه، والذابِّين عن حَوْزة الإســلام، بعواضى الاعتزام، وقواطِعِه؛ والرضا عن الخليفة الإمام العباسىّ أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَال سموّ مَطَالعه.

فإنا كتبنا إليكم — كتب الله لكم عِزَّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطها للنَّماء حائز — من فلانة، وكلمةُ الحق منصورةُ اللواء، منشورةُ الأضواء، والتوكُّل على الله فى الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مناطُ أمرنا فى الانتهاء والابتداء، وحمدُ الله تعالى وشكرُه وَصَّلَنا إلى نَيْل مزيد النَّعماء والآلاء، ومكانتُكم لدَيْنا مكانةُ السَّنِىّ المَنَاصب، المنتمى إلى كِرام المتَمَيات والمَنَاسب، المتحلّى فى الغَنَاء والاكتفاء، والخلوص والصَّفاء، بأكرم السَّجِيَّات والمَنَاقب؛ المعلومِ مالديه من المصالحة السالكة بأكرم السَّجيّات فى المَنَاحى الحِسان على المَهْيَع الأوضح والسَّنَن اللَّاحب.

وقد وقفنا على كتابكم مُعلِما بخبر فلانة وما رأيتموه من المَصْلحة فى تحصينها ، والاجتهادِ فى أسبابِ تأمينها ؛ ونحن نعلم أنكم تُريدون الإصلاح ، وتتوخَّوْن ماتتوسَّمون فيه النَّجاح ؛لكن أهمُّ الأمور عندنا، وأولى مايوافق غَرَضنا وقَصْدَنا ، الرفقُ بالرعيَّه ، وحملُها على قوانين الإحسان المَرْعِيَّه ــ وعلى أثر وُصُول كتابكم وصَلَنا كتابُ [أهل] فلانة المذكورة يشكُون ضَرَرَ الخَدَمة المتصرِّفين فيهم، ويتظلَّمون من متحيِّفيهم ومتعسِّفيهم؛ وفى هذا مالا يخفى عليكم، ولاتَرْضَوْن به لو انتهى إليكم؛ فإنه إذا كان الناظرُ فى خدمةٍ ممن لايُحْسِن سياسةَ الأمور، ولا يعلَم طريقةَ الرِّفق الجاريةَ بوَفْق الخاصة والجُمْهور؛ أعاد التسكينَ تنفيرا ، والتيسيرَ تعسيرا ؛ وتعلمون أنا لا نُقدِّم على إيثار العدل فى عِباد الله المسلمين عملا ، ولا نبغى لهم باطنة بغير التخفيف عنهم والإحسانِ إليهم بَدَلا ؛ وأنتم أولى مَنْ يُعتقَد فيه أنه يكمِّل هذا المَقْصَد ، ويتحرَّى فى مصالح الرَّعايا هذا السَّنَنَ الأرشَد ؛ وقد خاطبْنا أهلَ فلانة بما يُذْهب وَجَلَهم ، ويبسُط أمَلَهم ؛ وعرّفناهم بأنكم لوعلمتم مَنْ جار عليهم من الخَدَمة لأخذتم على يَده ، وجازيتُموه بسُوء معتَقَده ؛ وأشعرناهم بأنَّا قد استوصَيْناكم بهم خيْرا ، ونبَّهناكم على مايَدْفَع عنهم ضَيْما ويرفَع ضَيْرا ؛ وأنتم ــ إن شاء الله ــ تستأنِفُون نظرا جميلا ، وتُؤَخِّرون عنهم الخَدَمَةَ الذين لايسلُكُون من السياسة سبيلا؛ وتُقدِّمون عليهم من تَحْسُن فيهم سيرتُه، وتكرُم فى تمشيته الرِّفقَ علانِيتُه وسريرتُه ، ومثلُكم لا يؤكَّد عليه فى مذهبٍ تحسُن عواقبُه، وغرضٍ يُوافقه القصدُ الاحتياطىُّ ويصاحبُه ، إن شاء الله تعالى والسلام .

الضــــرب الثـانى

(أن تعقّب البعديةُ بذكر المقصود من غير خُطْبة ، ثم يؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره علىٰ نحو ما تقـــدّم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القُضاعىّ ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبى جميل إلىٰ أهل ناحية بولايةِ والٍ عليهم وهى :

أما بعدُ ، فالكتاب ـ كتب الله لكم مِلْءَ الجوانبِ ، قَرارا ، وأرسلَ عليكم سماءَ المواهب ، مِدْرارا ، من فلانة ، وليس إلا الخيرُ الدائم ، واليُسر المُلازِم ، وقد توالىٰ إعلامُكم بالغرض الجميل فيكم ، والاعتناءِ المتّصل بتمهيد نَوَاحيكم ؛ وأنتم اليوم بثغرٍ متحيَّف ، وجنابٍ متطرَّف ؛ يتضاعَفُ الاحتياط عليه ، ويجب تيسيرُ المِيَر إليه ؛ فالنظر له مُعْمَل ، والتهمّم به لا يُهْمَل ؛ وهذه ألسُنّ قد مُلِك قِيادُها ، وأُوثر بوجوه القَرابة إمدادُهـا ، وفلان قد خاطب يستأذن فى القُدوم علىٰ الباب الكريم ، ويؤكّد ما عنــده فى الخِدْمة والتصــميم ؛ والخيراتُ بسبيل الاتصال ، والمَسرّات واردةٌ مع البُكُور والآصال .

والحمد لله الجسيمِ فضلُه ، والعظيم نَيْـلُه ؛ فاحمَـدُوا الله على ما يَسّر لنـا ولكم ، واستوْزِعوه شكر ماخَوّلَنا وخوّلَكُم ؛ واعلموا أنّا نَرْعاكم ، كما رعىٰ أوّلُنا أولاكم ؛ وقد عُيّن لموضعكم كذا وكذا فانفـذُوا إلينا بعضَكم مُعْجِلا ، واستشعروا إنمـاءَ الأثْرة ، واطّرادَ النُّصرة ، حالّا ومستقبَلا ؛ والحركةُ الكبرىٰ ـ يمّنها الله ـ قد شُرِع فى أسبابها ، وأتِىَ مايُؤْتِى بمشيئة الله الفتحَ القريبَ من بابها ؛ ولا غنًى بما يُدار فى ذلك عن فلان وقد خُوطب بالوصول ، ووُجِّه إليكم فلان واليـا عليكم ، وثاويًا لديكم ؛ وهو ممن خُبِرَت كفايتُه ، وارتضِيتْ بجبر أحوالكم سيا ستُه ، وشُكِر هنا فأُوثِرتم به هنالكم ؛ وقد فُوِّض

إليكم من نظر لخاصّتكم وجُمْهوركم[1]، وقلد بما يستقِلُّ أتمّ الاستقلال من تدبير أموركم؛ وأَمْضِيَ معه من الأجناد طائفةً يحسنون الدفاع والذِّياد، ولا يفارقون الجد والاجتهاد؛ ووراءَ هذا من كريم العناية وجميل النظر، مايقضي لكم بالفَلْج والظَّفَر، ويُديلكم بالأمانة الشاملة من الذُّعْر والحَذَر، إن شاء الله تعالى والسلام .

الأســـــلوب الثــالث

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «كتابُنا إليكم من موضع كذا، والأمرُ على كذا وكذا» ويؤتىٰ على المقصَد إلىٰ آخره ويُخْتَم بالسلام)

وربمــا قيل : «هذا كتابنا إليكم» وربما قيل : «كتبْنا إليكم» ونحو ذلك .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن ابن هود في البشارة بفتح حصن، وهو :

كتابُنا إليكم - أطلع الله عليكم من البشائر أنورها جَبينا، وأوضَحَها صُبْحا مُبينا - من فلانة في يوم كذا .

ســلامٌ عليكم فإني أحمدُ إليكم اللهَ الذي تكفّل بنَصْر من يَنْصُره، ونصلّي على ســيدنا محمد الكريم مَحْتِدُه الزاكي عنصُرُه، ونُجدّد مشفوعَ الصلوات، ونردّد مرفُوعَ الدعوات؛ للإمام الخليفــة «المستنصر بالله أمير المؤمنين» ذي المناقب التي لاعادّ يعدُّها، ولا حاصر يحصُرُها .

والحمدُ لله الذي أنعم علينا بتقليد إمامته، التي لا تُعقَد معها إمامه، وأقامنا لإقامة دَعْوته، التي لاتجوز على غيرها إقامه؛ وجعلنا نَرْمي الغرضَ باسمه الأشرف فنُصيبه، ونســتوهِبُ فضلَ الله سبحانه فيتوفّر قِبَلَنا نَصيبُه؛ ونستنزِلُ بخلافته المباركةِ جوامعَ النصر، كما استنزل الفاروقُ بغُرّة جَدّه هوامِعَ القَطْر؛ فنسيرُ أمامَ رايته السَّوْداء بالأثَرِ

(١) لعله "إليه النظر الخ" .

المُبْيض ، وتُرْوِى هذه أُوامَ القلوبِ كما أرْوَى ذلك أُوَامَ الأرض ؛ وما زِلْنا منذُ كان النزولُ على هذا الحصن نتعرّف فيه من مَخايل النُّجْح ، ودلائل الظَّفَر والفَتْح ؛ ما أعطانا فثَلَج اليقينُ بأنا نَفْصِم عُرْوته ، ونَفْرَع ذِرْوته ، ولم يزل العزمُ يذلّل شِمَاسه ، ويقلّل ناسَــه ؛ حتَّى أذعنُوا لما عَرَّقْتُم به من النزول لوقتٍ معدود ، وأمدٍ محدود . ثم إنهم خامَرَهم طارقُ الوَجَل ، فعجَّلُوا أداء دَيْنِــه قبل حُلُول الأجل ؛ وأمكنَ اللهُ من هذا المَعْقِل الفَذِّ فى المَعَاقل ، وقتلَ الظانين لامتناعِهم والحسامُ إن شاء الله تعالى فى يَدِ القاتل ؛ وقد صَعِدتْ راياتُنـا على السُّور ، وسَعِدت إدارتُنا بالعَزْم المنصور ؛ وشــيَّد اللهُ من هذا الفتح الجليل أقصى الفُتُوح بعلوّ ، وأشجاها للعدوّ ، وأدلَّهـا على نُجْح عملٍ مستأنف وبلوغ أملٍ مرجوّ .

والحمــد لله الذى ردّ حَقَّنا المتصَب ، وكفانا فى وَجْهنا هذا التعبَ والنَّصَب ؛ وعرّفنا كم بهذا الخبر الذى هو غِذاءٌ للرُّوح ، والمنبئ عن فَتْح الفُتُوح : لتشكُروا اللهَ عليه شكرا ، وتُوَفُّوه حقّه إذاعةً له ونَشْرا ، وتُجَدِّدوا بحمدالله [على] ماأَوْلَى من خالص النِّعم ، ووافر القِسَم ؛ مايَطِيب به المُعرِّس والمَقِيــل ، ويُستقْصَر به الأمَدُ الطويل . واكتبُوا من خطابنا هذا نُسخًا إلى الجهات ليأخذ منهـا كلٌّ بحظه ، وينْعَم القريبُ والبعيدُ بجَلَالة معناه وجَزَالة لفظه ؛ أعاننا اللهُ وإيَّاكم على شــكر إحسانه الجزيل ، ولا أخلى من لطفه العميم ونظره الجميل ، بمنّه والسلام .

الحالة الثانيــة

(ما الأمر مستقر عليه الآن مما كان عليه علّامة متأخرى كُتّاب المغرب
أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير ابن الأحمر : صاحب
حمراء غَرْناطة من الأندلس)

والأمر فيها على نحو ما تقدّم فى الحالة الأولى : من التعبير عن المكتوب إليه بميم الجمع وإن كان واحدا، والتزام الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبْنا إليكم ونحو ذلك.
وعادتهم أن يكتب كاتبُ السلطان فى طُومارٍ كامل ، فإن استوعب الكلامُ جميع الطومار كُتِب على حاشيته ، ويكتبُ صاحبُ العلامة علامةَ السلطان فى آخره ، ويُطوى طيّا عريضا فى نحو ثلاث أصابع معترضة ، ثم يُكْسَر ويطوى نصفين ، ويكتبُ العُنْوان بالألقاب التى فى الصَّدْر ، ويُحْزَم بِدَسْرة من الورق ، ثم يُخْتَم بخاتم السلطان على شَمع أحمر كما تقدّم بيانه .

وهى على ثلاثة أساليبَ :

الأســلوبُ الأوّلُ

(أن تُفتتح المكاتبةُ باللّقب اللائقِ بالمكتوب إليه، وهو على أضْرُب)

الضــرب الأوّل

(أن يبتدأ بلفظ «المقام» وهو مختصّ بالكتابة إلى الملوك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المَقَام» ويُنْعت بما يليق به ، ثم يُقال : «محلّ أخينا، أو محلّ والدنا، أو علىّ والدِنا السلطان» ويؤتى بألقابه ثم يسمّى ؛ ثم يقال : « من فلان » ويُفْعل فيه كذلك إلى منتهى نَسَبه، ويُدْعى له بالبقاء وما يتبعه ؛

ثم يقال : معظِّم قدره أومعظِّم مَقامه، وما أشبه ذلك، ويذكر آسمُ المكتوب عنه؛ ثم يقال : أما بعدَ حمد الله ويُؤتىٰ بالخطبة إلىٰ آخرها ؛ ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا ، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره ، ويختَمُ بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبو عبد الله بنُ الخطيب المقدّم ذكره عن سلطانه آبن الأحمر المذكور أعلاه، إلىٰ السلطان أبى عِنانٍ بنِ أبى الحسن المَرينىّ صاحب فاس، عند موت الطاغية ملك قَشْتالة من إقليم أشْبِيلِيَة ، وطُلَيطُلَة، وقُرْطبة وما معها بعد نُزُوله علىٰ جبل الفَتح من مملكة المسلمين بالأندلُس لمحاربة المسلمين فيه، ورحيل قومِه بعد موته به، وهو :

المقامُ الذى أنارت آياتُ سعده، فى مسطور الوجُود ، وتبارَتْ جيادُ مجْده ، فى ميدان البأس والجُود ، وضمِنَتْ إيالتُه لمن بهذه الأقطار الغربيةِ تجديدَ السُّعود ، وإعادةَ العُهُود، وآختلقَتْ كتَائِبُ تأييد الله ونصره لوقْته المشهورِ فيها ويومه المَشهود؛ مقامُ محلِّ أخينا الذى نُعَظِّمه ونرفَعُه ، ويُوجب له الحقّ العلىّ موضِعُه ؛ السلطان أبى عِنَان آبن السلطان أبى الحسن ، ابن السلطان أبى سعيد ، ابن السلطان أبى يوسُفَ ، بن عبد الحق ـ أبقاه الله يتهلّل للبشرىٰ جنَابُه ، ويُفتَح لوارِدِ الفتح الإلهىّ بابُه ؛ وتُعْمل فى سبيل الله مكارِمُه وعزائمُه ورِكابُه ، ويتوفّر بالجهاد فيه مجدُه وسعدُه ونخرُه وثوابُه ؛ معَظِّم قدره الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فَرَج بن نصر، سلامٌ كريم مشفوعٌ بالبشائر والتّهانى، محفوف [الركاب][1] ببلوغ الأمانى، ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله مُطْلِع أنوار الصنائع العجيبة متألِّقةَ الغُرَر، ومُنْشِئ سحائب الألطاف، الكريمةِ الأوصاف، هامية الدِّرَر، الكريمِ الذى يُجيب دعوةَ المُضْطَرِّ إذا

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

دعاه، ويكشف السوء وما أمره إلا واحدة كلمح بالبصر، حجب كامن (١) الطافه عن قوى الفطن ومدارك الفطر، فما ﴿يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى المعجزات الباهرة والآيات الكبر، الذى بجاهه الحصين نمتنع عند استشعار الحذر، وبنور هداه نستضىء عند التباس الورد والصدر، فنحصل على الخير العاجل والمنتظر؛ والرضا عن آله وأصحابه الكرام الأثر، الذين جنوا من أفنان الصبر فى الله ثمار الظفر، وفازوا من إنجاز الوعد بأقصى الوطر، وانتظموا فى سلك الملة الرفيعة انتظام الدرر؛ والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال المسرات وتوالى البشر، والسعد الذى تجرى بأحكامه النافذة تصاريف القدر، والصنع الذى تجلى عجائبه فى أجمل الصور — فإنا كتبناه إليكم — كتب الله لكم من حظوظ فضله وإحسانه أجزل الأقسام، وعرفكم عوارف نعمه الثرة وآلائه الجسام — من حمراء غرناطة — حرسها الله — واليسر بفضل الله طارد الأزمات بعد ما اقتحمت، وكاشف الشدائد بعد ما أبرقت وأرعدت. ثم ما عندنا من الاعتداد بإيالتكم التى أنجزت لنا فى الله ما وعدت، ومددنا إليها يد الانتصار على أعدائه فأسعدت؛ إلا الصنع العجيب، واليسر الذى أتاح ألطافه السميع المجيب؛ واليمن الذى رفع عماده التيسير الغريب، ومد رواقه الفرج القريب؛ وإلى هذا أيدكم الله على أعدائه، وأجزل لديكم مواهب آلائه؛ وحكم للإسلام على يديكم بظهوره واعتلائه، وعرفكم من أخبار الفتح الهنى المدفع وأنبائه كل شاهد برحمته واعتنائه. فإنا كتبناه إليكم نحقق لديكم البشرى التى بمثلها تنضى الركاب (٢)، ويخاض العباب؛ ونعرض عليكم ثمرة سعدكم الجديد الأثواب؛ المفتح للأبواب؛ علما بما عندكم

---

(١) فى ريحانة الكتاب "مكامن".

(٢) الركاب المطى واحدها راحلة من غير لفظها.

من فضل الأخلاق، وكرم الأعراق ؛ وأصالة الأحساب ، والمعرفة بمواقع نعم الله التي لا تجرى لخلقه على حساب ، والعناية بأمور هـذا القطر الذى تعلق بأذيال ملككم السامى الجناب . [وقد تقرر لدى مقامكم الأسنى ما كانت الحال آلت إليه بهـذا الطاغية](١) الذى غره الإمهال والإملاء ، وأقدمه على الإسلام التمحيص المكتوب والابتلاء، فتملأ تيها وعجبا ، وارتكب من قهر هـذه الأمة المسلمة مركبا صعبا ؛ وسام كلمة الإسلام بأسا وحربا ، فكتائب بره توسع الأرجاء طعنا وضربا ؛ وكتائب بحره تأخذ كل سفينة غصبا ؛ والمخاوف قد تجاوبت شرقا وغربا ؛ والقلوب قد بلغت الحناجر غما وكربا ؛ وجبل الفتح الذى هو باب هـذه الدار ، وسبب الاستعداء على الأعداء والانتصار ، ومسلك الملة الحنيفية إلى هـذه الأقطار ؛ قد رماه ببوائقه ، وصير ساحته مجر عواليه ومجرى سوابقه ؛ واتخذه دار مقامه ، وجعله شغل يقظته وحلم منامه ، ويسر له مايجاوره من المعاقل إملاء [من الله] لأيامه ؛ فاستقر به القرار، واطمأنت الدار، وطال الحصار، وعجزت عن نصره الخيل والأنصار، ورجمت الظنون وساءت الأفكار، وشجر نظار القلوب الاضطرار، إلى رحمة الله والافتقار، فجبر الله الخواطر لما عظم بها الانكسار، ودار بإدالة الإسلام الفلك الدوار ، وتمخض عن عجائب صنع الله الليل والنهار، وهبت نواسم الفرج ، عاطرة الأرج ، ممن يخلق ما يشاء ويختار ؛ لا إله إلا هو الواحد القهار .

وبينما نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقل العزيز على الإسلام بلجة مترامية المعاطب، ونقتعد صعبا لا يليق بالراكب؛ ولولا التعلق بأسبابكم فى أنواء تلك الغياهب، وما خلص إلى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المواهب؛ ومواعيدكم الصادقة ومكارمكم الغرائب، وكتبكم التى تقوم عند العدو مقام الكتائب؛ وإمدادكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ريحانة الكتاب .

تلاحُقَ العظام الجنائب، لما رجع الكفرُ بصفقة الخائب، إذ تجلّى نورُ الفرج من خلال تلك الظُّلمه، وهمَتْ سحائبُ الرحمةِ والنِّعمةِ على هذه الأُمّه، ورمى اللهُ العدوّ بجيشٍ من جيوش قُدرته أغنى عن العديد والعُدّه، وأرانا رأْى العِيان لطائف الفَرَج من بعد الشِّدّه، وأهلك الطاغيةَ حتفَ أنفِه، وقطع به عن آمله قاطعُ حتفه، وغالتْه أيدى المَنُون فى غيلِه، وانتهى إلى حُدُود القواطع القويّةِ والأشعّةِ المرّيخيّة نصيرُ دليله، فشفى الله منه داء، وأخذه أشدّ ما كان اعتدادا واعتداء، وحمى الجزيرةَ الغربية وقد صارتْ نُهبةَ طُغاته، وأشرقه بريقه وهى مُضغة فى لَهَواته، سبحانَهُ لا مبدِّل لكلماته .

فانتثر سِلْكُه الذى نظَّمه، واختلّ تدبيرُه الذى أحكمه، ونطقتْ بتبارِ مَحَلّاته ألسنةُ النار، وعاجلتِ انتظامَها أيدى الانتثار، وركدتْ ريحُه الزَّعزعُ من بعد الإعصار، وأصبح من استظهر به من الأشياع والأنصار ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ وولّوا به يحثُون التُّرابَ فوق المَفارِق والترائب، ويخلطون تِبْر السِّبال الصُّهب بذَوْب الذوائب، قد لبِسوا المُسوحَ حُزْنا، وأرسلوا الدموعَ مُزْنا، وشقّوا جُيوبَهم أسَفا، وأضرموا قلوبَهم تلهُّفا، ورأَوْا أنّ حصنَ استطبونة[1] لا يتأتّى لهم به امتناع، ولا يُمكنُهم لمن يرومُه من المسلمين دِفاع، فأخلَوْه من سُكّانه، وعاد فيه الإسلام إلى مكانه، وهو ما هو من طيب البُقعه، وانفساح الرُّقعه، ولو تمسّك به العدوّ لكان ذلك الوطنُ بسُوء جواره مكدودا، والمسلك إلى الجبل ـ عصمه الله ـ مسدُودا، فكان الصنيعُ فيه طرازًا على عاتق تلك الحُلّة الضافيه، ومزيدًا لحُسنى العارفة الوافيه، فلمّا استجلينا غرّةَ هذا الفتح الهنىّ، والمَنْح السَّنىّ، قابلْناه بشكر الله تعالى وحمده، وضرعْنا إليه فى صلة نِعَمه فلا نِعمةَ إلا من عنده، وعلِمنا أنه عُنوانٌ على مزيد ملككم الأعلى وعلامةٌ على سَعْده، وأثرْناه

(١) فى الريحانة "استبونة" ولم نعثر عليه .

للإسلام وحُسنِ قصده ، ونخُرُ ذخَره الله لأيامكم لا نهاية لحدّه ، فإنكم صرفتم وجهَ عنايتكم إلىٰ هذا القُطر علىٰ تأى المحلّ وبُعْــده ، ولم تَشغلكم الشواغلُ عن إصلاح شأنه وإجزال رِفْده .

وأما البَلدُ المحصورُ ، فظهر فيه من عَزْمكم الأمضىٰ ما صَدّق الآمالَ والظُّنُون ، وشَرح الصُّدُور بمقامكم وأقرَّ العيون : من صِلةَ الإمداد علىٰ الخَطَر ، وتردُّد السابلةِ البحرية علىٰ بُعْــد الوطن وتعذُّر الوَطَر ، واختلافِ الشّوانى التى تَسْرِى إليه سُرىٰ الطَّيف ، وتخلُص سهامُها إلىٰ غَرَضه بعــد أنّىٰ وكَيْف ، حتّىٰ لم تَعْدَمْ فيه مَرْفَقةٌ يسُوء فُقدانُها ، ولا عُدّةٌ يهمُّ شأنُها ، بجزاؤكُم عندَ الله موفُور القِسَم ، وسعيُكم لديه مشكورُ الذِّمم ، كافأ الله أعمالَكم العاليةَ الهِمَم ، وخِلالَكم الزاكيةَ الشِّيَم ، فقد سَعِد الإسلامُ ــ والحمد لله ــ بمُلككم الميمونِ الطائر ، وسَرَتْ أنباءُ عنايتكم بهذه البلاد كالمَثَل السائر ، وما هو إلا أن يَستتِبّ اضــطراب الكُفّار واختلافُهم ، ويتنازَعَ الأمرَ أصنافُهم ، فتغتنمون إن شاء الله فيهم الغِرّةَ التى ترتَقِبها العزائم الشريفه ، والهممُ المُنِيفــه ، وتجمع شِيَمُكم العُليــا ، بين فخر الآخرة والدُّنيا ، وتحصُل علىٰ الكمال الذى لاشَرْطَ فيه ولا ثُنْيا ، فاهنَئُوا بهذه النِّعمة التى خَبأها الله إلىٰ أيّامكم ، والتُّحفة التى بعثها السـعْدُ إلىٰ مقامكم ، فإنمــا هى بتوفيق الله ثمرةُ إمدادِكم ، وعُقبىٰ جِهادكم ، أوزَعنا اللهُ وإيّاكم شكرَها ، وألهمَنا ذِكْرها .

عرّفنا كم بمــا اتّصــل لدينا ، وورد من البشائر علينا ، عَملًا بمــا يجب لمَقامكم من الإعلام بالمتزيّدات ، والأحوال الوارِدات ، ووجّهنــا إليكم بكتابنا هــذا مَنْ ينوب عنّا فى هذا الهَناء ، ويُقرِّر ماعندنا من الوَلاء ، وما يتزيّد لدينا بالأنباء ، خالصةَ إنعامِنا ، المتميزَ بالوسيلة المرعيّــة إلىٰ مَقامنا ، الحظِىَّ لدينا ، المقرَّبَ إلينا ، القائدَ الفلانىَّ أبا الحسن عبادا وصل الله عِزَّته ، ويمَّن وِجْهته ، ومجدُكم يُنْعِم بالإصغاء إليه ، فيما أحلْنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدَكم ، ويحرُس مجدَكم ، والسلام .

*
* *

وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبى سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تِلِمْسان، عند بعْثه بطعامٍ إلى الأندَلُس، شاكرًا له على ذلك، ومخبرًا له بفتح حصنٍ من حصون الأندلس يسمّى حِصْن قنيط، وهو :

المقامُ الذى تحدّثتْ بسعادته دولةُ أسلافه، وٱتّفق به قولُها من بعد ٱختلافه، وعاد العِقْدُ إلى ٱنتظامه والشَّمْلُ إلى ٱئتلافه ؛ مقامُ وليّنا فى الله الذى هيّأ الله له من جميل صُنْعه أسبابا، وفتح به من [مُبْهَم][(1)] السَّعْد أبوابا ؛ وأطلَع منه فى سماء قومه شهَابا. وصَفِيّنا الذى نُسْهِبُ القولَ فى شُكر جَلاَله ووصْف خِلاله إسهابا ؛ السلطان أبو سعيد عثمانُ، ٱبنُ الأمير أبى زيد، ٱبنِ الأمير أبى زكريّا، ٱبن السلطان أبى يحيى يغمراسن، بن زيان ؛ مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه ـ أبقاه اللهُ للدولة الزّيّانية ـ يُزيّن بالأعمال الصالحة أجيادَها، ويَملِك بالعدْل والإحسان قيادَها ؛ ويُجرى فى ميدان النّدىٰ والباس، ووَضْع العُرْف بين الله والناس، جيادَها . سلامٌ كريم كما زحفَتْ للصباح شُهب المواكب، وتفتّحت عن نَهَر المجرّة أزهارُ الكواكب ؛ ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعدَ حمدالله جامع الشَّمل بعد ٱنصداعه وشَتَاته، وواصلِ الحَبْل بعد ٱنقطاعه وٱنْبِتاته ؛ سبحانَه لامبدّل لكلماته، والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمد رسوله الصادعِ بآياته، المؤيَّد ببيّناته ؛ الذى ٱصطفاه لحمل الأمانَةِ العُظْمىٰ، وحَبَاه بالقَدْر الرفيع والمحلّ الأسمىٰ ؛ واللهُ أعلمُ حيثُ يجْعَلُ رسالاتِه . والرضا عن آله وصَحْبه وأنصاره وحزبه وحُمَاته، المتواصلين فى ذاتِ الله وذاتِه، القائمين بنَصْر دينه وقَهْر عُدَاته . فإنّا كتبْناه إليكم ـ كتب الله لكم سعدًا ثابتَ الأركان، وعزًّا سامِىَ المكان، ومجدًا

(1) الزيادة من ريحانة الكتّاب .

وَثيقَ البُنْيان، وصُنْعا كريمَ الأثَرِ والعِيان ـ من حمراء غَرْناطة ـ حرسها الله ـ والثقةُ بالله سبحانه أسبابُهـا وَثيقه، وأنسابُها عَتيقه، والتوكُّلُ عليه لاتلتبِس من سالِكه طريقَه ولا تختلطُ بالمجاز منـه حَقيقه؛ وعندنا من الاعتدادِ بكم فى الله عُقودٌ مُبْرَمه، وآىٌ فى كتابِ الإخلاص مُحْكَمَه؛ ولَدَينا من السُّرور، بما سَنَّاه الله لكم من أسباب الظُّهور، الذى حُلّلُهُ مُعْلَمه، وحُجَجُه البالغةُ مسلَّمه، مالاتفى العبارةُ ببعض حُقوقه المُلْتَزَمه؛ وإلىٰ هذا ـ أيد الله أمركم ـ فإننا ورد علينا فلان وصل الله كرامَته، وسنّىٰ سلامتَه؛ صادرا عن جهتكم الرفيعةِ الجانِب، الساميَةِ المَراقب؛ طَلْقَ اللسان بالثناء بما خَصَّكم الله به من فضل الشمائل وكرم المذاهب، محدِّثا عن بحر مكارمكم بالعجائب؛ فحضر بين يدينا مُلْقِيا ماشاهده من آزدياد المَشاهد، بتلك الإياله، وآستبشارِ المعاهد، بعودة ذلك الملك الرفيع الجلاله، الشهير الأصاله؛ ووصل صُحْبَته ما حَمَّلتم جَفْنة[1] من الطعام برسم إعانةِ هذه البلاد الأندلُسيّه، والإمداد الذى آفتتحتم به ديوانَ أعمالكم السنيّه، وأعربتم به عمّا لكم فى سبيل الله من خالص النيّـه؛ وأخبر أنّ ذلك إنمـا هو رَشّة من غَمام، وطليعةٌ من جيش لُهَام؛ ووَفْدٌ من عَدَد، وبعْضٌ من مَدَد؛ وأنّ عزائمكم فى الإعانة والإمداد علىٰ أوّلها، ومكارمكم يُنْسِىٰ الماضى منها بمستقبَلِها؛ فأثنينا علىٰ قصدكم الذى لله أخلصتموه، وبهذا العمل البرّ خصصتُموه؛ وقلنا: لاينكر الفضلُ علىٰ أهله، وهذا بِرٌّ صَدَر عن محلّه؛ فليست إعانةُ هـذه البلاد الجهاديّة ببِدْع من مكارِم جنابكم الرفيع، ولاشاذّةٍ فيما أسْدىٰ علىٰ الأيام من حُسْن الصَّنيع؛ فقـد علم الشاهدُ والغائب، ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليها الحَقائب، ماتقدّم لسَلَفكم فى هـذه البلاد من الإرْفاق والإرفاد، والأخذ بالحظّ الموفُور من المُدافعَة والجهاد؛ وأنتم أولىٰ مَنْ جدّد عُهودَ قومه، وكان غَدُه فى الفَخْر أكبرَ من يومه؛ وقد ظهرتْ لله فى حيّز تلك

(١) مراده سفينة أو نحو ذلك .

الإيالة الربانية نتيجةُ تلك المقدمات، وعُرِفت بركةُ ماأسلفته من المكرُمات. وسنّى الله سبحانه بين يدى وُصول مابه تفضّلتم، وفى سبيله بذلتم، أن فتح جيشُنا حصناً من الحصون المجاورة لغربىّ مالَقَة يُعرَف بحصن قنيط من الحُصُون الشهيرة المعروفه، والبُقع المذكورة بالخِصب الموصُوفه، ودفَع الله مضرّته عن الإسلام وأهلِه، ويسّره بمعهودِ فضله؛ فجعلْنا من ذلك الطعام الذى وجّهتم طُعْمةَ حُمَاته، ونفقاتِ رجالِه ورُماته، آختياراً له فى أرضىٰ المَرافق من سُبُل الخير وجِهاته. وأما نحن فإنْ ذهبنا إلىٰ تقرير ماعندنا من الثناء، علىٰ معالِى مُلكِكم الأصيلِ البناء، والاعتدادِ بمَقامكم الرفيع العِماد، والاستنادِ إلىٰ ولائكم الثابت الإسناد، لم نبلُغ بعضَ المُراد، ولاوفىٰ اللسانُ بما فى الفؤاد، فمن الله نسألُ أن يجعلَه فى ذاته، وذريعةً إلىٰ مَرضاته، ومرادنا من فضلكم العميم، ووُدِّكم السليم، أن تحسِبُوا هـذه الجهة بجهتكم فيما يَعرِض من الأغراض: لنعمل فى تتميمها بمقتضىٰ الوُدّ العذْب الموارد، الكريم الشّواهد؛ والله يَصِل سعدَكم، ويحرُس مجدَكم، والسلام .

الضرب الثانى

(أن يقع الابتداء بالمقرّ)

والرسمُ فيه أن يقال : المَقرّ، ويُنعت، ثم يقال : مَقرّ فلان، ويُنعت بالألقاب، ثم يُذكَر المكتوب عنه. ثم يقال : أما بعدَ حمد الله، ويُؤتىٰ على الخطبة إلىٰ آخرها؛ ثم يقال : فإنا كتبْناه لكم من موضع كذا، ويُتخلّص إلىٰ المقصد بلفظ : وإلىٰ هذا فإن كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقصد إلىٰ آخره ويُختم بالسلام .

كما كتب ابنُ الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلىٰ عَجلانَ سلطانِ مكة شرّفها الله تعالىٰ وعظّمها، وهو :

المَقَرّ الأشرفُ، الذى فَضَل المحالّ الدينيّةَ مَحلُّه ، وكَرُم فى بئر زمزمَ مُنْبَط إسماعيل صلّى الله عليه وسلم نَهَلُه وعلُّه ، وخصّه بإمرة الحَرَم الشريف الأمينِ مَنْ بيده الأمرُ كلُّه ؛ فأسفَرَ عن صُبْح النصر العزيزِ فَضْــلُه ، وآشتمل على خواصّ الشَّرَف الوَضّاح جِنْسُه وفَصْلُه ، وطابتْ فُرُوعه لمــا آستمدّ من ريحانَق الجنة أصْلُه .

مَقَرُّ السلطان الجليل، الكبيرِ، الشريف، الطاهرِ، الظاهرِ، الأمجَدِ، الأسعدِ، الأوحد، الأسمى، الشهيرِ البَيْت، الكريم الحىّ والمَيْت، الموقَّر، المعظَّم، ابن الحسين ، وحافد سيد الثَّقَلين، تاج المعالى، عزّ الدنيا والدِّين، أبى السَّبْق عجلان، ابن السلطان الكبيرِ، الشهير، الرفيع، الخطيرِ، الجليلِ، المَثيلِ، الطاهر، الظاهر، الشريف، الأصيل، المعظَّم ، الأرضى ، المقدّس، المنعَّم ، أسدِ الدين، أبى الفضل "رميثة" بن محمد بن أبى سعيد الحسنى ـ أبقاه الله ، وجعل أفئدةً من الناس تهوى إلى قاطنى مَثْواه ، على بُعْدِ الدار، ولتقربُ فيه إلى الله بالتثام الترابِ وآستلامِ الجدار، وتُجيب أذانَ نبيّه إبراهيمَ بالحجّ إجابةَ الآبتدار، وهنّأه المزيّةَ التى خصه بها من بين مُلُوك الأقطار، وأولى المراتب فى عِباده والأخطار، كما رَفَع قدْرَه على الأقدار، وجمّله بسِقاية الحج وعمــارةِ المسجد الحرام عَقْدَ الفخار، ويُنْهى إليــه أكرمَ التحيّات لتأرّج عن شَذَا الروضة المِعْطار، عَقِبَ الأمطار، معظم ما عظَّم اللهُ من شعائر مثواه ، وملتمسُ البركةِ من أبواب مفاتحتــه ولكل آمرئ ما نواه ؛ ومُوجِبُ حقّــه الذى يليقُ بمَن البتولُ والرِّضــا أبواه، الشَّيِّقُ إلى الوِفادة عليه وإن مَطَله الدهرُ ولَوَاه؛ فلان . كان الله له فى غربته وآنفرادهِ، وتولّى عَوْنَه على الجهادِ فيه حَقَّ جِهادِه .

أما بعــدَ حمدِ الله وَلِىّ الحمدِ فى الأولى والآخره ، ومَطْمَحِ النُّفوس العاليةِ والهِممِ الفاخره ؛ مؤيِّد العزائم المتعاضــدة فى سبيله المتناصره، ومُعزّ الطائفة المؤمنة ومُذِلّ

الطائفة الكافره ، ومُنيل القياصرة القَلَبَ والأكاسره ، وتارك أرضها عبْرةً للآذانِ السامعةِ والعُيون الباصرة .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمدٍ عبده ورسوله نبيِّ الرحمة الهامية الهامِرَه ، والبركات الباطنةِ والظاهره، المجاهدِ فى سبيل الله بالعزائم الماضية والصَّوارم الباتره، مُصْمِت الشَّقاشق الهادِرَه، ومُرْغِم الضَّلالة المكابِره، المنصورِ بالرُّعب من جنود ربِّه الناصره، المحروس بحَرَس الملائكة الوافره، الموعودِ مِلْكَ أُمَّتِه بما زُوِى له من أطراف البَسيطة العامِرَه ، حسَبَ ما ثبتَ بالدلائل المتواتِره .

والرِّضا عن آلِهِ وأحزابه ، وعترته وأصحابه ، المجاهدةِ الصابِره ، أُولى القلوبِ المُراقِبة والألْسُن الذاكره ، والآداب الحَرِيصةِ على الاهتداء بهُداه المثابِره، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جهَاده يخوضُون لأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا بحارَ الرَّوع الزَّاخره، ويُقْدِمون بالجموع القليلة على الآلافِ المتكاثِره، حتَّى قرّتْ بظُهور الإسلامِ العُيونُ الناظره، وحلَّت فى العدوّ الفاقِرَه ، فكانُوا فى الذَّبِّ عن أُمَّتِه كالأُسُود الخادِرَه، وفى الهِداية بسَماء مِلَّته كالنُّجوم الزاهِره .

والدعاء لشَرفكم الأَصِيلِ المنَاسِب الطاهره، والمكَارم الزاهيةِ بنُبوّةِ الزَّهْراء البَتُول بِضْعةِ الرسولِ الزَّاهره ، بالصُّنْع الذى يُسْفِر عن الغُرَر المشرقةِ السَّافره ، والعِزِّ الذى يَضْفُو منه الجَناحُ على الوفودِ الوافره ، والفُضَلاءِ من المجاوِره ، ولا زال ذِكْرُكم بالجميل يجْرِى الركائبِ الواردةِ والصادِره، والثناءُ على مكارمكم يُخجل أنفاسَ الرِّياض العاطره، عَقِبَ الغمائم الماطره .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم عنايةً تحجُب الأسواءَ [بجُنَنِها][(1)] الساتره، ورعايةً تجمع الأهواءَ المختلفةَ والقلوبَ المتنافِرَه ـ من حمراءِ غَرْناطة دارِ المُلْك الإسلامىّ

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب .

بالأندلس ـ حرسها الله ووفّر جموعَ حاميتها المُثاغِره ـ وسـدّ بيد قدرته ماهمّ بها من أفواه العدىٰ الفاغره ، ولا زالت سحائبُ رحمة الله الحائطة لهـا الغامره ، تُظلّل جُموعَ جهادِها الظافره ، وتجُودُ رِمَمَ شُهدائها النـاخره ، ونِعَمُ الله تحطُّ ركائب المزيد فى نواديها الحامدة الشاكره .

والحمـدُ لله كما هو أهلُهُ ، فلا فضلَ إلا فضـلُهُ . وجانبُكم موفىً حقّه من التعظيم الذى أناف وأربىٰ ، وقدرُكم يعرفه مَنْ صام وصلّى فضـلًا عمن حجّ ولبّى ، ومستَنَدُ وُدّكم ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عليْهِ أجْرًا إلا المَوَدّةَ فى القُرْبىٰ﴾ . وإلىٰ هذا ـ حرس الله مجدَكم ومَقرّكم الأشرف ، كما سحب علىٰ البيت العتيق ظلَّكم الأوْرَف ـ فإنّ الجهادَ والحجّ أخوان ، يشْهَدُ بذلك المَلَوان ، مرتَضِعان ثدْىَ المناسَبه ، ويكادان يتكافآن فى المحاسَبه : سَفَرا وزادًا ، ونيّةً وٱستعدادا ، وإتلافًا لمَصُون المال وإنفادا ، وخروجًا إلىٰ الله لا يُؤْثِر أهْلا ولا ولَدا وإن ٱفترقا محلًّا فقد ٱجتمعا جِهادا ، ورفعا للملة مَنَارا ساميًا وعِمادا ، ووطّننا ـ والحمد لله ـ علىٰ هذا العهد المخصوصُ بكمال هذه المزيّه ، والقيام بفرض كفايتها البحرية والبرّية عن جميع البَرِيّه ، [السليمة من الضَّلال البَرِيّة][1] وهذا النسب واشجةٌ عُروقُه ، صادقةٌ بُروقه ، ومَتَاتُه[2] لا يفضُله مَتَاتٌ ولا يفُوقُه . ونحن نعرّفكم بأحوالِ هـذا القطرِ المستمسكةِ فُروعه بتلك الجُرْثومة الراسِـيَه ، الممدودة أيديه إلىٰ مثابتها المتصـدّقة بالدعاء المُواسِـيه ؛ فاعلموا أن الإسـلامَ به مع الحياة فى سَفَط حرِج ، وفى أمر مَرِيج ؛ وطائفةُ الحق قليـلٌ عدَدُها ، منقطِع إلا من الله مدَدُها ، مستغرَق يومُها فى الشّـدّة وغدُها ؛ فالطلائع فى قُنَن الجبال تَنُور ، والمُصْحِر من بيتـه مغرّر ؛ والصّيحةُ مع الأحيانِ مسمُوعه ، والأعداء لردّ ما ٱستخلصـه الفتحُ الأوّلُ مجموعه ؛ والصبر قد لُبِست مَدَارِعُه ، والنصر قد ٱلتُمستْ مَشارِعه ؛ والشُّهداءُ تَنُوش أشلاءَهم

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" . (٢) المتات مايمت به .

القَشَاعِم ، وتحتفلُ منها للعوافِي الولائم والمَطاعم ؛ والصِّبيانُ تُدرَّب على العمل بالسِّلاح ، وتُعَلَّمُ أحكامَ الجهادِ تعلُّمَ القرءان فى الألواح ؛ وآذانُ الخيل مستشرِفة للصِّياح ، ومَفَارِق الطائحين فى سبيل الله تعالى تَبْلَى بأيدى الرياح ؛ والمآذنُ تُجيبها النواقيسُ مناقِضه ، وتراجِعُها مُغاضِبةً معارِضه ؛ وعددُ المسلمين لا يبلُغُ من عَدَد الكفّار، عُشْرَ المعشار، ولا وَبَرةً من جلود العِشَار؛ إلا أن الله عزّ وجلّ حَلَّ بولاَيتنا المختنق المشْدُود، وفتح إلى التيسيرِ المَهْيَع المسدُود، وأضْفَى ظلال اليُمْن الممدُود، وله الحمدُ والشكرُ على الإلهام، وتسديد السِّهام . والحمدُ لله الذى يفوتُ مَدارِكَ الأفهام إلى اجْتهادٍ قُرِن به التوفيق، وجِهادٍ نُهِج به إلى النجاة المُنْجِيَة الطريق؛ سبحانَهُ من كريم يُلْهِم العملَ ليُثيب، ويأمُرنا بالدعاء ليُجيب ؛ فتحرّكْنا حركاتٍ ساعَدَها ــ ولله المنةُ ــ السعد ، وتولّى أمرَها ونُصْرتَها مَنْ له الأمرُ من قبلُ ومن بعْد .

ففتحنا مدينة بُرغة الفاصلةَ كانت بين البلاد المُسْلمه ، والشَّجَا المعترِضَ فى نَحْر الكَلِمه ؛ وتبعتها بناتٌ كنّ يرتضعن أخلافَ دِرّتها، ويتعلّقن فى الحرب والسِّلْم بأزرَّتها .

ثم نازلنا حصنَ آش ركابَ الغارات الكافره، ومستقرّ الشوكة الوافره؛ فرفع اللهُ إصْرَه الثقيل، وكان من عثرة الدّين فيه المُقِيل .

ثم قصدنا مدينةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر، وعَرِينَ الأسود الغُلْب وكناسَ الظِّباء العُفْر؛ فاستبحناها عَنْوة أضرمت البلادَ نارا، ودارت بأسوارها المنيعة سِوَارا، واستأصلْنا أهلَها قتلًا وإسارا ؛ وملأتِ الأيدى من ثَغاوة سبْى تعدّدت آلافه ، وموفُور غُنْم شذّت عن العبارة أوصافُه .

ثم كانت الحركةُ إلى مدينة جيّان وشُهرتُها فى المعمور، وشِياعُ وصْفها المشهور، تُغْنِي عن بَسْط مالها من الأمور؛ ففتحها الله على يدَيْنا عنوة وجُعلت مقاتِلتُها نَهْبا

للسيوف الرِّقاق، وسَبْيُها مَلَكَةٌ للاَسترقاق، وأهِلَّةُ مبانيهـا البيض دَريئـة للمِحاق، وآستولت علىٰ جميعها أَيْدى الهَدْم والإحراق؛ ثم دُكَّت الأسوار، وعُقِرت الأشجار، وآستُخْلِف علىٰ خارجها النـار، فهى اليوم صَفْصف ينشأُ بها الاعتبار، وتعجب الأبصـار.

وغزونا بعدها مدينـة أُبَّدَةَ أختها الكبرىٰ، ولِدَتَها ذات المحل الأسرىٰ؛ وكانت أُسوةً لها فى التدمير، والتَّتبير والعَفاءِ المُبِير.

ثم نازلنا مدينـة قُرطبةَ وهى أمُّ هذه البلاد الكافره، ودارُ النِّعم الوافره، وذاتُ المَحاسن السافره؛ فكدْنا نستبيحُ حِماها المَنيع، ونُشَتِّت شَمْلها الجَميع، ونحتفل بفتحها الذى[هو للدين أجل](١) صنيع، لولا عوائقُ أمطار، وأجلٌ منه إلىٰ مِقْدار؛ فرحلنا عنها بعد آنتهاك زَلْزَل الطَّوْد، ووعدْناها العَوْد؛ وتؤمِّل من فضل الله إنفاذَ البُشرىٰ بفتحها علىٰ بلاد الإسـلام، ومُتاحَفَةَ مَنْ بها من الملوك الأعلام، بالإخبار به والإعْلام.

وبلغ [من](١) صُنْع الله لنا وهو كافٍ من توكَّل عليه، وفوَّض الأمورَ إليه؛ أن لاطَفَنا النصرُ بحُصونٍ أربعة لم نُوجِف عليهـا رِكابا، ولا تملَّكْتها غِلَابا؛ فطهَّرنا بيوتَ الله من دَنَس الأوثان، وعوَّضْـنا النواقيسَ بكلمةِ الإيمـان. والحمـد لله علىٰ مواهب الآمتنان، ومنه نستزيدُ عوائدَ الإحسان.

وهذه المجمَلات تحتمل شَرْحا، تسبَحُ فى بحره سِنَانُ الأقلام سَبْحا؛ من أوصافِ مَغَانمِ شذَّتْ عن الحَصْر، ومواقفَ لتنزُّل السكينة وهُبوبِ النَّصْر؛ وماظهر من جِدِّ المسلمين فى آفتتاح تلك المَعاقل المَنيعة المُنيفه، ومقارعةِ الجموع الكَثيفه؛ وبركةُ الحرمِ الشريفِ فى كل حالٍ موجودَه، وأقطارُ الإسلام بها مَجُوده، والوسائلُ إلىٰ الله بأهْله فى القديم والحديث لا مُخَيَّبةٌ ولا مَرْدُوده؛ فهو الأصل، والغِمْد الذى سُلَّ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الريحانة.

منه النَّصْل ؛ حتّى بلغ التخُومَ القاصيه ، وذلّل الممالك المتعاصيَه ، وقاد مَنْ تقاعدَ أو تقاعَس بالناصيه .

وقد ظهر لنا أن نوجّه الى المدينة المقدّسة صلواتُ الله على مَنْ بها وسلامُه رسالةً نعرّفه بهذه البركات الهامية من سماء عِنايته المعدود خارقُها آيةً من آياته ، وكلُّنا جُنْاه ، وما كُنّا لنهتَدِيَ لولا أنْ هدانا اللهُ بِهُدَاه ؛ وأصحبْناها أشخاصًا من نوَاقيس الفرَنْج ممـا تأتّى حمله ، وأمكن نَقْلُه ؛ وما سواه فكانت جِبَالا ، لايقبل نقْلُها آحتيالا ؛ فتناولَ درعَها المَسْخ والتكسير ، وشُفِي بذَهاب رسُومها الاقامةُ والتكْبير ، والأذانُ الجَهير ؛ ومرادُنا أن تُعْرَض بمجتمَع الوفُود تذكرةً تستدْعِي الإمْدادَ بالدعاء ، وتقتضي بتلك المَعَاهد النَّصْر على الأعداء ؛ ثم تُصْحَب رِكَاب الزّياره ، الى أبواب النبُوّة ومطالع الإناره ؛ وأنتم تعملون فى توفيَة هذه الأحوال ورعَايتها ، وإبلاغها الى غايَتها ، مايليق بحسَبِكم الوَضّاح ، ومجدكم الصُّراح ، وشَرَفكم المتبلّجة أنواره تبلُّجَ الإصباح (فأنتم خيرُ من ركب المطايا وأندى العالَمين بطُونَ راحْ) ولكم بذلك الحظُّ الرَّغيب فى هـذه الأعمال البَرّه ، والله سبحانَه لايُضيعُ مثقال الذّرّه ؛ وهو سبحانه يتولّاكم بما تولّى به من أعَزّ شِعارَه وعظّمها ، ورَعى وسائلَه وآحترمهـا ؛ ويصِلُ أسبابَ سعدكم ، وينفَعُكم بقَصْدِكم . والسلامُ الكريم ، الطيِّب البَرُّ العميم ؛ يُحَيّي مَعاهِدَكم الكريمة على الله عُهودُها ، النامية بغمائم الرَّحمات والبركات عُهودُها ؛ ورحمةُ الله وبركاته .

وربما قُدّم على لفظ المقر صلةٌ يُعتَمَدُ عليها فى البُداءة .

كما كتب عنه أيضا فى معنى ذلك الى أمير المدينة النبوية على ساكنها سيدنا محمد افضلُ الصلاة والسلام .

يعتمِد المقرُّ الأشرفُ الذى طاب بطَيْبة نَشْره ، وجَلّ بإمارتها الشريفة أمْرُه ، وقُدّر فى الآفاقِ شَرَفُه وشَرُف قدرُه ، وعظُمَ بخِدْمة ضريح سيد ولدِ آدم فَخْرُه ،

[أبقاه اللهُ منشرِحا بجوار روضة الجنة صدره، مُشْرقا بذلك الأفق الأعلىٰ بدره،] (١) ذائعًا علىٰ الألْسن المــادحةِ، فى الأقطار النازحة، حمْده وشُكْره، مُزْرِيًا بشَذَا المِسك الأذْفرِ فى الجمــع الأوفرِ ذِكْره؛ تحيــةَ مُعظِّم ما عظَّم اللهُ من دار الهجــرة دارِه، ومَطْلَع إبْدارِه، الملتَمِس بركة آثاره، المتقرِّب إلىٰ الله بحبِّه وإيثاره. فلان.

أما بعدَ حمدِالله الذى فضَّل البُقَع بخصائصها الكريمة ومَزَاياها، تفضيلَ الرِياض الوَسِيمة بَرِيّاها، وجعل منها مَثَابات رحمةٍ تضرِبُ إليها العبادُ آباطَ مَطَاياها، مؤمِّلةً من الله غُفرانَ زَلّاتها وحطَّ خَطَاياها؛ وخَصَّ المدينةَ الأمينةَ بضَريح سيدِ المرسَلين فأسعَدَ منها مَمَــاتَها ومَحْياها، ورفَع عُلْياها.

والصــلاةِ علىٰ ســيدنا ومولانا محمدٍ رسولِه الكريم، الرءُوف بالمؤمنينَ الرَّحيم؛ مُطْلِــعِ أوجُه السعادة ببُرُوق مُحَيّــاها، ومُوضِّحِ أسرارِ النَّجاة ومبيِّن خَفَاياها؛ الذى تَدارَكَ الخليقةَ بهَدْيه وكَشَف بَلَاياها، ورعىٰ لسُنَّةِ اللهِ رَبَاياها، وجمع بينَ صلاحِ دِينها ودُنْياها.

والرضا عن آله وصَحْبِــه، وعِتْرته وحِزْبه؛ التى كَرُمتْ سَجَاياها، وعظُمَتْ ألطافُها الهــاديةُ وهَدَاياها؛ وجاهدتْ بعــده طوائفَ الكُفَّار، تُشَعْشِع لهــا فى أكْواس (٢) الشِّفَار، مَنَاياها، وتُطْلِــع عليهــا فى الليل البَهيم، سَــنا الصَّباح الوَسِيم؛ من غُرَر سَرَاياها، وتَسُدّ بغَمَام الأسِنَّة ورِياح ذَواتِ الأعِنّة ثَناياها.

والدعاء لَمقَرّ أصالتكم الشريفةِ حيّاها اللهُ وبيّاها، كما شرَّفها بوِلادة الوصيّ الذى قرَّر وَصَاياها، وسُلالةِ النبيّ الذى أعظَمُ مَوَاهِب فَخْرِها منه وعَطَاياها، بالسّعادة التى تُبْرِزُ أكفُّ الأقدار علىٰ مرور الأعصار خَبَاياها، والعِزِّ الذى يُزاحِم فرقَدَ السماء وثُرَيّاها.

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

(٢) كذا فى الريحانة أيضا وابن الخطيب يستعمل هــذا الجمع كثيرا ولكن الذى فى كتب اللغة أن جمع الكاس أكؤس وكئوس وكؤوس.

فانا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من مواهب الصُّنع الجميل أغياها ، كما طيّب بذكركم أطراف البسيطة وزواياها ؛ وجعل فخر الجوار الكريم فى عقبكم كلمة صدق لاتختلف قضاياها ، ماتمرّضت الرياض مورّسات عشاياهـا ؛ فجعلت من النواسم مشمومها ومن الأزهار البواسم حشاياها . من حمراء غرناطة ـ حرسها الله ـ ونعم الله يحوك حللها الجهاد ، والسيوف الحداد ، وتلبسها البلاد والعباد ، وتتربّاها . وفلول الكفر ناكصة على الأعقاب ، من بعد شدّ الوثاق وضرب الرقاب ، خزاياها ؛ وبركات حرم النبيّ الوجيه على الله يستظلها الإسلام ويتفيّاها ، ويتقع الغلل من رواياها .

والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ؛ ولمعاهدكم الكريمة الارتياح ، كلّما أومضت البروق وخفقت الرياح ؛ ولسنيّ عنايتها الالتماح ، إذا اشتجرت الرماح ؛ وفى تأميل المثول بها تعمل الأفكار وإن هيض الجناح ، وبهداها الاستنارة إذا خفى للمراشد الصباح ، وبالإعمال فى مرضاة من ضمّه منها الثرى الفوّاح ، والصفيح الذى تراث ساكنه العوامل المجاهدة والصفاح والجهاد الصراح ، يعظم فى الصدر الانشراح ، ويعزّ المغدى فى سبيل الله والمراح .

وإلى هذا أجزل الله مسرّتكم بظهور الدين ، واعتلاء صبحه المبين ، فاننا نعرّفكم أننا فتح الله علينا وعلى إخوانكم المؤمنين بهذه الثغور المنقطعة الغربيّة ، المائلة على الآماد البعيدة بالذمم العربيّة ، فتوحاً حوّزت من مملكة الكفر البلاد ، ونفّلت الطارف والتلاد ؛ حسب ما تنصّه مخاطبتنا إلى نبينا الكريم الذى شرّفكم الله بخدمة لحده ، واستخلفكم على دار هجرته من بعده ؛ إذ لاحاجة إلى التكرار بعد ما شرحت به الصدور من الأخبار ، فى الإيراد والإصدار ؛ ووجّهنا صحبتها من النواقيس التى كانت تشيع نداء الضلال ، وتعارض الأذان بجلاد الجدال ، وتبادر أمر الامتثال

بالإمتثال، مايكونُ تَذْكِرَةً تحِنُّ بها القلوبُ إلىٰ هذه الطائفة المُسْلِمة إذا رأتْها، وتنتظرُ قَبولَ الدعاءِ لها من الله كُلَّمــا نظرَتْها ، وتتصوّر الأيدِى المجاهدةَ التى جَنَتْها من أفنان المستَشْرِفات العاليةِ واْهتصَرَتْها إذا أبصرَتْها .

وهذا كلُّه لايتحصّلُ علىٰ التّمــام إلا بمشاركةٍ منكم تُسَوِّغه، وإعانةٍ تؤدّيه وتُبلِّغه؛ تُشِيــع لكم عند تعرُّفها الثناءَ الدائمَ التَّرداد ، والدعاءَ بحُسن المكافأة من ربِّ العِباد، وسَهْمَكم فى أمرِ الجهاد؛ وأنتم تعملون فى ذلك بما يناسبُ مثلَكم من الشُّرَفاء الأمجاد، واللهُ عز وجلّ يواليكم بنِعَــمه الثَّرّةِ العِهــاد ، و يعرِّفُكم عوارفَ السعادة فى المَبْدإ والمَعــاد ، ويختِمُ لنا ولكم بسعادةِ المَعــاد ؛ والســلامُ الكريم يخصُّكم عَوْدا علىٰ بَدْء ورحمةُ الله تعالىٰ وبركاتُه .

الضربُ الثــالث

(أن تُفتَتَح المكاتبــةُ بلفظ الإمارة)

بأن يقال : الإمارةُ التى تَعتَنِهــا كذا وكذا إمارةُ محــلِّ أخينا فلان، ويُدْعىٰ له . ثم يقال : معَظِّم إمارته، أو معظم أُخُوّته فلان . سلام عليكم ورحمة الله و بركاته . أمّا بعد حمد الله ، ويُؤْتىٰ بخطبة ؛ ثم يقــال : فإنا كتبْناه إليكم كتَب الله لكم كذا وكذا من موضع كذا ؛ ثم يُتخلّص إلىٰ المقصود بلفظ وإلىٰ هذا، ويؤتىٰ علىٰ القَصْد إلىٰ آخره، ويُختَم بالسلام علىٰ نحو ما تقــدّم فى غيره من الضروب ، وبذلك يُكْتَب إلىٰ الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم . كما كتب ٱبنُ الخطيب عن ٱبن الأحمر إلىٰ أبى علىٍّ النــاصرِ ٱبن الســلطان أبى الحسن المَرِينىّ بفاس ، عنــدَ ما أرسله والِدُه إلىٰ ناحيــةٍ من النَّواحى لعِمارتها وإصلاحِ حالهــا ، مهنِّئًا له بمــا أجراه اللهُ علىٰ يديه من الصَّلاح، وهو :

الإمارةُ التى لها المَكَارِمُ الراضيه، والعَزائمُ الماضيه، والجَلاَلةُ الراقيه، والأعمالُ الصالحةُ الباقيَه، إمارةُ محلِّ أخينا الذى نُعَظِّم مجدَه السامى الجَلاَل، ونُثْنِى على شِيَمِه الطاهرةِ الخِلال، ونعتدُّ بوُدِّه الكريمِ الأقوال والأعمال، ونُسَرُّ بما يَسَّنِّيه الله لعزِّه الفسيحِ المجال، من عوائد اليُمْن والإقبال .

الأميرُ الأجلّ، الأعزّ، الأسمىٰ، الأطهر، الأظهر، الأسنىٰ، الأسعد، الأرْشَد، الأرضىٰ، المؤيَّد، الأمضَى، الأفضَل، الأكمل، أبو علىّ الناصر آبن محلّ أبينا الذى نُعظِّمه ونُجِلُّه، ونُوجبُ له الحقّ الذى هو أهلُه؛ السلطان الجليل الكذا أبو الحَسَن آبنُ السلطان المؤيَّدِ، المُعان المظفَّر، صاحبِ الجُود الشهيرِ فى الأقطار، والفَضْلِ المتألِّق الأنوار، والمَآثِرِ التى هى أبهىٰ من مُحَيَّا النهار، أميرالمسلمين، وناصرِ الدين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين؛ أبى سعيد آبن أمير المسلمين وناصر الدين، قامِع الكافرين، المجاهدِ فى سبيل رب العالمين، أبى يُوسُف بن عبد الحق . أبقاه الله والسعودُ اليه مبتدِرة مستبِقه، والمَسَرَّات لديه منتظِمة متَّسِقه، وغُرَرُ أيامه واضحةٌ مُشْرِقه، والأهواءُ علىٰ محبته متَّفِقه. معظِّمُ إمارتِه الرفيعةِ الجانب، القائمُ من إجْلاَلها ونَشْرِ خِلالها بالحقّ الواجب، المثْنِى علىٰ مالَها من السِّيَرِ الفاضلة المَذَاهب، والأصالةِ الرفيعة المَنَاسِب، والبَسَالةِ الماضيةِ المَضَارب، والمَكارمِ التى تشْهَدُ بها مواقِفُ الجهاد، وظُهورُ الجِياد، وصحائفُ الكُتُب وصَفائحُ الجِلاَد، الأميرُ عبدُ الله يوسف آبن أمير المسلمين، أبى الوليدِ إسماعيلَ بن فَرَج بن نصر . سلامٌ كريم، بَرٌّ عَمِيم، تتأرَّجُ الأرجاء من طِيب نَفْحتِه، ويُشْرِق نورُ الودِّ الأصيلِ علىٰ صفحته، يخصُّ أُخُوّتكم الفاضله، وإمارتَكم الحافِله، ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى شرح بالتوكل عليـه صدورا ، و[جعل الود فى ذاته كنزا مذخورا](١) والأعمال التى تقرب إليـه نورا ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى بعثـه بالحق هاديا وبالرعب منصورا ، ورفع لدعوته العاليـة لواء من عنايتـه منشورا ، واختاره لإقامة دين الحق والأرض قد ملئت إفكا وزورا ، حتى بلغ ملك أمته ما كان منها معمورا .

والرضا عن آله وأحزابه الذين انتسقوا فى قلائد ملته الرفيعة شـذورا ، وطلعوا فى سمائها بدورا ، وبذلوا نفوسهم النفيسة فى نصره وإعلاء أمره فكانت شفاعته لهم جزاء وكان سعيهم مشكورا .

والدعاء لإمارتكم العالية بالسعد الذى يصاحب منه ركابها مددا موفورا ، والتوفيق الذى يوسـع عملها نجحا وأملها سرورا .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم سـعدا متجدد الإحكام ، وصنعا مشرق القسام وافر الأقسام ، وعرفكم ماعودكم من عوارف الإنعام ، وعوائد النصر الواضح الأعلام ـ [ولا زائد بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أوضح برهانه ، ثم بما عندنا من التشيع فى مقام محل أبينا والدكم السلطان الجليل ، أسعد الله سلطانه ! ومهد به أوطانه ! إلا مايرجى من عوائد الله الجميله ، ومنته الجزيله ، وألطافه الكافية الكفيله](١) وعندنا من التعظيم لتلك الإمارة الرفيعة ماهو أشهر من الشهير ، وأعظم من أن يحتاج إلى التفسير ، فلا نزال نعتد لجانب أخوتها بالعتاد الكبير ، والذخر الخطير ، ونثنى على مكارمها بالقلم واللسان والضمير . وإلى هذا أيد الله إمارتكم ، وسنى إرادتكم ، وأسعد إدارتكم ، فقد علم الغائب والشاهد ، والصادر والوارد ، ماعندنا لكم من الحب الذى

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

صفت منه الموارد ، والولاء الذى تضوعت من طيبه المعاهد ؛ وإننا تعرفنا ما كان من قدومكم السعيد على أحواز المرية من تلك الأقطار، وطلوعكم عليها بالعزم الماضى والجيش الجرار . وأن محل والدنا وصل الله له علو المقدار، قدم منكم بين يديه مقدمة اليمن والاستبشار، ورائد السعادة المشرقة الأنوار، بخلال مايتلاحق بها ركابه العالى قدره على الأقدار، وأن مخايل النجح لإمارتكم الرفيعة قد ظهرت ، وأدلة الصنع الجميل قد بهرت ؛ ومن بتلك الجهات، من القبائل المختلفات، بالطاعة قد ابتدرت ؛ وبأوامرها الإمارية قد ائتمرت ؛ وأنكم قد أخذتم فى تسكين الأوطان وتمهيدها، واستئناف العزائم وتجديدها، [وإطفاء نار الفتن وإخمادها][1] وإعلاء أركان تلك الإيالة ورفع عمادها ؛ فكتبنا إليكم هذا الكتاب نهنئكم بما سناه الله لمجدكم الرفيع ، من حسن الصنيع ؛ ونقرر ماعندنا من الود الكريم، والحب الصميم، ونستفهم عن أحوال أخوتكم لنكون من علمها على السنن القويم ؛ وحتى لاتزال الأسباب متصله ، والمودة جديدة مقتبله ، ولولا العوائق المانعه ، والشقة البعيدة الشاسعه ، والامواج المترامية المتدافعه ، لم تغب المخاطبه ، ولوصلنا المراسلة والمكاتبة ؛ ومجدكم يقبل الأعذار الصحيحة بمقتضى كماله ، ومعهود إفضاله ؛ والله تعالى يصلح بكم الأحوال ، ويسكن الأهوال ، ويبلغكم من فضله الآمال . وغرضنا أن تعرفونا بما لديكم من المتزيدات ، والصنائع المتجددات ، وبما عندكم من أحوال محل أبينا وصل الله عوائد النصر لسلطانه ، وتكفل بإعلاء أمره وتمهيد أوطانه . وقد كتبنا إليه صحبة هذا كتابا غرضنا من أخوتكم الطاهرة ، أن يصل إلى حضرته العلية تحت عنايتكم وصاتكم ، والرعاية التى تليق بذاتكم ؛ وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ، ويحفظ ولاءكم الكريم وودكم ؛ والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الاســـــلوب الثـانى

(أن تُفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه أو المكتوب عنه، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه تعظيمًا له)

والرسم فيه أن يقال : إلى فلان، ويُنعت بما يليق به؛ ثم يُؤتى بالسلام، ويقال : أما بعد ويؤتى بخطبة، ثم يقال: فإنا كتبناه إليكم كتبَ اللهُ لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ويُتخلَّص إلى المقصود بلفظ «وإلى هـذا» ويؤتى على المقصود إلى آخره ويُختم بالســـلام .

كما كتب آبنُ الخطيب عن سـلطانه آبن الأحمر إلى الأمير يَلْبُغا العُمَرىّ الشهير بالخاصكىّ : أتابك العساكر بالديار المصرية فى الدولة الأشرفيّة «شعبان بن حسين» .

إلى الأمير المؤتمَن على أمر سلطان المسلمين، المقلَّد بتدبيره السديد قلادةَ الدِّين، المُثنِى على رُسوم بِرّه المُقامةِ لسانُ الحَرَم الأمين، الآوِى من مرضاة الله تعالى ورسولِه إلى رَبْوة ذاتِ قرار ومَعين، المستعينِ من الله على ما تحمَّله وأمَّله بالقوىّ المُعين؛ سيفِ الدَّعوه، رُكنِ الدوله، قِوَامِ المله، مؤمَّل الأمّـه؛ تاجِ الخَوَاصّ، أسـدِ الجُيوش، كافِى الكُفاة؛ زينِ الأُمراء، علَم الكُبَراء، عَيْن الأعيان، حَسَنة الزمان؛ الأجلّ، المُرَفَّع، الأسنى، الكبير، الأشهر، الأسمى، الحافل، الفاضل، الكامل المعظم، الموقَّر، الأمير، الأوحد، «يَلْبُغا الخاصكى» وصل الله له سـعادةً تُشْرِقُ غُرّتُها، وصـنائعَ تَسِحُّ فلا تَشِحُّ دِرّتُها، وأبقى تلك المثابةَ قلادةَ الله وهو دُرّتُها؛ سلام كريم، طيب عميم؛ يخص إمارتكم التى جعل الله الفضلَ على سعادتها أماره،

واليُسْرَ لهـا شاره ، فيساعد الفلكَ الدوّارَ مهـما أعملَتْ إداره ، وتمتثل الرسوم كلّما أشارتْ إشاره .

أما بعد حَمـدِ الله الذى هو بعِلْمه فى كل مكان ، من قاصٍ ودان ، وإليه تُوجِّه الوجوهُ وإن آختلفت السِّـيَرُ وتباعدتِ البُلْدان ، ومنه يُلْتَمَس الإحسان ، وبذكره يَنْشرح الصدرُ ويطمئنُّ القلب ويمرحُ اللِّسان .

والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسولِه العظيم الشان ، ونبيِّـه الصادق البَيان ، الواضح البُرْهان .

والرضا عن آله وأصحابه ، وأعمامه وأحزابه ، أحْلاسِ الخيْل ، ورُهبان الليل ، وأُسُودِ المَيْدان .

والدعاءِ لإمارتِكُم السـعيدة بالعزّ الرائق الخَبَر والعِيان ، والتوفيقِ الوثيقِ البُنْيان ؛ فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم حَظًّا من فضله وافرًا ، وصَنيعا عن مُحيّا السُّرور سافِرا ، وفى جَوّ الإعلام بالنِّعم الجسام مُسافِرا ـ من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ دار الملك بالأنْدَلُس ، دافع الله عن حَوْزتها كيدَ العُداه ، وأتحف نصلَها ببَوا كر النَّصر المُهْداه ؛ ولا زائدَ إلا الشوقُ إلىٰ التَّعارُف بتلك الأبواب الشريفة التى أنتم عُنْوانُ كتابِها المرْقُوم ، وبيتُ قصيـدِها المنْظوم ، وآلتماس بركاتها الثابتة الرُّسُوم ، وتقريرُ المَثُول فى سبيلِ زيارتها بالأرواح عند تعذُّره بالجُسُوم .

وإلىٰ هذا فإنَّنا كانتْ بين سَلَفنا ـ تقبَّلَ اللهُ جِهادَهم وقدّس نُفُوسَهم وأمَّن مَعادَهم ـ وبَيْن تلك الأبوابِ السلطانية ـ ألقىٰ اللهُ علىٰ الإسلام والمسلمين ظِلالَها ، كما عرّفهم عَدْلَها وإفْضالَها ـ مراسلةٌ يَنِمُّ عَرْفُ الخُلُوص من خِلالهـا ، وتسطع أنوارُ السعادةِ من آفاق كمالها ، وتُلْتَمح من أسطارِ طُرُوسها محاسنُ تلك المعاهد ، الزاكيةِ المَشاهد ،

وتُعرِب عن فضل المَذاهب وكَرَم المَقاصد،آشتقْنا إلىٰ أن نُجدّدها بحُسْن مَنابِكم، ونَصِلَهَا بمواصلة جَنابكم، ونَغتنِمَ فى عَوْدها الحميد مكانَكم، ونفضل لها زمانكم؛ فخاطبْنا الأبوابَ الشريفةَ فى هذا الغَرَض بمخاطبةٍ نَجلةٍ من التقصير، وجِلَةٍ من الناقد البصير، وتُؤمِّل الوصولَ فى خِفَارة يدِكُم التى لها الأيادِى البِيض، والمَوَارِد التى لاتَغيض؛ ومِثْلُكم من لا تخيب المقاصد فى شمائله، ولا تضْحىٰ العَامِلُ فى ظِلِّ خَمائله ؛ فقد آشتهرَ من عظيم سِيرتِكم ماطَبّق الآفاق، وصحِبَ الرِّفاقَ وآستلزم الإصْفاق؛ وهذه البلادُ مباركه، ما أسْلف أحدٌ فيها مُشَاركه ؛ إلا وجَدَها فى نَفْســه وماله ودينه وعياله ، واللهُ أكرمُ مَنْ وَفىٰ لأمرئٍ بمكياله ؛ والله جل جلالُه يجمع القلوبَ علىٰ طاعته ، وينفعُ بوسيلة النبيّ الذى نُعَوِّل علىٰ شـفاعته ؛ ويُبقِى تلك الأبوابَ ملجأ للإسـلام والمسلمين ، وظِلًّا لله علىٰ العـالَمين، وإقامةً لشـعائرالحَرَم الأمين ؛ ويتولّى إعانةَ إمارتِكم علىٰ وظائف الدِّين، ويجعلكم ممن أنْعَم الله عليه من المجاهِدين ؛ والسلامُ الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الضـــــرب الثـانى

(أن تُفتتَح المكاتبة باسم المكتوب عنه ، وهو علىٰ صنفين)

الصنف الأوّل

(مايُكتَب به إلىٰ بعض الملوك)

والرسمُ فيه أنــ يقال : من فلان إلىٰ فلان ، بألقابه ونعوته ونُعُوت آبائه علىٰ ما تقــدّم ؛ ثم يؤتىٰ بالسلام ، ويقال أما بعــد حمد الله ، ويؤتىٰ بخطبة ثم يقال فإنا كتبناه إليكم كَتَب الله لكم كذا ؛ ثم يقال : وإلىٰ هذا فإن كذا وكذا ، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام علىٰ نحو ما مرّ .

كما كتب ٱبن الخطيب عن ٱبن الأحمر إلىٰ بعض مُلُوك الغَرْب يهنِّئه بدخول مدينة بِجاية فى طاعته ماصورتُه :

من أمير المسلمين عبد الله محمد، ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الحَجَّاج، ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نَصْر أيَّد الله أمْرَه، وأعز نصره؛ إلىٰ محلِّ أخينا الذى نَصِلُ له أسبابَ الإعظام والإجْلال، ونُثْنى عليه بمـا لَهُ من كريم الشِّيَم وحَمِيدِ الخِلال، ونُسَرُّ له ببلوغ الآمال، ونَجَاح الأعمال، فى طاعة ذى الجَلال؛ السلطان فلان ٱبن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصَلَ الله له سعْدًا متصِلَ الدَّوام دائمَ الاتِّصال، وصُنْعا تتجلّىٰ وجُوهُه من ثَنايَا القبول والإقبال، وعِزًّا تتفَيَّأ ظلالُه عن اليَمِين والشِّمال؛ ســلامٌ كريم، برٌّ عَمِيم؛ يخصُّ سلطانكم الأسْنىٰ، ويعتمد مقامكم المخصوصَ بالزيادة والحسنىٰ، ورحمةُ الله وبركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله الواهبِ الفاتح، المـانِـع المـانِح، مُظهِر عنايته بمَن خَلَّص إليه قَصْدَه، وقَصَر علىٰ ماالديه صَدَره ووِرْدَه، أبدىٰ من مُحَيَّا النهارِ الواضِح . الذى وعد مِن ٱتَّقاه حقَّ تُقاته، علىٰ ألسِنةِ سَفَرة الوَحْى وثِقَاتِه، بِنُجْح الخَواتم والفَوَاتح .

والصلاةِ والسلام علىٰ ســيدنا ومولانا محمدٍ رسوله المبتعَثِ لدَرْء المفاســد ورَعْى المصالح، وسعادةِ الغادى والرائح، مُنقِذِ الناسِ يوم الفَزَع الأكبر وقد طاحَتْ بهم أيْدى الطَّوائح، وهاديهم إلىٰ سَوَاء السبيل بأزِمَّة النَّصائح، ومُظْفِرِهم من الســعادة الدائمةِ بأربَح البضائع وأسنىٰ المنَائح .

والرضا عن آله وأصحابه، وعِتْرته وأحزابه، الذين خَلَفُوه ٱمتثالًا لأمْر الصَّحائف وإعمــالًا للصَّفائح؛ وكانوا لأُمَّته من بعــده فى الاقتداء بسُنَّته والمحافظة على سَنَنه كالنُّجوم اللوائح .

والدعاء لسلطانكم الأسمىٰ ، بالسَّعْد الذى يغنىٰ بوثاقة سببه ، ووُضُوح مذهبه ، عن زَجْر البـارح والسانح ، والعزِّ البَعيـد المَطارح ، السامى المَطامح ، والصـنع الجميل الباهر المَلاَمح ؛ ولا زال توفيقُ الله عائدًا علىٰ تدبيركم السعيد بالسَّعْى الناجح ، والتَّجْر الرابح .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من فضله أوْفَر الأقسام وأوْفاها ، وأوردكم من موارد عنايته أعذَبَ الجَمام وأصْفاها ، كما أسـبغ عليكم أثوابَ المواهب وأضْفاها . [وأبدى لكم وجوهَ اللطائف الجميـلة وأحفاها](١) من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ وفضلُ الله هاميةٌ دِيَمُـه ، وعوائدُ اللُّطْف يَصِلُها فضلُه وكرَمُه ، والإسلام بهذا الثغرِ الجهادىّ مَرْعِيَّةٌ ذِمَمُه ، وجاهُ النبوّة المحمديّة يَشْمَلُ بين إرغام العدُوّ الكافر ، وإهداء المَسَرّات والبَشائر ، سَيفُه وقلَمُه . والسُّرور بمـا يبلُغ من مَزِيد سَـعْدِكم ومَيضُـه خافقٌ عَلَمُه ؛ ووُدُّكم ثابت فى مواقف الخُلُوص قَدَمُه .

وقد آتصل بنا ما كان من دخولِ حضرة بِجاية حرسها الله فى طاعتكم ، وآنتظامِها فى سِلْك جماعتكم ؛ وآنقطاعِهـا إلىٰ عِصْمتكم ، وتمسُّكها بأزِمّتكم ؛ وعقدِكم منهـا ومن أختهـا السابقةِ الذِّمام ، الخليقةِ بمَزِيد الآهتمام ؛ علىٰ عقيلَتَى الأقطار التى لايجمَعَ بينهما إلا مَلِك هُمَام ، وخليفةٌ إمام ؛ ومَنْ وضَحَت من سـعادته أحْكام ، وشُهِرت بعنـايةِ الله له أدلّةٌ واضحـةٌ وأعلام ؛ ومن جمَع الله له بين البَرّ المترا كض الخيُول ، والجيش المتدافع السُّيول ، والخصْب الذى تُفْضِى مَوَاجده المستنجزةُ ظهور الحُيول ؛ وبين البحرِ الشهير بنَجْدة الأسطول ، وإنجازِ وعد النصر المَمْطُول ؛ ومَرْمىٰ السُّفُن التى تخوض أحشاءَ البِحار ، وتجلِبُ مَرَافِقَ الأمطار والأقطار ، وتُتْحِف علىٰ النَّأى بطُرَف الأخبـار .

(١) الزيادة من الريحانة .

بجايةُ وما بجَاية ! دارُ المُلْكِ الأصيل العتيق، وكرسىُّ العزِّ الوثِيق، والعُـدّه، إذا تُوُقِّعتِ الشّدّه، كم ثبَتَتْ علىٰ الزِّلْزال، وصابرتْ مواقِفَ النِّزال، أمطاكم السّعدُ صَهْوتَها، وأحلّكم التوفيقُ رَبْوتَها، من غير مُطاولةِ حِصار، ولا ٱستِنْفادِ ذى وُسْع وٱقتدار، ولا تَسوُّرِ جِدَار، فأصبحت دولتُكم السعيدة تتفيّأ [جَنىٰ الجنّتين، وتختال فى حُلّتين، وتجمع بِقُبّتيـا[1]] السيوفِ المـالكيّة بين هاتين الأختين، أوزعكم الله شُكْرها من نعمةٍ جلّت مَواهبُها، ووَضَحَتْ مـذاهبُها، وصَنِيعةٍ بَهَرت عجائبُها .

وإذا كانت عقـائلُ النِّعم تَخْطُب أكفاءَهـا، وموارِدُ المِنَنِ تَعْـرِض علىٰ الوُرّاد صَفاءَها، فأنتم أهلُها الذين لكم تُذْخَر، وبمَنْ دُونكم تَسْخَر، فإنكم تميّزتم بخصال العَـفَاف والبَسَاله، والحَسَب والجَلاله، وأصـبحتُمْ فى بيتِكم صَـدْرا، وفى هالةِ قومكم بَدْرا، مَوَاقِفُكم شَهِيره، وسِيرتُكم فى الفضل لا تَفْضُلها سِيره، ونحن نهنّئكم بمـا مَنَحكم اللهُ من ٱنفِساح الإيالة، ونُمُوّ الجَلَاله، والنِّعَم المُنْثاله، بسـلطانٍ ألقىٰ عِنانَهُ إلىٰ مثلكم قد ٱختاره لِقِياده، وٱرتادَ فسَعِد فى ٱرْتِيادِه، وتكفّل الحزمُ بحفظ بِلادِه، وصَوْنِ طارِفه وتِلَادِه، وكأنّ به قد ٱسـتولىٰ علىٰ آمادِه، وتطاوَلَ لإرث أجدادِه . ولنا فيكم ـ علم الله ـ وُدٌّ [تأسّسَ بناؤه، وكَرُمت أبناؤه[1]] وحُبٌّ وجب بالشرع إنفاذُه إليكم وإنهاؤه . وغرضُنا الذى نُؤْثِره علىٰ الأغراض والمَقَاصد، وتقدّمُه بمقتضىٰ الخُلُوص الذى زكَتْ منه الشّواهد، أنْ تتصـلَ بيننا وبينكم المخاطبـه، وتتعاقَبَ المواصلةُ والمُكاتبه، والله عزّ وجلّ المعينُ علىٰ مايجب لودّكم من بِرٍّ تكفل واجبُه، وتوضّح مذاهبُه، وٱعتقادٍ جميل يتساوىٰ شاهدُه وغائبُه، وهو سبحانه يَصِل سعدَكم، ويحرُسُ مجدَكم، والسلام الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الصنف الثـانى
(ما يكتب به إلى الرّعايا)

والحكم فيه على نحو ماتقدّم فى الصّنف الذى قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .

كما كتب آبنُ الخطيب عن آبن الأحمر أيضًا إلى بعض رعَاياه بمدينة المَرِيّة بالأَنْدَلُس ، بالبشارة بموت الطاغية ملِكِ قَشْتالة بجبَل الفتْح ، ورحيلِ قومه به إلى بلادهم ماصورته :

من الأمير عبدالله يوسفَ ، آبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيلَ بنِ فَرَج آبن نصر أيّدالله أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عَصْره ؛ إلى أوليائنا فى الله تعالى الذين نُبادِر إليهم بالبشائر السافرةِ الغُرَر ، ونجلُو عليهم وجوه[1] الصنائع الإلهيّة كريمةَ الخُبْر والخَبَر ، ونَعْلَم مالهم من الوُدّ الكريم الأثَر : القائدِ بالمَرِيّة ، والقاضى بها ، والفقهاء ، والأشياخ ، والوزراء والأمراء والكافّة والدّهْماء من أهلها ؛ عَرّفهم الله عوارفَ الأداء ، وأوزعهم شُكْرَ نِعْمَةِ هذا الفتح الرّبّانىّ الذى تفتّحت له أبوابُ السماء ، وأنشرتْ معجزاتُهُ ميتَ الرجاء فى هذه الأرجاء . سلامٌ كريم ، طيبٌ برٌّ عميم ، تُنْشَقُ منه نَفَحاتُ الفرج ، عاطرةَ الأَرَج ، ورحمةُ الله وبركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله فاتحِ أبوابِ الأمَلِ بعد آستِغْلاقها ، ومُتَدارِك هذه الأمة المحمديّة بالصُّنْع الذى تجلّى لهـا مِلْءَ أحداقها ، والرحمـةِ التى مدّتْ على النُّفُوس والأموال ، والحُرُماتِ والأحوال ، ضافىَ رُواقِها .

والصلاةِ والسلام على سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله الذى دَعْوتُه هى العُروة الوُثْقىٰ لمن تمسّك باعتِلاقها ، وأقام على مِيثاقها ؛ ذى المعجزات التى بهرت العُقُول بائتِلاقها ،

(١) فى الريحانة ج ٢ " من وجوه النتائج الالهية كريم " الخ .

الذى لم تَرُعْه فى الله الشدائدُ علىٰ ٱشتدادِ وَثَاقِها، وفَظَاعةِ مَذاقها؛ حتّى بلغتْ كلمةُ الله ما شاءتْ من ٱنتظامها وٱتِّساقِها .

والرضا عن آله وصحبه ، وعِتْرته وحِزْبه ؛ الفائزين فى مَيْدان الدنيا والدين بِخَصْل سِبَاقها . فإنا كتبناه إليكم ــ كتب الله لكم شُكْرًا لنِعَمِه، ومعرفةً بمواقع كَرَمه . من حمراءِ غَرْناطةَ ــ حرسها الله ــ ولا زائدَ بفضل الله سبحانه إلا ما أمّنَ الأرجاءَ ومهّدها ، وأنشأ مَعالمَ الإسلام وجَدّدها ، وأسّس أركانَ الدين الحنيف وأقام أَوَدَها ؛ وأنتم الأولياءُ، الذين نعلَم منهم خُلوصَ الأهواء، ونتحقّق ماعندهم من الخُلوص والصّفاء . وإلىٰ هذا فقد علمتم ما كانتِ الحالُ آلتْ اليه من ضِيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذى جرىٰ فى مَيْدان الأمل جَرْىَ الجَمُوح، ودارتْ عليه خمرةُ النَّخْوة والخُيَلاء مع الغَبُوق والصَّبُوح؛ حتّى طَفَح بسُكْر ٱغتراره، ومُحِّص المسلمون علىٰ يدَيْه بالوقائع التى تُجاوِزُ منتهىٰ مِقْداره؛ وتوجّهت إلىٰ ٱستئصال الكلمةِ مَطامِعُ أفكاره، ووَثِق بأنّه [يطفئُ] [1] نورَ الله بناره، ونازل جبل الفتح فشدّ مُخَنّق حِصاره، وأدار أشياعَهُ فى البرّ والبحر دَوْرَ السِّوار علىٰ أسواره؛ وانتهز الفُرصةَ بانقطاع الأسباب،وٱنبهامِ الأبْواب، والأمور التى لم تجرِ للسلمين بالمَدْوتين علىٰ مألُوفِ الحساب ؛ وتكالبَ التثليثُ علىٰ التوحيد، وساءتِ الظُّنونُ فى هذا القُطْر الوحيد ؛ المنقطِع بين الأُمَم الكافرة، والبُحُور الزاخرة ،والمَرَام البعيد . وإننا صابرْنا بالله تيّارَ سَيْله ،وٱستضأْنا بنُور التوكّل عليه فى جُنْح هذا الخَطْب ودُجُنّة ليله ،ولجأْنا إلىٰ مَنْ بيده نواصِى الخلائق ،وٱعتلَقْنا من حبله المتين بأوْثق العلائق ، وفسّحنا مَجالَ الأمل فى ذلك المَيْدان المتضايق ؛ وأخْلَصْنا لله مُقِيلِ العِثار ، ومَوْلىٰ أُولِى الاضطرار، قُلُوبَنا ، ورفَعْنا إليه أمْرنا ، ووقَفْنا عليه مطلُوبَنا؛ ولم نُقَصّر مع ذلك فى إبرام العَزْم، واستِشْعار الحَزْم، وإمداد

---

(١) من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ .

الثُّغُور بأقصى الإمكان ، وبَعْث الجيوش إلى ما يلينا من بِلاده على الأحيان ؛ فرحِمَ اللهُ انقطاعَنا إلى كَرَمه ، حين لجأْنا إلى حَرَمه ؛ فجلا بفضله سبحانه ظَلامَ الشِّدّه ، ومَدّ على الحريم والأطفالِ ظِلالَ رحمتــه الممتدّه ، وعَرَّفَنا عوارفَ الصُّنْع الذى قَدُم به العهدُ على طول المُدّه ، ورماه بجيش من جيوش قُدرته أغنى عن إيجاف الرِّكاب ، وآحْتشاد الأحْزاب ؛ وأظهر فينا قُدرةَ مُلكه عند انقطاع الأسـباب ، وآستخلص العبادَ والبلاد من بين الظُّفُر والناب ؛ فقد كان سَدّ المَجازَ بأساطيله ، وكاثَرَ كلمةَ الحقّ بأباطيله ؛ ورمى الجزيرةَ الأندلُسيّةَ بشُؤْبوب شَرّه ، وصيَّرها فريسةً بين غِرْبان بحره وعِقْبان بَرّه ؛ فلم يخلُص إلى المسلمين من إخوانهم مَرْفَقةٌ إلا على الخَطَر الشديد ، والإفلاتِ من يَدِ العَدُوّ العَنيد ، مع توفُّر العزائم ـ والحمدُ لله ـ على العمل الحَميد ، والسَّعْى فيما يعودُ على الدِّين بالتأييد .

وبينما شَفَقَتُنا على جبــل الفتح تُقيم وتُقعِد ، وكَتائبُ الأعداء عليه يُبْرِق ويُرْعِد ، واليأْسُ والرجاء خصمانِ هــذا يقرِّب وهــذا يُبعِد ؛ إذ طَلَع علينا البشيرُ بآنفراج الأزمه ، وحلِّ تلك العَزْمه ، وموتِ شاةِ تلك الرُّقعه ، وإبقاءِ الله على تلك البُقعه ؛ وأنه ســبحانه أخذ الطاغيةَ أكلَ ما كان آغترارا ، وأعظَمَ أنصارا ؛ وزَلْزل أرضَ عِزّه وقد أصـابَتْ قَرارا ؛ وأنّ شِهابَ سـعده أصبح آفِلا ، وعَلَم كِبْره آنقلب سافِلا ؛ وأنّ من بيــده مَلَكوتُ السموات والأرض طَرَقه بحَتْفه ، وأهلكه برَغْم أنفه ؛ وأن مَحلّته عاجلها التّبابُ والتّبار ، وعاثَتْ فى منازله النــار ، وتمخّضَ عن سُوء عاقبته الليلُ والنّهار ؛ وأن حُماتَها يُخرِبُون بيوتَهم بأيديهم ، ويُنادِى بشَتات الشَّمْل لسانُ مُناديهم ؛ وتلاحَق بنا الفُرْسان من جبل الفتح : المعقِل الذى عليه من عِنايةِ الله رُواقٌ مَضْروب ، والرِّباط الذى مَنْ حازبه فهو المَحْروب ؛ فأخبرَتْ بانْفراج الضِّيق ، وآرتفاع العائق لمـا عن الطّريق ؛ وبُرءِ الداءِ الذى أشرق بالرِّيق . وأن

النصارىٰ دمّرهم الله جدّتْ فى آرتحالها، وأسرعَتْ بجيفةِ طاغيتها إلىٰ سُوء مَآلها، وتمحّتْ [للسّهْب](١) والنّهْب والنار بأسْلابها وأموالها؛ فبهرَنا هذا الصُّنعُ الإلٰهىّ الذى مهّد الأقطار بعد رجَفَانها، وأنامَ العُيونَ بعد سُهاد أجْفانها؛ وسألْنا اللهَ أن يُعينَنا علىٰ شُكْر هذه النّعمة التى إن سُلّطت عليها قُوىٰ البشر فضَحَتْها ورجَحتها، أو قِيسَتْ بالنعم فضَلَتْها؛ ورأينا سِرّ اللطائف الخفيّة كيف سَرَيانُه فى الوجُود، وشاهدْنا بالعِيان أنوارَ اللطف الإلٰهىّ والجُود؛ وقلنا إنما هو الفتحُ الأوّلُ شُفِع بثان، وقواعدُ الدين الحنيف أُيّدت من صُنْع الله ببيان .

اللهم لك الحمد علىٰ نِعَمك الباطنةِ والظاهره، ومِنَنِك الوافره، أنت وليُّنا فى الدنيا والآخره؛ وأمَرْنا للحين فقُلّدت لَبّاتُ المنابرِ بهذا الخبر، وجُلّيت فى جماعات المسلمين وجوهُ هذا الفتح الرائقِ بالغُرَر؛ وعجّلنا تعريفكم به ساعةَ آستجْلائه، وتحقُّق أنبائه؛ لتسحَبُوا له أثوابَ الجَذَل ضافيه، وترِدُوا به مَوارِدَ الأمل صافيه؛ فإنما هو سِتْرُ الله شمِل أنْفُسَكم وحَريمَكم، وأمانُه كَفَل ظاعِنَكم ومُقيمكم؛ فقرّطُوا به الآذان [وبشّروا به الإقامة والأذان](١) وتملّوا بالعيش فى ظِلّه، وواظِبُوا حمدَ الله ولىّ الحمدِ وأهلِه؛ وآنشُرُوا فوقَ أعوادِ المَنابر من خِطابه رايةً ميمونةَ الطائر، وآجعلُوا هذه البِشارةَ سجِلًّا فى فُرْقان البشائر؛ فشُكْرُ الله سبحانه يستدعى المَزيدَ من نِعَمه، ويضْمَن آتّصالَ كرمه؛ وعرّفوا بذلك من يَليكم من الرعيّة ليأخُذَ مثلَ أخْذِكم، ويلْحَظ هذا الأمرَ بمثل لَحْظِكم؛ فحقيقٌ عليكم أن تُشيدُوا بهذا الخبر فى الحاضر والبادِ، وتجعلُوا يومَ عاشوراءَ الذى تجلّى فيه هذا الصُّنعُ ثالثَ الأعياد؛ والله سبحانه يجعله للمَسرّات عُنْوانا، ويُطْلِع علينا وعليكم وجوهَ صُنْعه غُرًّا حِسانا؛ والسلامُ الكريم يخصُّكم ورحمة الله وبركاتُه .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" ج ٢ .

الأســـــلوبُ الثـالث

(أن تُفْتَتح المكاتبـــة بلفظ « أما بعـــد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعدَ حمدِ الله ، أو أما بعــدُ فالحمدُ لله ، ويُؤْتىٰ بخطبة . ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ؛ ثم يُخَلَّص إلىٰ المقصود ويُؤْتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويُخْتَم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر من الأندلس .

أما بعدَ حمد الله مُحْسن العَواقب ، ومُخلِّد المَناقب ، ومُعْلي المَراقِي في دَرَج عَلِيَّة[1] المَرَاقب، ومسَخِّر النجم الثاقب، في الغَسَق الواقِب، والكفيل بالحُسْنَى لمتوكِّل عليه المُراقِب، ناسخ التمحيص، بالعناية والتخصيص، لتظهر حكمةُ المُثيب والمعاقِب .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسولِه الماحِي الحاشر العاقِب ، ذي القَدْر المُسامِي للزُّهر المُصاقِب .

والرضا عن آله الذين كانُوا في سماء ملّته لهداية أمته كالشُّهُب الثّواقب ؛ فإنا كتبنـاه إليكم ـ كتب الله لكم تَوالِيَ المَواهب ، ووضُوحَ المَذاهب ، ووقوفَ الدهر لديكم مَوْقِفَ التائب من القدح الثائب ؛ ووالىٰ لديكم مُفاتحةَ الكتُب المهنِّئة بفُتُوح الكتائب ـ من حمراءِ غرناطة ـ حرسها الله ـ وفضلُ الله بتعرُّف صُنْعه لكم هامِي السَّحائب ، وكفيلٌ بنَيْل الرغائب ؛ والسرورُ بما سَنّاه الله لكم من استقامة أحوالكم شأنُ الشاهد والغائب، والرائح والآئب .

والحمدُ لله علىٰ ماتوالىٰ من الألطاف والعَجائب. وقد وصل كتابُكم الذي أكّد السُّرورَ وأصَّله ، وأجملَ مقتضىٰ البُشرىٰ وفصَّله ، ونَظَّم خبر الفتح ووصّله ؛ وراش سَهْمَ

(١) في الريحانة في "درج عنايته بالمراقب" .

السّعادة والسّداد، والعناية والإمداد، ونَصّله، وأحرز حَظّ السعادة وحصّله؛ تعرفون ماأتاح لكم اللطيفُ الخبير، والولىُّ النصير؛ من الصُّنْع الذى اتّسق نِظامه، والنصرِ الذى سُنّتْ فى أمّ الكتاب أحكامُه؛ والعز الذى خفقتْ أعلامُه، والتوفيقِ الذى قَرْطستِ الغرضَ سِهامُهُ؛ وأنكم من بَعْد الكائنة التى راشَ لطفُ الله بها وجبَر، وأحسن الخير وأدال الخَبَر، وجعل العاقبةَ الحُسْنىٰ لمن صَبَر؛ جهزتم الجيُوش المختاره، والعساكرَ الجَرّاره؛ يقودُها الخُلَصان من الوزراء، وتتقدّم رايَتها ميامنُ الآراء؛ فكتب اللهُ ثباتَ أقدامِها، وتولّى نَصْر أعلامِها؛ ولم يكُنْ إلاأن حَمِيَ وطِيسُ النّزال، ورجفَت الأرضُ لهَوْل الزِّلْزال، وتُعُوطيت كُـؤوسُ الآجال، فى ضَنْك المَجال؛ ودَجَا القتَام، وتُوُهِّم مع فضل الله الاغتنام، وعَبَسَ الوجْهُ العَبّاس وضَحِك النَّصْل البَسّام، وأوْرد الخيلَ مَوارد الطّعان الإقدام؛ فكان لحِزْبكم الظهورُ الذى حَكّمَ المهنّدةَ فى الرِّقاب، والسُّمْرَ الطِّوالَ فى التّغريم فى الأعْقاب، وبَشّرت برُؤْية هلال الفتح عُيونُ الارتقاب، وحَطّ عن وجه الصنع الجميل ماران من النِّقاب، وأن مَنْ بغىٰ عليكم حسَبَ ماقررتم، وعلىٰ نحو ما أجملتم وفسّرتم، من شيوخ الغرب المُجْلِبه، ووُجُوه الخـَدَم المنتَمية إلىٰ حسن العهد المنتَسِبه؛ تحصّل فى حُكم اسـترقاقكم، وتحت شَدّ وَثاقكم؛ وربمـا أسـفر المكروهُ عن المحبوب، وانجلىٰ المرهوبُ عن المرغوب، والله مقلِّب القلُوب؛ وشِيمَتكم فى ائتلاف النافر، والأخذِ من فضل العَفْو بالحظّ الوافر، كفيل لكم بالصُّنْع السافر؛ والله يحمِلُكم علىٰ مافيه رِضاه، ويَخيرُ لكم فيما قضاه؛

فسُررنا بما اتّصل لكم من الصُّنْع واطّرد، ورحّبنا بهذا الواردِ الكريم الذى ورد؛ وشكَرْنا فضلكم فى التعريف بخَبَره المودُود، والشرح لمَقامه المحمود؛ وكتبنا نُهنّئكم به هنـاء مَشْفُوعا، وبالدعاء لكم متبوعا؛ والله يُطْلِـع من توالى مَسَرّتكم علىٰ مايَبْسُط

الآمال، ويُنْجِح الأعمال ، وَيَفْسَح فى السعد المَجَال . والذى عندنا من وُدِّكم أعظمُ من آستيفائه بالمَقَال، أو نهوضِ اليَرَاع بوظائفِه الثِّقال ؛ يعـلَمُ ذلك عالم الخفيَّات ، والمجـازى بالنِّيَّات ، سبحانه . والله يصِلُ سعدكم، ويحرُس مجْدكم، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

الطَّرَف الثـانى عَشَرَ

(فى الكتب الصادرةِ عن وُزَراء الخلفاء المنفِّذين أمورَ الخـــلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وفيه جملتانـــ)

الجمـــلةُ الأولى

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العبَّاس ببغداد ووُزَراء ملوكهـا يومئـــذ)

أما وُزَراء إقطاعاتها، فقد ذكر أبوجعفر النحاس فى "صناعة الكُتَّاب" أن المكاتبة من الوزير إلى الخليفة فى زمانه كانت : « أطالَ اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأعَزَّه وأيَّده وأتمَّ نعمته عليه، وأدام كرامته له » .

قال آبن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكتّاب" : وإن كانت المكاتبةُ من الوزير إلى مَنْ دونَه فدعاؤه له : « أطال الله بقاءَك وأدام تأييدَك وتمهيدَك وكرامَتك » . ودونه « أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وحِراسَتَك » . قال : وعلى مقـدار المكاتَب يكونُ الدعاء . وأقسامه كثيرة. ثم ذكر الأدعيةَ العامّةَ بعد ذلك على الترتيب، فقال: إن أعلاها يومئـذ « أطال اللهُ بقاءه وأدام تمكينَـه ورِفْعته وبَسْطته وعُلُوّه وسُمُوّه ، وكبتَ أعداءَه وحسدتَه» . ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تمكينَه وارتقاءه، ورفعته

وسناه ، وتمهيده وكبت أعداه» . ودونه «أطال الله بقاه وأدام تأييده ونُعْماه وكبت أعداه» . ودونه «أطال اللهُ بقاه وأدام تأييدهَ وحرس حَوْباه»[1] . ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام تأييده ونُعْماه» . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام نعماءه» . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام عزّه» . ودونه «أطال اللهُ بقاءه وأدام توفيقَه وتسديده» . ودونه «أطال اللهُ بقاءه وأدام سدادَه وإرشاده» . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام حراستَه» . ودونه «أدام الله تأييدَه وتمهيدَه» . ودونه «أدام الله توفيقَه وتسديدَه» . ودونه «أدام الله عِزّه وسناه» . ودونه «أدام الله عِزّه» . ودونه «أدام الله حِراستَه» . ودونه «أدام الله كرامتَه» . ودونه «أدام الله سلامتَه» . ودونه «أدام الله رِعايتَه» . ودونه «أدام الله كِفايتَه» . ودونه «أبقاه الله» . ودونه «حَفِظه الله» ودونه «أعزّه الله» . ودونه «أيّده الله» . ودونه «حَرَسه الله» . ودونه «أكرَمه الله» ودونه «وفّقه الله» . ودونه «سَلّمه الله» . ودونه «رعَاه الله» . ودونه «عافَاه الله» .

ثم المكاتبات الصادرة عنهم على أسلوبين :

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبة بلفظ «كتابى»)

والرسم فيه أن يقال كتابى ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى، أو بقاء مولانا ــ والأمرُ على كذا وكذا ، ومولانا أميرُ المؤمنين ، أو والجانبُ الأشرفُ ونحو ذلك على حال كذا ؛ ثم يتخلّص إلى المَقْصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويُختَمُ بقوله ورأى حضرة سيدنا أعلى .

---

(١) فى القاموس الحوباء النفس .

كما كتب بعض الكُتَّاب عن الوزير قوام الدين بن صَدقةَ إلىٰ بعض وُزَراء ملوك زمانه فى مَعْنىٰ أمير مكة المشرَّفة ، وما كان بينه وبين أمير الحاجّ فى بعض السِّنين ما صــورته :

كتابى ـ أطال اللهُ بقــاء حضرة سـيدنا ـ ومواهبُ الله سـبحانه فى أمر مولانا امير المؤمنين جاريةٌ علىٰ الإراده، مقابَلةٌ بالشكر المؤذِنِ لها بالدوامِ والزِّياده، والحمدُ لله ربِّ العــالمين . وقد لتابعت المكاتَباتُ فى أمر النَّوبةِ المكِّية تتابُعا عِلْمه السامِى به مُحيط، والعُــذْرُ فى الإضجار بها مع إنعام النظَر بسببها مَبْسوط ؛ وبعد ماصَــدَر آنفا فى المعنىٰ المذكور وصل كتابُ زعيمِ مكّةَ بمــا نفذ علىٰ جهته لِيُعْلَم منه ومما لاريبَ أنه أصْدره إلىٰ الدِّيوان العالى السلطانى ـ أعلاه الله ـ حقائِق الأحوال بغير شَكٍّ : أنه قد آتضــح تفريطُ من فَرَط فى هــذه النوبة وعَجِل ، وتحقَّق المثــلُ السائرُ « رُبَّ وائِقٍ خَجِل » وأســبابُ ثمرة الهوىٰ الذى مازال يجمَحُ برا كبه ، ويُرِيه سُوءَ عواقبه ؛ وعلِم أنه لم يُخْطِ فيا شَرَع فيه ، وآستمرّت علىٰ الخَطإ أواخِرُه ومَباديه ، إلا بوَعْد أُخلِف ، ومالٍ أُتلِف ، وخَطرٍ آرتُكِب، وصواب تُنُكِّب ، وحَزْم أُضِــيع ، وهَوًى أُطِيع ، حتّى كان قُصاراه دَفْعَ اللائمة عنه، فإنه أوصل الحَجِيج إلىٰ مقصودِهم وأعادهم، وأحسن التواصُلَ حتّى أدركُوا من أداء الفريضة مُرادَهم ؛ وهل آعترض دُونَ هذا الأمر مانع، أو كان عنه دافع؟ لولا ماصَوّره من الأسباب التى أفسَدَ بها الأمور ، وأوْغَر بمكانِها الصُّدُور ، وكَفَل بعــدَ ماقرّره من ذلك ومَهّده ، ماعكسه سفَهُ الرأى عليه، وأبعده العجزُ عن الوصول إليه ، وأىُّ عذر فى هذا المَقام يُستَمع؟ أم أىُّ لائمةٍ عنه تتدَفِــع ؟ وقد جرت الحال علىٰ ما عُلِم، وتحدَّثَ بانخراق حِجَــاب الهيبة كلُّ لسانٍ ناطقٍ وفَم ؛ ووقع الآتفاق من كافّة الحاجّ علىٰ أن تَمسَّك نائب مكةَ بطلب الرِّضا ، وتكفيل خَصْمه باستدراك ماتَلِفَ من التفريط فى مَعَايشه ومضىٰ ؛

ونظَرَه فى العاقبة التى يَنْظُر فيها ذَوو الألباب، وعملَه بما أصدره الديوانُ العزيزُ من مكاتبةِ أمرٍ فيها بالطاعة وخطاب؛ هو الذى لَأَمَ النوبةَ وشَعَبها، وسَهّل عسيرَها ومستصْعَبها؛ ولو آفتقرت إلىٰ سَعْىِ أميرِ الحاجّ واجتهاده، وإبْراقِه بعسكره وإرعاده؛ لكان الحجُّ ممتنعا والخَطَر العظيمُ متوقَّعا؛ ولم يحصُل الوفدُ إلا علىٰ التغرير بالنفوس، والجَوْد منها بكل مَضْنُون به مَنْفُوس؛ ثم عَرَبُ الطريق الذى ما زال أميرُ الحاجّ فى حقِّهم خاطبا، ولإكرامهم بالقولِ المتكرِّر طالبا؛ وجاهلاً ماالعله يتأخّرُ من رسم أحدهم من دَوَاعى الخطر فى سلوك [الطريق] المُرْديه، ومُوجِبات الفَسَاد فى المَنَاهل والأوْدِيه، يتلو من النَّهب والآجتياح، والأذىٰ العائد علىٰ فاعله بالاقتراف العظيم الوِزْر والآجتراح، بما يُؤْلِم شجاعةَ القلوب ويحرّقُها، ويُبْكى العيون ويؤرّقها؛ ولقد آنتهىٰ أن العسكر المنفَّذ أمامه كان يتنقّل فى هِضاب البرِّيّة وغِيطانِها، ويُنقِّب عن مَنَازل العرب وأوطانها؛ فيستقرِى أحياءَهم حيًّا حيًّا، ويتخلّل الفِجَاجَ فجًّا فجًّا؛ فإذا شارفُوا قبيلةً منهم طلب النجاةَ منهم بالحُشاشات رجالُها، وأسلمَتْ إليهم نساؤُها وأطفالُها وأموالها؛ فيتحكّمون فى ذلك تحكُّمَ من آستحلّ موْقفه فى إباحة مَحارِم الله ومُقامَه، وأَمِنَ مكْرَ الخالق بالظالمين وآنتقامَه؛ ويستبيحون حريمَ كلِّ برىءٍ غافلٍ لم يُقارِفْ ذنبا، وطائع لايستَحِقُّ غارةً ولا نَهْبا؛ فأين كان [من] النظر عند هذا الفعل فى حِفْظ عَرَب الطريق ؟ وكيف عَزُب عنه فى هذا الرأى مَنْهَجُ التوفيق ؟ وهل تُتَصوَّر الثقةُ بكل قبائل العرب عن إفساد الآبارِ والمَصَانع ؟ والعبث بكل مستطاعٍ فى المَنَاهل والمَشَارع؛ خاصّةً إذا علموا أن الذى ظلَمهم، وأباح حُرَمهم؛ هو السالكُ للطريق آنفا، والمتمكّن فيهم من مُعاودة الأذىٰ الذى أضحىٰ كلٌّ به عارفا، وآستدراكُ الفارط فى هذا الأمر المهمّ متعين، ووجه الرأْى فيه واضحٌ متبيِّن؛ والإشارة فى كتاب زعيم مكة، إلىٰ ماجرىٰ من المعاهدة وآستقرت القاعدةُ عليه [من] إعادة آرتفاعه المأخوذ

ورسومه على التمام والكمال إليـه ، أدلُّ الأدلّة على بُعْد النوبة من الالتئام، ودخولِ الخَلَل عليها وانحلال النِّظام، وتعـذُّر الحجِّ في المستقبل . على أن مَنْ أفسـدها ، لم يتأمّل لنفسه طريقَ الصَّدَر حين أو رَدَها، والألمعيّةُ السامِيةُ المعزّيّة حرس الله عزّها اللامحةُ ببديهتها العواقب، المستشفّة سرائرُها بالرأى الثاقب، أهدى إلى تدبيرها بمـا يستدرك الفارط ، ويتلافى غَلَط الغالِط، ويعيدُ الأحوال إلى جَدَد الصلاح وسَنَنِه، ويُجْريها على أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنِه، وما أَوْلاه بالتقـديم في هـذا المهِمّ الذى لا أحق منه بالاهتمام ، والجِـدّ الصادق التام، بمـا تطمئِنُّ به النفوس إلى صَلَاحه وانتظامه ، وارتفاع كلِّ مَخْشِيّ من الخلل الداخلِ عليه وانْصِرامه، والإعلامِ في الجواب بمـا يقع السكون إلى معرفته ، ويحصُل الأنس والشكر في مقابلته ؛ ورأْىُ حضرة سيدنا أعلى إن شاء الله تعالى .

الأســـــلوب الثــانى

(أن تُفتتح المكاتبــة بلفظ الإصـــدار)

مثل أن يقال : أُصْدِرت هذه المكاتبة، أو هذه الجملةُ، والأمرُ على كذا وكذا، بعد أن يُدْعى للمكتوب إليه بعد لفظ الإصدار، ثم يتخلّص إلى المقصود بمـا يليق بالمَقام، ويُؤْتى على القصد إلى آخره، ويختَمُ بقوله : ورأْىُ حضرة سيدنا أعلى .

كما كُتِب عن الوزير قوام الدين بن صَدَقة أيضا إلى ملك سَمَرْقند جوابًا عن كتابٍ وصل منه إليه :

أُصْدِرت هـذه الجملة (١) ــ أطال الله بقاءَ حضرة مولانا ــ ومواهبُ الله سبحانه في الجَنَـاب الأشرف ــ لا زالتْ مطالِـعُ سُعوده مُنِـيره ، وأعوادُ عَلَائه مُورِقـةً

(١) تارة يعبر بالجملة وتارة بالخدمة .

نَضيره ـ آهلةُ الرُّبُوع ، عَذْبةُ اليَنْبُوع ؛ قارّةٌ لايظعَنُ رَكْبها ، دارّةٌ لايعز حَلَبهـا ؛ والحمدُ لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوّه الصادرُ علىٰ يد الشيخ الأجلّ العالم أبى الحسن بن علك ووقفتُ عليه وعَرَفت فَحْواه ، وتضاعَفَ الشكرُ لله سبحانه بمـا حَوَاه ، من ٱطّرادِ الأمورِ وٱتّساقها ، وطلوعِ شمس النُّجْح فى سماء مَبَاغيه وإشراقها ، وأحدثَ ٱبتهاجًا بوروده متوفّرا ، وٱغتباطًا بما أولاه جلّت آلاؤه من صنعه الذى أصبحَ ذَنَب الأيّام معه مغتفَرا ، وعُرِضتْ خدمتُه المقترِنة به علىٰ مجالس العَرْض الشريفـة قدّسها الله مشفوعةً بذكر ما لبيته الكريم وسـلَفه الزاكى الأُرُومة مـن المآثرِ التى أضحىٰ بها فى الفخر عَلَما ، وعلىٰ ناصيةِ المجد محتوِيًا محتَكما ؛ فى ضمن إيضاحِ المحاسن التى أصبح أيّد اللهُ سموّه بها منفرِدا ، ولنجاد المحامدِ بحسَبها متقلّدا ، والمواقفِ فى الطاعة الإمامية التى أصبحت غُرّة فى جَبْهة الزمان ، ولم يَسْعَ فى مثلها لغيره قدَمَان ، وٱنتهتْ فى تمكين القواعد وتَوْطيـدها ، وتأكيدِ الأحوال وتمهيـدها ؛ والتجرُّدِ فى تحصيل الأرَب ، وتيسيرِ المَطْلَب ؛ إلىٰ ما يُوجِبـه الودُّ المُحْصَف الأمْراس ، والمصافاةُ الخالصةُ من الشوائب والأدْناس ؛ فآنستْ فى مقابلة ذلك من الإلتفات إلىٰ ماأوردته مما بيّن عن لُطْف مكانتـه بالموْقف الأشرفِ ويُرِيب ، ويصْفُو مَوْرِدُ الفَخَار بمثله ويَعْذُب ؛ وجدّد من التشريف والزيادة فيـه مايُوفِى علىٰ الذى تقدّمه قدرا ، ويَجِلُّ طَوْقُه عن أن يرضىٰ عُمْرا ؛ وشَـفَع ذلك بتنفيذ التشريفات لولده أيّد الله علوّه والمُطيفين بحضرته ، واللائذين بحَوْزته ؛ وٱبتدائهم بالإحسان والإنعام ، والتكْرِمة المُوفِية علىٰ المَرَام ؛ إكبارًا لشأنه ، وإبانةً عن محلّه من الآراء الشريفة ومكانه ؛ وإيثارًا لإعظام أمره ، وإعلاءِ قَدْره ؛ ليَعْلمَ ـ أيد الله علوه ـ مكانَ التجرُّد فى هذه الحال ، وصدْق

السعي الذي اقترنت ثغوره عن نُجح الآمال ؛ وأرجو أن يصادف حسنُ المقام في ذلك عنده موقعه، ويلقي لديه اعترافا يوافق مرآه مسمعه .

فأما الإشارةُ إلى المشار إليه في التوزّع لتلك المنّات الجاريه، التي مازالت الأيامُ بمثلها جانيه ؛ والاستبشار بزوال ما عرض واضمحلاله ، وعود الرأي الأشرف إلى أكمل أحواله ؛ وقد عرّفها بمزيد الاعتداد والشكر قائلُها، ولم يكن الذي جرى مما يُشعّب فكرا ، أو يتوزّع سِرّا ؛ فإن الاعتداد الأشرف كان بحمد الله محفوظا ، والاجتهادَ في الخدمة بعين الاعتراف والرضا ملحوظا ؛ لم تُحِلْه حالٌ متجدّده ، ولا رنّقت الحوادثُ مورده؛ وما زالت ثغورُ الأيام في كل وقت عن الزيادة باسمه، وسُحُبه بنُجح اشتطاط الآمال ساجمه ؛ والمندوبُ لتحمّل المثال وما يقترن به من التشريف فلان،وهو من أعيان العلماء، ومَنْ له في ميدان السبق شأوُ القُرَناء ؛ وله في الدار العزيزة مجّدها اللهُ الخدمةُ الوافيــه ، والمكانةُ الوافره ؛ وما زالت مذاهبُــه في خدمه حميــده، ومقاصدُه على تقلّب الحالات مرضيّةٌ ســديده ؛ وجديرٌ بتلك الألمعيّة الثاقبة أن تتلقّى ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النّعم المسداةَ إليه بالشكر المــاطر الأنواء ؛ وتُوقِظَ ناظرَ اهتمامه للنّهوض بأعبــاء الخدمة الإماميّــه ، وحيازةِ المَرَاضي المكرّمة النبويّه؛ وتُنهِي عزيمتَها فيما يكونُ بالإحماد الأشرف مُحظِيا ، ولأمثال هذا العُرْف المصنوع مستدْعِيا؛ ولرأي حضرة سيدنا في ذلك علوُّ رأي إن شاء الله تعالى.

الجمــــلة الثانيــــــة

(في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر عليّ بن خلف من كُتّاب دولتهم في كتابه "موادّ البيان" أنه إذا كانت المكاتبةُ من الوزير إلى مَنْ دونه ،تكون بغير تصدير،إلا أن الخطاب فيها يجب أن يُبْنَى على أقدار المخاطبين في مراتبهم في الدولة، ولم يزد على ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوبٌ واحد: وهوأن يفتتح الكتاب بلفظ « كتابُنا والأمر علىٰ كذا». ويُتَعرّض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة ، ثم يتخلّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه الحال، ويؤتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء .

كما كتب القاضى الفاضل عن بعض وزراء العاضد : آخر خلفائهم إلىٰ بعض الملوك ماصورته :

كتابُنا ـ أطال الله بقاءَ الملك ـ عن مودّةٍ ظاهرةِ الأسباب، متظاهرةِ الأنساب، ضافيةِ جلْباب الشّباب، وعوائدِ عوارفَ لايتنكّر معروفهـا، ووفُودِ فوائدَ لايتصدّع تأليفُها ، ومَسَاعِى مَسَاعد لاينقصُ معروفها ولاينفض مَسُوفها ، وسعادةٍ بالخلافة التى عدقَ إليه أمْرها وأوضح سِرّها ، وملأ سرائرها وسريرَها، وأطلع شمسها وقمرَها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين نتوالىٰ مَيامِنُها، وتتلألأ محاسنُها، وتَشْرُف درجاتُها، وتتضاعفُ سعادتها ، والكلمةُ قائمة علىٰ أصولها، وأمور الخلق جاريةٌ علىٰ ماهولها، ونظامُ الإسلام بسياستها لايَهِى ، وسياقةُ الدوام فى سعادتها لاتنتهِى، والله المُوزِع شكْرَ هذه المِنَن ، المسئُولُ فى الإنهاض لما نَهَضت فيه النيّةُ وقَصُرت عنه المُنَن ، ولم تزل ـ أدام الله إقبال الملك المعظم ـ معظّمين لأمره ، عارفين نُبْل قدره وجليلَ فخره ، مُشيدين بجميل ذِكْره وجزيل نصره ، مُعيدين لما تهادىٰ الألسُنُ من مستطاب نَشْره ، قارئين من صَفَحات الأيام ما أمدّها به من بِشْره ، غير مستيمنين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكْره ، مُوردين مما هو يبلّغه من بارع ضَرَائبه بالمقامات الشريفة من آثار سلَفه ومآثِرهم ، ومأثُورِ مَكارِمِهم ومَفاخرِهم ، واستناد المكرُمات إلىٰ أوّلهم وآخرِهم ، ومشهورِ ذبِّهم عن المِلّة ، ودِفاعِهم عن أهل القبلة ، وسَدَادهم فى الأمور ، وسِدَادِهم الثُّغور ، وسِيادتهم الجمهور ، واستقلالِهم بالمشقّات المتقدّمه ، وإخمادهم نيرانَ الخُطوب المضطرمه ، وكفّهم سيولَ السيوف العَرِمه ، وموالاتِهم أمورَ الدولة

العَلَوِيّة التى آشتَهر بها منهم الأكابِر، وورِثها كابرٌ عن كابِر؛ وحافَظُوا منها على سيرة معروفٍ لا يُنْسَخ، وعَقْد صفاءٍ لا يُفْسَخ؛ وسريرةِ صِدق تستقِرّ فى الضمائر وتَرْسَخ، وتتوضَّح بها غرّةٌ فى جِباه السبْق وتَشْدَخ؛ وتستَهْدى عند إيراد هــذا الذِّكْر العَطِر، والثناء المشتَهِر، من الدعوات الشريفة العاضِديّة المعضودة بالنُّجح، المتوضِّحة عن مثل فَلَق الصُّبح، مايتهلّل لمَساعيه بالمَيَامِن المستهلّه، ولمَرامِيه بالإصابة المتصله، بينه وبين هــذه الدولة العاليه، والخلافة الحالِيَه؛ بكتاب منــه نَهَجْنا فيه طريقَها اللاحِب، وآستدعَيْنا به إجابتَه التى تُتَاقَى بالمَرَاحب؛ وأعلمناه أنّ تمادِىَ الأيام دُونَ المراسَلة وتطاوُلَهــا، وتنقُّلَ الأحوال والدُّول وتناقُلَها، لايزيدُ مودّتَه إلّا آســتحكامَ مَعاقِد، وآنتظام عَقائد، ووفاءَ مَواعِد، وصَــفاءَ مَوارِد؛ وأنه لاتبــاعد بين القلوب بفَرَض المَرْمىٰ المتباعد، ولا تُفرِّق المسافاتُ القَوَاصى مابين النِّيات القَوَاصد. فلمــا تأخرت الإجابه، تقدّمت الإستِرابه، وتناجَتِ الظنونُ المعتلِجة، وتراجعت الآراءُ المختلجه، بأن الرسولَ عاقَته دُونَ المَقْصِد عوائق، وتقسَّمَتْه مِن الأحداث دُونَ الطريق طرائِق؛ فلم ترد المكاتبةُ إلىٰ جَنَابه، ولا أسعدَ السعى بطُروق جنابه، الذى تُنالُ السعادةُ وتُجْنىٰ به؛ وإلا فلو أنه أمّ له، بلَغَ ماأمّلَه، ولو وصله، لأجاب عما أوْصَلَه؛ لأن مكارِم خلائقه تبعَثُ علىٰ التبرُّع بالمسنون فكيفَ بقَضاء المفروض؛ وشرائفَ طرائقِه تأبىٰ للحقوق الواجبة أن تَقِف لديه وقْفَ المطّرَح المرفُوض. فجدّدنا هذه المكاتبةَ مشتملةً علىٰ ذلك المراد، وفاوَضْناه بمــا يُعيره الإصغاء، ويجنّبه الإلغاء، ويُحسن له الإنصات، ولا يَحتــاجُ فيه إلىٰ الوَصَات. ورسَمْنا أن يكتُمَه حتّى عن لسانه، وأن يَطوِيَه حتّى عن جَنَــانه؛ وأن يتمسك بالأمر النبوىّ فى آستعانَتِه علىٰ أمره بكِتْمانه؛ فمن حُسْن الحزم سوءُ الظن، وهل لأرباب الأسرار فَرَجٌ إلا مادامتْ فى السجن؛ وقد آستلزمنا المرتهن لمــا آستعظَمْنا الرهن، وفوّضنا إلىٰ مَنْ لا يعتَرِينا فيه الوَهْم ولا منه الوَهْن؛

ونحن تَحَبُّبَنَا بمـا يُعلَم به حسنُ موقع رسالةِ الاسترسال، وبمـا يبيِّن به عن دلالة الإدلال، وبمـا يرحِّب بمودّته مجالُ الجمال؛ والله سبحانه يؤيِّد المَلِك بنصر تُستخدَم له الأقدار، وسعادة لا تتصرَّف فى تصريفها أحكامُ الفلك المُدَار، وإقبالٍ يقابل آراءه وآدابَه فى فاتحة الوِرْد وعاقبة الإصْدار، وعزٍّ لا يزال منه متوقِّلا فى درجات الاقتدار إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثـالث عشر

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأتباع، إلىٰ الملوك ومَنْ فى معناهم؛ وفيـه ثلاث جمـل)

الجمـلة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرةِ عن أتباع ملوك الشرق إليهم فى الزمن المتقدّم ، وهى علىٰ أسلوبين)

الأسـلوب الأوّل

(أن تفتتـح المكاتبـة بلفظ : «كتابى»)

ويدعىٰ للمكتوب[1] ... ... كذا وكذا، ويتخلّص إلىٰ المقصود بما تقتضيه الحالُ، ويخاطَبُ السلطان فى أثناء الكتاب بمولانا أو بمولانا الملك، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بتاء المتكلم ولفظ الإفراد، ويُختَم بقوله : فإن رأىٰ أن يفعل كذا فعل إن شاء الله تعـالىٰ . ويُدْعىٰ للمكتوب إليه بطول البقاء مع التعرّض لذكر الخليفة فى أثناء الكتاب .

(١) فى الأصل نحو ولعله ويدعى للمكتوب اليه ثم يقال والأمر على كذا الخ .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأُسْلوب، كتب به أبو إسحاقَ الصابي عن أبي الفضل الشِّيرازى: أحد نُوّاب بنى بُوَيه إلىٰ عَضُد الدولة بن بُوَيه ، فى جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خُراسانَ وطاعةِ صاحبها، وهو :

كتابى ـ أطال الله بقاءَ مولانا ـ والأمورُ التى أخْدِمُ فيها جاريةٌ علىٰ السَّداد، مستمرّةٌ علىٰ الاطّراد؛ والنِّعَمُ فى ذلك خليقةٌ بالتَّمام، مُؤْذِنةٌ بالدّوام .

والحمدُ لله حقّ حمده، وهو المسئُول إطالةَ بقاءِ مَوَالينا الأمراء، وحراسةَ ما خوّلهم من العز والعَلاء، وأن لا يُخْليهم من صَلَاح الشان[(١)] ، ونُمُوّ السلطان، وظهور الولىّ، وثُبُور العدوّ .

ووصـل كتابُ مولانا [الأمير أطال الله بقاءه][(٢)] الصادرُ من معسكره المنصور بكازرين[(٣)]، بتاريخ كذا ، مُخبِرا بشُمول السلامه ، مبَشِّرا بعُمُوم الاستقامه ؛ موجِبًا لشكر ما منح اللهُ من فضـله وأعطىٰ، مقتضيًا [نَشْر][(٢)] ما أسبغ من طَوْله وأضفىٰ ؛ مشروحًا فيه الحال فيما كان يجرِى من الخلاف بين مولانا الأمير السيد« ركن الدولة» وبين وُلاة خُراسانَ ، وجهاده إيّاهم فى حِيَاطة الدِّين ، وحمايةِ حَرِيم المسلمين ؛ والدعاءِ إلىٰ رضـا رب العالمين ، وطاعةِ مولانا أمير المؤمنين ؛ وتَذَمُّمه مع ذلك من دماء كانتْ باتِّصال الحروب تُسْفَك ، وحُرماتٍ باستمرار الوقائع تنتهك؛ وثغورٍ تُهْمَل بعد أن كانت ملحوظه ، وحُقُوقٍ تُضاعُ بعـد أن كانت محفوظه؛ وأنه لما جُدِّدت العزيمةُ علىٰ قصـد جُرْجانَ ومنـازعةِ ظهير الدولة أبى منصور بن وشمكير مولىٰ

---

(١) فى المختارات المطبوعة ص ٩٣ من طُوّ الشان .

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة .

(٣) فى المختارات « بدارزين » وكلاهما من بلاد فارس .

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين][1] بوسيلة موالينا الأمراء أدام الله تمكينهم منها ومنازعته ومجاذبته فيها، نهض مولانا [الأمير الجليل عضد الدولة][1] إلى كرمان على آتفاق كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة وبينه فى التوجه إلى حدود خراسان . فحين عرف القومُ الجِدّ فى ردّهم ، والتجريدَ فى صدّهم، وأنه لامَطْمَع لهم فى جَنَبَةٍ إلى طاعة أمير المؤمنين آنتسابُها، وبتمام سادتنا الأمراءِ آعتصامُها، آتّعظوا وآرتدعوا، وعرّجوا ورجعوا سالكين أقصدَ مسالكهم، منتهجين أرشدَ مناهجهم، معتمدين أعودَ الأمور على المسلمين عمومًا وعليهم خصوصًا باجتماع الشَّمْل ، وآتصالِ الحَبْل ، وأمْن السِّرْب، وعُذُوبة الشِّرب ، وسكون الدَّهْماء ، وشُمول النَّعْماء ، فخطبُوا الصُّلْحَ والوُصْلة ، وجنَحُوا إلى طلب السِّلْم والأُلْفة ، وأن مولانا [الأمير عضد الدولة][2] آثر الأحسَنَ وآختار الأجمل : فأجاب إلى المرغوب فيه إليه، وتوسّط ما بين الأمير السيد ركن الدولة وبين تلك الجَنَبة فيه، وتكفّل بتقريره وتمهيده ، وتحقّق بتوطيده وتشييده ، وأخرج أبا الحَسَن عابدَ بن على إلى خراسانَ حتّى أحكم ذلك وأبرمه، وأمضاه وتمّمه، بمجمَع من الشيوخ والصُّلَحاء، ومَشْهد من القُضاة والفُقَهاء، وأنّ صاحب خُراسان عاد على يد مولانا [الأمير عضد الدولة][2] إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين ومُشايعته، والإمساك بعلائق وَلائه وعِصْمته، وصار وليًّا بعد العَداوة ، وصديقًا بعد الوَحْشة ، ومُصافيًا بعد العِناد ، ومخالطا بعد الآنفراد، وفهمته . وتأمّلت - أيد الله مولانا - ما فى ذلك من ضُروب النعم المتشعّبة، وصُنُوف المِنَح المتفرّعة، العائدةِ على المُلْك بالجَمال، وعلى الرعيّة بصلاح الحال،

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعية إلى الائتلاف والاتفاق، المزيلة للخلاف والشقاق؛ فوجدت النفع بها عظيما، والحظّ فيها جسيما؛ وحمدت الله حقّ حمده عليها، وشكرته أن أجراها على يد أولى الناس بها، وأحقّهم بالمكارم أجمعها، وأن قرّب الله بيمنه [ما كان بعيدا معضلا وتيسّر ببركته][1] ما كان ممتنعا مشكلا. فأصلح ذات البين بعد فسادها، وأخمد نيران الفتن بعد تلهبها واتّقادها؛ ووافق ما بين نيّات القلوب، وطابق بين مخائل الصدور، وتحنّت الضلوع بجميع سعيه على التألّف، وانضمّت الجوانح بميمون رأيه على التعاطف؛ وحصل له فى ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر؛ وجليل الفخر، وأريج النشر؛ مالا تزال الرّواة تدرسه، والتواريخ تحرسه؛ والقرون تتوارثه، والأزمان تتداوله؛ والخاصّة تحلّى بفضله، والعامّة تأوى إلى ظله.

فالحمد لله كثيرا، والشكر دائما على هذه الآلاء المتواتره، والعطايا المتناصره، والمفاخر السامية، والمآثر العاليه؛ وإيّاه أسأل أن يعرّف مولانا الملك الخيرة فيما آرتآه وأمضاه، والبركة فيما أولاه وأجراه؛ وأن يهنّئه نعمه عنده، ويظاهر مواهبه لديه؛ ويسهّل عليه أسباب الصلاح، ويفتح أمامه أبواب النجاح؛ ويعكس إلى طاعته الرقاب الآبيه، ويذلل لموافقته النفوس التائيه؛ ولا يعدمه وموالينا الأمراء أجمعين المنزلة التى يرى معها ملوك الأرض قاطبة التعلّق بحبلهم أمنا، والإمساك بذمامهم حصنا؛ والانتماء إلى مخالطتهم عزّا، والاعتزاء إلى مواصلتهم حرزا؛ إنه جل وعزّ على ذلك قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير.

وقد اجتهدت فى القيام بحقّ هذه النعمة التى تلزمنى، وتأدية فرضها الذى يجب علىّ: من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعه؛ حتّى اشتهرت فى أعماله التى

---

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية وهى مناسبة.

أنافيها ، وآستوى خاصّتُها وعامّتها فى الوقوف عليها ، وآنشرحتْ صدورُ الأولياء معها ، وكَبَتَ الله الأعداءَ بها ، وآعتددت بالنعمة فى المطالعة بها والمكاتبة فيها ، وأضفْتها إلى ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وسلف من أترابها وأشكالها ، فإن رأى مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمُرَ أعلى الله أمره بإجرائى على أكرم عاداته فيها ، وآعتمادى بعوارض أمره ونهيه كُلِّها ، فإن وفور حظّى من الإخلاص ، يقتضى لى وفُورَ الحظ من الآستخلاص ، فعل . إن شاء الله تعالى .

الأســـلوب الثـانى
(أن يفتتح الكتاب بالإصـــدار)

مثل : أصدر الخادمُ أو العبدُ ونحوه ، ويؤتى بالصدر إلى آخره ، ثم يتخلّص إلى المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختمُ بقوله : وللرأى العالى مزيدُ العُلوّ ونحو ذلك .

كما كُتِب عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلى السلطان سَنْجَر السّلجوقى ، فى حق قُطْب الدين أبى منصور أزدشير العبادىّ : وقد ورد إلى أبواب الخلافة ببغداد رسولاً ، وكان أبوه وخالُه وسلَفُه من أهل العلم والزُّهد ، وهو من الفُصَحاء البُلَغاء ما صورته :

أصدر خادمُ المجلس العالى هذه الخدمةَ عن ضمير معمورٍ بالولاء ، وإخلاصٍ دَوَاعيه متصلةٌ على الوِلاء ، وعكوفٍ على ما يرجُو به حصولَ المَرَاضى العليه ، والتحقُّقَ لمشايعته الواضحةِ شواهدُها الجليّه ، والحمدُ لله رب العالمين .

وبعد ، فما زال الجنابُ العالى السلطانىُّ الشاهنشاهىّ الأعظمىّ أعلاه الله لكلّ خير مَنْبعا ، وحرمُه الآمنُ للفوائد الجَمّة مغاثا ومَرْبعا ، والسعادةُ والتوفيقُ مقرونين

بسامى آرائه، مُطيفيْن به من أمامه وورائه؛ فى كل رَأْى يرتَئيه، ومقرَّب يَصْطفيه؛ وآمرئ يتخيَّره ويقلِّده، وأمر يحُلُّه ويَعْقده؛ وصُنْع جميــل يُصيب من الآستحقاق موضعه، ويعيد طيب الذكر مجهِّزه ومُبْضَعَه؛ مناقبُ تفوتُ الإحصاءَ عدّا، وتَرِدُ من مَفَاخر الوصــف مَنْهلا عَذْبا وتَســير بذكرها الرِّفاقُ غَوْرا ونَجْدا، وتُجاوزُ غاياتِ المدح عَلَاء ومجدا؛ وكفىٰ علىٰ ذلك دليلّا قاطعا، وبرهانًا ساطعا، ما آقتضتْه الآراءُ العلية من التعويل علىٰ فلان العَبَّادىّ فى تحمُّل الرسالة الأعظميَّة التى عُدقت منـه بالنقىّ الجيب، البَرِىّ من العيب، العارِى من دَنَس الشكِّ والرَّيْب؛ فإن آختياره لهــذا الأمر طَبَّق مَفْصِــل الصواب، ولشاكلة رَمْى الرأى أصاب؛ إذ هو الفذُّ فى علْمه وفضله، السديدُ فى قوله وفعله، البارعُ فى إيجاز الخطاب وفَصْله، المُعْرِقُ فى الزَّهادة والدِّيانة المزيِّنين لفرعه وأصله.

ولمــا وصل إلىٰ الأبواب العزيزة الإماميَّة ــ ضاعف الله تعــالىٰ مجدها ــ مثَــلَ بالخدمة مؤدِّيا من فرضها مايلزم أمثالَه من ذوىٰ العقائد الصحيحه، والموالاة المحضة الصريحه؛ وصادف من التَّكْرِمة والإنعــام ما يُوجبه له محلُّه من العلم الذى لا تُكَدِّر الدِّلَاءُ بحره، ولا تُدْرِك الأرشِيَةُ بطُولهــا قعْرَه؛ فهو فيه نسيجُ وحدِه، وناسجُ بُرْدِه؛ وناشرُ عَلَمه، ومستغزِر دِيَمه. وأُلْقِىَ من ذلك مايقتضيه آختبارُ أحواله الشاهدة بأنه ممن أُصحِبَ فى يده قيادُ الفصاحة الأبى، وملَّكتْه زمامَها الممتنعَ علىٰ من عداه العَصِىّ؛ وجُمع له من الفضائل ماأصبح فى سواه متفرِّقا، وخيرَله منها ماجَعَل جَفْن حاسده لفرط الكمد مؤرَّقا؛ إلىٰ مازان هذه الخصائصَ التى تفرد فيها وبَرَع، وطال مناكبَ الأقران وفَرَع: من الإخلاص الدالِّ علىٰ تمسُّكه بحبل الدِّين المتين، وآستمراره علىٰ جَدَده الواضح المُبِين؛ وفَصَــل عن الأبواب العزيزة فائزاً من شَرَف الإرعاء، ما وفَّر الحظوظَ والأنصباء؛ حاصلاً من حميد الآراء، علىٰ أنْفَس العطاء وأجزَل الحِبــاء؛.

وقد تمهّد له من الوجاهة والمكانة ما يفخر بمكانه ، وتنقطع دون بلوغ شأوه أنفاس أقرانه ؛ ورسم - أعلى الله المراسيم الإمامية وأمضاها - مطالعة المجلس العالى السلطانى أعلاه الله بهذه الحال، تقريرا لها عند السلم الكريم واستمدادا للطّول والإنعام ، باختصاص قطب الدين بالاحترام ؛ الذى هو حقيق بمثله ، وخليق أن لا يضحى عن وارف ظله ؛ وما يوعز به من ذلك يصادف من دواعى الاستحقاق أوفاها ، ويرد من مناهل الذكر الجميل أعذبها وأصفاها ، ويتلقى من شرف المحامد بألطفها وأحفاها ، وللرأى العالى علوّ رأيه ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهم ، والمختار منه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء)

مثل أن يدعى بعزّ الأنصار ، أو إدامة السلطان ، أو تخليده ، أو إدامة بسطة السلطان ، أو إدامة الأيام ونحو ذلك . ويخاطب السلطان فيه بمولانا ، ويعبّر المكتوب عنه عن نفسه بالمملوك ، ويختم بالدعاء . وهى طريقة القاضى الفاضل ومن تلاه من كتّاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية .

قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يقال فى مخاطبة السلطان : سيدنا مكان مولانا ، وإن كان السيد من الألقاب السلطانيّة ، لأن لفظ سيدنا مما اصطلح عليه لأكابر المتعمّمين من الفقهاء والقضاة والكتّاب ، فاجتنب فى حق السلطان كى لا تقع المشاركة بينه وبين غيره فى الخطاب .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب كُتِب به إلىٰ الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى جواب كتاب ورد منه بالبشارة بفتح خِلَاط وهى :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل وزاده من فضله ! ، ومدّ علىٰ خَلْقه وارِفَ ظلِّه ، وأظهر به دينَــه علىٰ الدِّين كلِّه ، وأوضح إلىٰ مَرْضاته مايَسْلُكه من سُبُله ، ولا عَدِمت يدُ الإسلام والمسلمين التعلُّقَ بوثيق حَبْله ، وفَرّج به الخُطَط المُطْبِقه ، وفتح به البلادَ المســتغلِقه ، وأخضع لطاعته الأعناق ، وعمّ بفتوحه الآفاق ، ودمّر الكُفْر بمقامه ، وطوىٰ أيّامَهم بمــا ينشُره ويُبديه من أيامه ، وأنزل النصرَ فى مواقف النِّزال بما ترفعه راياتُه من أعلامه .

وقف المملوكُ علىٰ ماأنعم به مولانا : من كتابِ البِشارة التى وصلَتْ إلىٰ كلِّ قلبٍ وسَمع ، وأمّل بها كلُّ مسلم كلَّ خيرٍ ونَفْع ، وعلِم ماوراءَها من جمْع شَمْلٍ كان عزيزَ الجمع ، وعلم مايتبعُها من عواطف مولانا التى عوّدها منه أكرمُ طَبْع ، وتحقّق أن الله سبحانه قد قلّد الدين منه سيفا خَلَقه للوصل وخلق السُّيوفَ للقطع .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلىٰ هــذه المِلّة بنظر مولانا لهــا ، وكَفَالتِه لأهلها ، وسياستِهم بشَرَف السجيّة وصَنْعها ، وإن كل ما اختلَس الملكُ الناصرُ رحمه الله فإن الله يُتِمُّه علىٰ يديه ، ويجبُرُ به تارة بصَفْحه وتارة بجَدّيه ، ويَهَبُ له عُمُرا نُوحِيًّــا إلىٰ أن لايذَر علىٰ الأرض من الكافرين ديّارا ، وإلىٰ أن يُورِث الإســلامَ بسيفه منهم أرضًا ومالًا وديارا ، وهذه مخايِلُ لايُخْلِف اللهُ بارِقتَها ، بل يُرُدُّ إلىٰ جهة الكفر صاعقتَها ؛ فمــا يحسَب المملوك أن جانبًا يتلوّى علىٰ طاعة مولانا ولا يَنْحرِف ، ولا أنّ كلمةً عليه بعد اليوم تختَلِف ، ولا أنّ ممتنِعًا بالأمس يكون معــه اليومَ إلا أن يرضىٰ عنه مولانا وعليه ينعطِف .

وعلى هذا فالشام الفرنجى متأخذ بجناح إلى الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم لا ثمن لها، والفرص تمر مر السحاب، والمستعاذ بالله من حسرات الفوت بعد الإمكان ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُه﴾ وما يشخص[1] لخطاب الله تعالى بالجهاد إلا مولانا : النية خالصه، والبصيرة ثاقبه، والعزيمة ماضيه، والشجاعة منحة من الله له موهوبه ، والسماحة خليقة من خلائقه الكريمة موجوده ، والرجال تطأ عقبيه ، والملوك تطيع أمره والشجعان تبذل أنفسهم بين يديه ، والعدو يعرف منه خصما طالما خاطبه بلسان السيف منه إليه . وليس كل من قدر عليه أراده ، وعكا أقرب من خلاط وأنفع للسلمين فتحا، وأعظم فى الكفار قدحا ، فوالله لئن آنغلق باب الشام فى وجه الكفر، لتنقطعن آمال أهل البحر والبر، وما دام فى الشام بقية من الكفر فهو يقبل الزياده ، وينتظر النجدة ويؤمل الاستعاده، وما كرر المملوك هذا الحديث جهلا بما يجب فى خدمة الملوك من الأدب فى أن لا يتكلم فى القضية إلا من استشير فيها، ولا يجترئ على الكلام إلا إذا كان مجيبا بما يؤمر بالإجابة عنه، ولكن المملوك غلب على الصحبه، وآنقطع عن الخدمه، وعلم أنه لو كان حاضرا لكان مولانا يبسطه ولا يقبضه ، ويستشف ما عنده ويستعرضه ، ويشفع قلبه فى لسانه إذا هفا ، ويحمله على صفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابل بالتكدير من صفا ؛ فقد علم الله أن المملوك يتمنى للسلمين أن يرد عليهم حقهم، وترجع إليهم بلادهم، وأن تكون هذه الأمنية جارية على يد مولانا ومستفادة من عزيمته، ومكتوبة فى صحيفته، ومغتنمة فيما يمكنه الله فى حياته، فإن الأمور فيما بعد ملموحه، ولكن أبواب قدرة الله مفتوحه؛ فالله يجعل منها أن يفتح على مولانا فيه بلاد الساحل، وأن يأخذ للإسلام به أهبة المقيم وللمقيم أهبة الراحل، وما يخلط المملوك هذا المهم بغيره، طالع به، ولمولانا علو الرأى .

(١) لعله وما يخص بخطاب الخ .

الأســــلوب الثـانى

(أن تُفتتح المكاتبة بيقبِّل الأرض مصدَّرا بالمملوك)

وهى من مصطلحات الدولة الأيوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دون من تقدّم.

كما كتب القاضى الفاضلُ عن نفسه إلى السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» يهنئه بمولودٍ وُلد له :

المملوك يقبّل الأرض بالمَقام العالى الناصرىّ نصرَ اللهُ الإسلامَ بمقامه، وأهلك أعداءَ الحقّ بانتقامه، ولا أعدم الأمةَ المحمديةَ عقْدَ آعتزائه بكَفَالتها ومَضَاء آعتزامه.

يهنِّئُ المملوكُ المولى بنعمة الله عنـده وعند الإسـلام وأهله بمَنْ زاده فى ولده، وكثّره فى عدده، وهو الأمير «أبو سليمان داود» أنشأه اللهُ إنشاء الصالحين، ومَنّ الله بكمال خَلْقه، ووَسَامةِ وجهه، وسَلامةِ أعضائه، وتهلُّل غُرَّته، وآبتسام أسرَّته؛ ودل على أن هـذا البيتَ الكريم فلكُ الإسـلام لايطلُع فيه إلا البُدُور، كما دلَّ على عناية الله بأبيه، فإن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ويَهَبُ لمَنْ يَشَاء الذُّكُور﴾ فطريقُ المولى هـذه قد توالَتْ فيها البِشَائر، ونصر اللهُ فيها بألطاف أغنَتْ بلُطْف الخواطر عن قُوّة العساكر، وآشتملتْ عليـه (؟) فى الغائب من أمره والحـاضر ﴿ وإنْ تَعُـدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها ﴾ وكيف يُحْصِيها المُحْصِى ويحصُرها الحاصر، أيحيطُ ما يَفْنَى بمـا لا يَنْفَد ؟ .

فالحمدُ لله الذى جعل كُتُبَ المولى إلى أوليـائه وكُتبَهم إليه مبتسمةً عن المَسارّ، ناطقةً بأطيب الأخبار، منكشِفةً أسرارُها عمّـا يُرَوِّح الأسرار؛ وهذا الولد المبارَكُ هو المُوفِّى لأثْنَىْ عشر ولدا، بل اثْنَىْ عشَرَ نَجْمًا متوقِّدا؛ فقد زاد اللهُ فى أنجمه عن أنجم

يوسفَ عليه السـلام نجمًا ، ورآهم المولى يقظةً ورأى ذلك الأنجمَ حُلُمـا ؛ ورآهم ساجدينَ له ورأينا الخَلْقَ له سُجُودا ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُدودَ المولى إلى أن يراهم آباءً وجدودا .

الجمـــلة الثـالثة

(فى المكاتبـات الصادرة عن أتبـاع ملوك الغرب إليهـم ، والمختار منـه أربعة أساليب)

الأسلوبُ الأوّل

(أن تفتتَح المكاتبة بلقب المكتوبِ إليه)

مثل : المقـامُ أو الجناب ، ويُنْعت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يؤتى بالسلام ثم بالبعديّة ، ويؤتى بخطبة ، ويتخلّص إلى المَقْصَد ، ويؤتى عليه إلى آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابن البَنّاء عن ابن خلاص إلى أمير المسلمين الواثقِ بالله أبى بكر بن هُود ، فى جواب كتابٍ ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلىّ ، الواثِقىّ المعتصمىّ ، المبارك السامى السَّنِىّ ؛ معْدِنُ الفضل ومَقَرّه ، ومَسْحَب ذيل الفخر ومَجَرّه ؛ ومَناط حمل أمانةِ المسلمين التى لا يحملها إلا أبلجُ الشّرف أغَرُّه ، ولا يتقلّد قلادتَهـا إلا تقىُّ المَنشإ برُّه ؛ مقـامُ مولانا جمالِ الملك وبهائه ، والباعث فى مَعْطفه أرْيَحيّـة النجابة وازدهائه ؛ الأميرِ الأجلِّ المعظم ، المكبَّر الهمام المكرم ؛ المبارَكِ الميمونِ السعيد ، الموفَّق الرشيد ، المظفَّر المؤيَّد ، المرفَّع الممَجَّد ، ولىّ العهد ، وواسطةِ عقْد المجد ، والمُلْبَس سرابيلَ اليُمْن والسعد ، الواثق بالله ، المعتصِم به ،

أبى بكر ابن مولانا مجدِ الإسلام، وجمالِ الأنام، ومجاهدِ الدّين، سيف أمير المؤمنين، المتوكّلِ علىٰ الله تعـالىٰ أمير المسلمين . أبقاه الله وارداً من مَشَارع التأييد أعذَبَها، متخوّلا من صُنْع الله الجميل مايستدّ أبعدَالأمة وأقربَها، ممتدّا مدّ السعادة ماجلَتْ غرّةُ الفجرِ حنْدِسَ الظلماء وغَيْهبَها. عبدُ بابه الأشرف، ومملوكُ إحسانه الأسمَّ الأذرف، مسترَقّه الآوى إلىٰ ظل سلطانِه الأمدِّ الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص .

سلام الله الطيبُ الـكريم وتحيّاته، يعتمد الواثقيَّ المعتصميّ ورحمةُ الله و بركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله الذى له الأمْرُ من قبْلُ ومن بعد، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد نبيّه الذى ترتّبَتْ علىٰ آجتنابه الشقاوةُ ووجب باتباعه السـعد، وعلىٰ آله وصحبه الذين ناضلُوا عن ديانته حتّى وضح السَّنَنُ وبان القَصْدـ والرضا عن خليفته وآبن عمّه الإمام العباسيّ أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور المستنْصر بالله، وارثِ شرفه النبوىّ، ومجدِه الهاشميّ؛ بخصائصه التى لاتُعَفّى أنوارَها الأبْكار[1]، ولا يَطْمِس آثارها الجُرْ. وعن مولانا مجد الإسلام ، جمال الأنام، مجاهد الدّين ، سيف أمير المؤمنين، المتوكل علىٰ الله تعالىٰ أمير المسلمين؛ ذى العَزَمات التى لا تُغْنِي غنَاءَها الذُّبُل[2] التى مَنْبِتها الخَطّ، ولا القُضُب التى مَنْشؤها الهند . والدعاء لمَقـام الثّقة والاعتصام، ومَقرّ الإحسان والإنعام، بالنصر الذى يؤازرُه الظَّفَر، ويظاهِره العَضد .

فكتبه عبدُ المقام الواثقيّ المعتصميّ ـ كتب الله له تأييدًا يحفظ علىٰ الدين نظامَه، وتخليدا يرثُ ليالىَ الدّهر وأيامه ـ من إشبيلِيَةَ حرسها الله تعالىٰ، وللبرَكات المتوكّليات والواثقيّات بها آنثيالٌ كما تتابع القطر، وسطوعٌ كما آبتسم فى مطالعه الفجر، وتمهّد

---

(١) لعل الصواب "البكر" .

(٢) جمع الذابل ككتب وركع أنظر القاموس .

لا تزال تقرّ به العينُ وينشرح له الصدر، والخدمةُ اللازمةُ للنابة العلية الواثقية المعتصمية — أعلى الله مكانها، وشيّد بعَضُده أركانها — فرضٌ لا يسعُ تأخيرُه، وحقٌّ لا يعلق به تفريطُ المتقلّد له ولا تقصيرُه، ولازمٌ من اللوازم التى لا يُشغَل بسواها سرُّ المملوك ولا ضميرُه، والله يُنجِد من ذلكم على مايتسوّغ به صفوُ المنّ ونميره. وإن الخطاب الكريم الواثقىّ شرّف الله منازعه، ونوّر بأنوار السعادة مطالعَه، ورد على العبد مُشيدا بذكره، مُعليا من قدره، مُسْمِيًا لرتبة فخره، متضمّنا من واسع الإنعام وغَمْره، مالو وُزّع على العالَم لشملهم بأسْره، وأغرقهم بفَيْض يسير من بحْره؛ فتناوله المملوكُ بيمين إجلاله وإعظامه، ووفّى الواجبَ من لَثْمه واستلامه، وألقى به رِيًّا ناقعًا لغَليل الشوق المبرّح إلى اجتلاء غُرّته الكريمة وأُوَامه، وجعل يتتبع سُطورَه، ويستقرى فِقَره وشُذُوره، فلا يَقِف من ذلكم كلّه إلا على ما يملأ حَوْباءه جذَلا، ويخوّله الابتهاجَ غُنْما ونَفَلا، ويبوّئه أسنى مراتب التشريف قُننا وقُلَلا؛ وهو على ما حكمت به الأقضيةُ من تخطه عن المَثابة الواثقيّة شرّفها الله وشُسُوعه، وإيواء مَغَانِى أُنسه لذلكم ورُجُوعه، لا يجد أُنسا إلا ما يتوالى قِبَلَه من متعهّد اهتمامها، وتُهْديه إليه ألسنةُ أقلامها؛ فكلّما وفَدَ عليه من صحائفها المكرمة وافد، وورد من حضرتها المعظّمة وارد؛ فقد جدّد الزمانُ عنده يَدًا غرّا، وأطلع عليه بدرا؛ وأفاده من الابتهاج ما يَعْمُر الخَلَدَ، وينشُر نسيمَ الاستبشار إذا سكَن وركَد؛ وما ينفكّ على نَأْيِ المكان، وبُعْدِ الأوطان، يحافظ على رَسْمه مِنْ خِدَمِها، ويؤدّى وظائف الشكر بجسيم مِنَحها وعميم نِعَمِها؛ ويجعل على نفسه المتملّكة رقيبا من أن يُخِلّ فى سرّ أو جَهْر بعهد من عهودها أو ذِمّة من ذِمَمِها؛ ومهما تجدّد صنع يتعين إهداؤه، ويجب قضاءُ الحق بالدلالة عليه وأداؤه؛ لم يَصْحَبْه فى المطالعة به تَوَانٍ، ولم يَعْبُر فى جلائه أوانا إلى أوان. وقد كان قدّم مُطالعاتِهِ قبلُ إلى الباب الواثقىّ

شرفه الله باسطًا لتفاصيل الأحوال ، وشارحًا لها على الاستيفاء والكمال ؛ ولم يتجدد بعــد ذلك إلا تمكنُ الرجاء فى فتح لبَـلَة يسّر الله مرامها عن دُنوّ بحول الله وقُرْب ، وأنطق لسانَ الحال بتيسير كلّ عصِىٍّ من محاولاتها وصَعْب . ولو أنّ مكانا عضّه الدهرُ من أنياب حوادثه الجُونِ بما به عضّها ، وفضّ الحصارُ أقفالها التى فضّها منه مافضّها ؛ لكان قد ذهب شميسُــه ، وخفِى عن أن يُسْمَع حَسِيسُه ؛ لكن أبى الشقاءُ الغالبُ على أهلها إلا أن يمُدّ عليهم أمَدَ العذاب ، ويُرْخِى لهم طِولَ المُهْلة المُشْفِية بهم كلَّ يوم على مَهَاوِى الخَسَار والتَّبَاب ، حتّى يبلُغَ الكتّابُ فيهم أجلَه ، ويصلَ إلى الحـدّ الذى شاء الله أن يَصِلَه ؛ فيأخُذَهم أخْذَ من عَمِىَ عن إدراك الحق بصَرُه وبصيرتُه ، وخَبُث فى معاندته سرُّه وسريرتُه ؛ ويرجّى أن الوقتَ فى ذلكم دانٍ بإمكان ، والله تعالى يُدِيم للقام الواثق ماعوّده من توالى السُّعود واطّرادها ، وإصحاب الآمال وانقيادِها ؛ وسلامُ الله الطيبُ يُراوِحها ويُغادِيها ، وتحياته ، ورحَماته الموصولةُ وبركاته .

الأســـلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبــة بالحَضْرة)

وتوصف ويُدْعى لهـا ، ثم يقع التخلّص إلى المقصد ، ويُختَم بالدعاء والسلام .

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلى المتوكل بن هودٍ القـائم بالدعوة العباسـية بالأندلُس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح (1) ... ... من الأندلُس وقتلِ الثائر بها ، وهو :

---

(١) بياض بالأصل ولعله " بفتح المراد وهو حصن بقرطبة من الخ " كما يؤخذ من تضاعيف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد فى المراد) وفى معجم " ياقوت " المراد حصن قريب من قرطبة بالأندلس .

الحضرةُ العليةُ أبقىٰ اللهُ ظلّ مُلْكها علىٰ العباد، وعرّفها من تأييده وإنجاده أفضلَ المعتاد، وجعل لها من الملْجإ إليه والتوكلِ عليه أكثرَ الجموع وأكثفَ الأعداد، ولا زالتْ أحاديثُ نَصْرها سالمةَ المُتُون صحيحةَ الإسناد، وصحائفُ فتوحها تجمعُ صَلاحَ العباد، وتُطْلِع صَبَاحَ البشائرِ من ليل المُراد، عبدُها ومملوكُها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريقَ التى يجب سلُوكُها، فلان .

وبعد : فكتب العبد - كتب الله للقام العلىّ المجاهدىّ المتوكّلىّ سعدا يردُّ الصّعابَ ذُلُلا، ويسُدّ من المكاره سُبُلا، وأمدّه بملائكةِ رسله جاعلُ الملائكةِ رُسُلا - من فلانة وبركاته مُرْوِية للظماء، وحركاتُه مسكّنة للدّهْماء، وآثارُه فى يومَىْ سِلْمه وحربه آثار الأشدّاء علىٰ الكُفَّار والرُّحماء، والأرضُ بوُضُوح مُحيّاه، وفتوح أسِنّته وظُبَاه، تهتزُّ أعطافا، وتعتزُّ مَوَاسِطَ وأطرافا، وتبرُزُ فى أثوابها القُشُبِ فيزداد حُسْنها أضْعافا، والأيّامُ بالبشائر التى فَضّتْ ختامَهَا عَفْوا علىٰ قَدَر، وقَضَتْ مسامَهَا صفْوًا بلا كَدَر، لها أنفُ الشامخ تِيهـا، ووجهُ الضاحك المتهلّل إشادةً بمحالها وتنْويهـا، ودلالةً علىٰ رُحْب مجالِها وتنْبيها . والحمدُ لله حمدَ من عَرَف قـدرَ نعمائه فوقَّ حقّ أسمـائه تقديسًا وتنزيها . وإن الخطاب العلىّ الكريم وردَ راصفًا أجلّ الدُّرر، واصفًا أجملَ الفتوح الغُرَر، رافلًا فى حُلَل الأيْد والقَهْر، رافعًا منسأةَ الحوادث بإحدىٰ حسنات الدهر، فياله من كتاب! أودع بدائـعَ الكَلِم، وجوامعَ البيان الملتئِم المنتظِم، لو آستمدّ سـناءه أوّلُ الفلَقيْنِ لم يكُ كاذبا، ولو أُعير محيّاه ثانِى الشفقين كان عن ضوء النهار نائبـا، ذكّر بأيّام الله المشهودة بالملائكة والرُّوح، ومدّ باعَ الكلام فى فتح الفُتُوح، وأطال ذُيولَ القول مفتـاحًا منه للصّعْب الجَمُوح، فكان الغَزِيرَ الصيِّب، والكثيرَ الطيِّب، والمتّبعَ إن مضىٰ بقلوب وأسمـاع، والمضاعَفَ حُسْـنُه إن كُرِّر إلىٰ غير آنقطاع . كيف لا ؟ وقد بشّر خبرُه بالمُراد فى المُراد، وأوقع اليقينَ بما خَرَق

العادات من الإسعافِ والإسعادِ، وكان من آحادِ الأخبار لا من أخبار الآحادِ، ومما آقتصّه ما جرىٰ من أوائل الحركة السعيده، وآعترض من المَتاعب الشديده ؛ وأن الشتاءَ كان فى آبتدائه ، والغيمَ ساحبٌ لِردائه، ساكبٌ فضل أندائه . والمكاره فى طَيِّها النِّعَم الجِسام ، والنفوسُ الكبارُ تتعَب فى مُرادِها الأجْسام ؛ ولذلك هانت علىٰ المَقام العلى ـ أيده الله ـ تلك المَشاق، ورجّى من عمله ونظره ما جَنىٰ من ثمرةِ العاق؛ فسار إليه بالجحفَل الأحْفَل، والعزيمة الزعيمة بفَضِّ المُقفَل، ورَضِّ الأعلىٰ والأسفَل ؛ وقد آعتزّ بأجَلِّ المدائن شانا ، وأوثقِها بُنيانا ، وأبعدها صِيتاً ومكانا ؛ وهى التى أعيَتْ رياضتُها كلَّ رائض، وتخفرتْ بكلِّ قاعد بقُنُونِها[(١)] رابض؛ وجُمِع إليها مِنْ طَرد الآفاق، وأعداد الأجتماع والآتّفاق ، أتباعُ كلِّ ناعق، وأشياعُ كل ما ردٍ مارق؛ فاستحلُّوا الدماء ، وركِبُوها مَضَلَّة عَمْياء ، وأدرك كلٌّ منهم مما شاء للإسلام ماشاء ؛ وعدوُّ الله يَفْتِل لهم فى الذّروة والغارب ، ويضربُ لهم سُكّانَ البلد ضَرْب الغرائب؛ حتّى أبادَ خَضْراءهم ، وجعلهم شَرَّ خَلَف فيمن وراءَهم؛ غيرَ مُبالٍ بما آحتقبَ من الجَرائر،وآقترفَ من إباحة الحَرائر؛ فاجترأ مدّة بالجلاء،وآزداد إثماً بالإملاء؛ وحينئذ سمَتْ إليه عساكرُ الإسلام، وناولته بالموت الزُّؤام، ورأىٰ عِيانا ما كان يَطيرُ إليه قلبُه لو رآه فى المَنام؛ وتَداولتْه المطاولةُ المستدرِجه،والعاجلةُ المُزْعِجه؛ وفى كلِّ ذاقَ عذابَ الهُون ، فأحسَّ بقاصمةِ المُتُون وقاضية المَنُون ؛ وآنقسمت شدّته إلىٰ المُهْلِكَيْن : خوفٍ وإعدام،وآستكملتْ تسعةَ أشهر وكان الفتحُ عندها تمام ؛ وإنه للولد الذى هُنِّىَٔ به الإسلام، وضَنَّت بمثله الأيام، وآستبشر بوجُوده

(١) القنة بالضم الجبـل الصغير أو الجبل السهل المنبسط علىٰ الأرض جمعه قنن وقنان وقنون أنظر القاموس .

الأنام ؛ فما أعلىٰ مقامَه ! وأبهج يومَهُ وأسعَدَ عامه ! ؛ ولا غَرْوَ أن تكون غُرّته أبهىٰ الغُرَر، ومفتتحه مباركا كالبُشَر؛ وقد أسفر عن أيْمَنِ وجه التُّجْح ، وخرج من عموم الأيام بتخصّص هذا الفتح؛ وانتقم الله فيه من الشقىّ الظالم، العظيم الجُرْأة علىٰ ارتكاب المَظَالم؛ فطاح بموبِق أعمالِه ، وعجّل الله به إلىٰ ما أُعِدّ لأمثاله ؛ وكان دَمُه شرّ دمٍ أُريق، وأديمُه أخبَثَ أديمٍ لاقىٰ التمزيق .

والحمدُ لله الذى نصر الرايةَ العباسيّة وأعلاها، وأظهر آيةَ عِنايته وجلّاها ، وأسبغ نعمَه الجسيمةَ ووالاها . وحين ورد هذا النبأ العظيمُ [كان] أندىٰ من قَطْر النّدىٰ علىٰ الأكباد ، وسَرىٰ فى البِلاد سَرَيانَ الأرواح فى الأجساد ؛ وكَلِفت به الأسماعُ والأسمار، وسَمَتْ به وإليه الأمصارُ والأبصار ؛ واستقرّ من ارتجاع البلد، وانتزاع النفس الذاهبة إلىٰ جرى الأبَد ؛ حُكمان مدركهما الفِعلُ والإقرار ، وعملان تمّ بهما المرادُ والاختيار؛ فرُفِعت الأدعيةُ إلىٰ سامعها، وغَصّت الأندية بحاضِرِى مَجامعها؛ وذاع بالبُشرىٰ فيا حُسن ذائعها وشائعِها؛ وأذعنت الآمالُ لإدناء نازِحها وشاسعِها؛ وأخذ العبد من المَسَرّة بحظّ أخلص العبيد مَشْهَدا ومَغِيبا ، وأجمعِهم لمَعالى الحمد تطنيبا ، ولمعانِى الثناء والحمد تطييباً؛ وجَدّد من شُكر الواهب لجزيل هذه الهبة ، والفاتح لأعظم المعاقل الأشبه (؟) مايستَغرِق المُدَد،ولا يبلُغ الأمَد؛ وأنّى [لمثلى] أن يَصف البشرىٰ الواصله ، أو يُنصِف المقالةَ المتطاوِله ؛ ولو حَلَب أشْطُر الإحسان، وجلب أبحُرَ البيان؛ وكيف والفِكر قد قَعَد حَصِرا ، والمدىٰ لايؤاخذه التقدير قسرا، والقول لايجيب مُطوَّلا ولا مُختصَرا؟ فحسبُه دعاءٌ حَوْلَهُ رافع ، ولأوقاتِ الخَلَوات به قاطع ، وإلىٰ الله سبحانه فى قَبُوله ضارع ؛ والله يجيبُ فى المقام العلىّ المتوكلىّ أفضلَ دعاء الخلق ، ويضاعفُ له مع السابقين ثوابَ السَّبْق ، ويَجْزِيه خير الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق ؛ وهو تعالىٰ ينصُره يومَ الباس ؛ ويعصِمُه من الناس ، ويُبقِى رِفدَه للاكتساب ونُورَه للاقتباس ، ويعرِّفُهُ فى كل ما يستنبطُه من أصــل التوكل صحَّةَ القياس ، بمنه والسلام .

الاســـلوب الثـالث

(أن تفتتَح المكاتبةُ بأمّا بعد ، ويتخلَّص إلىٰ المقصد ويختِمَ بمـا يناسب المقام)

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ المتوكِّل بن هُود المقدّم ذكره ، عن نفسه ، يهنِّئه بوصول هديَّة الخليفة العباسىّ إليه من بغداد :

أما بعـد ، فكتب العبدُ ـ كتب اللهُ للمقـام العلىّ الناصرىّ المتوكِّلىّ مجدًا يحُلّ الكواكب ، وجَدًّا يفُلّ الكتائب ـ من شاطِبةَ ، وبركاتُ دعوته السعيدةِ قد طبَّقت البسيطه ، وكاثرتِ البحارَ المحيطه ، وأنجزتْ للإسلام أفضـلَ مَواعده ، وجدّدتْ عهــدَه لأهل بيتِ النبوّةِ الرافعةِ لقواعده ، وفسَّحَت له مجَــالَ البُشرىٰ ، وأطلعتْ عليـهِ أنوارَ العناية الكُبرىٰ ؛ فعـاد إلىٰ الوطَن ، ووجد حالَ السُّهد طعْمَ الوسَن ؛ وأورق عُودُه ، وآتّسقتْ سُعُوده ، وعاد إلىٰ صحَّتـه بالنظر الإمامىّ الذى جاء يَعُوده . وحين صــدُور رسولِ دارِ السلام ، ومَثـابةِ أهل الإسلام ، ومَقْـعَد الجلاله ، ومَصْـعَد إقرار الرساله ؛ ومعه الكتابُ الذى هو غَريب ، أُنِسَ به الدِّين الغريب ، وبَعِيـدُ الدار نزَلَ به النصرُ القريب ؛ وآيةٌ بأدلَّتهـا الصادقة لتبطيل الشُّبَه الآفكه ، وسكينةٌ من ربِّنا وبقيَّة مما ترك آلُ نبيِّنا تحمِلُه الملائكه ـ اطمأنَّت القلوب ، وحَصَل المطلوب ؛ ودَرَت أخلافُ الإيناس ، وآرتفع الخِلافُ بين الناس ؛ وعلِمُوا أن السالكَ قد أضاءتْ له المَحجَّه ، والحقّ لايَعْدُو مَنْ بيـده الحُجَّه ؛ وأن من أمّرتْه

الخلافةُ العبّاسيّة فطاعتُه تجبُ قطعا، ومخالفتُه تحرُم شرعا، ولم يبقَ إلا أن يبين للعيان شخصُـه، ويرِدَ على الآذان نصُّه، فيكون يومُه غُرّةَ الليالى المعتكِرات، وعلَمَ الأيام المُنكّرات، واليومَ الذى به تؤرَّخ الأيامُ المستقبَله، وتُرْفَعُ فيه الأعمال المتقبّله. وبإقبال الركاب السعيد إلى هذه يتنزل به من سماء العلياء محكمٌ وحكمه، ويصلُ به إلى الأنام فضلٌ من الله ونِعَمه، ويُقتَضى دينٌ على الأيام، لايبقى معه عسره، ويوجَدُ جبرٌ للإسلام، لا يكون بعده كَسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حَسْره.

الأسلوب الرابع

(أن تُفتتح المكاتبة بالخطاب بلفظ «سيدى» أو «مولاى» مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبدالله بنُ الخطيب وزيرُ ابن الأحمر صاحبِ الأندلُس عن نفسه إلى السلطان أبى عِنان ابن السلطان أبى الحسن المَرِينىّ صاحب فاس، عند ورود كتابه إلى الأندلُس بفتح تِلِمْسان، معرِضا بأنّ صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبى الحسن بالأندلُس، ما صورته :

مَوْلاىَ! فاتحَ الأقطار والأمصار، فائدةَ الأزمان والأعصار، أثيرَ هبات الله الآمنةِ من الاعتصار[(1)]، قُدوةَ أولى الأيدى والأبصار، ناصرَ الحق عند قُعود الأنصار، مستصرِخ الملك الغريب مِنْ وراء البِحار، مصداقَ دعاءِ الأب المولى فى الآصال والأسحار. أبقاكم الله! لاتقفُ إيالتُكم عندحدّ، ولا تُحصى فتوحاتُ الله عليكم بعدٍّ، ولا يُفيق أعداؤُكم من كدّ، مُيَسّرا على مَقامِكم الكريم ماعَسُر على كل أبٍ كريم وجدّ.

(١) فى الأصل تصور وهو تصحيف والتصحيح من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ ص ٣٣ .

عبدُكم الذى خَلَص إبريزُ عبوديَّته لمُلْك مَلِكِكم المنْصور، المعْترِفُ لأدنىٰ رحمةٍ من رَحَماتكم بالعَجْز عن شـكرها والقُصور، الداعى إلىٰ الله سـبحانَه أن يَقْصُر عليكم سـعادةَ القُصُور، ويُذَلِّل بعز طاعتكم أنفَ الأسَد المَصُور، ويُبْقِىَ الملكَ فى عَقِبكم إلىٰ يوم يُنْفَخُ فى الصُّور . فلان .

من الضَّريح المقدّس: وهو الذى تعدّدتْ علىٰ المسلمين حقوقُه، وسطع نُورُه وتلألأ شُرُوقُه، وبلغ مجدُه السماءَ لمَّـا بَسَقَتْ فروعه ورسَخَتْ عُروقُه، وعظُمَ بتبوّئِكم فخرُه فـا فوقَ البسيطة فَخر يفُوقه، حيثُ الجلالُ قد رسَتْ هِضابُه، والمُلْكُ قد سُتِرتْ بأستار الكعبة الشريفةِ قِبابُه، والبيتُ العتيقُ قد أُلحِفت الملاحِد الإمامية(١) أثوابُه، والقرءان العزيز تُرَتَّل أحزابه، والعملُ الصالحُ يرتفعُ إلىٰ الله ثوابُه، والمستجير يخفى باطنَه سؤاله فيَجْهَر بنَعْرة العِزّ جوابُه، وقد تفيّأ من أوراق الذكر الحكيم حديقه، وخميلةً أنيقه، وحطّ بجُودِىّ الحقّ نَفْسا فى طُوفانِ الضُّرّ غَريقَه، والتحف برقَ الهيبةِ الذى لاتهتدى للنفس فيها إلا بهدايةِ الله طَريقه، واعتزّ بعزّ الله وقد توسّط جيشَ الحرمةِ المَرِينيَّة حقيقه، إذ جعل المولىٰ المقدّس المرحوم أبا الحسن مقدّمه وأباه وجدّه سقاه المولى الكريمُ بهذا المجْد سَيْب رُحْماه، وطَنَّب عليه من الرِّضا فُسْطاطا، وأعلىٰ به يَدَ العناية المَرِينيَّة اهتماماً واغتباطا، وحرّر له أحكامَ الحُرْمة نصًّا جلياً واستنباطا، وضمِنَ له حُسْن العُقبىٰ التزاما واشتراطا، وقد عقَد البصرَ بطريق رحمتكم المنتظَرة المرتقَبه، ومدّ اليَدَ إلىٰ اللطائف بشفاعتِكم التى تتكفّل بِعتق المـال كما تكفّلتْ بعتق الرَّقَبه، وشرع فى المِراح بميدان نِعَمكم بعد اقتحام هذه العَقَبه، لما شنفت الآذانَ البشرىٰ التى لم يبقَ طائرٌ إلا سجع بها وصَدَح، ولا شِهابُ دُجُنَّة إلا اقتبس من نُورها واقتدَح، ولا صدرٌ إلا انشرح، ولا غُصنُ عطفٍ إلا مَرَح، بُشْرىٰ الفتح القريب،

(١) فى الريحانة الامامية . تأمل .

وخبرُ النّصر الصحيح الحَسَن الغَرِيب، ونبأُ الصُّنع العجيب، وهدايةُ السميع المجيب: فتحُ تِلِمْسان الذى قلَّد المنابرَ عقودَ الإبتهاج، ووهب الإسلامَ مَنِيحةَ النصر غنيّةً عن الهِيَاج، وألحف الخَلْق ظِلًّا ممدودا، وفتح بابَ الحجّ وكان مسدودا، وأقرَّ عُيونَ أولياء الله الذين يَذْكُرونَ الله قِيامًا وقُعودا، وأضرع بسَيْف الحقّ جِباهًا أبيّةً وخُدُودا، وملّككم حقّ أبيكم الذى أهانَ عليه الأموال، وخاض من دُونه الأهوال، وأخلَص فى الضّراعة والسُّؤال، من غير كَدٍّ يغمِز عِطْف المَسَرّه، ولا جَهْد يُكَدّر صفو النعم الثَّرّه، ولا حَصْر ينقُض به المَنْجنيقُ ذُؤابَتَه، ويُظْهِر بتكرُّر الركوع إنابتَه.

فالحمد لله الذى أقال العِثار، ونَظَم بدَعْوتكم الانتشار، وجعل مُلْككم يجدّدُ الآثار ويأخُذُ الثار. والعبدُ يهنِئُ مَوْلاه، بما أنعم اللهُ به عليه وأَوْلاه، وما أجْدَره بالشُّكر وأَوْلاه! فاذا أجال العبيدُ قِداحَ السُّرور فللعبد المعلّى والرَّقيب، وإذا استَهَمُوا حظُوظَ الجَذَل فلى القِسْمُ الوافرةُ والنصيب، وإذا اقتسَمُوا فريضةَ شكر الله تعالى فلِىَ الحظُّ والتعْصيب، لتضاعُف أسباب العبودية قِبَلى، وترادُف النِّعَم التى عجز عنها قَولِى وعَمَلى، وتقاصَر فى ابتغاء مُكافأتها وَجْدى وإن تطاوَلَ أمَلى؛ فمقامكم المقامُ الذى نفّس الكُرْبه، وآنَس الغُرْبه، ورعى الوَسيلةَ والقُرْبه، وأنعش الأرماق، وفكَّ الوَثاق، [وأدرّ الأرزاق، وأخذ على الدّهر بالاستقالة بالعهد والميثاق][1] وان لم يباشر العبدُ اليَدَ العالية بهذا الهناء، ويتمثّل بين يَدى الخلافة العظيمة السَّنا والسَّناء، ويمُدّ بسبب البِدار إلى تلك السماء؛ فقد باشر به اليَدَ التى يحِنّ مولاى لتذكُّر تقبيلها، ويُكمِّل فروضَ المجد بتوفيةِ حقوقها الأبويّةِ وتكميلها؛ ووقفت بين يدى مَلِك الملوك الذى أجال عليها القِداح، ووصل فى طلب وِصَالها المَسَاء بالصّباح.

(١) الزيادة من الريحانة ج ٢ ص ٣٣.

وكان فتحُه إيّاها أبا عُذْرةِ الافتتاح ؛ وقلتُ يهنيك يامولاى ردُّ ضالّتك المَنْشوده ، وخبرُ لُقَطَتك المعرّفة المشهُودَه ؛ [ودالتك المودودة] (١) فقد آستحقّها وارثُك الأرضىٰ ، وسيفُك الأمضىٰ ؛ وقاضى دَيْنك ، وقرةُ عينـك ؛ مستنقذُ دارِك من يَدِ غاصبها ، ورادُّ رتبتِك إلىٰ مَناصِبها ؛ وعامرُ المَثْوىٰ الكريم ، وسِترُ الأهل والحَريم .

مولاىَ ! هذه تلمسانُ قد أطاعَتْ ، وأخبارُ الفتح علىٰ وَلدِك الحبيبِ إليك قد شاعَتْ ، والأُممُ إلىٰ هَنَـائه قد تداعَتْ ؛ وعدُوُّك وعدُوّه قد شرّدتْه المخَـافه ، وآنضافَ إلىٰ عَرَب الصحراء فخفَضتْه الإضافه ؛ وعن قريب تحكّمُ فيه يدُ آحتكامه ، وتُسلِمُه السلامةُ إلىٰ حِمامِه ؛ فلتَطِبْ يا مولاىَ نَفسُك ، وليستَبْشِر رَمْسُك ، فقد نمتْ بركتُك وزكىٰ غَرْسُك . نسأل الله أن يُورِد علىٰ ضَريحك من أنبـاءِ نَصْرِه ماتُفتّح له أبوابُ السماءِ قَبُولا ، ويُرادِفُ إليك مَدَدا موصُولا ، وعَدَدا آخِرتُه خيرٌلك من الأُولىٰ ، ويَعْتَرِيه بركةُ رضاك ظَعْنا وحُلُولا ، ويُضْفِى عليه منه سِترا مسدُولا .

ولم يقنَع العبد بخدمة النَّـثْر ، حتّى أجهد القريحةَ التى ركَضَها الدهرُ وأنضاها ، وآستشَـفَّها الحـادث الجَلَل وتقاضَاها ؛ فلفّق من خِدمة المنظوم ما يتغمَّد حلمُكم تقصيرَه ، ويكون إغضاؤكم إذا لقِى مَعرّة العَتْب وليَّه ونَصيرَه ؛ وإحالة يامولاى علىٰ الله فى نفس جَبَرها ، ووسيلةٍ عرفها مجدُه فـا أنكرها ، وحرمةٍ بضَريح مولاىَ والده شكَرها ؛ ويطّلع العبد منه علىٰ كمال أمله ، ونُجْح عمـله ؛ وتسويغ مقتَرحه ، وتتميم مَطْمَحه ، إن شاء الله تعالىٰ :

[يا آبنَ الخلائِفِ ياسَمِيَّ محمدٍ * يامَنْ عُلاه ليس يحْصُر حاصِرُ!
أبشِرْ فأنتَ مجـدِّدُ المُلْك الذى * لَولاكَ أصبحَ وهو رَسْمٌ داثِرُ!

(١) الزيادة من "الريحانة" ج ٢ ص ٣٣ .

مَنْ ذا يُعانِد منــك وارِثَهُ الذى * بِسُــعُودِه فَلَكُ المشــيئةِ دائرُ!
أَلقتْ إليك يَدُ الخِــلافةِ أَمْرَها * إذ كنتَ أنتَ لهـا الولىُّ الناصرُ!
هــذا وبَيْنَك للصريح وبيْنَهــا * حربٌ مُضَرَّسَــةٌ وبَحْــرٌ زاخِرُ!
مَنْ كان هــذا الصُّنْعُ أوّلَ أمْرِه * حَسُنَتْ له العُــقْبىٰ وعَزَّ الآخِرُ!
مَوْلاىَ عنْــدى فى عُلاَك محبَّــةٌ * واللهُ يعــلَمُ ما تُكِنُّ ضمــائرُ!
قلْــبِي يحَــدِّثُنى بأنّــك جابرٌ * كَسْرِى وحظّى منــك حظٌّ وافرُ!
بشْرىٰ وجودك قد حَططْتُ قَرِيحتي * ووَســيلتى لِعُلاكَ نُورٌ باهِــرُ!
وبذلْتُ سَعْيِى واجتهادِى مثلَ ما * يُلْقِىٰ لِمُلْكِك سيفُ أمرِك عامرُ!
وهو المــوالىُّ الذى اقتحمَ الرَّدىٰ * وقضىٰ العزيمــةَ وهو سَيْفٌ باتِرُ!
ووَلِىُّ جدِّك فى الشَّدائدِ عِنْــدَ مَا * خذَلَتْ عُــلاَه قبائلٌ وعشــائرُ!
فاســتَهْدِ منــه النُّجْحَ واعلم أنَّه * فى كلِّ مُعضِــلةٍ طبيبٌ ماهرُ
إنْ كنتُ قد عَجِّلتُ بعضَ مدائِحِي * فَهِىَ الرِّياضُ ولِلرِّياضِ بَوَاكِرُ] (١)

الطرف الرابــــع عشر

(فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك وإليهم)

والرسمُ فيه أنه إن كان الجواب صادرًا عن مَلِك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع، وخطابُ المكتوب إليهْ بالكاف . وإن كان عن بعض أتباع الملك إليــه ، فالتعبير عن المكتوب عنــه بالخادم، أو العبد، أو المملوك ونحو ذلك ، ومخاطبةُ الملك بمــا تليقُ به مخاطبــة الملوك . ثم الجوابُ تارةً يكون الابتــداء [فيــه] بنفس و رود

---

(١) لم يذكر فى الأصــل ما أشار إليه من النظم وقد عثرنا عليه فى "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء للفائدة فتنبه .

المكاتبة ، وقد تقدّم فى مثــل ذلك فى الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكاتبــة يبتدأ فيها بلفظ عُرِض . أما الأجوبة المتعلّقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض : وصل، أو ورد، أو نحو ذلك .

ثم هى على ضربين :

الضـــرب الأوّل

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم،وفيه ثلاثُ جمل)

الجمـــلة الأولى

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك المَشْرِق،وفيــه أسْلوبان)

الأســـلوبُ الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ: «كتابُنا» و «وصل كتابك»)

ويذكر تاريخ الكتاب، ويشار إلى ما فيه، ثم يؤتى بالجواب إلى آخره، ويختم باستماحة الرأى فى ذلك الأمر ؛ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة إلى حاجب الحُجّاب أبى القاسم سعدِ بن محمد ، وهو مقيم بنَصيبينَ على محاربة بادِ الكُردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مؤرّخا بيوم كذا، تذكر فيه ماجرى عليه أمْرك فى الخدمة التى نِيطَتْ بِكفايَتِك وغَنائِك ، ووُكِلَتْ إلى تدبيرك ورأيك : من رد بادِ الكُردىّ عن الأعمال التى تطرّقها ، وحدَّث نفسَــه بالتغلّب عليهــا، وتصرُّفك فى ذلك على مُوجِبــات الأوقات، والتردُّد بين أخينا وعُدّتنا أبى حَرْب زيادِ بنِ شهرا كويه وبينك من المكاتبات، وحُسْن بَلائك فى تخيُّفه، ومقاماتك فى حَصّ جَناحه، وآثارك

فى الآنقضاض علىٰ فريق بعدَ فريق من أصحابه ؛ وآضطرارِك إيّاه بذلك وبضُروب الرياضات التى آستعملتها، والسياساتِ التى سُسْت أمره بها، إلىٰ أن نزل عن وُعُورة المعصية إلىٰ سُهُولة الطاعة، وآنصرف عن مَجَاهل الغَوَاية إلىٰ مَعَالِم الهِدَايه ؛ وتراجع عن السَّوْم إلىٰ الآقتصار وعن السَّرَف إلىٰ الآقتصاد، وعن الإباء إلىٰ الآنقياد ، وعن الآعتياص إلىٰ الإذعان . وأن الأمر آستقر علىٰ أن قَبِلتَ منه الإنابه، وبذَلْتَ له فيما طَلَب الآستجابه، وآستُعِيد إلىٰ الطاعه، وآستضيف إلىٰ الجماعه، وتصَرَّف علىٰ أحكام الخِدمه، وجرىٰ مَجْرَى من تضُمُّه الجمله ؛ وأُخذت عليه بذلك العُهُود المستحكِمةُ والأيمان المغلّظه، وجُدّدت له الولايةُ علىٰ الأعمال التى دخلَتْ فى تقليده، وضربت عليها حدوده ؛ وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أخينا وعُدّتنا أبى حرب [زياد بن شهراكويه][1] مولىٰ أميرالمؤمنين ترِدُ علينا، وتصِلُ إلينا، مشتملةً علىٰ كُتُبك إليه، ومطالعاتك إيّاه، فنعرِف من ذلك حُسنَ أثرِك وحزم رأيك، وسَداد قولك، وصوابَ آعتمادك ؛ ووُقُوع مَضَارِبك فى مَفَاصِلها، وإصابةَ مَرامِيك أغراضَها، وما عَدَوْتَ فى مذاهبك كلّها، ومتقلّباتك بأسْرِها، المطابَقةَ لإيثارنا ، والموافقةَ لما أُمِرْتَ به عنّا ؛ ولا خلَتْ كتبُ أخينا وعُدّتنا أبى حرب من شكرٍ لسَعْيك، وإحماد لأثَرِك، وثناءٍ جميل عليك، وتلويحٍ وإفصاح بالمناصحة الحقيقة بك ، والموالاةِ اللازمةِ لك، والوفاءِ الذى لا يُستغرَب من مثلك، ولا يُستكثَرُ من حَلّ فى المعرفة محلَّك ؛ ولئن كنت قصدْتَ فى كل نهج آستمرّت عليه، ومَعْدِل عدلت إليه، مكالَفةَ هذا الرجل ومراغَمَته ، ومُصابرَتَه ومنازلَته ؛ والتماسَ الظهور عليه فى جميع ما تراجعتماه من قول ، وتنازعتماه من حَدّ ؛

---

(١) الزيادة من مختارات الصابى الخطية .

فقد ٱجتمع لك إلىٰ إحمادنا إيّاك ، وٱرتضائنا ما كان منك ، المنّةُ عليـه إذ سكّنْت جاشَه ، وأزلْتَ ٱستيحاشَه ، وٱستللته من دَنَس [لباس[1]] المخالفه ، وكسوتَه من حُسْن شعار الطاعه ؛ وأطلت يدَه بالولايه ، وبسطت لسانَه بالحجّه ، وأوفيت به علىٰ مراتب نُظَرائه ، ومَنازِل قُرَنائه ، حتّى هابوه هيبةَ الوُلاه ، وٱرتفع بينَهم عن مطارح العُصَاه .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعُدّتنـا أبى حرب مشكورا ، وعلىٰ هـذا الرجل مانًّا وفى إصلاح ما أصلحْتَ من الأمر مُثَـابا مأجورا ؛ وإيّاه نسأل أن يُجْرِى علينـا عادتَه الجاريةَ فى إظهار راياتنا ، ونُصْرةِ أوليائنا ؛ والحكمِ لنا علىٰ أعدائنا ، وإنزالهم علىٰ إرادتنا ، طَوْعا أو كرها ، وسِلْمـا أو حربا ؛ فلا يخلو أحدٌ منهم أن تحيط لنا بعُنُقه رِبقةُ أسر ، أو مِنّةُ عفو ؛ إنه جلّ ثناؤه بذلك جدير ، وعليه قدير . ويجب أن تُنْفَذَ إلىٰ حضرتنـا الوثيقةُ المكتتبةُ علىٰ بادِ الكردىّ إن كنت لم تُنْفِذها إلىٰ أوانِ وصول هذا الكتاب : لتكون فى خزائننا محفوظه ، وفى دواوِيننا منسوخه ؛ وأن تتصرّف فى أمر رسله وفى بقية [ان كانت بقيت من أمره[1]] علىٰ ما يرسُمُه لك عنا أخونا وعدّتنا أبو حرب ، فرأيك فى العمل علىٰ ذلك ، وعلىٰ مطالعته بأخبارك وأحوالك ، وما يحتاج إلىٰ عمله من جهتك موفّقا ، إن شاء الله تعالىٰ .

الاســـــلوب الثـــانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر فى ترتيبه علىٰ نحو ما تقدّم فى الأسلوب الذى قبله .

كما كتب أبو إسحـاق الصابى عن صَمْصام الدولة أيضا إلىٰ أبى العلاء عبيد الله ٱبن الفضل فى جوابِ كتابه الوارد عليه بالظَّفَر بأهل الاقتباس ما صورتُه :

(١) الزيادة من "مختارات الصابى" .

وصل كتابك ـ أدام الله عزك ـ المؤرّخُ بوقت الظهر من أمسنا وهو يوم كذا، تذكُرُ ماسهّله الله لك، وأجراه على يَدك، وبيُمْن تدبيرك، وبركة خدمتك: من الإيقاع بالعُصَاة أهل الاقتباس، وإذاقتهم وَبالَ ما كانُوا عليه: من خَلْع الطاعه، وشَنّ الغارة واستباحة المَحارم، وارتكاب العظائم؛ وإثخانك فيهم قتلا وأسرا، وتشريدا وتشتيتا؛ وفهمناه وحمدنا الله عليه، وشكرنا ماأولى فيه، وحَسُنَ منا موقعُ أثرك، وتضاعَفَ فيه جميلُ معتقَدنا فيك ولك؛ وارتضينا فعلَ الأولياء في الخُفوف إليه، والمناصحة فيه؛ وسبيلُكَ أن تبحثَ عن أموال هؤلاء القوم وتُحَرّرها، وتستدركها وتحصّلَها، وتكتُبَ بما يصح منها؛ وتتقدّم بقَصّ أثر المارين حتى تُلْحقَهم بالهالكين، وتُشيع الرهبةَ في سائر شِقّ الفُرَات، وتتوخّى طوائف الأشرار والخُرّاب، ومُخيفي السبل والساعين في الفساد بالتتبّع لهم ووَضْع اليد عليهم؛ فإنّ بحسب النّكاية في أهل الجهل والدّعارة سُكونَ أهل السلامة والاستقامه؛ فرأيك في العمل بذلك والمطالعة بما يوَفّقك الله له مستأنفا من مثل هذا الفعل الرشيد، والمَقام الحميد؛ وبسائر الأمور التي ترى عينها وتحتاج إلى معرفة مجاريها، موفّقا إن شاء الله تعالى والسلام.

الجملة الثانية

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مَقَامَ الملوك الآن فمن بعدهم)

والذي وقفت عليه منه أسلوب واحد، وهو الافتتاح بلفظ: «وصل».

كما كتب بعض كُتّاب الدولة الفاطمية عن بعض وزراء الحافظ إلى أمين الدولة زنكي كشنكين ماصورته:

وصل كتابك أيها الأمير الأجلّ الدالُّ على مصالحته، المُعربُ عن مناصحته، الشاهدُ له بمؤثّل الحُظْوة والأثَرة، والموضّح من أفعاله وخِلاله مالم تزل قضيته مرتَسِمة فى النفوس مُصَوّرة، وعرضنا مااقترنَ به من مطالعة المَقام المقدّس النبوى الحافظى ـ ضاعف الله أنواره، وشادَ مَنَاره، وأعز أشياعه وأنصارَه ـ وشفعناه من الثناء على الأمير الاسفَهْسلار بما لم تزل عادتُنا جاريةً به مع مَنْ نعلم طاعتَه، ونتحقّق مشايعته، ونرى باطنه يضاهى ظاهره، وسِرّه يوافِقُ علانيته، ووقفنا على ما أنهاه من حال الفَرَنْج المشركين الملعونين، وما كان من نِعَم الله تعالى من الظَّفَر بهم، والإدالةِ منهم، والخَفْض من مَنَارهم، والتقويض لعُمّارهم، والإبادة لفارسهم وراجلهم، وإرشاد السيُوف والسِّهام إلى مَقَاتلهم، وتطهيرِ الأرض منهم بدمائهم، والإحاطة بهم عن أيمانهم وشمائلهم، ومن أمامهم وورائهم، فابتهجْنا بذلك الابتهاجَ الذى يوجبه التوحيد، وانتهى بنا السُّرورُ إلى الحدّ الذى ماعليه مَزِيد. على أننا كنا نَوَدّ أن يكون ذلك بصِفَاحنا وأسنّتنا، وأن يُثْبِتَه الله لنا فى صحيفتنا، وإنا لراجونَ من نِعَم الله عندنا، وإحسانه إلينا كما عوّدَنا، أن يكون من بقِىَ من المذكورين بنا مستأْصَلا، ويكون أجر هذه الخاتمة لنا حاصلا. وقد عزم الله لنا عند وقوفنا على كتابه، بما خرج به أمرنا إلى جميع مَنْ بأعمال الدولة الحافظيّة خلّد الله ملكها. بعيدها ودانيها، وقَصِيِّها ونائيها من العساكر المظفّرة المؤيّده، وقبائل العُرْبان المستخلَصه، وكافّة الطوائف على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها، وتفاوُت منازلها، وتغايُرِ مراتبها، بأن ينْفروا خِفَافا وثِقَالا، ورُكْبانا ورِجالا، بقوّتهم ونَجْدتهم، ووُفُور عَدَدهم وعُدَّتهم، وكثرة آلاتهم وأسلحتهم، وبالعَزَمات الماضية، والضمائر الخالصة، والنِّيّات المستقِيمة، والعقائد المتّفقة، وفسّحنا للمتطوّعة أن يختلطوا بالمرتزِقه، وأمرناهم بمَسيرهم متتابعين، وتوجُّههم مترادِفين، وأن يكونوا كتائبَ متناصره، وجَحافِلَ متواتره، وعساكر متواليه،

لاترى الأرضُ منها إلى العدوّ خاليه ؛ ومن الله نطلبُ مادّةَ العون والإسعاد، ونسأله توفيقًا لما يقضى بتضاعف أجرنا فى العاجلة والمَعاد . وقد شكرنا الأمير الاسفهسلار كونَ ما أنهاه سببا لهذه الغنيمة المتوقّعة من فضل الله وإحسانه ، والنُّصرة لدينه التى نؤملها من جزيل كرمه وآمتنانه ؛ وأضفنا ما آقتضته مطالعته من جَذَلنا وغبطتنا ، إلى المستَقرّ عندنا من محبته لنا ، وإيثاره الذى لايُحتاج فيه إلى زيادةٍ على معرفتنا ؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالى .

* * *

وكما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى صاحب مكة المشرّفة، جوابًا عن كتابٍ ورد منه عليه فى معنى وُصول غِلالٍ بعث بها إلى مكة ماصورته :

وصل كتابك ، أيُّها الشريفُ مُعْرِبا عن المُشايَعة الشائعة أنباؤُها ، والمُخالَصة الخالصةِ أسرارها الوافرةِ أنصباؤُها ، وحسان الخلال ، التى آقتسم طرفَى الحمد إعادتُها وإبداؤُها ، ومكرّمات الآل ، التى تساوى فى آقتناء المجد أبناؤها وآباؤُها ؛ وفضائلِ الإفضال ، التى لاتخفُ على غير أهل العبَاءِ صلوات الله عليهم أعباؤُها . ونَشَر كتابُك من محاسنك ماآنطوى ، ووَرَدْنا منه مَنْهَلا أروى واردَه وآرتوى ؛ ووقفْنا منه على أثر فضلٍ آشتمل على عين الكَرم وآحتوى ؛ ووفقنا وإياه من الحمد مالا نُخْلِفه نحنُ ولا هو مكانًا سُوى ؛ فاقتضانا مزيدًا فى رفع قدرِه ، وآختصاصه من الإنعام بكلّ غريب المَوْقِع نَدْرِه ، وأصْرنا كتابَه إلى مستقرّ كاتبه من قلب الوُدّ وصَدْره ؛ وكيف لايكون ذلك وقد آشمخرّتْ لبيته الأنساب ، وخرّت الأنصاب ، وسجدت الرِّقاب ، ورُدّتْ له بعد ماتوارَتْ بالحِجاب ، وشَهِد بفَضْل توقيعهم الحربُ وبفضل ليلهم المِحْراب .

فأمّا ما أشار إليه من الشُكْر على ماسُيِّر من الغَلّات التى كان الوعدُ بها علينا نَذْرا ، وروّحْنا بإرسالها قلبا وشَرَحْنا بتسييرها صَدْرا ؛ وأنّها حلّت رِبْقةَ الجدب وفكّتْها ،

وجلَتْ هَبْوةَ القَحْط وكَفَتْهـا ، وهوّنَتْ مَصاعِب المَسَاغِب ، وخلَفَتْ سـواحبَ السحائب، وأطفأتْ ـ ولله الحمد ـ بَوارَ(١) النّوائب؛ فقد سُرِرْنا بحسنتنا جعله الله ممن تَسُرّه الحسنه، وقد نَبَّهنا من سِنَتِنا لأنْ نستَقْبِلَ بالحمد لولى الســنه ؛ وقد قوِىَ النيةَ وقوّمها، وأستزاد لهم بلسان الشكرِ الفصيح، وتناوَلَ لهم بباع التلَطُّف الفَسِيح، وألقحَ لهم سَحائبَ محلُّه منها مَحَلَّ مُلْقِحِها من الرِّيح ؛ وأقتضىٰ مايعرِضُه أن نخرج الأمرُ بأنْ يضاعَفَ المحمولُ فى كل عام، ولا يُخَصَّ به خاصٌ دُونَ عام؛ وأمَرْنا أن يوفَّر جَلَبُ الجُلّاب، وتُوقَّر ظهورُ الرِّكاب، ليُجْمَع لِلْحَرَم الشريف بين بِرِّ البر والبحر، وبين حَمْل البَطْن والظَّهر؛ فتظَلُّ السنةُ وَدُودا وَلُودا ، ويُشاهَدُ المحلُّ الشريفُ وقد نأىٰ عنـه المَحْلُ شَرِيدا ؛ ونُحَطُّ القلوع عما يَحُطُّ عنه أمثالهـا من السحائب، وتستريح الأنْفُسُ اللواغِب، فأما ماألقاه إلىٰ رسوله ، فقد أُسْمِعَ ماأسنده إليه، وأُعِيدَ بما يُعِيده عليه ؛ وقد تكاثرت بولَاء الشريف الأشهاد، فغَنِيَ عن الأستشهاد، وأغنته الحُظْوة بجميـل رأينا عمـا نأى أخذه لشُفْعة العطاء بل لشَفاعة الأجتهاد، إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثالثـــة

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الغَرْب)

وهى علىٰ النحو المتقدّم، وربمـا صُدِّر بلفظ : «قد» ونحوها .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم فى جواب كتابٍ ورد عليـه بطاعة بلد .

قد وصل كتابكُم ـ وصـل الله مَعُونَتكم وكَلَاءتكم ـ تذكرون ماتقرّر عنـدكم هنالك من أحوال تلك الجهة، وباشرتموه من أمورها؛ وأنتم عندنا بمَحَلِّ الصِّـدْق، ومكان الإيثار للحقّ . وقد رسمنا لكم أن تُثْبِتوا فى أهل تِلْكُم الجهاتِ كلِّها حميدَ الرأى

---

(١) لعله أبوار .

فيهم، وحسنَ القبول لإنابتهم، وقصدَ الرِّفق بخاصَّتهم وعامَّتهم؛ وأنّا قد تقبَّلنا أوْبتهم، واغتفَرْنا زِلَّتهم؛ وأولئكم المتشبِّثون بسبب الذِّمام، عرَّفوهم أنكم رَغِبتم فى شمول الصَّفح عنهم، والإقالةِ لما كان منهم؛ فأسْعَفْنا رغبتَكم فيهم، وأدخلْناهم فى العَفْو مع غيرهم؛ وبذَلْنا لهم الأمان، وأغضَيْنا عن جميع ما كان؛ فعرِّفوهم بهذا كلِّه، وأخبروهم عنَّا بإعطاء التأمينِ لجميعهم وبذْله؛ وإن كان أطيبَ لنفوسهم أنْ يصلَهم مكتوبٌ بذٰلك عرِّفتمونا، ووجَّهْناه إليكم. وأقيموا أنتم هُنالكم أيّاما خلالَ مايَصِلكم من مُتناقِل الأحوال ماتُطالِعُون به، وتخاطبُون بما تعتَمِدُونه إن شاء الله تعالىٰ. أدام الله كرامتكم.

أشرتم فى خطابكم إلىٰ أنَّ عندكم من تلك الأحوال ما تذكُرونه مشافَهةً، وربما يكون ذلك أمرا ينبنِى عليه نظر، أو يتوجَّه بحسبه عَمَل؛ فمن الجيِّد أن تكتُبوا بشرحه، إن شاء الله تعالىٰ والسلام.

الضرب الثانى

(الأجوبة الواردة علىٰ الملوك)

وهى علىٰ نحو ماتقدّم فى الأجوبة الصادرة عن الملوك من الابتداء بلفظ: «وصل» إلا فى الخطاب، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ«الخادم أو المملوك أو العبد». ويخاطِبُ الملِكَ المكتوب إليه بمولانا أو مولانا الملِكِ أو نحو ذلك؛ وربما كتب بدَل وصلَ: ورد.

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى جواب كتابٍ ورد عليه مخبرا فيه بالحركة لِلقاء العدوّ ماصورتُه:

ورَدَ علىٰ المملوك ــ أدام الله أيّامَ المجلس العالى المَلَكِىّ الناصرىّ، ونصره علىٰ أعدائه، وملّكه أرضَه بعَدْل حكمِ سمائه، ولا أخلىٰ من نعمتىْ خيره ونَظَره قلوبَ وعيونَ

أوليــائه ، وأعزّ الإسلامَ ورفع عن أهله البَلْوىٰ بلوائه . الكتبُ القديمة التى تسرّ الناظرين من شعارها الأصفر، وتبشّر الأولياءَ إن كانوا غائبين مع الغُيَّب بأن حظّهم حاضر مع الحُضّر، وقد كانت الفَتْرة قد طالتْ أيامُها ، واستطالتْ آلامُها ، والطُّرُقات قد سبق إلى الأنفُس إيهامُها .

فالحمدُ لله الذى أذهبَ عنّـا الحَزَن ، وأولىٰ من النعمة ما اشترىٰ الحمدَ بلا ثَمَن ؛ ذٰلكَ من فَضْلِ اللهِ علينا وعلىٰ الناسِ . ووعدُ [الله] سبحانه متنظَر، إذ يقول فى كتابه : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وصَدَق صلىٰ الله عليه وسلم فى قوله : "إنَّ اخْتِيارَ اللهِ للمُؤْمِنِ خيرٌ من اختياره، وإنَّ مواضِعَ الأمَلِ للعَبْد خيرٌ منها مواقعُ أقضيةِ اللهِ وأقدارِه" . فقد كانتْ حركةٌ احتاجتْ إليهـا البلاد التى انفصل عنها، والبلادُ التى قَدِم عليها . أما المصرية منهـا فبكونها علىٰ عِدَةٍ من نَجْدته آجلا، وأما الشاميــة فبكونهـا علىٰ ثقةٍ من نصره عاجلا ؛ فقد تماسكتْ من المسلمين الأرماق، وقد انقطعت من المشركين الأعناق :

تُهابُ بك البِلادُ تحُـلُّ فيهـا ＊ ولَوْلا اللّيْثُ ماهِيبَ العَرِينُ!

وعرض المملوكُ ماوصل إليه من مكاتبات المولىٰ علىٰ العِلْمِ العادلىّ وأدركها تحصيلا، وأحاط بها جملةً وتفصيلا ؛ والمولىٰ ـ خلّد الله ملكه ـ فكلُّ ما أشار إليه من عزيمة أبداها، ونيــة أمضاها ، فهو الصوابُ الذى أوضح الله له مسالِكَه ، والتوفيقُ الذى قرّب الله عليه مَدارِكَه ؛ ومن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شىء ، ومن استخاره بيّن له الرُّشْدَ من الغَىّ ؛ والله تعـالىٰ يجعلُ له من كلِّ حادثةٍ نَخْوه[1] ، ويكتبُ أجْرَه فى كلِّ حركةٍ ونَفَس وخَطْوه . إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) النخوة العظمة

القســـــم الثـانى

(المكاتباتُ الصادرةُ عنهم إلىٰ ملوك الكُفْر، وفيه طرفان)

الطــــــرف الأوّل

(فى الابتداءات، وفيـــه ثلاثُ جمــل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بنى بُوَيه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفْتتح المكاتبة بلفظ "كتابى أو كتابنا إلىٰ فلان" ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك، ويختَم بقوله : فإن رأىٰ ذلك فعل إن شاء الله تعـالىٰ .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن القائد أبى الفَوَارس ختور التركى المعـزى، إلىٰ وردس بن قُنْبَر المعروف بسقلاروس .

[كتابى إلىٰ] ملك الروم الفاضل، الجليل، النبيل، الخطير، أدام الله كفايته وسلامته، ونعمته وسعادته، وعافيته وحراسته. من الحضرة الجليلة بمدينة السلام لثمانِ ليالٍ خلَوْنَ من ذى الحجة سـنة تسع وسبعين وثلثمائة، وهو اليوم التـاسع من أَذار، عن شمول السلامه، وعموم الاسـتقامه؛ وصـلاح حالى فى ظل الدولة المنصوره . والحمدُ لله رب العالمين وحده لاشريكَ له، وصلّى الله علىٰ محمد وآله وسلم تسليما .

ووصل كتابُ مولانا ملكِ الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمَرْج لارضة بتاريخ التاسـع من حَزِيرَان، وفهمته وجلّ عندى مَوْقِعُه، وعظُم فى نفسى خَطَرُه؛

وحمدتُ الله على ماشهِدَ به من انتظام أحواله، واطّراد أموره، وسألته أن يتمّ النعمة عليه، ويزيدَ فيها لديه، ويواصل إحسانه إليه، ويطيلَ مدّته، في أتمّ رُشْد وهداية، وأرفع قَدَم ومنزلة، وأعلى خطرٍ ورتبة، بمنّه وطَوْله، وجُوده ومجده .

فأما ماذكره سيدنا الملك الجليل: من مُقامه على العهد، وافتقاره إلى الميل والودّ، فذلك يوجبُ فضلَه البارع، وكرمه الشائع، وخلالَ الخير التي أهلّه الله لها، وخصّه الله بها، وبالله أحلف إنّني ماخلوْتُ منذ افترقنا من مطالَعَة أخباره، وتتبّع آثاره، واستعلام مجاري شُئُونه، والسرورِ بكل ماتمّ له ووصل إليـه؛ حتّى كأنني حاضرٌ له، وضاربٌ بأوفَر سهم فيه، بل مخصوصٌ بجميعه . والله يُجْريه على أحسن ماأولاه وعوّده، ولا يُخْليه من الصُّنْع الجميل فيما أعطاه وقلّده، برحمته .

وكنتُ قبل ذلك عند وُرُود رسولي في الدَّفْعة الأولى على غاية الغَمّ وشُغُل القلب بسبب الغَدْر الذي لحِقه من عدوّه الذي أظفره الله به؛ وأنهيتُ ذلك في وقته إلى الملك السعيد الماضي، شرف الدولة، وزينِ الملة؛ رضى الله عنـه . فاشتغل قلبُـه ــ رحمه الله ــ به، وعَمِل على إنفاذ العساكر لنُصْرته؛ ثم أتى من قضاء الله في أمره ماقد عَرَفه .

ولما انتصب في المملكة مولانا السيدُ بهاءُ الدولة، وضياءُ الملة ــ أطال الله بقاءَه ــ شرحْتُ له ماجرى قديمـا على سِياقته، ومهّدت الحالَ عنده، ووجدتُه ــ أدام الله سلطانه ــ معتقدا لسيدنا ملك الروم الجليل ــ أدام الله عزّه ــ أفضلَ اعتقاد، وسُر بمـا انتهتْ إليه أمورُه، وتنجّزت الكتبُ إلى مُوصِلها الرسول حفظه الله؛ وسمعت منه ما كان تحمّله عن سـيدنا ملك الروم أدام الله تأييـدَه، وأخرجت معه صاحبي أبا القاسم الحسين بن القاسم، وحمّلتهما جميعا مايُنْهيانِه إليه في سائر الأمور التي يرى عَرْضها ويحتاج إلى معرفتها .

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل ـ أدام الله بركته ـ تعجيلَ ردّه إلىّ ، فانه ثقتى، ومن أسكُنُ إليه فى أمورى؛ وأن يتفضّلَ ويكلّفنى حوائجَه ومهمّاته، وأمْرَه ونهيَه لأقوم فى ذلك بالحق الواجب له، فان رأى سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل، الخطير النبيل، أن يعتمدنى من ذلك بما يتضاعف عليه شُكْرى، وتجِلُّ النعمةُ فيه عندى، ويشاكل الحالَ بينه وبينى، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفتُ عليه من ذلك أُسْلوب واحد : وهو الآبتداء بـ«أما بعد» والخطابُ فيه بالمَلك، والآختتامُ بالدعاء .

كما كتبَ القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ بردويل أحد ملوك الفَرَنج، وهو يومئذ مستولٍ علىٰ بيت المَقْدس وما معه، معزّيا له فى أبيه ومهنّئا له بجلوسه فى المُلْك بعده، ماصورته :

أما بعد — خصّ الله الملك المعظّم حافظَ بيت المقدس بالجَدّ الصاعد، والسّعد الساعد ، والحظّ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنّاه من ملك قومه ماوُرّثه ، وأحسن من هداه فيما أتىٰ به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوبَ الأَصَادق(١) ، والنّعيِ الذى وَدِدْنا أنّ قائله غيرُ صادق ؛ بالمَلِك العادل الأعزّ الذى لقّاه الله خيرَ مالَقّىٰ مثله ، وبَلّغ الأرضَ سعادته كما بلّغه محلّه ؛ مُعزّ بما يجب فيه العَزاء ، ومتأسّف لفقده الذى عظُمت به الأرْزاء ؛ إلا أنّ الله سبحانه قد هوّن الحادث، بأنْ جعل ولَدَهُ الوارث، وأنسىٰ المُصاب، بأن حفِظَ به النّصاب، ووهَبَه

---

(١) جمع جمع لصديق مفرده أصدقاء .

النعمتين : المُلكَ والشّباب ، فهنيئاً له ماحاز ، وسَقْياً لقبر والده الذى حَقَّ له الفداء لو جاز ؛ ورسولُنا الرئيسُ العميدُ مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العزاء من لسانه ، ووَصْفِ مانالنا من الوَحْشة لفراق ذلك الصـديق وخُلُوّ مكانه ؛ وكيف لا يستوحِشُ ربُّ الدار لفُرْقة جِيرانه . وقد آستفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووُدّنا الذى هو ميراثُه عن والده من وِدادنا ؛ فليَلْقَ التحيّةَ بمثلها ، وليأتِ الحسـنةَ ليكون من أهلها ؛ وليعلمْ أنّاله كما كنا لأبيـه : مودّةٌ صافيـه ، وعَقِيدةٌ وافيـه ، ومحبّةٌ ثبت عَقْـدُها فى الحيـاة والوَفاه ، وسريرةٌ حَكمتْ فى الدنيا بالمُوافاه ؛ مع مافى الدِّين من المخالَفات . فليسترسِلْ إلينـا آسـترسالَ الواثق الذى لايَخْجَل ، وليعتمِدْ علينا آعتمادَ الولد الذى لايحِلُّ عن والده ماتحمّل ؛ والله يُدِيم تعميره ، ويحرُسُ تأميره ؛ ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويُلهِمُه تصديقَ ظنِّ الصديق .

الجمـــلة الثـالثة

(فى الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغَرْب)

والرسم فيه أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ : «كتابنا» والمخاطبةُ بنونِ الجمع عن المكتوب عنه وميم الجمع عن المكتوب إليه ، والآختتام بالسلام مع الدعاء بمـا يليق .

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة عن أبى جَميـل زَيّان ، إلى ملك قَشْتالة من بلاد الأندَلُس فى مُراوَدة الصُّلح :

كتابُنا إليكم ـ أسعدكم الله برضاه ، وأدام عِزّتكم وكرامتكم بتقواه ـ من مُرْسِيَةَ ، ونحن نحمَدُ اللهَ الذى لاشىءَ كمثله ، ونلجأ إليه فى أمرِنا كُلِّه ، ونسأله أن يُوزِعَنا شكر إحسانه وفضلِه ـ وعندنا لجنابكم المُرفَّع تكرِمة نستوفيها ، ومبرّة نتنهى إلى الغاية فيها ، وعلمُنا

بحلّكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعى الزيادةَ من ذلكُمْ ويقتضيها؛ وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صُنْعه فى انتظام الكلمة فى هذه البلاد، ما اكتنفته العِصْمه، وكَمُلت به النّعمة والمِنّه؛ وتيسّر بمعونة الله فتحٌ أقرّ العيون، ورضيه الإسلام والمسلمون، وكانت مطالعتُكم به مما آثرنا تقديمه، ورأينا أن نحفظ من الأسباب المرعيّة على التفصيل والجملة [حديثه وقديمه] وحين ترجّحت مخاطبتُكم من هذا المكان، ومفاوضتُكم فى هذا الشان؛ رأينا من تكملة المبَرّه، وتوفية العناية البَرّه؛ أن نُنفِذ إليكم من يُشافِهكم فى هذا المعنىٰ، ويذكر من قَصْدِنا ما نُولَع به ونُعْنىٰ؛ وهو فلان فى ذكر السِّلْم ومحاولتها، ما يتأدّى من قِبَله علىٰ الكمال بحول الله تعالىٰ .

وإن رأيتم إذا انصرف من عندكم، أن توجّهوا زيادةً إلىٰ ما تُلْقُونه إليه من رجالكم وخاصّتكم؛ فى معنىٰ هذا العهد وإحكامه، ومحاولته وإبرامه؛ فعلتم من ذلك ما نرقُبُ أثره، ونصرِفُ إليه من الشكر أوفاه وأوفره، إن شاء الله تعالىٰ : وهو الموفّق لا ربَّ سواه، والسلام الأتمّ عليكم كثيرا .

الطَّرَف الخامس عشر

(المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر فى الأجوبة [وهى] إما أن تصدّر بما يصدّر به الابتداء وقد تقدّم، وإما أن تصدّر بلفظ وصل أو ورد) .

كما كتب بعض كُتّاب الدولة الأيوبية عن الملك الجَوَاد : أحد ملوكهم، فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، جوابَ كتابٍ ورد عليه من فرانك : أحد ملوك الفرنج فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة :

وردت المكاتبة الكريمةُ الصادرةُ عن المجلس العالى، المولى، الملك، الأجل، الأعز، الكبير، المؤيَّد، الخطير، العالم العامل، الظَّهير، العادل، الأوحد، المجتبىٰ، شمس الملة النَّصرانيــه، جلال الطائفة الصليبيه، عضــد الأمة الفرَنْجيه، فخر أبناء المعموديَّه، عمدة الممــالك ضابط العساكر المسيحيه، قيصر المعظَّم فلان معزِّ إمام روميه، ثبَّت الله لديه نعمه، وعزَّز موارد جوده وديمَه، وأمضىٰ صوارمَ عزائمــه وأعلىٰ هِمَمَه، ولا بَرِحتْ أنوار سعده، تتلالا، وأخبار مجده، تُبْسَط وتتعالىٰ، وسحائبُ الألسِنة الناطقة بحمده تستهِلُّ[1] وتتوالىٰ، إلىٰ أن يتحلَّى جيــدُ الضُّحىٰ بعُقُود الليــل، وتطْلُعَ الشعرىٰ من مَطَالع سُهَيل ـ فجدّد الثناءَ علىٰ جَلَاله، وأكَّد المديحَ لإحسانه وإفضاله، وأنفَسَ أســبابَ المودَّة والمصَافاه، وشدّد أواخِىَ الإخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بُوروده، وسُرَّت القلوبُ بوُفُوده، ووُقِف منه علىٰ الإحسان الذى نعرِفه، ووُجِد عِقْــدُه مشتملاً علىٰ جواهر الوداد الذى نألَفُه، فشُكْرُ الله علىٰ هــذه الأُلْفة المنتظمه، والمحبَّة الصادقة المكرَّمه. والمجلس العــالى الملكُ الأجلُّ أعلىٰ الله قدره، ونشر بالخير ذكره، أولىٰ من أهدىٰ المسرَّات، بوُرُود المرَاسم والحاجات، ووصَلَ الأنس بكريم المكاتبات، مضَمَّنةً السوانحَ والمُهِمَّات.

فأما ماذكره المقام العالى السلطانىّ الملكىّ الكاملىّ الناصرىّ ـ زاده الله شرفا وعلوّا ـ من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتَقَد فى صِدْق عهده، وخالص وُدِّه، ولا زال ملكه عاليا، وشرفُه ناميا، إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) لعله تنهمل.

الفصـــل الرابع

من الباب الثانى من المقـالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية، على ما آستقر عليه الحالُ من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة، مما أكثره مأخوذٌ من ترتيب الدّولة الأيوبية التى هى أصـــل الدّولة التركية، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلفـاء من بنى العبّاس)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بنى العباس أنها على أساليب فى آبتداء المكاتبات: منها مايفتتح بآية من القرءان الكريم ثم بالسلام؛ ومنهـا مايفتتح بالسلام آبتداءً؛ ومنهـا مايفتتح بالصـلاة على الخليفة على مذهب من يرى جواز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ ومنها مايفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذى ذكره المقرّ الشّهابىّ بن فضـل الله فى كتابه "التعريف بالمصـطلح الشريف" ممـا الحال مستقرٌّ به أن المكاتبة إلى ديوان الخلافة الشريفة: «أدام اللهُ أيامَ الدّيوانِ العزيز، المولوىّ، السـيّدىّ، النبوىّ، الإمامىّ، الفلانىّ» ثم الدعاء المعطوف، والصدر بالتعظيم المألوف؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو: «أدام الله سلطان» و«خلد الله سلطان» أو «أيام» أوغير ذلك ممـا يقتضى العزّ والدّوام . وأن الصدر نحو: «العبد، أوالمملوك، أوالخادم، يقبّل الأرضَ أوالعَتَبات أومواطئَ المواقف» أوغير ذلك . وأنّ ختم الكتاب يكون تارةً بالدعاء، وتارةً بـ«طالع أوأنهى»

أو غيرهما ممـا فيه معنىٰ الإنهاء . ويخاطَب الخليفةُ فى أثناء الكتاب بالديوان العزيز، وبالمواقف المقدّســة أو المشرّفة، والأبواب الشريفة، والبـاب العزيز، والمقـام الأشرف، والجانب الأعلىٰ أو الشريف . وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا، ومَرّةً غير مجرّدة، مع مراعاة المناسَبة، والتسديد والمقارَبة . وأن خطاب المكاتب عنه بحسَب من كُتِب عنه : فكتب بعضُ ملوك بنى أيوبَ بالديار الشامية «الخادم» . وبعضهم «المملوك» وبعضهم «العبـد» وبعضهم «أقلّ الممـاليك» وبعضُهم «أقلّ العبيد» . وأن علاء الدين خُوارِزْم شاه : صاحب بلاد خُوارِزْم وما معها ، وآبنه جلال الدين كانا يكتبان «الخـادم المِطْواع» ، وأن أمّ جلال الدين كانت تكتب «الأَمَةُ الداعية» . قال : فى "التثقيف" : وعنوانه «الديوان العزيز» إلىٰ آخر الألقاب، ثم الدعاء يعنى من نِسْبة الصدر، نحو «أدام الله أيامه وخلّد الله سلطانه» وما أشــبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه «الخادم» أو «المملوك» أو «العبد» . وكتب بعضهم «أقلّ الممـاليك» وبعضهم «أقلّ العبيـد» . يريد أنّ العلامة تكون مطابِقة لمـا يقع فى أثناء المكاتبة عن المكتوب إليــه من الخادم وغيره ممـا تقـدّم ذكره، بحسَبِ ما يُؤْثِر الملك المكتوب عنه الخطابَ به عن نفسه .

وهذه علّة صدور مختلفاتِ الابتداءات منقولةٍ من التعريف وغيره .

أما قَطْع الورق الذى يكتب فيــه إلىٰ الخليفة، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق فى المقالة الثالثة، نقلا عن آبن عمر المدائنىّ فى "كتاب القـلم والدواة" أنه يكتب للخلفـاء فى قِرْطاس من ثُلُثَىْ طُومار ، وأن المـراد بالطُّومار الفَرْخة الكاملةُ ، وأن المراد الورق البغدادىّ ؛ وحينئذ فينبغى أن يُجْرَى الأمر علىٰ ذلك تعظيمًا للخلافة .

صدر : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، ولا زالتْ سيوفُ أوليائه فى رقابِ أعدائه مُحَكَّمه، وصُنوفُ الكفّار، فى أيدى عسكره الجَرّارِ، بالنّهاب مقَسّمه، وصفوفُ أهل الشرك مُزَلْزَلة بخوافق أعلامه المطهّرة وسَنابِكِ جيادِه المطَهّمه؛ ولا برِحَتْ ملائكة النصر من أمداده، وملوكُ العصر بيضَ الوجوهِ بتعظيم شِعار سَوَادِه .

الخادم ينتهبُ ثَرىٰ العتبات، الشريفة بالتقبيل، وينتهى فى قُصارىٰ الطَّلِبات، علىٰ الوقوف فى تلك الرُّبوع، ويكَلِّل رُبىٰ تلكَ الساحات، هو وكُلُّ آبنِ سبيل بلآلئ الدُّموع، خضوعًا فى ذلك المَوْقف الذى تُنْكِر القلوبَ فيه الصُّدور، وتَلْصَق منه الترائبُ بالنُّحُور، ويُظهِر سِيمَا الجَلالةِ فى الوجود، ويُشْفِق علىٰ الأولياء فيُعْرَفُون بسِيماهُمْ من أثَر السُّجود . ويُنْهِى أن وَلاءَه القديم، وبَلاءَه العظيم، وأيّامَه السالفه، وأفعالَه التالدةَ والطارفه، وسوابقَ خِدَمه فى آمتثال الأوامرِ الشريفـة التى لم يزَلْ يتسارع إليها، ويُقارع عليها، ويُصارِع غُلْبَ الأُسُود علىٰ تنفيذ مَرَاسِمها، وإقامة مَوَاسِمها، وإطارة صِيتها، ودوام تثبيتها، تحمِلُ الخادم علىٰ الآسترسال، وتُجْمِل له السؤال، والذى ينهيه كذا وكذا .



صدر آخر من "التعريف" : أدام اللهُ سلطانَ الديوان العزيز، ولا زالت الخلائقُ بكَرَمه مُضَيَّفه [والكاتبُ فى هَجِيرِ وَطيسه مصيِّفه][1] . والأبصار فى نَصْر أنصاره مصَنِّفه، والمواضى بأوامره فى قَبَضات عساكره مُصَرَّفه، والنقودُ إلا ماتَشرَّفَ باسمه مُزَيَّفه، والقلوبُ فى صدُور الأعداء بخَواطِف رُعْبه مُسَيَّفه، والوعودُ إلا بما تُنْجِزه مواهِبُه مُسَوَّفه، والوغىٰ لاتُرىٰ إلا برماحه مثقّفة، والسماءُ وإن علَتْ لاتكون

(١) الزيادة من "التعريف" .

إلا لأذيالِ سُيوفِه مسَجِّفه، والَمهابةُ بسَطَاه إما لَلعَاقل فاتحةٌ وإمّا عمّاً يُطْمع أن تنالَه الأيدى منهـا مُجحِفه، والاُمَمُ علىٰ آختلافها تحتَ راياته المنصورة مقاتِلةٌ وأخرىٰ له مُخَالِفه ، والأعلام التى يأوِى إليها الإسلامُ به جِوارَ الجوزاء مخلِّفه ، والأبطالُ لقتال الكفر ببوارق سُيوفه، قِبَلَ مَضايق صُفُوفه، ومَخَارِقِ زُحُوفه مُحَوِّفه .

الخادم يُقبِّل بوَلائه إلىٰ ذلك الجَنَاب ، ويقبِّـل الأرض وكِتابهُ يُحسن المَنَاب ، ويُقيل عثراته إذْ كانــ به قد لاذَ، ويُقِيم معَاذيرَه إذ كان به قد عاذ ، ويتسربَل بطاعته سَرابِيلَ تَقِيه إذا خاف من سِهام الدهر إلىٰ مُهْجته النَّفاذ، ويصُول بانضمامه إلىٰ تلك العِصابة المنصورة لا بمـا يُطْبَع من الفُولاذ ، ويُجِلّ تلك المواقفَ المقدّسة أن يبُـلّ مواطِئَها بدمعه ، وأن يُحُلّ مواطِنها بقلبه قبل أن يُعاجِل كلّ عدوّ بقمْعه ، ويَعُـدّ ماهُدى إليـه من الاعتصام بسببها سبباً لفوْزه ، ومُوجِبا لِملك رقّ عنق كلّ عاص وحَوْزه ، وينهى كذا وكذا .

* * *

صدر آخر : خلّد الله سلطان الديوان العزيز ! ولا زالت أيامُه شامخةَ الذّوائب ، شارخةَ الصِّـبا [حتى] حيثُ يلحَقُ الشَّيبُ الشوائب ، راسخـةَ الفَخَار فى الظُّهور بالعجائب ، نافخةً فى فَحْم الليل جَمْر الكَتائب ، صارخةً والرعدُ ترتعد فرائصُه بيـن السَّحَائب ، ناسخةً دولةَ كلِّ علياءَ بما تأتِى به من الغرائب ، وتبْذُلُه من الرَّغائب ، فاسخةً عقد كلّ خالع يَرُدّه الله إليهارِدّةَ خائب ، باذخةً علىٰ ماضِى كلّ زمانٍ ذاهبٍ من عُصُور الخُلَفاء الشرفاء وآئب ، سانخةً لِجلْدة كلّ أَيْم[1] ظَنّ أنّ فى أنياب رُمْحه النَّوائب .

الخادم يقبّـل العَتَباتِ الشريفةَ ساجدًا بجَبِينه ، وشاهدًا يستأديه له علىٰ يَمِينه ، وجاحدًا كلّ وَلاء سوىٰ وَلائه المعقود بيَمِينه ، وعاقدًا بشَرف الانتساب إليه عَقْد دِينه ،

(١) الأيم ككيس والايم بالكسر الحية أنظر القاموس .

وحامدًا اللهَ الذى جعله [من](١) طاعةِ أميرِ المؤمنين عند حُسْن يقينه؛ وعائذًا بأملِه إلى كرم تُثمر به الآمال، وتُقمِر به اللّيالى لأنها شعارُه الذى تُضْرَب به الأمثال، وتُمطِرُ به السُّحُب الجَهَام فتُمحىٰ بها آيةُ الإمحال . وينْهِى وُرودَ المثال الشريف الذى طلَع نيِّره فأنار، وسطَع متضادُّه فألَّف بين الليل والنهار؛ وأقبَلَ فما رآه إلا كآبةُ الذى أوتيَه باليمين، وسحابةُ الذى أُعطِيَه يندىٰ منه الجبين؛ ونَصَره أكثَرَ من الألوف، وأنصفَه أعجلَ من السيوف، وزاحَمَ به الدهرَ فضلا عن الصُّفوف، وزارَ به الوَغىٰ لايَهابُها وخَطِّيَّاتُ القَنا وقُوف(٢) ؛ فتشرّفَ به وطار بغير جَناح، وقاتَلَ بغير سلاح، وقرأه وباتَ قِرَّى له فى السَّماح، وتسلَّمه كأنما تسنم به المَعاقِلَ وتسلَّمَ منه المِفْتاح .

* * *

صدر آخر : خلَّد اللهُ أيامَ الديوان العزيز! ولا زالتْ سَطَواتُه تُجَدِّدُ برُعْبِها الأبطالُ المدَجَّجة ، وتَخْمُد بفَيْضها النّيرانُ المؤجّجه، وتَحْمِل برِكْزِ نفاذها إلى القلوب الرِّماحُ المزَجَّجه، وتَخْجَل معها بعوائد كَرَمِها السحُبُ المثجَّجه، وتخِفُّ لديْها أوقارُ الجبال المفَجَّجه، وتخِرُّ بل تخور خوْفا أن ترْقَى إليها الأصواتُ المضجَّجه ، وتَخُصُّ بالغَرَق من خاطَرَ فى بحارها الملَجَّجه، وتحلِفُ بسلطانها للموتُ أشهىٰ من البقاء إلى طَرائد سيوفها المُهجَّجة، وتخلِّد النصرَ بحُجَجها القائمةِ على الخُصَماء المتحجِّجه .

الخادمُ يقلِّب وجْهَه فى سماء الفَخار بتقْبيل الأرض التى طالَتِ السماء، فأطالَتِ النَّعماء، وفضَلت النجومَ اللّوامع، وأُوتِيَتْ بمالكها ـ أعزَّ الله سلطانه ـ كَلِمَ الفَضْل الجَوامع، وأحلَّت شَوامِخَ المَجْد مَنْ حلَّها ، وأجلَّتْ قدرَ من جَدّ فأجَلَّها ، وأعطَتْ مَفاتيحَ الكُنوز كُنوزَ الشّرف لمن قَبَّلها كما يقَبِّل الحجيجُ الحجَرَ، أو أمَّلها كما يؤمِّلُ السارى طُلُوعَ القمر؛ وينهى كذا وكذا .

---

(١) من من "التعريف" وهى لازمة لوضوح المعنىٰ .

(٢) فى التعريف "وخطار" وكل صحيح .

*
* *

صدر آخر : قال فى "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام الله أيام العدل والإحسان، والنِّعم الحسان، والفضل المشكور بكلّ لسان ؛ الأيّامَ التى أشرق صَباحها السّافر، وعمّ سَماحها الوافر، وآمن بيُمْنها كلُّ مُسْلم ضُرِب عليه سُرادقُ الليل الكافر، وعلَتْ شموسُها وقد جنحت العصور الذّواهب، وقُدحتْ أشعّتها فأضاءتْ بين لابَتى الغَياهب، أيّامَ الديوان [العزيز المولوى، السيدى، النبوى ، الإمامىّ، الحاكمى،][1] لابَرِحتْ أيامُه مقتّنه ، وأحكامُه مقنّنه ، وسُحُبه على الظِّماء محتّنـه، وقُرَبُه بفقد ماحوَتْه مجتّنه ، وحقائقُه غير مَظنّنه، وطرائقُه للخير مسنّنه ، والخلائقُ تحت جناح رأفته ورُحْماه مكنّنه ؛ ولا زال ولاؤه ضميرَ من آعتقد، ومُميرَ من أخذَ من الدهر ماآنتقد، ومُبيرَ الأسود المتضائلة لديه كالنَّقد، وسَميرَ من تَنَبّه وهَجيعَ مَنْ رقَد ، ومُبيرَ البَرْق ندىٰ كرَمه وقد وقَد ، ومُغيرَ متعالى الصّباح من راياته العالية بما عقَد، ومُجيرَ مَنْ لاذَ به حتّى لايضُرُّه من فَقَد، ومُبيرَ عِداه بردَاه الذى إن تأخّر إلىٰ حينٍ فقَدْ .

الخادمُ يخدُم تلكَ العتبات الشريفةَ التى إن تاهتْ علىٰ السماء فَما ، وإن دنتْ للتقبيل فإن الثُّرَيّا تودّ أن تكُونَ فَما؛ وينْهَب ترابَ تلك الأرض التى هى مَساجد ، ويُقبّل ذلك البساطَ الذى لامَوضعَ فيه إلا مَكانُ لاثِمٍ أو ساجِد ؛ وينزّهها عن سَواكب دمعه : لأنّ ذلك الحرَمَ [الآمن][1] لاتُحَلُّ فيه الدماء، ويُجِلُّها عن مواقع لَثْمه لأنها لا تَلثُمُ السماء ؛ ويرفع صالحَ الدعاء وإنما إلىٰ سمائها يرفَعُه، وينْهى صادقَ الولاءِ وماثَمّ من يدْفَعُه، وينتخِرُ من صحيح العُبودِيّة مايرجو أنه ينفَعُه؛ ويطالع العلومَ الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .



صدر آخر : أدام الله النعمةَ على الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نِعَمه فالنِّعم في ضِمْنها ، وملأ الآمالَ منها وأفاض من أنوارها التي علم قَرْن الشمس أنّه غير قِرْنها ، وأدالَ دولتَه التي تزل الخلقُ من جنّات عَدْلها جنّاتِ عَدْنها ، وأمضى سيوفَها التي تضرِب فيُعْرَف ضمير النصر في لحنها، وأعلى آراءها التي تلقى العُدَاة بدُرُوع يقينها ، وتلقى الغيوبَ بسَهْم ظَنِّها ، ولا زالت البشائر تتبارى إليه بُرُدُها ، ويضفو على أعطاف الإسلام بُرْدُها ، ولا برحت راياته سُوَيْداتِ قلوب العساكر ، وأجنحةَ الدعاء المحلّق إلى أفق السماء من أُفُق المنابر ، وولاؤُها السرّ المبْهَمَ الذي هو مما تُبْلَى به السرائر . الخادم .....



صدر آخر : أعلى الله الموحِّدين على المُلْحدين ، وثبّت كلمةَ المتّقين على اليَقين ، بدوام أيّام الديوان العزيز ورَوّض بوَلايته كل ديوان ، ووسَم بوَلائه كُلَّ أوان ، وأنطق بحمده كلّ لسان ، وألْهم الخلقَ أن يعنونوا بطاعته صحائفَ الإيمان ، وأسعدهم بما يتناولُونه في الدنيا من كُتُب المِنَن وفي الآخرة من كُتُب الأمان ، فكلُّها طائرٌ في العُنُق يكونُ بالطاعة قلائدَ بِرّ في الأطواق ، وبالمعصية جوامعَ أسْرٍ في الأعناق .

ورد على المملوك كتابٌ إن لم يكُنْ أُنزِل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم كتاب من السماء ، وإن لم تنزل ألفاظُه بالماء ، فهو من الذين أنزلَتْ ألفاظُ دعواتهم الماء ؛ وإن لم يكن كتابَ العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قِطٌّ عُجِّل له قبل يوم الحساب ؛ ولولا أن أُمَّ الكتاب أعقمتْ لكان ابنَ أمِّ الكتاب ، وإنْ هو إلا طائر ألزم في عُنقه وما وَكْر طائره إلا المحراب .

⁂

صدر آخر : أتمّ الله ما أنعم به على الديوانِ العزيزِ وعلى الخلق، وأشركَ في هذه النّعمــةِ أهلَ الغرب والشّرق ، وميّزَ الحظوظَ فيهــا بحسَبِ درجات السّبْق . فإنه ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أنفق مِنْ قَبْلِ الفَتْح وقاتَلَ أُولَئِكَ أعظَمُ درجةً من الذين أنفقُوا من بَعْدُ وقاتَلُوا وكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾ والله لايخلف موعده، والديوانُ العزيزُ لايكدّر مَوْرِدَه، ولا رَفَع عن أيدى الخَلْق يَدَه، بل يجرى عليها ماضَمِنه، ويمكّنها بمــا بَسَط لها فى الأرض ومكّنه، ويُرسِلُ عليها سحائبَ رحمتــه ، وينشئُ منها ناشــئةَ نعمتِه ؛ ويوجّه إلى قلبها وجهَ كلِّ أمَل ،ويُفيض طُوفانَها فلايكون به للغليل قِبَل، ولا يأوى إلى حَصَاة قلْبٍ فيعصمها ولو أنه جبَل .

قلت : ولم أقف على مكاتبة عن أحدٍ من ملوك الديار المصرية إلى أبواب الخلافة مُذْ صارت دارُ الخلافة بالديار المصرية . والظاهر أنه لم تَجْرِ مكاتبــةٌ عن السلطان إلى الخليفة، لأنّ الخليفةَ لايكاد يُفارق الســلطانَ سفَرا ولا حضَراً مفارقةً تُوجِب المكاتبةَ إليه، كما أشار إليه صاحب "التثقيف" . وقد لَوّح فى "التعريف" إلى ذلك فقال : وأوّل مانبدأ بما يُكْتَب به إلى الأبواب الشريفة الخليفتية (كذا) زادها الله شَرفًا، جريًا على قديم العاده، ورجاءً لملاحظة السّعاده .

وهذه نسـخةُ مكاتبةٍ من هذا النوع ممــا كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسفَ بن أيوب» رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغدادَ فى أيام الناصر لدين الله بخبرِ ملك الألمــان من الفَرَنْجة والقتال معه ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه ، يُوضّح فى هذا الموضع بيانَ هذا الأسلوب، ويُغْنى عن مراجعة [كثيرٍ] من الأمثلة المذكورة فى المكاتبات إلى الخلفاء على ما تقدّم ، وهو :

أدام اللهُ ظلَّ الديوان العزيز النبوىّ، الإمامىّ، الشريف الناصرىّ ، ومدّه على الأمة ظليلا، وجعلَ الأنوارَ عليه دليلا، وحاطَهُ بلُطفه وتقبّل أعمالَهُ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها ، وأرغَم أعداءه وكَبتها ، ومسّها بعـذابٍ من عنده ومَحَتها ، ولا زالتْ رايتُه السوداءُ بيضاءَ الخبَر، محمرّة المَخْبَر فى العُدَاة مسْوَدّة الأثَر .

ورد على الخـادم ما كُوتِب به من الديوان العزيزِ رائدًا فى آستخلاصه ، مُبَرْهِنا عن آختصاصه ، مُطلِقا فى الشُّكر لِلِسانِه، وفى الحَرْب لِعِنانه، ومقتَضِيا لأُمنيّةٍ كان يتهيّبُها، ومُفيضًا لمَكْرُمة لو سمَتْ نفسُه إليها كان يتهمها، فلله هو ! من كتابٍ كأنّه سورةٌ وكلُّ آيةٍ منه سَجدة، قابلَه بالخُشوع كأنما قلَمُ الكِتَاب القضيبُ وطِرْسُه البُرْده، وتَلاه على من قِبلَه من الأولياء مسترْهِفًا به لعزائمهم، مستَجْزِلًا به لمَغانمهم، مستثبتًا به للازمهم، مستدْعِيا به الخدمةَ للوازِمهم، مُرْهِفًا به ظُبَاهم فى القتال، فاسِحًا به خُطَاهم يومَ النِّزال، فأثّر فيهم كالاقتداح فى الزِّنْد ، وكالانْبجاس من الصَّلْد، وكالاستِلال من الغِمْد ، فشمَّرَ مَنْ كان قد أسْبَل، وآنتهىٰ مَنْ كان قد أجْبل ، وكأنّمـا أُعطُوا كتابًا من الدّهْر بالأَمَان ، أو سمِعُوا مناديًا يُنادى لِلإيمان، وقالوا : سَمِعْنا وأطَعْنا، وعلينا من الخِدْمة ما آستطَعْنا، هذا مع كونِهم أنضاءَ زُحُوف، وأشلاءَ حُتُوف، وضَرَائبَ سُيُوف، قد وسَمَتْ وُجوهَهُم علاماتُ الكِفَاح ، وأحالَتْ عرضهم أقلامُ الرِّماح ، صابرين مُصابِرِين، مكاثِرين مكابِرين، مُناضِلين مُناظِرين، قد قامُوا عن المسلمين بمـا قَعَدَ عنه سائرُهم، ونزلُوا بقارِعة القِرَاع فلا يَسِيرُ عنها سائرُهم، وسَدّسَتْ كعوبُ الرِّماح أنملَهم، وأثبتُوا فى معترَكِ الموتِ أرجُلَهم، كلُّ ذلك طاعةٌ لله ولرسوله ولخليفتِهما، وإذا رمَوْا فأصابُوا قالُوا ولكنَّ اللهَ رَمىٰ .

ومن خَبَرِ الكفّار أنهم إلى الآنَ على عكّا يُمِدّهم البحْرُ بمراكِبَ أكثَرَ عِدّةً من أمواجه ، ويخرج للسلمين منهـم أمَرُّ من أُجَاجه ، قد تعاضدتْ ملوكُ الكُفْرِ

على أن يُنْهِضُوا اليهم من كلِّ فرقةٍ منهم طائفه ، ويقلّدوا لهم من كل قِرْنٍ يُعْجِز بالكرّة واصِــفَه ؛ فاذا قتل المسلمون واحدًا فى البّر بعث البحرُ عِوضَــه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صــنْفٌ منهم أخلفَ بدلَه صِنْفا ؛ فالزّرْع أ كثرُ من الحَــداد ، والثمرةُ أنمى من الحَصّاد . وهــذا العدوّ المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زرّ عليــه من الخنادق أدراعا متينه ، وآستجَنّ من الجَنَويات بحُصُون حَصينه ؛ مصْحِرًا ومُتمنّعا ، وحاسرًا ومتدرّعا ومُواصِلًا ومُنْقطعا ؛ وكلّما أخرج رأسا قد قُطعت منــه رءُوس ، وكلّما كَشَف وجْها كُشفت من غِطاء أجسادها نُفُوس ؛ فكم من يوم أرسلُوا أعِنّة السوابق فَذمّوا عُقْبى إرسالهــا ، وكم من ساعةٍ فَضُّوا فيهــا أقفالَ الخنادق فأفضى اليهم البلاءُ عنــد فَضّ أقفالِهــا ؛ إلا أنّ مدَدَهم الجَمّ قد كاثَرَ القتْل ، ورقابَهم الغُلْبَ قد قطعت النّصل لشدّة ماقطَعها النصل . ومَنْ قِبَل الخــادم من الأولياء قد آثرت المدّة الطويله ، والكُلَف الثقيله ؛ فى آستطاعتِهم لا فى طاعتِهم ، وفى أجوالهم لا فى شجَــاعتهم ؛ فالبرَك قد أنضوه ، والســلاح قد أحفَوْه ، والدّرهمُ قد أفنَــوْه ؛ وكلٌّ من يَعْرِفهم من أهل المَعْرفه ، ويراهم بالعين فــا هُم مثلَ مَنْ يراهم بالصّفَه ؛ يناشِدُ اللهَ المُناشدةَ النبويّه ، فى الصّيحة البَــدْريه ؛ ألّلهم إن تَهْلِكْ هــذه العِصابه ، ويُخْلِص الدعاء ويَرْجُو على يَد أمير المؤمنين الإجابه . هــذا والساحلُ قد تمــاسَكَ ، وما تهالك ؛ وتجلّد ، وما تبلّد ؛ وشجّعته مَواعِد النّجْدة الخارجَه ، وأسْلَته عن مصارع العِــدّةِ الدّارجه ؛ فكيفَ به إذا خرج داعيــةُ الألْمــان ، ومُلُوكُ الصُّلْبان ؛ وجموعُ ماوراء البحر ، وحُشُودُ أجناسِ الكُفْر؟ وقد حَرّم باباهم ـ لعنة الله عليهم وعليه ـ كلّ مباح وآستخرج منهم كلَّ مذْخُور ، وأغلق دُونَهم الكنائس ، وَلَبِس وألبَسهم الحِــدَاد ، وحَكَم عليهم أن لايزالُوا كذلك أو يستخلِصُوا المَقْبَرة ، ويُعيدوا القُمامة . ﴿ وإذْ زيّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهم وقالَ لاغَالِبَ لَكُمُ اليومَ من النّاس وإنّى جارٌ لَكُمْ ﴾ .

اللهم أخفرْ جواره، وأصرِف جَوْره، وأخلِف وَعْده، وأكْسِرْ ضَمَانَه، وأنكِصْه على عَقبه، وعَجِّل فى الدنيا والآخرةِ منهم تَبابَه . وما بدأتنا به من نعمتك فلا تقطعْه، وما وهبْتنا من نَصْرك فلا تَسْلُبْه، وما سترتَه من عَجْزنا فلا تهتِكْه . [و]فى دُونِ ما الدِّينُ مستقبِلُه، وعدوُّه خذله الله يؤمِّله ؛ مايستفرِغُ عزائمَ الرجال، ويستنفِدُ خزائنَ الأموال ؛ ويُوجِب لإمام هـذه الأمةِ أن يحفظ عليها قِبلتها، ويُزيحَ فى قتل عدوّها علّتها ؛ ولولا أنّ فى التصريح، مايسودُ على عدالته بالتّجريح، لقال مايُبكى العينَ ويُنْكى القلوب، وتَنْشقُّ له المرائر وتُشَقُّ له الجُيُوب ؛ ولكنّه صابرٌ محتسِب، منتظرٌ لنصر الله مُرْتقِب، قائمٌ من نَفْسه بما يجب ؛ رَبِّ إنى لاأملك إلا نَفْسِى وأخى، وهاهو قد هاجَر إليك هجرةً يرجُوها عنـدك مقبوله ، ووُلْدى وقد أبرزتُ لعدوّك صَفَحاتِ وجوهِهم، وهانَ علىّ محبوبُكَ بمكروهى فيهم ومكروهِهم . ونَقِف عندَ هذا الحدّ، ولله الأمرُ من قبْلُ ومن بعْدُ ؛ وإن لم يشتكِ الدِّينُ إلى «ناصره» والحقُّ إلى مَنْ قام بأوّلِه وإلى اليوم الآخر يقُوم بآخِرِه، فإلى مَنْ يُشتكى البثّ، وعنـد من يتفرج بالنفْث؟ ، ومنفعةُ الغوث قبل العَطَب ، والنَّجاءِ قبل أن يَصِـل الحِزامُ الطُّبيين، والبَلاغ قبل أن يَصِل السيلُ الزُّبى .

فياعَصَبةَ محمد صلى الله عليه وسلم اخْلُفْه فى أمّته بما تطمئن به مَضَاجِعُـه ، ووَفِّه الحقَّ فينا ؛ فإنا وإنّ المسلمين عندك وداِئعُـه ، وما مثّل الخادمُ نفسَه فى هذا القول إلا بحالةِ مَنْ وقفَ بالباب ضارعا ، وناجى بالقول صادِعا ؛ ولو رُفعتْ عنه العوائقُ لهاجر ، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مَسيحَه بالداءِ الذى خامر ؛ ولو أمِنَ عدوّ الله أن يقول فرّ لسافر، وبعـدُ نفيه وإن عضّ الزمانُ بقيه، وقِبـلَه وإن تداركت الشُّهّاد دَرِيَّه ؛ فلا يَزالُ قائمـا حتى يُنْصَر أو يُعذَر ، فلا يصل إلى حَرم ذرّية أحمدَ صلى الله عليه وسلم ومن ذُرِّيةِ أيُّوبَ واحدٌ يُذْكَر .

أنجزالله لأمير المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْره! وتمم مساعَدَةَ دهره! وأصفىٰ موَارِدَ إحسانه! وأرسىٰ قواعد سلطانه! وحَفِظه وحفظ به فهو خَيْرٌ حافظا، ونَصَره ونصر علىٰ يَدَيْه فهو أقوىٰ ناصِرا، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم آعلم أن المَقَرّ الشّهابِىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "تعريفه" أيضا أنّ المكاتبةَ إلىٰ أبواب الخلافة من الملوك والسُّوقة لا تختلف ، بل تكونُ علىٰ الأُنْموذَج المقــدّم ذكره، وآستلزم ذلك : بجرىٰ علىٰ هــذا المصطَلَح فيما كَتَب به إلىٰ الديوان العزيز الحاكمىّ، أحمدَ بنِ أبى الربيع سليمان : أحدِ الخلفاء العباسيّين بالديار المصرية، عن رُمَاة البُنْدُق بالشام، جوابًا عمّــا ورد عليه من كتابهم ، وهو متكَلِّمٌ علىٰ رُماة البندق يومئذ فى أمر ناصِرِ الدين بن الحِمْصىّ وهو أحدُ الرُّماة .

أدام اللهُ تعــالىٰ أيامَ الديوان العزيز، المولوىّ ، السيدىّ ، النبوىّ، الإمامىّ، الحاكمىّ ، ونَصَر به جمعَ الإيمــان ، وبَشَّر بأيّامه الزمانـــ ، ومتّعه بالملك الذى لا ينْبَغِى لأحد مِنْ بعــده بمــا وَرِثه من سُلَيْمان ،ولا زال يَخْضَع لمَقَامه كلُّ جليل، ويُعْرَف لأيامه كلُّ وجهٍ جَميــل، ويعترف لشَرَفه كلُّ معتَرِف بالتفضــيل، ويشهد بنَفَاذِ أوامره من ذَوِى نسبه الشريف كلُّ أخٍ وخليل، ولا كانَ إلّا كَرَمُهُ المأمول، ودعاءَه المقبول، وعَدُوّه المصرُوع ووليّــه المحمول ، ولا بَرِحتْ طاعتُه يُعْقَد عليهـا كلُّ جمع، ومراسِمُهُ يُنْصِت إليها كلُّ سَمْع، وطوائفُ الذين كَذَبُوا عليه لا تُتْلىٰ عليهم آياتُه إلا تولَّوْا وأعينُهُم تَفِيض من الدَّمْع .

الممــاليك يُقَبِّلُون الأرضَ بالأبواب العاليــة التى هى خُطّة شَرَفهم ، ومكانُ تعبُّدِ القدماء منهم ومن سَــلَفِهم ، ويلُوذُون بذلك المَقَــام ، ويعُوذون بذلك الحَرَم الذى

لا يبعُد نسبهُ من البيت الحرَام؛ ويؤمِّلون ذلك الكَرَم الذى مامنهم إلا مَنْ سَعِد به طائره، وجاءته به فى وَجْه الصَّباح أشائره؛ وفى وَجْه العِشاء بشائره؛ فنالوا به أقصىٰ المَرَام، وقضَوْا به من العُمُر ما إذا قالوا : ياسَعْدُ ! لايعْنُون به إلا ذلك الإمام؛ وينتهُون إلىٰ ما ورد به المرسومُ الشريفُ الذى ما من المَماليك إلا مَنْ مَتَّ لديه بتقديم عُبوديّتِه ورِقِّه، وسارع إلىٰ طائرِه الميمونِ وحمله بسَبْقِه؛ وفتح له عينَه وظنَّ أنَّه حاكم، وامتثلوا أمْرَه وكيف لا تمتثل الرماةُ أمرَالحاكم ؟، ولاسيَّما آبنُ عمِّ سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم الامامُ الحاكم؛ وأجلُّوه عن رَفْعه علىٰ العين إذ كانت تلك بمنْزِلة الحاجب، وقدِموا إليه خُفُوقَ قلوبهم الطائرة وما علموا أنْ كانوا قاموا بالواجب؛ ووقفُوا علىٰ أحكام حاكِمِه فما شكُّوا أنَّ زمان هذا الفَنِّ بحياة ناصِره فى بَغدادَ قد عاد، وأنَّ مثاله المتمثِّل فى سَواد الحَدَق مما حكته أيامُه العبَّاسيَّةُ من شِعَار السَّواد؛ وعلِمُوا ما رَسَم به فى معنىٰ محمدِ بن الحمْصِىِّ الذى ما نُوِّرت الليلةَ أكاريحُه، ولابَعُدتْ فى الإبعاد له تَواريخُه؛ بل أخمدَتْ دمُوعُ نَدَمه نيرانَه المشتعلة وأصبَح به لا يحمل القَوْسَ فى يده إلا أنه مَشْغَلة؛ وماكان أنهاه الدِّيوان العزيز مما لم تذكر الخواطرُ الشريفةُ بأنه قبة المفْتَرِى، وأنه صاحبُ القوْس إلا أن مالَهُ سعادةُ المشترى؛ وأنه موّهَ تمويهَ الجاحد، وتلوَّن مثلَ قوْس قُزَحَ وإلا فقوسُ البندُق لونٌ واحد؛ وأدْلىٰ بغروره، وعَرَض المحضَر الذى حمَله علىٰ تغريره؛ وذلك فى غَيْبة الأمير بهاء الدين أرسلان البُنْدُقْدار الحاكمى، الذى لوكان حاضرًا لكان حُجَّة عليه، ومؤكِّدا لإبطال رَمْيه وقوسِه وبُنْدُقه فى يدَيْه؛ لما تضمَّنه الخطُّ الشريف المقيِّد اللفظ المكتتبُ علىٰ المصطَلَح، الساحبُ ذيلَ فخاره علىٰ المقترح؛ الذى هدىٰ إلىٰ الخير، وبدَا به ماوُهِب من الملك السليمانىِّ الذى أُوتِىَ من كلِّ شىءٍ وعُلِّمَ منطِق الطير؛ فإنّه لم يُكْتب له إلا بأنْ يرمِىَ علىٰ الوجه المَرْضِىِّ واستيفاء شروط البندق،

والخروج من جميع الأشكال عملا بقواعده ؛ ويُعلِم بأنه ما رعىٰ حقَّ قُدْمتــه ، ولا فعل فى الباب العزيزِ مايجبُ من التحلّى بشِعار الصِّدْق فى خِدْمته ؛ وأنه خالف عادةَ الأدَب ، وأخطأ فى الكلِّ لكنه تدَب ؛ وذلك بعد أن عَمِل له جميعُ رُماة البندق ، وسـئل فأجاب : بأنه سالمٌ من كل إشكال يُشْكِل ، وأنه بعد أن أُقعِد رمىٰ وحَمَل وحُمِل ؛ فشهد عليــه السادةُ الأمراءُ ولاةُ العهد إخوة أمير المؤمنـين ومن حضر ، وكتبوا خطوطَهُم فى المحضر ؛ وما حصل الآنَ عند عَرْض قصة المماليك بالمواقف المقدّسه ، ووضوح قضيته المدَنســه : من التعجُّب من اعتراف المماليك ، لِكونهم رمَوْا معــه بعد أن رأَوا الخطَّ الشريفَ وهو لفظ مقيَّــد ، وأمرٌ أُيِّد به رأىُ الإمام الحاكم بأمر الله المسترشد بالله والمؤيِّد ؛ وكُلُّ ماأمرَ به أميرُ المؤمنـين لامَعْدِل عن طُرُقه ، ولا جدالَ إلا به إذا أُلزِم كلُّ أحد طائرَه فى عُنُقه ، وأمير المؤمنين بحر لايرد إلا من عِلْمه ، وهو الحاكمُ ولا رادَّ لحُكْمه . وإنمــا ٱبن الحمصىّ المذكور عَدِم السَّداد ، وخالف جارىَ العادةِ فى الحِمِّص فإنه هو الذى سُلِق فى الافتراء بألسِــنة حِدَاد ؛ ولم يُوقِف المماليكَ من الخط الشريف إلا علىٰ بعضه ، ولا أراهم من بَرْقه المتهلِّل غيرَ ومَضــه ؛ والذى أوقفهم عليه منه أن يَرْمِى محمدُ بنُ الحمصىّ ويُرْمىٰ معه ، وكلمةُ أمير المؤمنين مستَمعه ، ومراسمُه متَّبَعه ؛ وإذا تقدّم كان الناس تبَعه . غير أن المذكورَ بدَتْ منــه أمورٌ قطع بهـا الأميرُ صارمُ الدين صاروجا الحاكم البُنْدُقدار فى حقه ، وأقعده عن قُدْمته التى كان يمُتُّ فيها بسَبْقه ؛ وٱنتقل عنه غلمانُه ، وثقُل عليه زمانُه ؛ ونُودِى عليه فى جمعٍ كبيرٍ يزيد علىٰ تسعين قوسا ، وجُرِح بخطإ بُنْدُقه جرحا لايُوسىٰ ؛ ثم بعــد مدّة سنين توسّل بولد الأمير المرحوم سيف الدين تنكز إلىٰ أبيه ، وتوصَّل به إلىٰ مَرَاميه ؛ فأمَر أن يُرمى معه وهدّد المخالفَ بالضرب ، ولم يرْمِ معه أحدٌ برضاه إلا خوفَ أن تُوقَد نارُ الحرب ؛ فلما مضَت تلك الأيام ، وٱنقضَتْ

تلك الأحلام ، جمع مملوكُ الأبواب العالية الأميرُ علاءُ الدين بنُ الأبو بكرى الحاكم في البندق الآنَ من رُماة البُنْدُق جمعا كبيرا ، واهتمَّ به اهتماما كثيرا ؛ وذكر أمر المذكور، وأحضر محضَره المسطور ؛ ولم يكنْ عليه تعويل ، ولا فى حُكْم الحاكم المتقدّم تعليل ، ولا عِنْد هذا الحاكم الذى ادّعىٰ له وادّعىٰ عنده تجوزُ الأباطيل ؛ وتحقَّق أنّ الحقّ فيما حكم به عليه قَبِيح ، وترجّح أن لايُقامَ منه من أُقعِد ولايُوصَل منه ماقُطِع ؛ فنفَّذ حكْمَ الحاكم المتقدّم ، واستمر بقُعُوده المتحتّم ؛ ووافقه علىٰ هذا سائر الرُّماة بالبلاد الشامية وحُكّامها ، ومن يُرجَع إليه فى الرِّماية وأحكامها ؛ وبطلَتْ قُدْمة المذكور التى ذهَبَ فيها عمرُه ضائعا ، وزمانُه الذى لو اشتُرِيتْ منه ساعةٌ بالعُمُر لم يكن نافِعا .

ولما ورد الآنَ هذا المرسومُ الشريفُ زاده الله شرفا قبّلوا الأرضَ لديه ، وأوقفوا عليه حاكِمَهم المسمّى فوقَفَ له وعليه ؛ وجَمع له جمعا لم يَدَعْ فيه من الرُّماة معتبَرا ، ولا من يُلْقِم القوسَ وَتَرا ؛ ولا من إذا قَعَد كالعين جرىٰ ماجرىٰ ؛ ثم قرأ عليهم ماتضمَّن ، ودعَوْا لأمير المؤمنين ولم يَبْقَ منهم إلا مَنْ دعا أو أمَّن ؛ وتضاعف سرورُهم بحُكْمه الذى رفع الخَلَل ، وقطَع الجَدَل ، وقالوا : لاعَدِمْنا أيامَ هذا الحاكم الذى أنصَفَ والإمامِ الذى عَدَل ؛ وبَقِىَ ابنُ الحمصىّ مُثْله ، ونُودِى عليه إنّه من رَمىٰ معه كان مخطِئًا مثلَه ؛ ووَقَرَتْ هذه المناداة فى كلِّ مَسْمَع ، وقرّت استقرارَ الفضل عليه المجْمَع ؛ وذلك بما فُهِم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضى اللهُ به علىٰ لسان خليفته الحاكم والله أحكَمُ الحاكمين ؛ وطالَعُوا بها وأنْهَوْا صورةَ الحال ، وجمعوا فى إمضائه الآمال . لا زالَتْ سعادةُ أمير المؤمنين منزّهة عن الشُّبَه ، آخذةً من خير الدارين كل اثنين فى وجه ، حتّى تحصُل كلُّ رميةٍ من كَثَب ، ولا يرمِى فى كل

امنة إلا كلُّ مصطحب ، ماغَبَّ فى السماء المِرْزَم ، ووقع العُقاب علىٰ ثَنِيَّـةٍ يقْرَع سِـنَّه ويتندَّم ، وعلا النَّسْرُ الطائرُ والواقـع علىٰ آثاره وسائرُ طيورِ النُّجوم والحُوَّم ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وقد اعترض فى " التثقيف " كلام المقـرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى " التعريف " فقال : وفيا ذكره فى " التعريف " من التسوية فى المكاتبة بين الملوك والسُّوقة نظر. وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذى تجب مكاتبتهم به ما يكاتب به المرءوسُ رئيسَه بحسَب ماتقتضيه الحال فى ابتداء المكاتبات مِنْ يقَبِّل الأرض ، كما تكاتب الملوك ، بل هم بذلك أحقُّ وأجدر . ويكون الخطـاب لهم فى أثناء المكاتبة بمـا أشار إليه فى " التعريف " بالديوان العزيز، والمواقف المقدّسة أو المشرّفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف، والجانب الأعلىٰ، ومولانا أمير المؤمنين، ونحو ذلك بحسَب ماتقتضيه الحالُ علىٰ ماتقدّم ذكره .

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبـــة إلىٰ وُلَاة العهد بالخلافة)

أما علىٰ المصطلح القـديم حين كانت المكاتبةُ إلىٰ الخلفـاء « لفلان من فلان » فقـال فى "صـناعة الكُتَّاب" : ويكون التصـديرُ فى المكاتبة إلىٰ وَلِىّ العهد علىٰ ما تقـدّم فى المكاتبة إلىٰ الخلفاء مع تغيير الأسمـاء ، غير أنه جعل الفرقَ بين الإمام وغيره ممن يكاتَب بالتصـدير أن يقال للإمام فى التصـدير مع السـلام : وبركاته ، فى أوّل الكتاب وآخره . ومَنْ سـوىٰ الإمام تحذَف وبركاتُه من التصدير وتُثْبَت فى آخر الكتاب .

وقد تقدّم أنّ التصـدير إلىٰ الخليفة حينئـذ كان "لعبد الله أبى فلان فلان أمير المؤمنين، سلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمدُ إلىٰ أمير المؤمنين اللهَ الذى لا إله إلّا هو، وأسألُه أن يصلّى علىٰ محمد عبده ورسوله . أما بعدُ، أطال الله بقـاء أمير المؤمنين إلىٰ آخره، ويختم بقوله : والسـلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" .

وحينئذ فتكون المكاتبة إلىٰ ولىّ العهـد علىٰ ما أشار إليه فى "صِنَاعة الكُتّاب" من الابتداء بالتصدير مع تغيير الأسمـاء : "لعبـد الله أبى فلان فلان ولىّ عهـد المسلمين، سلامٌ علىٰ ولىّ عهد المسلمين؛ فإنى أحمد إليه اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو، وأسأله أن يصلّى علىٰ رسوله صـلى الله عليه وسلم . أما بعـدُ : أطال الله بقاء ولىّ العهد، ويختمه بقوله : والسلامُ علىٰ ولىّ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته" أو نحو ذلك .

وأما علىٰ المصطلح الذى حَدَث بعد ذلك، فقد ذكر المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" أن رسم المكاتَبة إلىٰ ولىّ العهد بالخلافة : ضاعف اللهُ تعالىٰ جَلَال الجـانب الشريف، المَوْلَوِىّ، السـيدىّ، النَّبَوِىّ، الفلانىّ ؛ ثم الدعاء المعطوف . وأبدل فى "التثقيف" لفظ الجـانب بالجَنَاب . والخطابُ له بمولانا وسيدنا ولىّ العهد ونحو ذلك . والتعبير عن المكتوب عنه بـ«الخادمُ يقبل العتباتِ الشريفةَ أو اليـدَ الشريفةَ» أو نحو ذلك . قال فى "التثقيف" : والعلامةُ إليـه «الخادم» والعُنْوان «الجناب الشريف» وبقية الألقاب المذكورة إلىٰ آخرها .

قال : وهو(1) أحسن من الجناب : لعدم اشتراك غيره معه فيه بخلاف الجناب . قال : وهذا أيضا علىٰ عادة من تقدّم من الملوك، أما فى زماننا وقبله بمدّة مديدة،

(1) أى الجانب المذكور فى عبارة التعريف .

فلم يتفق وجودُ ولىّ عهــد الخلافة ؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكُن الخليفــةُ يكاتَبُ فى هذه الأيام فكيف بولىّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردها فى "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجانب وأطلع مع وجود الشمس بَدْرَه التَّام، وأحوجَ مع زاخر البحر منــه إلىٰ مَدَد الغَمَام، وقدّمه إماماً علىٰ الناس وأطال بقــاء سيدنا أبيه الإمام ؛ ولا عُدِم منه مع نظر والده الشريف جميــلُ النظر، ولا برِح صدْرَ دَسْته العلىّ إذا غابَ وثانِيَه إذا حضر، ولازال الزمانُ مختالاً من جُود وجودهما لاعرّف الله الأنامَ قدره إلا بالزَّهر والثَّمر، ولا زاد فيضُ كرمٍ إلا وهو من كَفّ أبيه فاض أو مِنْ وَبْله العميم انهمَرْ .

الخادم يخدُم تلك العتباتِ الباذخةَ الشرف، الناسخةَ بما وجده من الخير فى تقبيلها قول من قال : لا خَيْر فى السَّرَف . وينهى ولاءً ما عُقِد علىٰ مثله ضمير، ولا انعقد شبيهه لولىّ عهدٍ ولا أمير؛ وإخلاصه فى أثناءِ أشرق منه علىٰ الجبين، وأشرف فرآه فرضًا عليه فيما نطق به القرءانُ ورُقِمَ فى الكتاب المُبين .



صدر آخر : أعز الله أنصارَ الجانب الشريف، ولاحجَب منه سرَّ ذلك الجَلال، ولا معنىٰ ذلك البدر المشرقِ منه فى صُورة الهلال، ولا فيضَ ذلك السحاب المُشْرَع منه هــذا الموردُ الزُّلال، ولا تلكَ المآثرَ التى دلّ عليهــا منه كَرَمُ الخِلال، ولا تلك الشجرة المفترعة ولاما امتدّ منها به من الغُصْن الممتدّ الظلال، ولا ذلك الإمامَ الذى هو ولىُّ عهده وهو أعظم من الاستقلال .

الخادم يقبّـل تلك اليد مُوفيًا لهـا بعهده [ومُصْفيا منها لوِرْده][1] ومُضْفيًا منهـا جَلّابيبَ الشرف علىٰ عِطْفه، وحَسْبُه فَخَارًا أن يُدْعىٰ فى ذلك المقام بعَبْده؛ ويترامىٰ علىٰ تلك الأبواب، ويَلْثِمُ ذلك الثرىٰ ويرجُو الثواب .

صدر آخر : ولا زالَتْ عهودُ وِلَايتـه منصوصه ، وإيالتُـه بعُمُوم المصـالح مخصُوصه ، وصفوفُ جُيُوشـه كالبُنْيان مَرْصُوصه ، وقوادمُ أعدائه بالحَوالق مَحْصُوصه ، وبدائع أنبائه فيا حَلّقتْ إليه دعوتُه الشريفةُ مقْصُوصه [والوُفُود فى أبوابه أجنحتها بالنّدىٰ مَبْلُولة مقصوصة][1] .

الخادم يجدّد بتلك الأعتـاب خِدَمه ، ويُزاحِمُ فى تلك الرِّحاب خَدَمَه ، ويقف فى تلك الصُّفوف لا تُنْقَل عن الطاعة قَدَمُه ، ويتمثّل بين تلك الوقُوف ويتميز عليهم إذا ذُكِر فى السوابق قِدَمُه ، ويُدْلِي بحُجَج سيوفه [التى أشهرها ، وصروفه التى لاقىٰ أشهَرَها ، ومواقفه][1] التى ما أنكرها الديوان العزيزُ مُذْ أثبَتها ، ولا حطّ رِماحَها مذ أنبتَها ، ولا محا سطورها ، مذ كَتَبها ، ليَغيظ الأعداء ولا يشفى صدورها ، منذ كَبَتَها ؛ وينهى كذا وكذا .

صدر آخر : ولا زالتْ مواعيدُ الظّفَر له منصوصةً ، ورءُوس مَنْ كفر بطوارقه مَرْضُوضه ، وصحائفُ الأيام عمـا يُسَرُّ به الزمان فيه مَفْضُوضه ، وجُفونُ عِداه ولو اتصلت بمُقَل النجوم مَغْضوضه ، وطوارقُ الأعداء التى تجُنُّهم منه بسُيُوفه معضوضه .

الخادم يخدُم أرضَه المقدّسـةَ بترامى قُبَله ، وتقليبِ وجْهـه إلىٰ قِبَله ؛ ويتطوّف بذلك الحَرَم ، ويتطوّل من فَوَاضِـل ذلك الكَرَم ؛ ويتطوّق بقـلائد تلك المِنَن ،

(١) الزيادة "من التعريف" .

وفوائد تلك المواهب التى إن لم تكُنْ له وإلا فَمَنْ ؛ فإنه والله يشهدُ له لا يعتقِد بعـد ولاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيِّم بأمور الدنيا والدِّين؛ عليه الصلاة والسلام إلّا وَلَاءَها ، ولا يؤمِّل بعد تلك الآلاء إلّا آلاءَها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة المباركة لأمله إثمـارا ، ولا لليله إقمارا ؛ ولا لأيّامه حافظا ، ولا لحال إقدامه فى قَدَم صِدْق ولائه لافظا ؛ قائما فى خِدَم هذه الدولة القاهرة يجْهَد فى منافعها [ويجِدُّ فى كَبْت مُدافعها](1) ويَنْتَحِر شفاعتها العُظمىٰ إذا جاءت كلُّ أمة بشافعها ، وينهى كذا وكذا .

الطـــرف الثـالث

(من المصطلح المستقِر عليه الحال ، فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية إلىٰ أهل المملكة : من مصر والشام والحجاز ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقْصِـــد الأوّل

(فى المكاتبات المفْردة ، وفيـه مَسْلَكان)

المسْـــلَك الأوّل

(فى بيان رُتَب المكاتبات ورُتَب أهلها ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(المكاتَباتُ إلىٰ الملوك علىٰ ما كان عليه الحالُ فى الزمن المتقدّم مما لعلّه يعودُ مثلُه ، وهى الدعاء للقام ، وفيه مكاتبتان)

الأولىٰ — المكاتبة إلىٰ ولىّ العهد بالسلطنة [وهى] علىٰ ما ذكره فى "التثقيف":

أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام العالى ، الملَكىّ ، الفلانىّ ، الأخَوِىّ ، أو الولَدِىّ ، إن كان أخًا أو ولَدا . ثم الدعاءُ اللائقُ به ، ثم يقال : « أصدرناها إلىٰ المَقَام العالى

(1) الزيادة من "التعريف".

و يطالع علمه الشريف » والعلامة «أخوه» سواء كان أخًا أو غير أخ، و « والده » إن كان والدا . ولم يذكُرْ تعريفَه، والذى يظهر أنه يكتب له «ولىّ العهد بالسلطنة الشريفة» . ولم يذكر قَطْع الورق لهـذه المكاتبة، والذى يظهر أنه فى قَطْع العـادة علىٰ قاعدة المكاتبات إلىٰ أهل المملكة . قال فى " التثقيف " : ولعل هذه المكاتبة نظيرُ ما كُتب به إلىٰ الملكِ الصالح علاءِ الدين علىّ ولدِ المنصور قلاوون : فإنه كان ولىَّ عهد أبيه المذكور، تُوفِّىَ فى حياته . ثم قال : ورأيت أمثلةً كثيرةً صـدرت عنه بخَلَاص الحقوق، وعلامته عليها «علىّ بن قلاوون» .

الثانية ــ المكاتبةُ إلىٰ صاحب حماةَ من بقَايا الملوك الأيوبية قبل مصيرها نيابةً، وآخر من كان منهم فى الدولة الناصرية «محمدِ بنِ قلاوون» الملكُ الأفضلُ ناصرُ الدين محمد بن الملك المؤيِّد عماد الدين إسماعيل، لمّـا صارتْ إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكاتبة إليـه علىٰ ما ذكره فى " التثقيف " فى قَطْع العادة : « أعز الله تعالىٰ أنصارَ المَقام الشريف، العـالى، السلطانى، المَلَكىّ، الأفضَلِىّ، الناصرىّ، ونحوهما » . ثم الدعاء، وبعده «أصدرناها إلىٰ المقام الشريف» والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب حماة» . قال فى " التثقيف " : ولم يَزل الحالُ علىٰ ذلك إلىٰ أنْ عُزِل عنها الأفضلُ المشار إليه بعد الأيام الشَّهيدية الملكِ الصالح عمادالدين إسماعيل آبن السلطان الشهيد النـاصر محمد بن قلاوون، وآستقرّ بها بعـده نائبًا الأمير طغاى الحموىّ أمير مجلس كان، فبقيتْ نيابةً بعده إلىٰ الآنَ .

الضـــــرب الثـانى

(المكاتبات إلى مَنْ عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم ممن جرت العادةُ بمكاتبته، وفيه مَهْيَعان)

المَهْيَـــع الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات، وهى على عشر درجات[1])

الدرجـــة الأولى

(الدعاء للمَقَرّ)

وصورته على ماذكره فى "التثقيف" : «أعزّ اللهُ تعـالى أنصارَ المَقَرّ الكريم، العـالى، المَوْلوِىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، الزّعيمىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، المُثاغِرىّ، المرابِطىّ، المُمَهّدىّ، المشيّدىّ، الظّهيرىّ، العابِدىّ، النـاسِكىّ، الأتابِكىّ، الكَفيلىّ، الفلانىّ؛ مُعِزّ الإسلام والمسلمين، سـيدِ أمراءِ العالمين، ناصرِ الغُزّاة والمجاهدين، ملْجإ الفقراء والمساكين، زعيمِ جُيوش الموحّدين، أتابِك العساكر، مُمَهّد الدُّول، مشيّد الممالك، عِمادِ الملة، عونِ الأمة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، عضُد أميرِ المؤمنين» . ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب: مثل أن يقال : « ولا زال عَزْمُه مؤيّدا، وعِزّه مؤبّدا، وسعده على ممرّ الجديدين مُجَدّدا ؛ أصدرناها إلى المَقرّ الكريم تُهْدى إليه من السلام أتمّه، ومن الثناء أعَمّه» . ثم يقال : «وتُبْدى لعلمه الكريم كذا وكذا، ومرسومُنا للمقر الكريم أن يتقدّم أمْرُه الكريمُ بكذا وكذا ، فيحيط علمه الكريمُ بذلك، والله تعالى يؤيّده بمَنّه وكرمه » .

---

(١) لم يذكر غير ثمـان درجات .

الدرجـــــة الثانيـــــة

(الدعاء للجناب الكريم)

وصورته على ما أورده فى "التثقيف" عما آستقر عليه الحالُ «أعزّ الله تعالى نُصْرة الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِياثىّ ، المُثاغرىّ ، المرابِطىّ ، الممهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيف الأمراء فى العالَمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحّدين ، سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل أن يقال : «ولا زالتْ عزائمهُ مؤيّده ، وأوامرُهُ السعيدةُ مسدّده ؛ صدرت هـذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدى إليه سلامًا طيّبا ، وثناء مُطْنبا ؛ وتوضّح لعلمه الكريم كذا . ومرسومُنا للجناب الكريم أن يتقـدّم أمرُه الكريمُ بكذا وكذا ؛ فيحيط علمه الكريمُ بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنّه وكرمه» .

قلت : والذى فى "التعريف" : «أعز الله تعالى أنصارَ الجَناب الكريم ، بإبدال نصرة بأنصار ، وآختلاف بعض الألقاب المتقدّمة» .

الدرجة الثالثـــــة

(الدعاء للجناب العالى بمضاعَفة النعمة)

وصورته على ما فى "التثقيف" : «ضاعفَ اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، العَوْنىّ ، الزّعيمىّ ، الممهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيف الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مُقَدّم العساكر ، ممهّد الدّول ، مشيّد

الممـالك، عمادِ الملة، عونِ الأمّة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيفِ أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : «ولا زال قدْرُه عاليا، ومَدْحه مُتواليا، وجيدُ الدَّهْر بمحاسنه حاليا ؛ وتوضّح لعلمه الكريم كذا ؛ ومرسومُنا للجناب العالى أن يتقدّمَ أمرُه الكريم بكذا؛ فيحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيّده بمنّه وكرمه» .

الدرجة الرابعـــــة

(الدعاء للجناب العالى بدوام النعمة)

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" : «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيدىّ، الأوحدىّ، النّصيرىّ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ، المقدّمىّ، الظَّهيرىّ، الفلانىّ ؛ عزِّ الإسـلام والمسلمين، سيّدِ الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقـدّمِ العساكر، كَهْفِ المِلّة، ذُخْر الدَّوْلة ؛ عمـادِ المملكة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، حُسامِ أمير المؤمنين » والدعاء والتصـدير المناسب ، مثل أن يقال : «ولا زال قدرُه رَفيعا، وعِزُّه مَنِيعا ، و[1] مريعا . صدرت هذه المكاتبـة إلىٰ الجناب العالى تهدى إليه سلاما طيبا ، وثنـاء صيبا » ثم يقال : « وتوضّح لعلمه المبارك كذا ، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ؛ والله تعالىٰ يؤيّده بمنّه وكرمه » .

---

(١) بيـاض بالأصل ولعله وجنابه مريعا .

الدرجة الخامســـة

(الدعاء للمجلس بدوام النعـــمة)

ورسمها : « أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجـاهدىّ ، المؤيّدىّ ، العونىّ ، الأوحدىّ ، النّصـيرىّ، الهُمَامى ، المقدّمىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سـيّد الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقدّم العساكر، كَهْف الملة ، ظهير الملوك والسلاطين ؛ حسام أمير المؤمنين » ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : « ولا زال عاليا قَدْرُه ، نافذًا أمْرُه ، جاريًا علىٰ الألْسِنة حمْدُه وشُكْرُه . صدرت هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدِى له سَلَاما ، وثَنَاءً بسَّاما » ثم يقال : « وتوضح لعلمه المبارَك كذا . ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدَّمَ أمره المبارك بكذا ، فيُحيط علمُه بذلك ، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه » .

الدرجة السادســـة

(صدرتْ والعالى، ويعبّر عنها بالسامىّ بالياء)

وصورتها علىٰ ما فى " التثقيف " : « صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العَضُـدىّ، الذُّخرىّ ، النّصـيرىّ ، الأوحدىّ، العَوْنىّ ، الهمامىّ ، المقدّمىّ، الظهيرىّ، الفلانىّ ؛ مجد الإسـلام والمسلمين ، شرف الأُمَراء المقدّمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقدّمِ العساكر، ذُخْر الدولة ، كَهْف الملة ؛ ظهير الملوك والسلاطين » ثم الدعاء المناسب ، مثل : « أدامَ اللهُ سعادتَه ، وأجزل من الخير بِرّه وإفادَتَه ، مُوضّحةً لعلمه المبارَك كذا ؛ ومرسومُنا للمجلس العالى أن يتقـدّم بكذا، فيحيطُ علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه» .

الدرجة السابعـــــة

(صدرت والسامى ، ويعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى ، الأميرىّ ، الأجلىّ ، الكبيرىّ ، العضدىّ ، الذُّخرىّ ، النِصيرىّ ، الأوحدىّ ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بَهاء الأنام ، شَرَف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضـد الملوك والسلاطين » ثم الدعاء مثل : «أدام الله سعادتَه ، وأجزل من الخير عادتَه ؛ تتضمّن إعلامَه كذا ، ومرسومنا للجلس السامى أن يتقدّمَ بكذا ، فلْيعلَمْ ذلك ويعتمده ، والله الموفّق بمنّه وكرمه» .

الدرجة الثـامنـــة

«يعلمُ مجلِس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى ، المجاهِد ، المؤيَّد ؛ فلان الدين ، مجد الإسلام ، بَهاء الأنام ، شَرَف الأمراء ، زَيْن المجاهدين ، عُدّة الملوك والسلاطين» والدعاء ، مثل : « أدامَ الله سعدَه ، وأنجح قصْدَه ؛ أنَّ الأمر كذا ؛ ومرسومنا له أن يتقدّم بكذا ، فلْيعلَمْ ذلك ويتَمِدْه ، والله الموفّق بمنّه وكرمه» .

قلت : وقد تقـدّم فى أوّل المكاتبات أنه يتعين أن يكون الدُّعاء للمكتوب إليـه مناسبا للحال ، مثل أن يكون موافقا لآسم المكتوب إليه أو لَقبه أو وظيفته ، أو محلّ نيابته ، أو الأمرِ المكتوب بسببه : من آسـتطلاع أمر ، واسـتِرْهاف عَزْم ، وفَتح وظَفَر وبشارة وغيرها وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، وتقـدّم هُنَاك ذكرُ جمـلة من الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نُبْذة من الأدعيـة والتصديرات اللائقة المتقدّمة ، ممـا يُدْعىٰ به للنوّاب ومَنْ فى معناهم ؛ ليقرُبَ تناوُلُه باقترانه بصور المكاتبات » .

الأدعية والصدور لنواب السلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالتْ كَفَالتُه تَبْسُط المَعْدِلَه ، وعزائمُهُ علىٰ الإنصافِ والإسعافِ مُشتَمِله ، وتقدماتُه تُبلِّغ كلَّ ذى قَصْدٍ أمله . أصدرناها إلىٰ المَقَرِّ الكريم تُهْدى إليه من السلام أكمَلَه، ومن الثناء الحَسَن أجزَلَه ، وتُبْدِى .

آخـــر : ولا زالَتِ الممالكُ كلُّها فى كَفَالته، والمَسالكُ علىٰ اختلاف طُرُقها آيِلَةً إلىٰ إيالته ، والملائكُ محومةً علىٰ بنوده محتَفَّةً بهالَتِه ، والأرائكُ لاتُتْنىٰ إلا علىٰ دَسْت فَخَاره ولا تُعَـدّ إلا لجلالته . أصـدرناها إلىٰ المَقَرِّ الكريم تخصُّه بأفضـل السلام، وأطيبِ الثناءِ المرقوم علىٰ أعلىٰ الأعلام، وتُبْدِى .

آخـــر : ولا زالتْ كِفايةُ كَفَالته تزيدُ علىٰ الآمال، ولتقرّبُ إلىٰ الله بصَلَاح الأعمـال ، وتكْفُل ما بين الجَنوب وأقصى الشَّمال . أصـدرناها إلىٰ المَقَرِّ الكريم وصـدْرُها بذِكْره منشرح ، وبِبِرّه فَرِح ، وبعُلُوِّ قدره فى أيامنا الزاهرةِ يُسَرّ ويؤمِّل منه ما يَزيد علىٰ أمل المُقتَرِح، وتبدى .

أدعيةٌ تصلُح لنائب الشام المحروس

و[لا زالت][1] الممالك [تؤيد] بعزمه ورأيه تأييدا، والدول [تسدّد][1] بكفالته تسديدا و[تشيد][1] تشييدا . أصدرناها إلىٰ المقر الكريم تُهْدى إليه سلاما تضاعفَ أجزاؤُه ، وثناءً يُبْهِج الخواطرَ سناؤُه ، وتُبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زالتِ النفوسُ بيُمْن كَفَالته واثقه، والخواطرُ فى محبّته متوافِقه، والألسُنُ بشكر محاسنه ناطِقَه، وقلوبُ الأعداء من بأسه ومَهَابته خافِقَه . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيها المقام لتمام الكلام .

إلى المَقرّ الكريم تُهْدِى إليه أنواعَ السلام المتناسبةَ وأجناسَــه المتناسِقَه ، وتُثْنِى على أوصافه التى أصبحَتِ الأفواهُ فى ذكرها صادِقه، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت عزائمُه مُرْهَفةَ الحدّ،وكَفَالتُه كفيلةً بنُجْح القصْد،ومَغَانِمُه فى سبيل الله تُعْرِب عن الاجتهاد فى قهر الأعداء والجدّ . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلاماً يفوقُ شَذَاه العَنبرَ والنّــدّ، وثناءً يجاوزا أبدًا الحَصْر وأمدًا العدّ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت قلوبُ أهل الإيمــان من كَفَالته مؤتلِفه، وفرقُ أهل[1] من بأسه وخَوْفه مختلِفه، وأحوالُ أهــلِ العِنَاد بجميل تدبيره فى استطلاعها واضحةٌ مُنْكشفه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُثْنِى على همّته التى لم تزل على المصالح معتكِفَه، وتُهْدِى إليه تحيةً شموسُها مشرقةٌ غيرُ منكسِفه، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت سعادتُه بحكم الأقدار دائمه، والمَعْدَلةُ بجميل حلمه وصائب رأيِه قائمه، والعيونُ بيُمْن كَفَالته فى مِهاد أمْنِه نائمه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدِى إليه تحيةً طيّبةَ المَسْرى، وثناءً حَسُنَ وصفًا وطاب ذِكرا، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زال النصرُ حِلْيَةَ أيامه، وشامةَ شامِه، وغَمــامةَ ما يحلّق على بلده المُخْضَرّ من غمامِهْ . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم بسلامٍ لا يَرْضى حافرُ جوادِه الهلالَ نَعْلا، ولا يَحْظى به إلا بلَدُه ويخص منه الشرفَ الأعلى، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وسقى عهدُه العِهَاد ، وشفى بعَــدْله العِبَاد، وزانَ به حُسنَ بلده التى لم يُخْلَق مثلُها فى البِلَاد ، وهى إرمُ ذاتُ العِماد . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسلامٍ تُسَرُّ به النفوس ، ويطَوَّق به فضلُه الجامع وتتحلّى به العَرُوس، وتبدى لعلمه .

(١) بياض بالاصل ولعله الكفر .

آخـــر : ووَقَى بسُور جُيُوشه المتنعة ضررَ الضَّرَّاء، وكَمَر بأسُود جُنودِه ذِئاب الأعداء الضِّرَاء، وسبق دَهْماءَ الليل وشَهْباء النهار [وحمراءَ الشفق](1) وصَفْراء الأصيل وشَـقْراء البَرْق بسابقتـه الخَضْراء . أصـدرناها إلى المقر الكريم بسَلَامٍ يملأ حَدَق حدائقه نُورا، وقلْبَ صاكره سُرُورا .

أدعية وصـــدور

(تصـلُح لكلٍّ من النائب الكافـل ، ونائب الشـام ،
ومَنْ فى معناهمـا كالأتابك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووَصَـل المسارّ بعِلْمه الذى لا يُنْكَر ، وحِلْمه الذى يُشْكر ، وحكمه الذى يأمُر بالمعروف ويَنْهى عن المُنْكر . أصدرناها إلى المقر الكريم بسلام يُسْرِع إليه ، وثناء يَرِدُ مِنَّا عليه ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زالتِ الدُّوَلُ برأيه مُقْبِـلة السُّعود ، مترقِّيةً فى الصُّـعود ، مملوءة الرِّحاب : تارةً تبعَثُ البُعوثَ وتارةً تفِد عليه الوفُود . أصـدرناها إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام أشرقه نُجُوما ، ومن الثناء أغْدقَه غُيُوما ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت المـالكُ بآرائه مُنيره ، وبراياتِه لأعدائها وأعداءِ الله مُبِيره ، وبُرؤياه تتضاءلُ الشموسُ المُشْرِقة وتخجَلُ السُّحُب المَطِيره . أصـدرناها إلى المقر الكريم تُهْدِى إليه من السلام دُرَره ، ومن الثناء غُرَره ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا برحتْ آراؤه كالنُّجوم بعيـدةَ المَدى ، قريبـةَ الهُدى ، متهلِّلة كالغَمام : للأعداءِ منها الصَّواعقُ وللأولياء منها النَّدى . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم بسلام حَسَن الافتتاح ، وثناءٍ كما نَظْم الوِشَاح ، وتبدى لعلمه الكريم .

---

(١) الزيادة من "التعريف"

آخـــر : ولا بَرِحتْ آراؤه تُنير غَياهِبَ الخُطُوب، وعزائمُه تُثير سَنابِكَ الجِياد للجهاد فتظْفَر من التأييد بكلِّ مطلوب ، وصوارِمُه تَفْتِـك بالأعداء فتَهْتِك منهم كلَّ ستْرٍ محجوب . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه سلامًا أزهى من الزَّهَر ،وأبهى من رَوْضٍ وافى نَضارته النظر ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا برِح التأييدُ يصْحَب رايته ، والعزم يَخْدُم عَزْمَته ، والرُّعب يَؤُمّ طليعته ،والظَّفَر يُحَكِّم فى العدوّ سيْفَه فلا يستَطِيعُ عاصى الحُصُون عِصْمتَه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُكافِى بمزِيد الشُّكْر همَّتَـه ، وتُوافِى إليـه بثناءٍ وافٍ يحسُـدُ المِسْكُ نَفْحَته ، وتنهى لعلمه .

آخـــر : ولا برِحتْ سـيُوفُه تَسِيل يوم الرَّوْع جداولُهـا ، وعزائمـه تُنْصر كتائبها وجحافلُها ، ومنزلتُه على ممرّ الزمان بين السِّما كين منازِلُهـا . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُثْنِى على محاسنه التى بَهَرتْ أوصافُها ، وآختالت فى مَلَابس الحمدِ أعطافُها ، وتبدى لعلمه .

أدعية وصـــــدور

(تصــلح لنائب حلب المحروســـة)

دعاء من ذلك : ولا زال يُعَـدّ ليومٍ تَشِيب منـه الوِلْدانُ ، ويُعَـدُّ دونه [كلُّ محارِب][1] بَيْنه وبين الشَّهباء والمَيْدان ، ويَعُمُّ حَلَبَ من حِلَى أيامه مالا يُفْقَد معه إلا آسمُ آبن حَمْدان .

فإن كان لقَبُه سيفَ الدين ، قيـل « ويعُمُّ حلبَ من حلى أيامه مالا يُفْقَد معه سيفُ الدِّين إن فُقِدَ سيفُ الدولة بنُ حَمْدان » . صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

الكريم تُهْدِى إليه سلامًا مامرّ على روض إلا آنتهب طِيبَه نَهْبا، وثناءً تُعقَد له أعلامُه على كتيبته الشُّهْبا، وتوضّح لعلمه» .

آخـــر : وفَتح بسُيوفه الفتحَ الوَجيز، وأحلَّ عقائلَ المَعاقل منه فى الكَنَف الحَريز، وأعادَ به رَوْنَق بلد ماجَفَتْ بها زُبْدة حَلَب وهو فيها العزيز . صدرت هذه المكاتبة إلى الجَناب الكريم بسلامٍ ذَهَبُه لايَذْهَب، وثناءٍ لاتصْلُح لغير عَقيلة الشهباء قلادةُ عنبره الأشْهب، وتوضّح لعلمه الكريم .

آخـــر : ولا زالت هِمَمُه مُطِلَّة على النُّجوم فى منازلها، مُطاولةً للبروق بمَنَاصِلها، قائمةً فى مصالح الدوَلِ مَقَـامَ جَحافِلها . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا كالدُّرَر، وثناءً طويل الأوْضاح والغُرَر، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وأمدَّه بَعْونه، وجمّله بصَوْنه، ولا زال رأيُه فى النقيضين: لهذا سببَ فنائه ولهذا علّةَ كَوْنه . صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليـه سلامًا رَطِيبا، وشُكْرا يكون على ماتُخْفِى الصدورُ رَقيبا، وتوضّح لعلمه .

آخـــر : وأعلى له من الأقدار قَـدْرا ، وضاعف لَدَيْه من لَدُنْهُ سُرورا وبِشْرا، ولا أعدمَ المـالكَ من عزائمه تأييدًا ونَصْرا . صدرت هـذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليـه سلاما يفُوقُ الزَّهَر، ويسابِقُ فى سَـيْره الشمسَ والقمَر، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وخَصَّه بجميل المَنَاقب، ومنحه من المَزِيد عُلوّ المَراتب، وضاعف لَدَيْه من الإيثار شريفَ المَواهب . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا كَرُم وفُودُه، وثناءً حسُنَ وصفُه وعذُبَ وُرُوده، وتوضّح لعلمه .

آخـــر : ولازالت الخواطرُ تَشهدُ منه صِدْقَ المحبّة، والنفوسُ تحقّق أنه قد جعل النصيحةَ لأيامنا الشريفة دأْبه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلاما زاكيةً أقسامُه، وثناءً كُلَّ عِقْدُه واتّسق نِظامُه؛ وتوضح لعلمه الكريم .

آخـــر : وزاد عَزْمَه المباركَ تأييدا، ومَنَح نِعمَه على ممرّ الأوقات مَزِيدا، وجعل حظَّه من كلّ خير سَعِيدا، وسعدَه بتجديد الأيام جَدِيدا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه تحيةً حسُنَ إهداؤُها إليه ، وثناء يُبْهِج الخواطِر ورُودُه عليه ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : وجعل السعدَ المؤبَّد من مَغَانمه، وأقامه لإبقاء الخير في معادِنه وإثباتِ العزّ في معالمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليه تحيةً طاب نَشْرُها العاطر، وثناءً أبهجَ ذكْرُه الخاطر ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال بالملائكة منصُورا ، وبمَزِيد النِّعم مَسْرورا، وبكلّ لسانٍ موصوفًا مشكورا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا يَضُوعُ نَشْرُه ، وثناءً يفُوح عِطْرُه، وتوضح لعلمه .

دعاء وصـــــدر
(يصلح لنائب السـلطنة بطرابُلُس)[1]

[وهو من هذه النِّسبة وما لايبعُد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيّامَه التى مارقّتْ على مثلها أسحار، ومدّ فى مَنَاقبه العُـقولَ التى تحـار ، وأخذ بنواصى الأعداء بيـده لا تنأى بهـم البَرارِى المُقْفِرة ولا تحصِّنُهم البِحار .

(١) ظهر من فحوى المقام أن هنا سقطا من قلم الناسخ، وقد تداركناه من "التعريف" ووضعناه بين قوسين هكذا [ ] تميا للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام وفرت منه أسْهُمَه التى يدرأ بها العـدا فى نحرها، وثناء مُطْرِبٍ ترقُصُ به الخيلُ فى أعنّتها والسُّفُن فى بحْرها .

دعاء آخر وصـــدر

ولا زالتْ صفوفه تَشُدُّ بنيان الحرب، وسـيوفه تعَدُّ للقتل وإن قيـل للضرب، وبجُوفُه تُجَرّ على بلد ما مثله فى شرق ولا حصل على غير المسمّى منه غرب .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدى إليه سلاما يزيد أُفُقَه تزيينا، وثناء يأتيه من فائق الدُّرّ بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصـــدر

(يصلح لنـائب السلطنة بحمـاة)]

وأتمّ بخِدَمه كلّ مبَرّه، وبهِمَمه كلّ مَسَرّه، وصانَ ماولِيَـه أن يكونَ به غيرَ النهر «العاصى» أو يُنْسبَ إليه سوى البلد المعروف « معرّه » .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى تُهدِى إليه سلاما تُمْسَحُ أنديتُه بالسّحائب، وثناءً يأتى به حِمَا حَمَاةَ وقرونُها المنشورةُ بألويته معقودةُ الذّوائب .

[دعاء آخر وصـــدر[(1)]

وحمى حَمَاه، وزان موكبه بأحسن حِمَاه، وحسّن كنائنَ سهامه التى لا يصلُح لهـا غيرُ بلده حَمَاه][(1)] .

صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجَناب العالى تُهْدِى إليه سلامًا تحملُه إليـه الركائبُ السائره، وثناءً تُشرق منـه الكواكبُ أضـعافَ ما تُريه أفلاكُ الدواليب الدائره؛ وتوضح لعلمه .

(١) مابين هذين القوسين [ ] تداركناه من التحريف لينتظم به الكلام فليتأمل .

دعاء وصـــــدر

(يصـــلح لنـائب صَـــفَد)

وشكر هِمَمه التى وفَتْ ، وعزائمه التى كَفَتْ ، وأعلىٰ به بلدا مُذْ وَلِيه قيل : صفَدٌ قد صفَتْ . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليـه سلاماً لا تَزال شـعائرهُ تُقام ، وثناءً مُذْ هَبَّ علىٰ بلده قيـل : إنَّ هواءها يَشْفِى الأسقام ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولازالت مَسَاعيه تسوقُ إليه الحُظُوظَ [البَطِيَّة](١) وتقدِّم له العَلْياءَ مثل المطِيَّه ، وتهنِّيه بمـا خُصَّ به من صَـفَد وهى العَطِيـه ؛ [صـدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلامًا يحيِّيه فى محلِّه ، وثناءً يودعُ فى مَعْقِله الذى لا تصل أعلىٰ الشوامخ إلا إلىٰ ماسفَل من ظلِّه](١) وتوضح لعلمه .

ادعية وصـــــدور

(تصلُح لكلِّ من نُوّاب طرابُلُس وحماةَ وصَفَد ومَنْ فى معناهم)

دعاء وصدر من ذلك : ولا بَرِح منصـورَ العَزَمات ، مسـدَّدًا فى الآراء والحَرَكات ، مشيِّدا قواعدَ الممالك بمالَهُ من جميل التقدمات . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الباب العالى تُهْدى إليه سلاما أرِجا ، وثناءً بَهِجا ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال سيفُه ماضيا ، وجِيدُه حاليا ، وضِدُّه خاسيا . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجنـاب العالى تُهْدى إليه سـلاما ، وتسـدِّد رأيه الصائبَ سِهاما ، وتوضح لعلمه .

---

(١) من التعريف .

آخـــر : ولا زالت آراؤه سعيدَه ، وتأثيراتُه حَميده ، وسُـيوفُه لرقاب العِـدا مُبيده . صدرت هـذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى تُهْدى إليه سلامًا يتأرّج، وثناءً نَشْره نَشْرَ الثوب المدَبَّج، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولازالتْ آراؤه عاليه، وأجيادُه حاليه، ونِعَمُ الله عليه متواليه . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدى إليه السـلام التام ، والثناءَ الوافرَ الأقسام ؛ وتوضح لعلمه .

أدعية وصـــــدور

(تصلح لنائب الكَرَك ومن فى معناه ممن رُتْبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيّد عزمَه ، وأبّد حَزْمه ، وفوّقَ إلى نحـر العِـدا سَهْمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدى إليه سـلاما ، وتُسَدّد لرأيه الصائب سِهَاما، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال عاليا قدرُه، نافذا أمْرُه، جارياً على الألسنة حمدُه وشُكْرُه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدى إليه سلاما، وثناءً بَسّاما، وتوضح لعلمه.

المَهْيَـــع الثـانى

(فى بيـان مَرَاتب المكتوب إليهم من أهل المملكة، وما يستحقه كلٌّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(أرباب السيوف، وهم علىٰ ثلاثة أقسام)

القســـم الأوّل

(من هو منهم بالديار المصرية، وهم ستة أصــناف)

الصـــنف الأوّل

(نُوّاب السلطنة الشريفة، وهم أربعة نُوّاب)

الأوّل — النـائب الكافل : وهو نائبُ السلطنة الشريفة بالحَضْرة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممـالك فى المَقَالة الثانية أنه أعلىٰ نُوّاب السلطان رتبةً . قال فى "التثقيف": وقلّ أن يُكاتَب إلا إذا كان السلطان مسافرا فى غَزاةٍ أو سَرْحة للصـــيد .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التعريف" : أعزّ الله تعالىٰ أنصار الجناب الكريم علىٰ ما تقدّم فى الدرجة الثانية من الدّرجاتِ العشْر[1] . قال فى " التعريف " : وقد رأيت بعضَ الكُتّاب قد كتب فى ألقابه بعــد الأميرىّ « الآمرىّ » . قال : والكاتب المذكور كاتبٌ صالحٌ فى المعرفة وليس بحجّة، وكتابته الآمِرِىّ ليست بشىء، وإنمـا حمله عليها كثرة المَلَق . وقد نقل فى "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

(١) لم يتقدم الإثمـان فتنبه .

فى تعريفـه « نائب السـلطنة و كافل الممـالك الشريفـة الإسلاميـة » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذى أُراه أن يُجمَع ذكر النيابة والكَفَالة فى تقليده، فيقال : « أن يُقلَّد نِيابةَ السلطنة المعظَّمة ، وكَفالةَ الممـالك الشريفة الإسلامية » أو ما هـذا معناه ، نحو : « وكفالة الممـالك الشريفـة : مِصْرا وشاما وسائر البلاد الإسلامية أو الممـالك الإسلامية» ونحو ذلك .

فأما فى تعريف الكتب، فقد جرتْ عادة نُوّاب الشـام أن تقتصر فى كُتُبها إليه علىٰ « كافل الممـالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعَمْرى فى ذلك مَقْنَع وإنّ فى الاقتصار عليها ما هو أكثرُ فَخَامة . وعليه عملُ أكثر الكُتّاب بديوان مصر أيضا ، ويؤيِّده أنهم مقتصرون فيما يكتب بإشارته علىٰ هذا التعريف، فاعلم ذلك .

ورسمُ المكاتبة إليه علىٰ ما استقرّ عليه الحالُ ، علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" : أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المَقرّ الكريم، كما فى الدرجة الأُولىٰ من الدرجات العشر، والعلامة إليه «أخوه» . وتعريفه : « كافلُ الممالك الشريفةِ الإسلاميّة أعلاها الله تعالىٰ» . قال فى "التثقيف" : وإنما كُتِب له أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ، وزيدت ألقابه علىٰ ما كانت عليه لـمّا كُتِب بذلك لنائب الشام فى وِلَاية بيدمر الخُوارِزْمىّ، وكافل المملكة يومئذ الأمير مَنْجَك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكونَ نائبُ الشام مميَّزا علىٰ كافل السلطنة، علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ مكاتبة نائب الشام .

قال فى "التعريف" : أما نائبُ الغَيْبـة ، وهو الذى يُترك إذا غاب السـلطان والنـائب الـكافل وليس إلّا لإخمـاد النّوائر وخَلَاص الحقوق ، فحكمُـه كحكمـه فى المكاتبة إليه .

الثانى — نائب ثَغْر الإسكندريةِ المحروسِ : وهو ممن آستُحدِثت نيابتهُ فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» عند طُرُوق العدوّ المخذُول، فى سنة سبع وستين وسبعمائة من الفَرَنج المخذولين .

ورسم المكاتبة إليه : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجَنَاب العالى، علىٰ ماتقدّم ذكره، إلا أنه لا يقال فى ألقابه « الكافلىّ» والعلامةُ الشريفة له « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس» .

وآعلم أن بالإسكندرية حاجباً يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه : «هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» إن كان طبلخاناه، و « يعلَمْ مجلس الأمير » إن كان عشرةً، والعلامة الشريفة له الآسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ بثغر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجْه القبلى : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينةُ أُسْيوطَ ، وأنّ آستحداثَ نيابته كان فى الدولة الظاهريّة «برقُوق» فى سنة ثمانين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليه : « ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره . ولا يقال فيه « الكافلىّ» أيضا ، والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلى» .

الرابع — نائب الوَجْه البحرىّ : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينة دَمَنْهور الوَحْش من أعمال البحيرة، وأن نيابتَه آستُحدثتْ بعد نيابة نائب الوجه القبلىّ، ولذلك لم يتعرّض له فى "التثقيف" .

ورسم المكاتبة إليه : «ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » كما فى نائب الوجه القبلىّ . والعلامةالشريفة له«أخوه»وتعريفه«نائب السلطنة الشريفة بالوَجْه البحرىّ» .

الصـــــنف الثـاني
(الكُشّاف)

وقد تقدّم أنه كان قبـل آستقرار نيابَتي الوجهين : القبليّ والبحريّ كاشـفان بالوجهين المذكورين : كاشفٌ بالوجه القبليّ ، وكاشفٌ بالوجه البحريّ . فلمـا آستقرّ النيابتان ، آستقرّ بالفيّوم والبهنَسَاوية كاشفٌ ، وبالشرقيـة وما قاربها كاشفٌ ؛ وكلّ منهما أميرُ طبلَخاناه .

ورسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما : « صدرتْ هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » والعلامةُ لكلٍّ منهما الأسم الشريف ، وتعريف كاشف الفيوم « الكاشفُ بالفيُّوم والبهنساوية » وتعريف الآخر « الكاشف بالوجه البحريّ » .

الصـــــنف الثالث
(الوُلَاة بالوجهين : القبـــلى والبحريّ)

وكلٌّ من وُلَاة الوجهين لا يخرج عن طبلخاناه أو عشرة وما فى معناها كالعشرين ونحوهـا .

فأما الوجهُ القبلى ، ففيه ستة وُلاة ، منهم ثلاثة طبلخاناه : وهم والى قُوص وإخْمِيم . ووالى الأُشْمُونَيْنِ . ووالى البَهْنَسَا .

ومنهـم ثلاثةٌ عشرات : وهم والى الجـيزيّة ، وكان قبل ذلك طَبْلَخاناه . ووالى إطْفِيح . ووالى مَنْفَلُوط . وكان قبل ذلك طبلخاناه ، وهو اليوم إمرةُ عشرين .

وأما الوجه البحرى ، ففيه سبعةُ ولاة : منهم ثلاثةٌ طبلخاناه . وهم والى الغربيّة . ووالى المَنُوفيّة . ووالى الشَّرقيّة . وكان بدمنهور والٍ طبلخاناه قبل آستقرارها نيابةً .

ومنهم أربعــةُ عشرات، وهم : والى قَلْيُوب . ووالى أُشْمُوم : وهى الدقَهْلِيّــة والمُرْتاحيّة . ووالى دِمْياطَ . ووالى قَطْيَا .

ورسم المكاتبــة إلىٰ كلٍّ من ولاة الطبلخاناه منهم : « هــذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » وإلىٰ كلٍّ من ولاة العشرات منهم « يعــلم مجلسُ الأمير» والعــلامة لكل من الطبلخاناه والعشرات الآسمُ الشريف، وتعريفُ كل منهم «والى فلانةَ» .

الصـــــنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدّمة الذكر: لكَشْف الجسور وعمارتها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغِلَال)

قال فى "التثقيف": فمن كان منهم طبلخاناه، فرسم المكاتبة إليه السامىّ بالياء . ومن كان منهم عشرة ، فرسم المكاتبــة إليه السامى بغير ياء . والعلامةُ لجميع الآسم الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجّه بسببها، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المِصْــريّة)

وقد رتّبهم فى "التعريف" علىٰ أربع مراتبَ :

المرتبة الأولىٰ ــ مقدّمو الأُلُوف، وقد ذكر أنّ لكبارهم أسوةَ كبار النُّوّاب بالممالك الشامية، كالشام وحَلَب . ولأوسطهم [أسوةَ أوسطهم](١) لحماة وطرابُلُس وصَفَد .

---

(١) الزيادة من "التعريف"، وهى ساقطة من قلم الناسخ .

ولأصغرهم أسوة أصغرهم، كقزّة وخِصّ . ثم قال : فاعلم ذلك وقِسْ عليه. ثم قال بعد ذلك : والذى نقوله أن لكبار المقدّمين بالأبواب السلطانية «الجناب الكريم» [ثم الجناب العالى][1] ثم «المجلس العالى» . وهذا على ما كان فى زمانه؛ أما على ما استقرّ عليه الحالُ آخرا ، فإنه يكون لكبارهم «المَقَرّ الكريم» كما يُكتَب للأتابك الآنَ ، ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» .

المرتبة الثانية — الطَّبْلخانات . قد ذكر أن منهم من يُكتَب له «المجلس العالى» كن يكون معيّنا للتّقدمة ، وله عدّة ثمانين فارسًا أو سبعين فارسا أو نحو ذلك ، وكالمقرّبين من الخاصكيّة ، أو مَنْ له عَراقةُ نَسب كبقايا الملوك، أو أرباب وظائفَ جليلة: كحاجبٍ كبير، أو إستدّار جليل، أومدبّر دولة لم يصرّح له بالوزارة، أوَدوادار متصرّف. ثم قال : وهؤلاء وإن كُتِب لهم بالمجلس العالى، فإنه يكتب لهم بغير افتتاح بالدعاء، والكتابة لهم بالعالى على سبيل العرض لا الاستحقاق، وإلا فأجلّ رسم مكاتبةِ أمراء الطبلخاناه «السامى» بالياء وجمهورهم «السامى» بغير ياء .

المرتبة الثالثة — العشرات . وذكر أن لكل منهم «مجلس الأمير» ، ثم قال : فإن زِيد قدرُ أحدٍ لسببٍ مّا، كتب له «المجلس السامى» بغير الياء .

المرتبة الرابعة — مقدّمو الجُنْد . وقد ذكر أن لهم أُسوةَ أمراء العشرات فى المكاتبة . ثم قال : وأما الجُنْد، فالأمير الأجلّ. وأما جُنْد الأمراء فالطّواشى . وكأنه يريد ما إذا كُتِب بسببهم مكاتبةٌ أوكُتِب لأحد منهم توقيع ، وإلا فالجند لا يكاتَبُ أحدٌ منهم عن الأبواب السلطانية حتّى ولا نُوّاب القِلاع بالشام، كما سيأتى ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

الصـــــنف السادس
(العُرْبان بالديار المصرية وبَرْقَـــة)

وقد تقدّم الكلامُ عليـه مستوفًى فى الكلام على أنساب العرب ، فيما يحتاجُ إليه الكاتب فى المقالة الأولى . وقد ذكر فى "التعريف" أن العرب بمصر فى الوجهين القبلىّ والبحرىّ جماعاتٌ كثيرةٌ وشعوبٌ وقبائلُ . ثم قال : ولكنهم على كثرة أموالهم(١) وآتساع نطق جماعاتهم، ليسوا عند السلطان فى الذّرْوة ولا السَّنام، إذ كانوا أهل حاضرةٍ وزَرْعٍ، ليس منهم من يُنْجِد ولا يُتْهِم، ولا يُعرِق ولا يُشْئِم، ولا يخرجون عن حدود الجُدْران، وعلى كل حال * فالمَنْدَلُ الرطب فى أرجائه حَطَب * .

ثم قد قَسّم منازلهم إلى الوجه القبلىّ والوجه البحرى، وذكر أن بكل من الوجهين مَنْ يكاتَب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البَحْرىّ فعلى ضربين :

الضــــرب الأوّل
(عرب البُحَيْرة)

قال فى "التعريف": وأمراؤهم عربُ الديارِ المصرية . قال : وهم أشبهُ القوم بالتخلُّق بخَلَائق العرب فى الحَلِّ والتَّرْحال، يُغْرِبون إلى القَيْرَوان وقابس، ويَفِدُون على الحضرة السلطانية وُفودَ أمثالهم من أُمَراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم فى زمانه، كانت فى محمد بن أبى سليمان وفائد بن مقــدّم . وقال : إنّ رسم المكاتبة إلى كلّ منهما : « هذه المكاتبة إلى المجلس السامى ، الأمير» والعلامة السلطانية « أخوه» ولم يتعرّض لتعريفهما، والذى يظهر أن تعريف كلٍّ منهما آسمه .

---

(١) فى الاصل : أبدالهم، وهو تصحيف والصحيح من "التعريف" .

أما بعده ، فقد تغيّرت تلك الأحوال، وتناقصتْ رتبــةُ عرب البُحَيرة، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال جَمّة ، كان منهم فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» رِحَاب، وموسىٰ بن خَضِر، وأولاد بَدْران الغَرِيفى، ومن جرىٰ مجراهم، ثم صار اليوم بها (١) بن رِحَاب، وخضر بن موسىٰ.

الضـــــرب الثـــانى

(عربُ الشَّرْقية)

وقد ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه منهــم نُجَّم بن مجل شــيخ عائذ ، وذكر أنه دون محمّد بن أبى سليمان وفائد بن مقدّم : أميرَىْ عرب البُحَيرة . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه : «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيرتِ الأحوالُ بعــد ذلك وصارت رياسةُ عرب الشرقية متداوَلةً فى جماعة، إلىٰ أن كان منهم فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسٰى أمير (١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أوّلا فى (١) ثم قُتِل بسيف السلطان فى الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وآستقرّ مكانه (٢)

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .

*
* *

وأما عرب الوجه القبليّ ، فقــد ذكر في " التعريف " أنه كان منهم في زمانه نَفَران : أحدُهما ناصر الدين عُمَرُ بن فَضْل . وذكر أنّ رسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» أيضا . وثانيهما سَمُرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ ، وشوكة مُنْكِية ، يغزو الحبشة وأُمَمَ السُّودان ، ويأتى بالنِّهاب والسَّبايا ؛ وله أثَرٌ محمود ، وفعل مأثور . وفد على السلطان وأكرم مَثْواه ، وعُقِد له لواءٌ وشُرِّف بالتشريف ، وقُلِّد ذلك ، وكتب إلى وُلَاة الوجه القبـليّ عن آخرهم وسائرِ العُرْبان به بمساعدته ومُعاضَــدَته ، والركوب للغَزْو معه متى أراد . وكتب له منشورٌ بما يفتح من البلاد ، وتقليدٌ بإمرة العُرْبان القبلية مما يلى قُوصَ إلى حيثُ تصــل غايتُه . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه " السامى الأمير " كما تقدّم .

قلت : ثم كان بعــد ذلك عدد من أمراء العربان ، كان آخِرَهم أبو بكر بن الأحدب . ثم لمــا آنتقلت هوّارة إلى الوجه القبلى ، صارت الإمرةُ فيهم في الصعيد الأدنى ، في بنى غَرِيب ، وأميرهم الآن (١) وفى الصعيد الأعلى في بنى عُمَر ، وأميرهم محمد بن عمر ، ورسم المكاتبة إلى كل منهما (٢)

(١) بياض بالاصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بيض لهذا كما بيض لمــا قبله آنتظارا لوضع مثال المكاتبة الجارية في زمانه فاخترمته المنية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عربُ بَرْقةَ ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه لم يبقَ منهم فى زمانه مَنْ يكاتَب إلا جَعْفرُ بنُ عمر، وأنه كان لا يزال بين طاعةٍ وعِصْيان، ومُخاشَنة ولِيَان، وأن أمراء عرب البُحيرة كانتْ تُغْرِى به، وتغيِّر خاطر السلطان عليه، وأنّ الجيوش كانت تمتدّ إليه، وقلّ أن ظَفِرتْ منه بطائل ، أو رجعت بمَغْنَم إن أصابتْه نوبةٌ من الدّهر .

وكان آخِرَ أمره أنه ركب طريقَ الْواحِ حتّى خرج من الفيُّوم، وطرقَ بابَ السلطان لائذًا بالعفو، ولم يَسْبِق به خَبَر، ولم يعلم السلطانُ به حتّى استأذن المستأذنُ عليه وهو فى جملة الوُقُوف بالباب، فأُكرِم أتمّ الكرامة، وشُرِّف بأجل التشاريف، وأقام مدّةً فى قِرىٰ الإحسان وإحسان القِرىٰ . وأهلُه لا يعلمون بما جرىٰ ، ولا يعرفون أينَ يَمَّ، ولا أىّ جهةٍ نَحَا ، حتّى أتتهم وافدات البشائر. وقال له السلطان : لأىّ شيءٍ ما أعلمتَ أهلَك بقصدك إلينا؟ قال : خِفتُ أن يقولوا : يَقْتِك بك السلطان، فأتثبّط . فاستحسن قولَه، وأفاض عليه طَوْلَه، ثم أعيد إلىٰ أهله، فانقلب بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْه سوء، ولا رَثَىٰ له صاحب، ولا شَمِت به عَدُوّ .

النـــوع الثــانى

(ممن يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأقلام، وهـــم علىٰ ضربيـــن :)

الضرب الأوّل

(أرباب الدّواوينِ من الوُزَراء ومَنْ فى معناهم)

قال فى "التعريف" ولم تزل مكاتبةُ أجِلّاء الوزراء بـ«المجلس العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية « الجنــاب العالى » . وكُتِبت بالشام للصاحب عزّ الدين

أبى يعلىٰ ، حمزةَ بنِ القلانسىّ[(١)] رحمه الله، لجَلالة قَدْره ، وسابقة خِدَمه، وعنايةِ مَنْ كتب إليه بها. ثم قال: والذى آستقرّ عليه الحال للوزير بمصر « الجَناب » . أما من يَجْرِى مَجْرىٰ الوُزراء ولا صريحَ له بهـا : مثل ناظر الخاصّ، وكاتب السّر، وناظر الجيش، وناظر الدَّولة، وكُتَّاب الدَّسْت، فـ«السامىّ » بالياء، ومَنْ دون هؤلاء فبغير ياء، ثم «مجلس القاضى أوالصَّدْر» .

قلت : وكأنه يريد ألقـاب هؤلاء فى الجُملة، إما فى مكاتبةٍ تكتب بسبب أحد منهم، وإما فى توقيع ونحوه يكتب لأحدهم، وإلا فَمَنْ ذكره من الأصاغر لايكاتَبُ عن الأبواب السلطانية عادةً . والذى صرح فى "التثقيف" بذكر المكاتبة إليه من هذا الضرب نفران :

الأوّل ــ كاتب السرّ إذا تخلّف عن الرِّكاب السلطانىّ لعارض. وذكر أن رسم المكاتبة إليه : « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره ، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة» .

الثانى ــ ناظرالخاصّ الشريف . وذَكَرَ أن رسم المكاتبة إليه علىٰ ماآستقرّ عليه الحال فى أيّام آبن نقولا « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره، والعلامة «والأسم» وتعريفه «ناظر الخواصّ الشريفة» .

قلت : ولم يتعرّض لمكاتبة الوزير، إنما ذكر ألقابه فى الألقاب العامّة مما يكتب فى الولايات وغيرها، ولا يُستغنىٰ عن ذكر المكاتبة إليه، وقد تقدّم فى كلام صاحب "التعريف" أن الذى آستقر عليه الحال فى المكاتبة إليه «الجناب العالى» ولم يعيِّن صورة الدعاء له . والذى ذكره فى "التثقيف" فى ألقـابه أن الدعاء له «ضاعف الله

(١) فى "التعريف" القلانسى .

تعالى نعمته » وحينئذ فتكون المكاتبة إليه إن كتب إليه « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى» بالألقاب السابقة .

الضرب الثانى

(أرباب الوظائف الدينية والعلماء)

قد ذكر فى "التعريف" أن كلًّا من قُضاة القضاة بمصر يكتب له « المجلس العالى» والمحتسب بها يكتَب له «السامىّ» بالياء، ومَنْ دونَهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابرهم «السامى» بغير ياء ، ومَنْ دونَهم « مجلس القاضى » او «الشيخ» بحسَبِ مايليق به . وكأنه يريد مطلقَ الألقاب كما تقدّم فى غيره، وإلا فهؤلاء لايكاتَبُون عن الأبواب السلطانية. ولم يذكر فى "التثقيف" مكاتبةً لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوى قاضى القُضاة تاج الدين الإخْنائى المالكى، وقد حَجّ فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الناصرية «حسن» ، جواباً عما ورد منه، وكتب له الدعاء و« المجلس العالى » . والعلامة الاسم . قال : وأما قاضى القضاة عزُّ الدين بن جماعةَ فإنه كان يَحُجُّ ويجاور كثيرا ، ولكنى لم أره كتب له قَطّ ، وأنا شاكٌّ فى أمره .

قلت : رأيت فى "إيقاظ المتغفّل" لابن المتوّج ، أنه كتب إليه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالى أحكامَ المجلس العالى » ولم يتعرض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاةِ الشافعية أو المالكية بالديار المصرية » .

النـــــوع الثـالث

(ممن يُكاتَب عن الأبواب السلطانية ممّن بالديار المصريّة الخُوَنْدات السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربه ممن تدعُو الضرورةُ إلى مكاتبته لسَفَره أو لسَـفَر السلطان)

وقد ذكر فى "التثقيف" منهنّ جماعةً، نذكرهنّ ليكُنّ أُنموذَجا لمن يكون فى معناهُنّ .

الأولى — ابنة المقام الشريف الشهيد الناصرىّ «محمد بن قلاوون» لمّـا كانت بحلَبَ مع زوجها أبى بكر بن أرْغُون ، كتب إليها ما صورته : «الذى يحيط به علمُ الحُرْمة الشريفـة ، العاليةِ ، المصونةِ ، الوَلَدية ، عصمةِ الدين ، جلالِ النساءِ ، شَرَف الخَوَاتين ، سليلةِ الملوك والسلاطين ، ضاعفَ الله تعالى جَلَالها» والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيفيّة بحلَب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانيـة — طُغَاى زوجة المقـام الشريف الناصرىّ المشار إليـه ، المعروفة بأمّ أنوك ، كتب إليها لمـا توجّهت إلى الحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهةِ الشريفة ، العاليةِ ، المعظّمةِ ، المحجّبة ، المَصُونة الكبرى خُوَنْد خاتون ، جلال النساء فى العالمين ، سيدةِ الخَوَاتين ، قرينةِ الملوك والسلاطين » . ثم الدعاء ، والعلامة الاسم الشريف ، وتعريفها «والدة المقرّ الكريم الولدىّ السيفىّ أنوك» : والأسطر على ما تقدّم فى المكاتبة السابقة .

الثالثـة — أخت المقام الشريف النـاصر حسن جهةِ الامير طاز ، كتب لهـا لما كانت بالحجاز الشريف : «ضاعف الله تعالى جَلَالَ الجهة الشريفة العالية الكريمة المحجّبة المصُونة الكبرى الخاتون ، جَلَال النساء فى العالمين ، جميلة المحجّبات ، جليلة المَصُونات ، كريمة الملوك والسلاطين ، والعلامة «أخوها» .

الرابعة — الحاجّة السّتّ حَدَق . كُتِب لها وهى بالحجاز الشريف عن الناصر حسن: «ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة العالية الكبيرية المحجّبية المصُونية الحاجّيّة الوالدية، جلال النساء فى العالمين، بركةِ الدولة، والدةِ الملوك والسلاطين». ثم الدعاء والعلامة الأسم الشريف، وتعريفها «الحاجّة ست حدق» .

الخامسة — والدة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجُّهها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالبا ، فكان يمكن أن يُكْتَب لها بتقبيل اليد .

قلت : وصورة المكاتبة على مارأيته فى بعض الدساتير : «ضاعف اللهُ تعالى جلالَ حِجَاب الجهة الشريفة العالية الكبرى ، المعظّمة المحجّبة العِصْميّ الخاتُونيّ ، جلال النساء فى العالمين ، سيدةِ الخواتين ، جميلة المحجّبات ، جليلة المَصُونات ، والدة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء ، وكانت الكتابة لها فى ورق دِمَشْقيّ فى قطع الفَرْخة بالطول كاملةً بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القســـــم الثـانى

(مَنْ يكاتَب بالممـالك الشامية، وهم أربعة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(أربابُ السيوف من النوّاب الكُفّال وأتباعهم، وهى ثمـانُ نيابات)

النيــــابة الأولىٰ

(نيابة دِمَشْق، المعبَّر عنها فى عُرْف الزمان بالمملكة الشامية)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية ضربان :

الضرب الأوّل

(مَنْ بمدينة دِمشـــقَ، وهم ثلاثة)

الأوّل — كافلُ السلطنة بها، وهو من أكابر مقدّمى الألوف . وكان رسم المكاتبة إليه علىٰ ما أورده المَقَر الشِّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : «أعز الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم» . قال فى "التثقيف" : ولم تزل المكاتبةُ إليه كذلك من بعد الدولة الشَّهيدية الناصرية محمد بن قلاوون إلىٰ آخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وآستقرّ الأميرُ بيدمر الخُوارِزْمى نائبَ السلطنة بها فى ولايته الثالثة، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فاستقرّ رسم المكاتبة إليه : «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» علىٰ الرسم المتقـدّم، والعلامة الشريفة إليه «أخوه» وتعريفه «نائب السـلطنة الشريفـة بالشام المحروس» . قال فى "التثقيف" : «أو كافل المملكة الشاميـة المحروسة» ولا يقال فى نُعُوته : كافل السلطنة .

الثانى — نائب قلعة دِمَشْق . ورسْمُ المكاتبة إليه « صــدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العــالى» علىٰ ماتقدّم رسمه . والعلامة « والده » . قال فى "التثقيف" : ثم آستقرت المكاتبة إليه « السامىّ » بالياء : لأنه طبلخاناه ، والعلامة الشريفة له الأسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث — حاجب الحُجّــاب بها . ورسم المكاتبة إليــه : « أدام الله تعــالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقــدّم رسْمُه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه «أمير حاجب بالشام المحروس» .

الضــــرب الثــانى

(مَنْ بأعمال دمشق من نُوّاب المُدُن والقِلاَع،وهم خمسة نوّاب)

الأوّل — نائب حِمْص ، قال فى "التثقيف" : كان يكتَبُ إليــه نظير نائب الكَرَك ، يعنى « أدام الله تعالىٰ نعــمةَ المجلس العالى» والعلامة الشريفة له «والده» لَمّــا كان من مقــدّمى الألوف بالشام ، ثم آستقر من أمراء الطبلخاناه ، وآستقرت مكاتبته « صــدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى» فيا أظن، وقد تقدّم رسمها . والعلامة الشريفة له الأسم الشريف، وتعريفه «النائب بحمص المحروسة» .

الثــانى — نائب الرَّحْبة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممــالك أنه كان من حقّها أن تكون من مضافات حَلَب . ورسم المكاتبة إليه « صــدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى» علىٰ ما تقدّم رسْمُه . والعلامة الشريفة له «والده» وتعريفه «النائب بالرَّحْبة» .

الثـالث — نائبُ بَعْلَبَـكَّ . قال فى " التثقيف " إن كان من أمراء الطبلخاناه فكاتبته «صـدَرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» والعلامة له الاسم الشريف . وإن كان من العَشَرات ، فالمكاتبةُ إليـه « يعلمُ مجلسُ الأمير » والعـلامة له الاسم الشريف وتعريفه « النائب ببَعْلَبَكَّ المحروسة » .

الرابع — نائب مِصْياف . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك أنها كانتْ مُضافةً إلى طرابُلُس فى جمـلة قِلاع الدّعْوة ، ثم آستقرّت فى مُضافاتِ الشـام . ورسم المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبة إلى المجلس السـامى » والعلامة الشريفة له الاسم الشريف .

الخـامس — نائب القُـدْس الشريف . وهو ممن آستُحدِثتْ نيابتُـه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » فى سـنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت قبل ذلك ولايةً وهو طبلخاناه ، وربما أُضيف إليه نظَرُ الحرمين : حَرَم القُدْس ، وحَرَم الخليل عليه السلام . ورسم المكاتبة إليه « صـدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» . والعلامة « والده » وتعريفه «النائب بالقُدْس الشريف» .

قال فى " التثقيف " : وكان قد آستقرّ بأماكن تُذْكَر من البلاد الشامية نُوّاب ، وآستقرّت مكاتبةُ كلٍّ منهم : إن كان مقـدّما « صدرتْ » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناه « السامىّ » بالياء والعلامة الاسم الشريف . وهى تَدْمُر ، والسُّخْنةُ ، والقَرْيتان ، وسَلَمْيَـةُ . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن النُّوّاب بالقلاع الشاميّة جمـاعةٌ لم تجرِ لهم عادةٌ بمكاتبة عن المواقف الشريفة ، ولا تصدُر ولا يتُهم من الأبواب الشريفة ، بل نائبُ الشام مستقلٌّ بذلك . وهم ، نائب عَجْلُونَ ، ونائب صَرْخَد ، ونائب الصُّبَيْبة ، ونائب شَقِيف أَرْنُون .

قال : وممن كُتِب إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمالُ الدين يوسفُ شاه الأتابك بحِصْياف فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة علىٰ يَدِ نافع بن بَدْران . ورسم ما كتب به إليه «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى» وكُتِب فى ألقابه «الأتابِكىّ» وكتب تعريفُه «يُوسُف شاه الأتابك» . قال : والظاهر أن العلامة «والده» .

النيابة الثانيـــة

(نيابة حَلَب)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(مَنْ بمدينة حَلَبَ ، وهم ثلاثة)

الأوّل — النائبُ بها . وهو من أكابر مقدّمى الأُلُوف . ورسم المكاتبة إليه « أعزّ الله تعالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم » علىٰ ما تقدّم رسمُه . والعلامةُ الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السَّلْطنة الشريفة بحلب المحروسة» .

الثانى — نائب القَلْعة بها . ورسمُ المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» علىٰ ما تقدّم رسمه . والعلامة له الاسم الشريف . وتعريفُه «نائب القلعة المنصورة بحَلَبَ المحروسة» .

الثالث — حاجب الحُجّاب بها . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» . والعلامة «والده» وتعريفُه «أمير حاجب بحَلَبَ المحروسة» .

الضـــــرب الثـــانى

(مَنْ بأعمال حَلَبَ من النوّاب ، وهم أحد وعشرون نائبا)

الأوّل ــ نائب الْبِيرة . ورسم المكاتبة إليـه « المجلس العـالى » . والعلامة الشريفة «والده» وتعريفه «النائب بالْبِيرة المحروسة» .

الثـانى ــ نائبُ قلعةِ المسلمين المعروفةِ بقلعة الرُّوم . ورسم المكاتبة إليـه والعلامة كذلك[1] . وتعريفه «النائب بقلعة المسلمين المحروسة» .

الثـالث ــ نائب مَلَطْيَةَ[2] . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامةُ الشريفة كذلك ، وتعريفه «النائب بملَطْيَةَ المحروسة» .

الرابــع ــ نائب طَرَسُوس . ورسمُ المكاتبة إليه « صـدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» وتعريفه «النائب بطَرَسُوسَ» .

الخامس ــ نائب أَذَنَةَ . ورسم المكاتبة إليـه والعلامة له كذلك ، وتعريفـه «النائب بأَذَنَةَ المحروسة» .

السادس ــ نائب الأُبُلُسْتَيْنِ . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامة الشريفةُ له كذلك ، وتعريفه « النائب بالأُبُلُسْتَيْنِ المحروسة » .

السابـع ــ نائب بَهَسْنَىْ . ورسم المكاتبة إليه « صـدرَتْ هـذه المكاتبة إلى المجلس السامِى » والعلامة له « والده » وتعريفه « النائب ببَهَسْنَىْ المحروسة » .

قال فى "التثقيف" : ولم يُعلَّم لأحد من أرباب السيوف قديمًا « والدُه » مع «السامى» بالياء غيره .

---

(١) أى «المجلس العالى» و «والده» مثل الذى قبله .

(٢) صوابه بهذا الضبط قال فى المعجم « والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء » . وقال فى القاموس « وتشديده لحن » .

الثامن — نائب آيَاس[1] . وهو المعبَّر عنه بنائب الفتوحات الجَاهَانِيَّة . قال فى "التثقيف" : إن كان مقدّما فالمكاتبةُ إليه بنسبة مكاتبة نائب البِيرة ، فيكون رسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الاسم ، وتعريفه بكل حال «النائب بآيَاس[1]» أو «النائب بالفُتُوحات الجاهانيّة المحروسة» .

التاسع — نائب جَعْبَر . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التثقيف" ، «هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الاسم ، وتعريفُه «النائب بقلعة جَعْبَر المحروسة» .

العاشر — نائب عَيْنتاب . ورسم المكاتبة إليه على ما فى "التثقيف" «يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامةُ الاسم ، وتعريفُه «النائب بعَيْنتاب المحروسة» .

قال فى "التثقيف" : ورأيت بخطّ القاضى ناصرِ الدين بن النّشائى أن مكاتبته الاسمُ و«السامى» بغيرياء ، ثم قال : وما تقدّم هو ما آستقرّ عليه الحالُ آخرا . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أميرُ طبلخاناه ، وتعريفه «النائب بعَيْنتابَ» .

الحادى عشر — نائب دَرَنْدَة . قال فى "التثقيف" : إن كان طَبْلَخاناه فـ«السامى» بغيرياء ، وإن كان عشرةً فـ«مجلس الأمير» والعلامةُ الاسمُ بكل حالٍ ، وتعريفه «النائب بدَرَنْدَة» .

الثانى عَشَر — نائب القُصَيْر . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامة الاسمُ ، وتعريفه «النائب بالقُصَيْر» .

(١) تقدم للؤلف فى ص ١٢٣ ج ٤ أنه قال بفتح الهمزة الممدودة . وقال صاحب القاموس «كسحاب» .

الثـالث عشر — نائب الرَّاوَنْدان . ورسم المكاتبة إليه كمثل نائب القُصَيْر، وتعريفه « النائب بالرَّاوَنْدانِ » .

الرابع عشر — نائب الرُّهَا . قال فى "التثقيف" : جرتِ العادةُ أن يكون نائبُها طَبْلَخاناه ، فتكون مكاتبته « السامى » بغـير ياء ، والعلامة الاسم . ثم قال : وقد آستقرّ فى الأيام المنصوريّة فى سنة ثمـان وسبعين وسبعمائة مقـدَّمَ ألف ، فقد يكتب إليـه نظير نائب البيرة وقلعـةِ المسلمين، يعنى فتكون مكاتبته «صـدرَتْ» و « العالى » . والعلامة « والده » وتعريفه بكل حال « النائب بالرُّهَا » .

الخامس عشر — نائب شَيْزَر . قد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبته «هذه المكاتبة إلى المجلس الســامِى » فتكون العلامة الاسم ، وتعريفه « النائب بشَيْزَر » .

السادس عشر — نائب كَرْكَر . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التثقيف" « يعلم مجلِسُ الأمير» فتكون العلامة الاسم ، وتعريفُه « النائب بكَرْكَر» .

الســابع عشر — نائب الكَخْتا . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب بالكَخْتَا » .

الثـامن عشر — نائب بَغْرَاس . ورسم المكاتبة إليه كذلك، وتعريفه « النائب ببَغْرَاس » .

التـاسع عشر — نائب الشُّغْر وبَكَاس . ورسم المكاتبة إليـه كذلك، وتعريفه « النائب بالشُّغْر وبَكَاس » .

العشرون — نائب الدَّرْبَسَاك . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بالدَّرْبَساك » .

الحادي والعشرون — نائب إسفَنْدَكار . ذكر في "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه كذلك . ثم قال في "التثقيف" لكنّي رأيتُ بخط القاضي ناصرِالدين بن النَّشائي أن مكاتبته الاسم و «السامي» بغير ياء، يعني « هــذه المكاتبة إلى المجلس السامِي» . قال : وما يبعُدُ أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقِر عليه الحال ما تقدّم .

قلت : وقد ذكر في "التثقيف" ستّ قِلَاع آســتجدّتْ مكاتبةُ نُوابها بعــد ذلكْ ، ولم يذكر رسم المكاتبة إليهــم : وهم نائب حَجَر شُــغْلان ، ونائب كُوْمى ، ونائب قلعة كَوْلاكْ ، ونائب قلعة بَارِى كَرُوكَ ، آستجدّت مكاتبته في ســنة ستين وسبعِمائة، ونائب قلعة كاوَرّا ، آستجدّت مكاتبتُه في ســنة تسع وستين وسبعمائة ، ونائب كِرْزَالَ ، آستجدّت مكاتبتُه في سنة سبع وسبعين وسبعمائة . ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم . والذي يظْهَر أن رسم المكاتبة إلى كل منهــم « يعلَمُ مجلسُ الأمير » والعلامة الاسم، والتعريف «النائب بفُلانةَ » . وحينئذ فيكون المكاتَبُون من نوّاب أعمال حلب سبعةً وعشرين نائبا .

النيــابة الثالثـــــــة
(نيابة طرابُلُس)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأوّل
(من بمدينــة طرابُلُس ، وهم آثنانـــ)

الأوّل — نائبُ السلطنةِ بها، ورسمُ المكاتبة إليــه : « ضاعف اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى » على الرسم المتقــدّم . والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة » .

الثانى — الحاجب بطَرَابُلُس . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ » و « العالى » . والعلامة « والدُه » وتعريفـه « امير حاجب بطرابُلُس المحروسة » . وليس بطرابُلُس قلعة فيكتب إلى نائبها .

الضـــــرب الثـــانى

(مَنْ بأعمـال طرابُلُس من النوّاب ، وهم صنفان)

الصـــــنف الأوّل

(نُوّاب قِلاع نَفْس طرابُلُس ، وهم سبعة نُوّاب)

الأوّل — نائب اللّاذِقيّة . ورسم المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء . والعلامة الأسم ، وتعريفه « النائب باللّاذِقيّة » .

الثـانى — نائبُ صَهْيُون . ورسم المكاتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الأسمُ ، وتعريفه « النائب بصَهْيُونَ » .

الثـالث — نائب حِصْن الأكْرادِ . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بحِصْن الأكْرادِ » .

الرابـع — نائب بَلَاطُنُس . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب ببَلَاطُنُس » .

الخامس — نائب المَرْقَب . ورسم المكاتبة إليه كذلك .

السادس — نائبُ حِصْـنِ عكّار . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بحصن عكّار » .

الصِّــــنف الثــانى

(نُوّاب قلاع الدّعْوة المضافة إلىٰ طرابُلُس)

وهى : قِلاعُ الإسمـاعيلية الذين يُسَـمُّون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهـادِيَةِ . وكانت سبعَ قلاع فأضـيفَتْ مِصْيافُ منها إلىٰ دِمَشْقَ علىٰ ماتقـدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك ؛ وبقى من مُضافات طرابُلُس ستُّ قـلاع ، وهى الكَهْف ، والمَيْنَقةُ ، والعُلَّيقة ، والقَـدْمُوس ، والخَوَابى ، والرُّصَـافة . ومكاتبة كلٍّ منهـم «يعلم مجلسُ الأمير» والعلامة الاسمُ . وتعريف كلٍّ منهم «النائبُ بفلانة» .

النيـابة الرابعــــة

(نيابة حمَــاةَ)

والمكاتَبُون بها ضربٌ واحد بمدينة حماةَ خاصّةً ، وهما اثنان :

الأوّل — نائبُ السلطنة بها . وقد تقدّم فى أوائل هذا الطَّرَف أنها كانت بيد بَقايَا بنى أيّوبَ ، يطلَقُ عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولَّونهـا من ملوك مصرَ إلى أن كان آخِرَهم الأفضلُ محمد بن المؤيّد عمـادِ الدين إسمـاعيل فى الدولة الناصرية محمد ابن قلاوون ، ثم صارت نيابةً بعد ذلك يتداولهـا النّواب نائباً بعـد نائبٍ . ورسم المكاتبـة إلىٰ نائبها «ضاعف الله تعـالى نعمةَ الجناب العالى» والعلامة «والده» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفةِ بحماةَ المحروسة» .

الثـانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليــه «صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه «الحاجب بحماةَ المحروسة» .

قال فى "التثقيف" : ولم يكن بهـا قلعـةٌ فيُكْتَب إلى نائبها . قلت : وليس بأعمالها نوّابٌ فيكتب إليهم إنمـا بها وُلاةٌ يكاتَبُون عن نُوّابها .

النيـابة الخامســـة
(نيابة صَــفَدَ)

والمكاتبون بها ضَرْبٌ واحد أيضا، وهم مَنْ بالمدينة خاصّةً وهم ثلاثة :

الأوّل ــ نائبُ السلطنةِ بها . ورسمُ المكاتبة إليـه «ضـاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» . والعلامة «والدُه» . وتعريفه «نائب السلطنةِ الشريفةِ بصَـفَدَ المحروســـةِ» .

الثـانى ــ الحاجبُ بها . ورسم المكاتبة إليـه «صـدَرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» . والعلامةُ الاسْمُ . وتعريفُه «الحاجب بصَفَدَ المحروسةِ» .

الثالث ــ نائبُ القلعةِ بها . ورسم المكاتبـة إليه «هــذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «نائب القلعة المنصورةِ بصفَدَ المحروسة» .

قلت : ولم يكن بأعمالهـا نُوّاب فيكاتَبُون عن الأبواب السلطانية، بل بهـا وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها خاصّةً كما تقدّم فى حَمَاةَ .

النيابة السادسة
(نيابة غَزَّةَ)

والمكاتَبُون بها أيضا ضربٌ واحدٌ، وهم مَنْ بالمدينة خاصّةً ، وهما آثنان :

الأول — النائبُ بها . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك أنه إن آجتمع له البلادُ الساحليّة والجبليّة ، عُبِّرعنه بنائب السلطنة ؛ وإن قُصِرَ أمرُه على البلاد الساحلية فقط ، عُبِّرعنه بمقدّم العسكر وكان تحتَ أمرِ نائب دِمَشْقَ . وبكل حال فإنّ رسم المكاتبة إليه « أدام الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» والعلامة «والده» . ثم إن أضيف له الجهتان قيل فى تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزّةَ » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه «يعلم مجلسُ الأمير» . والعلامة الآسم ، وتعريفه «الحاجبُ بغزّة المحروسة» .

قلت : وليس بعَمَلها نُوّاب ، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها أو مقدّمِ العسكر بها . إلا أنه قد آستُحْدِث فى أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكاتبةُ كاشف الرَّملة ، وآستقرّت مكاتبته « صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» . والعلامة الآسم ، وتعريفه «الكاشف بالرَّملة» .

النيابة السابعة
(نيابة الكَرَك)

والمكاتَبُون بها مَنْ بالمدينة خاصّةً، وهما آثنان:

الأول — نائبُ السلطنة بها . ورسم المكاتبة إليه «أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى» . والعلامةُ والده ، وتعريفه «نائبُ السلطنة الشريفة بالكَرَك» .

الثانى — والِى القلعـةِ بها . ورسمُ المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى » . والعلامة الاْسمُ ، وتعريفه «والِى القلعةِ المنصورة بالكَرَك المحروس» .

قلت : ولم يكن بها حاجبٌ يكاتَبُ ولا بأعمالهـا نُوّاب، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن النائب بها خاصّةً .

النيـابة الثامنـــة
(نيـابة سِيس)

وقد تقـدّم فى الكلام على المَمَالك والمسالك أنها ممـا آستُجِدّ فتحُه فى الدولة الأشرفية « شـعبان بن حسين » . وقد ذكر فى " التثقيف " أن مكاتبةَ النائب بها كانت « ضـاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» كنائب طرابُلُس ومَنْ فى معناه . ثم قال : وقد صَحّ لى بعد هـذا أنه آستقرّتْ مكاتبتُه نظيرَ غَزّةَ . وهى « أدام الله تعـالى نعمةَ الجناب العالى » . والعلامة حينئـذ « والدُه » ، وتعريفه « مقـدّم العسـكر المنصور بغزة[1] » وما ذكَره آخرًا هو المستقِرّ عليه الحـالُ إلى آخر وقت . قال فى "التثقيف" : ولم أطّلِع على مكاتبة الحاجِب بها . ثم قال : وما يبعُدُ أن يكون «مجْلس الأمير» لأنه فيما أظنّ أميرُ عَشَرة . قال : وإن كان طبلخاناه، فالاْسم و «السامى» بغير ياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائبُ قلعة كما ذكره فى الكلام على نُوّاب القِلاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما فى " التثقيف " ينبغى التّنبّـه لها .

---

(١) لعلها بسيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدةَ فيمَنْ عدا أكابرَ النوّاب : كنُوّاب القِلاع والحجاب ونحوهم أنّ المكتوبَ إليه إن كان مقدّما فـ«والده» و «صدرت» و «العالى» . وإن كان طبلخاناه فالأسم و «السامى» بغير ياء . وإن كان عشرةً ، فالأسم و «مجلس الأمير» . وحينئذ فلا يتوقف مع المكاتبات السابقة ، بل يُنْظَر مَنْ هو مستقرّ فى ذلك الوقت ويكتَبُ إليه بما تقتضيه رتبتُه ، فإنه تارةً تكون عادةُ تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقرّ عشرةً وبالعكس ، وتارة تكون طبلخاناه يستقرُّ فيها مقدّمُ ألف وبالعكس . والعبرة فى ذلك بحال مَنْ هو مستقرٌّ حالَ الكتابة ، خلا ماهو مستقرّ من قديم الزمان لايتغيّر مثل مكاتبة نائب بَهَسْنىٰ ونحوه .

وثانيهما — أنّ نائب السلطنة بدمَشْق ، ونائب السلطنة بحَلَبَ ، ونائب السلطنة بطرابُلُس ، ونائب السلطنة بحَمَاةَ ، ونائب السلطنة بصَفَد ، ونائب السلطنة أو مقدّم العسكر بغَزّة ، ونائب السلطنة بالكَرَك ، ونائب السلطنة بالقُدْس الشريف يكتب إليهم فى جليلِ كلّ أمر وحقيره من المهمات السلطانية وخَلَاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نُوّاب القلاع والنُّوّاب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والحُجّاب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا فى المهمّات والأمور السلطانية : إما فى مثالٍ شريف مفردٍ لأحدهم ، أو فى مطْلَق شريف عامّ لجميعهم أو لبعضهم ، وكذلك فى البُشْرىٰ بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلىٰ كلّ واحد منهم مثالٌ بمفرده ، خلا الحُجّاب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النـــــــوع الثـانى
(ممّن يكاتَبُ بالممـالك الشاميّة أربابُ الأقلام، وهم صنفان)

الصـــنفُ الأوّل
(أربابُ الوظائف الدّيوانيـــة)

والذى يكاتَبُ منهم بالبلاد الشامية الوزيرُ بِدَمَشْقَ ، أو ناظرُ النُّظّار القائمُ مقَامه ، حيث لم يُصَرّح له بالوِزَارة .

أما الوزير بِدمَشْـق ، فقد ذكر فى " التعريف " أنه كُتِب للصاحب عِزّ الدين أبى يعلىٰ حمزةَ بن القلاقسىّ [1] « الجَنَـاب » بجلالة قدره ، وسابقة خِدَمه ، وعنـايةِ مَنْ كَتَب إليه بذلك ، وأن الذى آستقرّ عليه الحال للوزير بالشام « المجلس العالى » بالدعاء . كما كُتِبَ للصاحب « امين [2] الدين » أمينِ الملك فى وزارته فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » «ضـاعف اللهُ تعالىٰ نعمة المجلس العالى، القاضى، الوزيرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ ، الأوحدىّ، القَوَامىّ، النظامىّ ، المدَبّرىّ ، المـاجدىّ ، الأثيرىّ، المشيرىّ، الفلانىّ ؛ صلاح الإسلام والمسلمين، سيِّد الوزراء فى العالمين، رئيس الأمراء، كبير الرؤساء، بقيّة الأصحاب، مَلاذِ الكُتّاب ، عِمَـاد المِلّة ، خالصة الدوله ، مُشير الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين » . والدعاء ، ثم « صدرَتْ » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « مدبّر الممـالك الشريفةِ بالشام المحروس » .

قال : ولم يكتب لأحد بذلك بعدَهُ ولا قبلَه . ثم قال: واستقرّ فى الدولة الناصرية حَسَنٍ، الصاحبُ فخرُ الدين بن قروينـة وزيرًا بالشام أيضا علىٰ قاعدة جَدّه لأُمّه، أمين الدين المذكور. ولم أعلم ما كُوتِب به : هل كما كُتِب لجدّه المذكور أودُونَه؟ .

---

(١) فى "التعريف" القلانسىّ . (٢) ساقط من "التعريف" ولعله من الناسخ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة إليه «حرس الله تعالى مجد المجلس العالى ، القضائى ، الكبيرى، العالمى، الفاضلى ، الكاملى، الأوحدى، الرئيسى، الأثيرى، القوامى، النظامى ، المتقذى، المتصرفى، العلامى، مجد الإسلام والمسلمين، سيد الرؤساء فى العالمين، أوحد الفضلاء، جلال الكبراء، حجة الكتاب، صفوة الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين» . والدعاء ثم «صدرت» . والعلامة الاسم، وتعريفه «ناظر النظار بالشام المحروس» .

قال فى "التثقيف" : وهذا هو الذى استقر عليه الحال إلى آخر وقت .

الصنف الثانى

(القضاة والعلماء) .

قد ذكر فى "التعريف" : أن المكاتبة لقاضى القضاة الشافعى بالشام بـ«المجلس العالى» ولم يذكر صورتها . قال فى "التثقيف" : والذى كوتب به الشيخ تقى الدين السبكى رحمه الله، وهو قاضى القضاة بالشام: «أعز الله تعالى أحكام المجلس العالى، القاضوى، الكبيرى، العالمى ، العاملى ، الأفضلى، الأكملى، الأوحدى، البليغى، الفريدى ، المفيدى، المجيدى، القدوى ،الحجى، المحققى، الإمامى، الأصيلى، الموفقى ، الحاكمى، الفلانى؛ جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين، أوحد الفضلاء المفيدين، قدوة البلغاء، حجة الأمة ، عمدة المحدثين، فخر المدرسين، مفتى المسلمين ، جلال الحكام، حكم الملوك والسلاطين، ولى أمير المؤمنين » . والدعاء ثم «صدرت هذه المكاتبة» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «قاضى القضاة بالشام المحروس» .

ثم ذكر فيما بعدُ أنه كان يُكتَب فى نُعُوته : «صدْرُ الشام، معزُّالسنة، مؤيِّد الملّة» قال فى "التثقيف" وكانت مكاتبتُـه « شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب ، لسانُ المتكلمين » ، ولم يعيِّن مكانها . قال : وكُتِب بذلك إلىٰ ولده قاضى القُضاة تاج الدين السبكىّ ، وهو قاضى القضاة بالشام غيرَ مرّة . ثم زيد فى ألقاب أخيه الشيخ بهاء الدين عند آستقراره فى القضاء بالشام مكانَهُ بعد القاضوىّ « الشَّيْخىّ » وبعد المحقّقىّ « الوَرَعِىّ ، الخاشعىّ ، الناسِكىّ ، الإمامىّ ، العَلّامىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ » . وزِيدفى تعريفه بعد جَلاَل الحكام « بَرَكَةُ الدولة » .

النــــوع الثـالث
(ممن يكاتَب بالبلاد الشاميــة العُرْبان)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ أنساب العَرَب فى المقالة الأولىٰ، فيما يحتاجُ إليه الكاتبُ أنّ عرب الشام عِدّةُ بطون من عِدّة قبائل . وقد قال فى "التعريف" : إنهم جُلُّ القوم وعينُ الناس، لاعِنايةَ للوك إلا بهم، ولا مُبالاة بغيرهم .

ونحن نذكر هنا ما يتعلّق بالمكاتبات إلىٰ أُمَرائهم ومشايخهم خاصّةً .

البطن الأوّل
(آل فَضْــــل من آل رَبِيعــة)

وقد تقدّم أنهم من طَيِّئ ، من كَهْلانَ ، من العاربة . قال فى " التعريف " : وآلُ فضْل منهم همُ الذين فى نَحر العدُوّ، ولهم العَديدُ الأكثر، والمالُ الأوْفَر . قال : وقد صاروا الآنَ أهـلَ بيتين : بيتِ مُهَنّا بن عيسىٰ ، وبيت فَضْل بن عِيسىٰ .

قال : وهم فى جِوَار الفُرَات . ولذلك يُضاعَف إكرامُهم ، وتُوَفَّر لهم الإقطاعاتُ وتُسْنَىٰ . والإمرةُ الآنَ منهم فى بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ . وهو المعبَّر عنه بأمير آل فضل . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان فى زمانه قارا بن مهنا، ثم كان فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمد نعير بن حيار بن مُهَنَّا بن [عيسى بن مُهَنَّا[1] بن مانِع بن حَدِيثة آبن عُقْبة بن فَضْل بن رَبِيعة] ، ثم آستقرّ بعده فى الدولة الناصرية «فرج» آبنه العجل ، وهو المستقرّ إلى الآنَ .

قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبةِ إلى الأمير منهم «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ» بألقابٍ جليلةٍ معظَّمة مفخَّمة . وذكر فى "التثقيف" أنّ رسم المكاتبة إليه «أدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالِمِى، المجاهدىّ ، المؤيَّدىّ، الأوحدى ، النصيرىّ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ، الظهيرىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ، عزِّ الإسلام والمسلمين ، شرفِ أُمَراء العُرْبان فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كَهْف المِلَّة ، ذُخْر الدولة ، عماد العَرَب ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، حُسامِ أمير المؤمنين» . ثم الدعاء و«صدرَتْ هذه المكاتبةُ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «فُلَان بن فلان» .

قال فى "التعريف" أما من هو نظيرُه أو مُدانِيه وعَدَتْه الإمرةُ ، فرسمُ المكاتبة إليه : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» ومَن دونه «السامىّ الأميرىّ» . قال : ولكلِّ هؤلاء العلامةُ الشريفة «أخوه» ولِمَنْ دون هؤلاء «السامى الأمير» والعلامة الشريفة الاسمُ الشريف .

وقد ذكر فى "التثقيف" أسماءَ جماعةٍ من أكابر بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ، وبيت فَضْل بن عيسىٰ وذكر لكل منهم رسمَ مكاتبة .

(١) بياض بالأصل . والتصحيح مما تقدم للمؤلف فى ج ٤ من هذا المطبوع ص ٢٠٨ .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأوّل منهم — عَسَّاف بن مُهَنَّا . ورسم المكاتبة إليه : «هــذه المكاتبةُ إلى المجلس السامي، الأميرِ، الأجلّ، الكبير، الغــازى، المجــاهِدِ ، المؤيَّد، الأوحد، الأصيل، فلان الدين، مجدِ الإسلام، بهاءِ الأنام، فخرِ القبائل، زَيْنِ العشائر، عماد الملوك والسلاطين» والدعاء ثم «صدرَتْ» والعلامة «والده» وتعريفه آسمه .

الثــانى — عَنْقاء بنُ مهنّا أخو عَسَّاف . مثله فى المكاتبة على السواء .

الثالث — زامِل بن مُوسى بن مُهَنَّا ، «صــدرتْ » و«السامى» . والعــلامة «والده» وتعريفه آسمهُ .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْر، مثل عَمَّيه: عَسَّاف وعَنْقاء .

الخامس — علىُّ بنُ سليمان بن مُهَنّا . ذكر أنه كان يكاتَبُ بـ«السامىّ» بالياء . والعلامة الآسم . وذكر أنَّ أخاه عَوّادا لم يُعْلَمْ أنه كُوتب عن الأبواب السلطانية .

⁂

وأمّا بيتُ فضل، فذكر منهم مُعَيْقِل بن فَضْــل ، وقال : إن رسمَ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة «والده» . ثم قال : ولم يكاتَب الآنَ من بنى فَضْــل غيره، فإن أخويه : سَيْفًا وأبا بكر كانا يُكاتبانِ عن الأبواب الشريفة ، ثم تُوُفِّيَا إلى رحمة الله تعالى ، ولم يَبْقَ من أكابر بنى فضــل غيْرُه هو وأولاد أخَوَيْه ، لكنهم لم يكاتَبُوا بشىء . فإن آتفق أن يكاتب أحدٌ من أولاد أخويه المذكورَيْنِ أو من أولاد مُهَنَّا ، مثل أولاد فَيَّاض ، وبقيــة أولاد حيار ورُمَيْثة بن عُمَر بن موسى ونحوهم ، فأعلاهم الآسم و«السامى» بغير ياء، وأدناهم الآسم و«مجلسُ الأميرِ» .

البطن الثانى
(آل مِرا)

قد تقدّم فى الكلام على أنساب العرب فيا يحتاج إليه الكاتب، فى المقالة الأُولى، أنّ مِرَا وفضلًا أخوان . قال فى "التعريف" : ومنازلهم بلاد حَوْران . وقد ذكر فى " التثقيف " أن الإمرةَ فى زمانه كانت مقسومةً نصفين بين عَنْقاء بن شَطِى ابن عمْرو بن نُوبة ، وعَمّه فضل بن عمرو بن نوبة . ثم قال : ومكاتبةُ كلٍّ منهما «صدرتْ» و«السامى» . والعلامة «والده» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث
(آل علىّ)

وقد تقدّم فى الكلام على الأنساب أنهم من آلِ فضل . قال فى "التعريف" : وإنما نَزَلوا غُوطةَ دمشقَ حيثُ صارت الإمرةُ إلى عيسى بن مُهَنّا ، وبقى عيسى جارَ الفُرات فى تَلَايِيب التّتار . قال فى " التعريف " : ورسم المكاتبة إلى أميرهم « صدرتْ هذه المكاتَبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ » . والعلامةُ الشريفة « أخوه » . وقد ذكر فى " التثقيف " أن أميرهم فى زمانه كان عيسى بنَ رَمْلَةَ بن جَمّاز . وقال : إن رسم المكاتبة إليه كما ذكر فى " التعريف " وهى : «صدرَتْ» و«السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابـــــع
(بنو مَهْــدِىّ)

وقد تـقـدّمَ فى الكلام على الأنساب أنّ منازلهم البَلْقاءُ من مُضافات دِمَشْـقَ . قال فى "التعريف" : والإمرةُ فيهم فى أربعة، رسمُ المكاتبةِ إلى كلٍّ منهم «مجلس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" أنها كانت فى زمانه باسم بدرو بن ذؤيب بن سعيد ابن محفُوظ العقيسى، وسعيد بن مجرى بن حسن العقيسى، وزامِل بن عُبَيـد بن محفوظ العقيسى، ومحمد بن عَبّاس بن قاسم بن محمد بن راشد العسرى . وأن مكاتبة كل منهـم « مجلس الأمير » كما تقدّم فى "التعريف" . ثم قال : ومَنْ كان معه نصفُ الإمرة منهم، كانتْ مكاتبتُه الاسم و«السامى» بغير ياء، وتعريفُ كلٍّ منهم «فلان بن فلان» .

البطن الخـامس
(بنو عُقْبَــةَ)

وقد تقدّم فى الكلام على الأنساب أن مَرْجِعَهم إلى جُذَام، وأنّ منازلهم الكَرَك والشَّوْبك . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلى أميرهم مثلُ أميرِ آلِ مِرّا . وكذلك رسم المكاتبة إلى أقاربه كرَسْم المكاتبة إلى أقارب أميرآلِ مِرّا أيضا، فتكونُ مكاتبة أميرهم «صدرتْ » و «السامى» . ومكاتبة أعيان أقاربِه « السامى الأمير » ولِمَنْ دُونَهم «مجلس الأمير» . وقد ذكر فى "التثقيف" أن إمرتهم فى زمانه كانت باسم خاطر بن أحمد بن شَطِىّ بن عبيد . وذكر أن رسم المكاتبة إليـه الاسم و«السامى» بالياء، وتعريفه «فلان بن فلان» ولم يتعرّض لأقربائه .

---

(١) فى ج ٤ ص ٢١٢ من هذا المطبوع «آبن ذئب بن محفوظ العنبسى» ويظهر أنها هى الصواب .

(٢) الذى تقدّم هناك «بجرى» بالباء والجاء .

البطن السادس
(جَـرْم)

وقد تقـدّمَ فى الأنساب أن مَرجِعَهم إلىٰ طَيِّئ ، وأن منازلهم ببلاد غَزَّةَ . وقد ذكر فى "التعريف" أن إمْرتَهم فى زمانه كانت بأسم فَضْل بن حجى[1] . وذكر أن رسم المكاتبة إليه « مجلس الأمير » . والذى ذكره فى "التثقيف" أن لهم مُقدّماً لا أميرًا ، وأنه كان فى زمانه علىّ بن فضـل . وذكر أن رسم المكاتبة إليـه الأسم و « السامِى » بنير ياء . وهـذا عَجَبٌ فإنه إذا كان أميرا ورسمُ المكاتبة اليه « مجلس الأمير» فكيف يكون رسمُ المكاتبة إليه « السامِىَ » بنير ياء وهو مقـدّم ، والإمارة فوقَ التّقدمة بلا ريب .

قال فى "التعريف" : وأما بقيّة عربِ الشام، نحو زُبَيْد المَرْج، وزُبَيْد حَوْرانَ، وخالدُ حِمْص، والمَشارقة، وغَزِيّة إذا أطاعوا ، وزُبَيْـد الأحلاف، فأجلُّ كبرائهم وأشياخهم من يُكْتَب له «مجلس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" نحوه، ثم قال : هذا إن أنفرد أحد منهم بالمكاتَبة، وإلا فالعادة أن يُكْتَب لكلّ طائفـة من هؤلاء مطْلَقٌ شريف . ثم قال : علىٰ أنه لم تجر العادةُ بمكاتبـةِ أحدٍ من هؤلاء القبائل ، لاعلىٰ الأنفراد ولا علىٰ الأجتماع . وهـذا كلام متناقض، حيث يقول : إنّ العادة أن يُكْتَب لكلِ طائفةٍ منهم مطْلَقٌ شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تَجْرِ بمكاتبـة أحدٍ منهم لاعلىٰ الأنفراد ولا علىٰ الاجتماع .

قلت : وقد تقـدّم الكلام علىٰ أنساب جميع هـذه البُطُون[2] وأماكِنِها مستوفًى فى الكلام علىٰ الأنسـاب فى المقالة الأولىٰ . ووقع بَسْطُ الكلام علىٰ ذلك وغيره فى كتابنا المسمّى "نهاية الأرَب فى معرفة قبائل العرب" .

---

(١) الذى فى التعريف "حجى" ولكنها وردت فى نسختنا فى مواضع كثيرة "حجى" كما هنا . انظرج ٤ ص ٢١١ ، وكذلك وردت فى الضوء للؤلف أنظر ص ٣٢١ . (٢) تقدم فى ج ٤ من هذا المطبوع .

النـــوع الثـالث

(ممن يكاتَبُ بالمـالك الشاميّة، التُّركمان)

قد تقـدّم ذكرُ نَسَبِ التُّركمان فى الكلام علىٰ أنساب الأُمَم فى المقـالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التثقيف" أن التُّركمان بهذه المملكة طوائفُ كثيرةٌ، وجماعة كبيرة . ثم قال: وغالبُهم لا يكتَبُ إليه إلا إذا ضمَّهم مطلَقٌ شريف . فإن كتب إلىٰ أحد من أعيانهم، كتب إليـه الأسم و«السامى» بغيرياء إن كان طبلخاناه، وإن كان عشرةً أو عشرين ، كتب إليـه الأسمُ و«مجلس الأمير» لا غيرُ، ثم أخلىٰ بياضا متّسـعا ولم يصرّح باسم أحد منهـم . ثم ذكر فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشرقية عِدّةَ طوائف ، عدّ منهم الأوسرية ، وقال : هم تُرْكُمان حَلَب، والورسق . وقال : وهم تُرْكُمان طَرَسُوس ، ولم يتعرّض لمواضِع غيرهم . وسيأتى كلامُه مستوفًى عند الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشرقية إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع

(ممن يكاتَبُ بالمـالك الشامية الأكرادُ)

وقد تقـدّم ذكرُ نَسَبِهم فى الكلام علىٰ أنساب الأمم فى المقالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التثقيف" أن بهذه المملكة منهم طوائفَ كثيرةً كالتُّركمان، وأنّ غالبهم لا يكتب إليه إلا إذا ضمَّهم مطلقٌ شريف، وأنه إن كُتِب لأحد من أعيانهم، كُتِب له الأسم و«السامى» بغيرياء، إن كان طبلخاناه. وإن كان أميرَ عشرةٍ أو عشرين ، كتب إليه الأسم و«مجلس الأمير» كما تقدّم فى التُّركمان من غيرفرق .

القســـم الثـالث

(من يكاتَبُ بالبلاد الحجازية ، والمعتبر فى المكاتَبين منهم ثلاثة)

الأوّل — أمـــير مكّةَ المعظّمة .

وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك ذكرُ أمرائها من ٱبتداء الإمْرة وهلُمَّ جرًّا إلى زماننا، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد][1] بن عَجْلان .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : «أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العَضُدىّ، النّصيرىّ، الذُّخرىّ ، الغَوْثىّ ، المفيــدىّ ، الأوحدىّ ، الظهيرىّ ، الزّعيمىّ ، الكافلىّ ، الشريفىّ ، الحسيبىّ ، النّسيبىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإســلام والمسلمين ، سيّدِ الأمراء فى العــالمين ، جلال العتْرة الطاهره ، كوكبِ الأُسْرة الزاهره ؛ فرع الشــجرة الزّكيّه، طِرازِ العِصابةِ العَلَويّه ؛ ظهيرِ الملوك والســلاطين ، نسيبِ أمير المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده «صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى بالسلام والثناء وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا » .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التثقيف" : «أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشريفىّ، الحَسيبىّ، النّسيبىّ، العالمىّ، المُجاهدىّ، المفيدىّ، الأوحدىّ، النصيرىّ، العونىّ، الهُمامىّ، المقدّمىّ، الظّهيرىّ، الأصيلىّ، العَريقىّ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء الأشراف فى العالمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، كَهْفِ المِلّة ، عون الأمه، فَخْر السُّلالة الزاهره، زَيْنِ العترة

(١) بياض بالاصل والصحيح مما تقدم للمؤلف (أنظر ج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهره، بهاءِ العِصابة العلويّه، جمال الطائفة الهاشميّه، ظهيرِ الملوك والسلاطين، نسيبِ أمير المؤمنين» ثم الدعاء و «صدرَتْ» .

وهــذا دعاء وصــدر يليق به ذكره فى "التعريف" : «ولا زال حَرَمُه أمينا، ومكانُه مكينا، وشرفه يبيض[1] له بمجاورة الحَجَر الأسودِ عندَ الله وجْها ويُضيء جبينا . صدرت هــذه المكاتبة إلى المجلس العالى تحمِلُ إليــه سلامًا تميل به الرّكائب، وثناء تُثنى على مِسْكه الحقائب ، وشوقًا أوسق قلبَــه لمن نُسُكُه مع الحبــائب ، وتوضِّح لعلمه الكريم» .

* * *

صدر آخر : ومتّعه بجوار بيتِــه الكريم ، وزاد بجميــل مَساعيه شرفَ نســبه الصّميم، وآنسه بقرب الحجر الأسود والرُّكْن والحَطِيم . صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدى إليه سلاما، وثناء تَطِيب به الصَّبا قبل أن تحمِلَ شِيحًا أو خُزَامى، وتوضح لعلمه الكريم .

* * *

صدر آخر : وأراه مَنَــاسِكه ، وآنس بالتقوى مَسالِكه ، وأشهدَ على عمــله الصالح بَطْحاءَه وما يَنْزِله [من] الملائكه . صدرتْ هذه المكاتبة بتحيَّاتها المباركه ، وأثنيتِها التى لا تزالُ إليه بها أفئدةٌ من الناس سالكه، وتوضِّح لعلمه الكريم .

الثــانى — أميرُ المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد تقــدّم فى الكلام على أمرائها فى المسالك والممــالك من المقالة الثالثة أنّ إمارتَها مستقِرّة فى بنى الحُسَيْن، وأنها الآنَ فى بنى جمّاز بن شِيحة ، وأن جدّهم كان

(١) فى التعريف "ينير" .

فقيهًا بالعراق، فقدم على السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله ، فولّاه المدينةَ فاستقرت فيها قدمُه ثم قَدَمُ بنيه ، وأنّ القائم بها الآنَ [1] [ثابت بن جمّاز ابن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحه بن نمير] [1] .

ورسمُ المكاتبة إليه كرسم المكاتبة إلى أمير مكةَ على الاختلاف السابق فى النقل عن " التعريف، والتثقيف " . فقد ذكر كلٌّ منهما رسمَ المكاتبة إلى أمير مكة . ثم قال : ورسمُ المكاتبة إلى أمير المدينة كذلك .

وهذا صَدْر مكاتبة يليق به ، وهو : ولا زال فى جِوار اللهِ ورسولِه ، ومَهْبِطِ الوَحْى ونُزُوله ، ومكانٍ يُردَّد فيه من أبويه الطاهرين بين حَيْدره وبَتُوله . صدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى بسلامٍ يحْدُو رِكابَها، وثناء يَزِينُ فى قُبَا قِبابَها، وشوقٍ إلى رؤيته فى الروضة التى طالمَا آستنشقْ فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سَحَابَها، وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا .



صدر آخر : وزاده من الله ورسوله قُرْبا، وأكّد له بحماية حَرَمه حُبًّا، وأبهجه كلّما رأى جدَّه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلاً وجالس صحْبا . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى مطربةً بالسلام ، مُطْنِبة فى ثنائه المفصّل النِّظام، وتوضح لعلمه الكريم .

الثالث — النائب بالينْبُع .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدم فى ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام على أمراء المدينة المنورة .

وقد تقـدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنها فى بنى حَسَن[١] أيضا . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى الأمير» . والعلامة الاسم، وتعريفه «الناثب باليَنْبُع» .

أما سائر العُرْبان بالحِجَاز فقد ذكر فى "التثقيف" أن لبَنِى حســن القُوّام بمكة «مجالس الأمراء» . والعلامة الاسم . ومَنْ عدا بنى حسنٍ فقد ذكر فى "التعريف" أنهم على ضربين :

الضرب الأوّل ـــ أهل الدَّرْبَيْنِ: المِصْرىّ والشامىّ . قال : وليس فيهـم مَنْ هو فى عِيرٍ ولا نَفِير، ولا يَحُلّ فى ذِرْوة ولا غارِب ؛ وأجلُّ من فيهـم إذا كُتِب له « مجلس الأمير» كان كمن سُوّر وطُوّق، لابل طُيْلِس وتُوِّج .

الضرب الثانى ـــ شُيوخ لام، وخالِد، والمُنَيفق، وعائد الحِجاز . قال : وهؤلاء من كان منهم المشارَ إليه كُتِب إليــه « صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ» والعلامة «أخوه» . ثم من يليهم بالسامى بغير ياء . ثم الأعيانُ من بقيتهم « مجلس الأمير» .

المَسْــــلك الثـانى

(فى معرفة ترتيب المكاتَبات المقدّمة الذكر، وكيفية أوضاعها . وفيه مأْخَذَان)

المأخذ الأوّل ـــ فى ترتيب مُتُون المكاتبات، ولا يكون إلا ٱبتداءً . أما الجواب فإنه لا يتأتَّى فيها .

---

(١) أى كإمرة مكة .

ثم هى علىٰ ضربين :

الضرب الأول — ما يكتب فى خَلَاص الحُقُوق .

وهو مايكتب فيه لنُوّاب الإسكندرية ، ونائبَي الوجهين : القبلىّ والبحْرىّ من الديار المصرية، ووُلَاتِهما، ونُوّاب الشام، وحَلَب، وطرابُلُس، وحماةَ، وصفدَ، والكَرَك، ومقدّم العسكر بغزّة، من الممالك الشامية علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبة أهل المملكة .

والرسمُ فى ذلك إذا كانت المكاتبةُ إلىٰ نائب الشام مثلًا، بسبب قضيّة تتعلّق بالأمير الدّوَادار أن يكتب : « أعزّ الله تعالىٰ المقرّ الكريم » إلىٰ آخر الألقاب والصدر ؛ ثم يكتب : «وتبدى لعلمه الكريم أن الجنابَ العالى» ويذكر ألقابَه إلىٰ آخرها « ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه عَرّفنا كذا وكذا» . ويذكر مافى قصته برُمّته . ثم يكتب : « ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُهُ العالى بكذا كذا » ويأتى بما رُسم له به إلىٰ آخره ؛ ثم يقول : « فيحيطُ علمُه بذلك » ويكمّل علىٰ ماتقدّم .

وإن كان المكتوب بسببه أميرَ عشرة مثلا، كتب بدل « عَرّفنا» : « ذكر » .

وإن كان من آحاد الناس كتب بدل ذلك : «إن فلانا أنهىٰ» ويكمل علىٰ ماتقدّم .

وهذه نسخة مكاتبة إلىٰ نائب الشام بسبب خَلَاص حقٍّ :

أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ ، العَوْنىّ، المُثَاغِرىّ ، المرابِطىّ ، المُمهّدىّ ، المشيّدىّ ، الزّعيمى ، الظّهيرىّ، العابدىّ ، الناسِكىّ ، الأتابِكىّ ، الكَفيلىّ ، الفلانىّ ؛ معزّ الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين، مَلْجإ الفقراء والمساكين ، أتابِك العساكر ، زعيم الموحّدين ، مُمهّد الدول ، مشيّد الممالك، عَوْن الأمة، كَهْف

الله ، عماد الدولة ، ظهير الملوك والسلاطين ، عَضُــد أمير المؤمنين ، ولا زال عاليًا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمدُه وشُكْرُه .

أصدرناها إلى المقرّ العالى تُهْدِى إليه من السلام أتمّه ، ومن الثناء أعمّه ، وتُبْدِى لعلمه الكريم أنّ الجنابَ العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الغَوْثى ، الغياثىّ ، المرابِطِىّ ، المُهِّدىّ ، المشيّدىّ ، الظَّهيرىّ ، الزّعيمىّ ، المقدّمى ، الفلانىّ ؛ ظهيرَ الملوك والسلاطيـــن ، سيفَ أمير المؤمنـــين ؛ فلان رأسَ نَوْبة الظاهرىّ ضــاعف الله تعالى نعمتَه عرَّفنا أنّ له دَعْوى شرعيةً على أقوام بدمَشْق المحروســة ، وهم فلان وفلان . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمْرُه العالى بحَمْلهم صُحبةَ فلان قاصــد المشار إليه ، إلى الأبواب الشريفة ، محتفظا بهم ، قولًا واحدًا ، وأمْرًا جازما ، ليصل كلُّ ذى حقٍّ إلى حقه ، فيحيط علمُه بذلك ، والله تعالى يؤيّده بمنّــــه وكرمه .



آخـــر : وتبدى لعلمـــه الكريم أن المجلسَ السامىّ ، الأميرىّ ، الكبـيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخرىّ ، الأوْحدىّ ، الفلانىّ ؛ عمدةَ الملوك والسلاطين : فلان أدام الله ســعادته ، ذكر لنا أن الصَّدَقات الشريفةَ شمِلتْه بخَلاص حقّه من فلان . وقد وَكّل فى ذلك المجلس السامىّ القضائىّ الأجلّىّ فلان الدين . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقــدّم أمْرُه العالى بطَلَب الغريم المذكور ، وخَلاص الحقّ منه بتمــامه وكماله . وإن امتنع عن ذلك يُحْمَل للأبواب الشريفة مع الوصيّة بوكيله فى ذلك ، فيُحيط علمُه بذلك .

⁂

آخــــر : وتبـدى لعلمه الكريم أن الأمـير ، الأجلّ ، الكبيرَ ، فلان الدين ، فلان الفلانى ، أنهىٰ أنَّ بيده إقطاعًا بالحَلْقـة الشامية ، وأن الوزيرَ بالشام المحروس فى كلِّ وقت يتعرّضُ إلىٰ إقطاعه ، ويأخذ المُوجَبَ المقرّر له بغير طَرِيق . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بطلب المباشرين ، والارتجاع عليهم بمـا ٱلتمَسُوه من إقطاعه ، علىٰ مايشهد به الدّيوان المعمور ، بتمـامه وكماله ، ويستقِرّ هـذا المثال الشريف بيـده بعد العمل به ، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ، والله تعـالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

⁂

آخــــر : وتبدى لعلمه الكريم أن فلانا الفلانىّ أنهىٰ أنَّ شخصا يسمّى فلانا تزوج بأخته ، وهو مقيمٌ بالشام المحروس ، وتُوفيت أختُه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ووضَع الزوج المذكور يده علىٰ جميع مالهَا . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بخَلَاص الحق علىٰ حُكْم الشرع الشريف مع الوَصِيّة به ، فيُحيط علمُه بذلك .

⁂

آخــــر : وتبدى لعلمه الكريم أن قِصّةً رُفِعتْ إلىٰ أبوابنـا الشريفة بآسم تُجّار الفِرَنْج ، أنْهَوْا فيها أنهم يَبِيعون ويبتاعُون البضائعَ ، ويقومون بما عليهم من المُوجَب السلطانىّ . ومرسومنا للقرّ الكريم أنْ يتقدّم أمْرُه بخَلَاص حُقُوقهم ممن تتعيّن فى جهته علىٰ حُكْم الحق ، وكَفِّ أسباب الضرر عنهم ، ومنع من يتعرّضُ إليهم بغير حقٍّ ولا مستَنَدٍ شرعىّ ، والوصية بهم ورعايتهم وملاحظتهم ، فيحيط علمه بذلك .

الضـرب الثـانى
(مايكتب من متعلقات البَرِيد فى الأمور السلطانية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(ما يُكْتَب به ٱبتـداءً)

ويختلف الحـال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمر السلطان بفـعل شىء أو تركه أو الحركة فى شىء، كتب : « إنّ المراسيم الشريفةَ ٱقتضتْ كذا وكذا » . أو « إن مَرَاسِيمنا الشريفة ٱقتضت كذا » . أو « إن المرسومَ الشريف ٱقتضى كذا » . أو « إن مرسومَنَا الشريف ٱقتضى كذا » : فإن كان ذلك الأمر ممـا يَحْتاج إلىٰ إدارة الرأى فيـه ، كُتِب : « إنّ الرأْىَ الشريف ٱقتضىٰ كذا » . أو « إنّ آراءنا الشريفةَ ٱقتضت كذا » ، وما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ . وإن كان مقتضيه بلوغَ خبرٍ من حركة عدوٍّ أو ٱطّلاع علىٰ أمر خفىٍّ، كتب : « إنه ٱتّصل بالمَسَامِع الشريفة كذا وكذا » . أو « إنه ٱتصـل بمَسَامعنا الشريفة كذا وكذا » . وإن كان بسبب طلبِ مالٍ أو جِبَايةِ خَرَاجٍ ونحو ذلك، كتب : « إنّ لديوان خاصّنا الشريف فى الجهة الفلانية كذا » . أو « إنّ لنا فى الجهة الفُلَانية كذا » . ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السِّلْك، ثم يكتب : « ومرسُومنا للمَقرّ الكريم، أو لِلْجَنَاب الكريم، أو الجَنَاب العالى » علىٰ حَسَب المكاتبة « أن يَتَقدّم أمره بكذا وكذا » علىٰ ما تَبْرُزُ به المراسيمُ السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلىٰ نائب الشام، يُنْسَج علىٰ مِنْوالهـا .

مكاتبةٌ — باستقرار نائبٍ فى نيابة بعض القلاع : وتبـدى لعلمه الكريم أن المراسيمَ الشريفـة ٱقتضَت ٱستقرارَ الأمير فلان الدين فلان فى النيابة الشريفـة

وجهزنا مرسومة [١] الشريفين على يد المتوجه بهذا المثال الشريف الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزه الله تعالى . فيتقدم المقر الكريم بتجهيزه إلى جهة قصده بما على يده من ذلك ، وإذا عاد ، يعيده إلى الأبواب الشريفة مكرما مرعيا على عوائد همته العلية ، فيحيط علمه بذلك .

* * *

مكاتبة — بنقل نائب سلطنة من نيابة إلى نيابة : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف اقتضى نقل الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الغوثى ، الغياثى ، المقدمى ، الكافلى ، الفلانى ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ فلان الظاهرى ، أعز الله نصرته — من نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة . والجناب العالى الأميرى الكبيرى الفلانى ، ظهير الملوك والسلاطين فلان الظاهرى من نيابة السلطنة بصفد المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة . والجناب العالى الفلانى الظاهرى من تقدمة العسكر المنصور بغزة المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة . وكتبنا لهم تقاليد شريفة بذلك ، وجهزنا إليهم تشاريفهم وهى واصلة عقيبها على يد مسفريهم ؛ وجهزنا الأمير الأجل الأعز فلان الدين ، مؤتمن الملوك والسلاطين ؛ فلان الخاصكى الظاهرى أعزه الله تعالى للبشارة للشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظهم من هذه البشرى ، وتضاعف أدعيتهم بدوام أيامنا الشريفة ، وآثرنا إعلام المقر الكريم بذلك : ليكون على خاطره ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

---

(١) بياض بالأصل ولعله "وجهزنا مرسومه وتشريفه الشريفين" الخ .

⁂

مكاتبة — بحمل مختص للأبواب السلطانية : وتُبْدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ تقدُّمَ المقرّ الكريم حال وُقوفه عليها، وقبـل وَضْعها من يده بطَلَب فلان الفلانىّ وفلان الفلانىّ ، وتجهيزهمـا إلىٰ الأبوابِ الشريفـة فى أَسْرَع وقت وأقربِه ، من غير فَتْرة ولا توَانٍ . ونحن نُؤَكد عليـه غايةَ التأكيد فى سُرْعة تجهيزهما إلىٰ الأبواب الشريفة صحبةَ الأمير الأجل، فلان الدين فلان،إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا بهما ، محترزا عليهما ؛ ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمرُه العالى بٱعتماد ما ٱقتضاه مرسومُنا الشريف، والآهتمام بذلك، والآحتفالِ به، فيُحيط علمه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه .

⁂

مكاتبة — باستقرار بعض الأمراء بالقُدْس الشريف بَطّالا : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ آستقرار الأمير فلان أحسن الله تعـالىٰ عاقبته بالقُدْس الشريف مُقيماً بهـا، وشَمِلته الصَّدَقات الشريفةُ أن (١) فلانة وفلانة باسمه ، بمقتضىٰ مرسومٍ شريف مجهَّز صُحبةَ مسَــفِّره الأمير الأجلّ الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البَريدىّ بالأبواب الشريفة، أعزّه الله تعالىٰ، المتوجّه بهذا المثال الشريف . ومرسومُنا للمَقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بإثبات المرسوم الشريف المـذكور بديوان الجُيُوش المنصورة بالشام المحروس علىٰ العـادة ؛ وتجهيز البَريدىّ المذكور إلىٰ حدود الديار المصرية ، مُكَرّما مَرْعيًّا علىٰ العادة ؛ فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

---

(١) بياض بالاصل ولعله "أن تقطع جهة فلانة" الخ .

مكاتبة — ببيع غلّة للديوان السلطانى : وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفة ٱقتضت تجهيز كذا وكذا إردبًّا من القمح من دِيواننا المفْرَد صُحبةَ فلان . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بطَلَب فلانٍ الحاجبِ بالشام المحروس : ليتولّى بيعَ ذلك بسعْر الله تعالىٰ بما فيه الغِبْطة والمصلحةُ ؛ وتجهيزَ الثمن إلىٰ الأبواب الشريفة برسالةٍ دالّة علىٰ ذلك فى أسرعِ وقتٍ وأقربِه ، مع مُضاعفة الوصيّة بذلك والاحتفالِ به ، فيُحيط علمُه بذلك .



مكاتبة — وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفة ٱقتضتْ توجُّه الأمير الأجلّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان ، إستادار الأمير المرحوم فلان كان ، بسبب ٱستخراج الأموال وبَيْع الغِلال والأصنافِ الدِّيوانية المتحصِّلة من القُرىٰ المستأْجَرَة ، المرتجَعة للورثة عن المشار إليه بمقتضىٰ التذْكِرة المسَطَّرة علىٰ يَدِه . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّمَ أمْرُه بمساعدة المذكور وتقويةِ يَدِه علىٰ ماتضمَّنته فصولُ التذْكِرة ومراعاةِ أحواله، وإزالةِ ضَرُوراته، وخَلَاص الحق منه ممن يتعيّنُ فى جِهَته، ويشْمَله بنظره الكريم فيا تعلق بفصول التـذكرة . فإنّ تعلُّقـاتِ الورثة المذكورين تحت نَظَرنا الشريف . فيبادر المقرّ الشريف إلىٰ ذلك وسرعةِ عَوْده بعد قضاء شُغْله ، وتجهيز المتحدِّث والمباشِرين للأبواب الشريفة، وصُحبَتَهم حسابُهم عند نهاية فصولِ التّذْكرة المذكورة . ويقيمُ عنهــم من يعوضهم إلىٰ حينِ عودهم من الأبواب الشريفة علىٰ ماهو المعهود من همّته الكريمة وٱحتفاله ؛ فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

❖

مكاتبة — بسبب طلب عِصِيّ الجواكين والكَرَابيج والأُكَر : وتبـدى لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف اقتضى تجهيزَ عِصِيّ الجواكين والكَرَابيج والأُكَر إلى السِّلاح خاناه من الشام المحروس، على العادة فى كل سنةٍ سريعا، وآثرنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمرُه العـالى باعتماد ما اقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك كلّه على جارى العادة فى كلّ سنة ، والاهتمام بذلك ، والاحتفال به، بحيث لا يتأخّر ذلك غيرَ مسافة الطريق ؛ فإن الانتظار واقعٌ لذلك، وفى هِمّتـه الكريمة ما يُغْنِى عن بَسْط القول فى ذلك، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

❖

مكاتبة — بسبب استقرار قاضٍ بدِمَشْق عوضَ مَنْ كان بها : وتبـدى لعلمه الكريم أنّ الصدقاتِ الشريفةَ شَمِلت المجلس العالى، القضائىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ، العلّامىّ ، الإمامىّ، الفلانىّ ، الفريدىّ، المُفيدىّ، المَجيدىّ ، الأَصيلىّ، العَريقىّ، الأثيلىّ ، الأثيرىّ، الأوحدىّ ، الخطيبىّ، الشَّيْخىّ، الحـاكمىّ، الفلانىّ؛ جلالَ الإسلام والمسلمين، شرفَ العلمـاء العاملين ، إمامَ البلغاء، خطيبَ الخُطَباء، شيخَ مشايخ العـارفين ، مَلاذَ المريدين ، مُفْتِى الفِرَق، مُوضِّح الطُّرُق ، لسانَ المتكلمين ، مفيدَ الطالبين، حَكَمَ الملوك والسلاطين، ولِىّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ الشافعىّ . أعز الله تعالى أحكامَه ـ بتفويض قضاء قُضَاة الشافعية بالشام المحروس إليه؛ عوضًا عمّن به، بحكم عَزْله مضافًا إلى خَطَابة الجامع الأموىّ ، ومشيخة الشُّيُوخ بالشام المحروس. وكتبنا توقيعًا شريفا له بذلك ، وجَهّزناه إليه قرينَ تشريفٍ شريفٍ على يد فلان المتوجّه بهذا المثال الشريف . وآثرنا علمه الكريم بذلك ، ليكونَ ذلك على خاطره الكريم . ومرسومُنا للمَقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفـلانى فيما شَمِلتْه به الصدَقاتُ الشريفةُ من ذلك كلّه ، وتقوية يده فى مباشرةِ ذلك والشـدِّ منه ، وتأييد أحكامه الشرعيةِ، وتنفيذ كلمته، ورعاية جانبه، وإكرامه وآحترامه، على عادة همَمِه الكريمة، وتقدماته السـعيدة ، فيُحيط علمُه بذلك .



مكاتبة — بسببِ حملِ الثّلج إلى الأبواب السلطانية : وتُبْـدى لعلمه الكريم أنّ المرسومَ الشريف آقتضى تجهيزَ نَقَلات الثلج إلى الشّرابْ خاناه الشريفةِ على العادة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العـالى بسُرْعة تجهيز النَّقْلة الأولى، بحيث لاتتأخرُ أكثرَ من مسافةِ الطريق على ماهو المعهود من همّته العالية، وتقدماته السعيدةِ . وقد جهّزنا هـذا المثالَ الشريف على يد الأمير الأجلّ فلان الدين فلان الفلانىّ، أعزه الله تعالى، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .



مكاتبة — بتمكين شخص من الحُضور للأبواب السلطانية . وتبدى لعلمه الكريم أنّ فلانا كان قصدَ الاجتماعَ بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسُومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى بتمكينه من الحُضور إلى القاهرة المحروسة على خَيْله : ليجتمع بأهله وأقاربه . وقد جَهّزنا بهذا المثالِ الشريف فلانا البَريدىّ بالأبواب الشريفة، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .



مكاتبة — بمنع العُرْبان من الدُّخول إلى البلاد قبل فَرَاغ الزَّرع . وتبدى لعلمه الكريم أنّ المراسيمَ الشريفةَ آقتضت أنه لايدخُل أحدٌ من العُربان إلى البلاد الشامية،

المحروسة : كبيرِهم وصغيرِهم ، جليلِهم وحقيرِهم ، إلىٰ أن يُشال الزرعُ علىٰ العادة . ومتىٰ ــ والعياذُ بالله ــ حصَــل منهم مخالفــةٌ لذلك ، حلَّ بهم من الآنتقام الشريف مالا مَزِيدَ عليــه . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى باعتماد ما آقتضَــتْه المراسيمُ الشريفةُ من ذلك ، مع الآهتمام به ، والآحتفال والآجتهاد فيه ، قولًا واحدا ، وأمرا جازما ، علىٰ عادة همّته العالية ، وتَمَدِيماته المرضيّة ، فيُحيط علمُه بذلك .



مكاتبة ــــ بحفظ السواحل : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومَنا الشريفَ آقتضىٰ الآجتهادَ فى حفظ السواحل والمَوَانى ، والآهتمامَ بأمرها ، وإقامةَ الأيزاك والأبْدال فى أوقاتهــا علىٰ العادة ، وإلزامَ أربابها بمُواظبتها ، وكذلك المنوّرون بالدّيدبانات والمَناظر والمَناوِر ، فى الأماكنِ المعروفة ، وتعهُّد أحوالهــا : بحيث تقومُ أحوالُها علىٰ أحسن العوائد وأكملهــا ، ولايقعُ علىٰ أحد دَرَكٌ بسببها . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى باعتماد ما آقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك ، مع مضاعَفة الآحتفالِ بذلك والمبادرةِ إليه ، حسَبَ ما آقتضته المراسيمُ الشريفةُ . وقد جهّزنا بهذا المثالِ الشريف مجلسَ الأميرِ الأجلِّ : فلان الدين فلان البَرِيدىّ ، المقدَّم بالأبواب الشريفة ؛ فيتقدّمُ أمرُ المَقرّ العالى بتجهيزه إلىٰ جِهةِ قَصْده بما علىٰ يده ، وإعادته عند عوده إلىٰ الأبواب الشريفة ، علىٰ ماهو المعهود من همّته ، فيحيط علمُه الكريمُ بذلك .

مكاتبة ــــ باستعمال قُماش . وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءَنا الشريفةَ آقتضت آستعمالَ القماش الجاري به العادة برسم الركابخاناه ، والإصطبلاتِ الشريفــةِ ، علىٰ ما آستقرّ عليه الحال إلىٰ آخر السنة الخالية والتى قبلَها . وقد كُتِبت تَذْكِرةٌ شريفة

من ديوان آستيفاء الصُّحْبة الشريفة مفصَّلة بذلك ، وجهَّزناها قرينَ هذه المفاوضة لتُقرأ على مَسَامعه الكريمة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بتأمّلها، وبُرُوزُ أمره بطَلَب وزير المملكة الشريفة ، وناظر المُهِمَّات الشريفة ، وآستعمال القُمَاش الذى تضمَّنته التذكرةُ الشريفة ، والآهتمام بذلك ، والآحتفال بسُرْعته . وقد آكتفينا بهمَّة المقرّ الكريم عن تجهيز أميراخورية وأوجاقية من إصْطَبْلاتنا الشريفة لآستعمال ذلك، لأنّ المهماتِ الشريفةَ تحت نظره الكريم ، فيصْرِف همَّته العالية إلى الإسراع فى ذلك، والآحتفال به والآهتمام . وفى آهتمامه وتنفيذه لمراسمنا الشريفة مايُغْنى عن التأكيد فى ذلك، فيُحيط علمُه بذلك .



مكاتبة — بجواز . وتبدى لعلمه الكريم أنّ مرسومَنا الشريفَ آقتضى تجهيز فلان البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة ، أعزّها الله تعالى، إلى جهة فلان بما على يَدِه وما صُحْبَتَه . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى بإزاحة أعذارِه، وتجهيزِه إلى المشار إليه فى أسرع وقتٍ وأقربِه . وإذا عاد يتقدّم بتجهيزه إلى خدمة الأبواب الشريفة على العادة فى ذلك، على عادة همَّته العليّه، وشيَمِه المَرْضيّه، فيحيط علمُه بذلك.

مكاتبة — وتبدى لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف آقتضى أن لا يُمَكَّنَ أحدٌ من نَقْل سلاح ولا عُدّةِ حربٍ إلى جهة البلاد الرُّوميّة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بأن لا يمكّن أحد من نَقْل سلاحٍ ولا عُدّةٍ إلى جهة البلاد المذكورة، والآحترازِ على ذلك كلَّ الآحتراز، فيحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتصل بالمَسَامع الشريفة أنّ غالبَ البلاد بالصَّفْقة الفلانية محميّة متجاهية علىٰ الكُشَّاف والرّعايا، ويُؤْوُون المفسدين . وأنّ يدَ الكُشّاف لاتصلُ إلىٰ هذه البلاد، ولا إلىٰ النَّصَفة ممن بها من المفسدين . وحَصَل بذلك الضررُ للبلاد والعِبَاد . وآقتضىٰ الرأى الشريفُ الكَشْفَ عن هــذه البلاد وسائر الأعمال ، والمناداةَ فى البلاد بإبطال الحِمَاية والرّعاية، والمساواةَ بين العِبَاد فى سائر البــلاد بالعَدْل والإنصاف ، وكَفَّ أَكُفّ الظلم والعُدْوان . ومرسومُنا للمقر الكريم أن يتقدّم أمْره الكريم بالمناداة فى سائر البِلَاد بإبطال الحِمَاية والرّعاية ، والمساواةِ بين الخاصّ والعامّ، وتطهيرِ الأرض من المفسدين، وأن لايَحْمىٰ أحدٌ ببلد من البلاد . ومن تظاهر بحِمايةٍ أو إيواءِ مفسِدٍ ببلد من البلاد، حَلّ مالُهُ ورُوحُه . والتأكيد علىٰ أهل البلاد فى ذلك ، والتشديد والفَحْص عمّن يَتجاهرُ بذلك وردْعه ونَشْر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والاهتمام فى ذلك كلّه، علىٰ عادة هِمَمه الكريمة، وتَقْدِماته السعيدة، فيحيط علمُه الكريم بذلك، والله تعالىٰ يؤيّده بالملائك .

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتّصل بمَسامعنا الشريفة أن فلانا تعرّض لجهة الفلانيّة الجارِيةِ فى ديوان خاصّـنا الشريف، وأخذ منهـا مبلَغ كذا وكذا . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقـدّم أمْره العالى بطلَب الغريم المذكور، وتجهيزه إلىٰ الأبواب الشريفة، وإلزامه بمـا آستأداه من ذلك، محترزاً عليه مع مضاعفة الوصيّة بمباشِرى الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمُه بذلك .

الصـــنف الثـانى

(مايكتب فى الجواب عمّا يرد من النوّاب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبته الكريمة » أو « مكاتبته » على قدر رتبته من ذلك « وردتْ على يَدِ فلان فوقفْنا عليها وعلمنا ماتضمَّنته على الصُّورة التى شرحها » ثم يذكر مايناسب الجواب فى ذلك من شكر الآهتمام أو غيره . ثم إن آشتملت على مقْصَد واحد، أجابَ عنه .

وهذه مكاتبةٌ يُنْسَج على مِنْوالها، وهى : وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمةَ وردتْ على يد فلان فوقفْنا عليها ، وعلمنا ما أصدَرَتْه من تجهيزه إلى خِدْمة أبوابنا الشريفة بمـا على يَدِه من كتاب مخدومه . وقد وصل، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بمـا تضَـمَّنه ، وأعَدْناه الآنَ بجوابه وبهـذا الجواب الشريف، فيحيط علمُه الكريم بذلك .

وإن آشتَمَلت المكاتبةُ المجابُ عنها على عدّة فُصول، أتى على فُصولها فَصْلا فصلًا، وربمـا قال : «فأمّا ما أشار إليه من كذا» إذا كان علىّ الرتبة، ككاتب الشام ونحوه ، «فقد علمناه» وصار على خاطرنا الشريف أو «فقـد رَسَمْنا به» أو «فلم نرْسُم به» . ونحو ذلك على مايقع به الجوابُ السلطانىّ فى الملَخَّص المكتوب عن مكاتبـة المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبة من هذا النمط يُنْسَج على مِنْوالها ، وهى : وتبدى لعلمه الكريم ، أنَّ مكاتبتَـه الكريمةَ وردتْ على يد مملوكه الأميرِ الأجلّ فلان الدين فلان، أعزّه الله تعالى ، فوقَفْنا عليها ، وعلِمْنا ماتضمَّنته على الصورة التى شرحَهَا ، وشكرنا همّته العالية، وتقدماته السعيدةَ ، ورأيَه السعيد، وآعتمادَه الحميد .

فأما ما أشار إليـه من وصوله ومَنْ صُحْبَته ، ونائبي السـلطنةِ الشريفةِ بطَرَابُلُس وصَفَدَ المحروستين، إلىٰ مَلَطْيَة المحروسةِ فى التـاريخ الفلانى ، وتلَقّى نائبي السـلطنةِ الشريفةِ بحلَب وحمـاةَ المحروسـتين، المقَرّ الكريمَ ومَنْ معـه علىٰ ظاهر المدينـة المذكورة ، وآستمرار إقامتهم جميعًا بالمنْزِلة المذكورة إلىٰ تسطير مكاتبته المشار إليها فى آنتظار من رُسِم له بالحضور إليهم من عساكر القِلاع المنصورة وغيرهم، من أمراء التُّرْكمان والأكراد ومن معهم من أتبـاعهم وألزامهم ، حسَبَ ما آقتضـتْه المراسيمُ الشريفةُ فى المهمّ الشريف وما كُتِب به إلىٰ نائب طرابُلُس، وإلىٰ قَرَايوسُف النائب بالرُّها المحروسة : من الحضور إلىٰ المهمّ الشريف، وإجابتهـما إلىٰ ذلك، وكذلك ما كُتِب به إلىٰ الحاكم بسِيواس، وإلىٰ أحمد بن طرغلى، وما أجابا به من الحُضُور إلىٰ المهمّ الشريف، والملتقىٰ فى المكان الذى عيّنه حاكمُ سيواس، إلىٰ غير ذلك ممـا بَسَـط القولَ فيه [فقد علمناه][1] علىٰ الصُّورة التى شرحها، وتضـاعفَ شكرنا لهمّته العلية وتَقَدماته السعيدة .

وأمّا ما أشار إليه من آعتمادِه ما بَرَزتْ به المراسـيمُ الشريفةُ فى الجَوَاز الشريف الوارِدِ إليه علىٰ يَدِ مجلس الأمير الأجلّ فلان الدين فلان ، والمطلَقِ الشريف المجهّز علىٰ يده، وآمتثالِ ماتحمّله من المشافَهة الشريفة، وتقدُّمِه بجميع نُوّاب السلطنة الشريفة المكتوب إليهم، وعَقْد المَشُورة معهم علىٰ آعتماد ما آقتضتْه المراسيمُ الشريفة، وتعيين جاليش العسـاكر المنصورة ونائبِ السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسـة ومَنْ معه من الأمراء المقدّمين وأتباعهم مِن دمشقَ وحلَب المحروستين ، ونائب السلطنة الشريفـة بحماة المحروسة، ومن معـه من العساكر المنصورة ، وسَـيْرهم فى التاريخ الفلانى ، وسـيره فى أثَرهم بمن بقِىَ معـه من العساكر المنصورة الشاميـة الحلَبية ؛

(١) الزيادة يقتضيها تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم الناسخ .

وأن سيرهم على جهة بلد كذا على الصورة التى شرحها لما قصده من ذلك من المصلحة ؛ فقد علمنا ذلك على الصورة التى شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحُسْنَ فكْرته الصحيحة .

وأمّا ماأشار إليه من أن نائب مَلَطْيَةَ جهّز الكتاب الواردَ عليه من آبن تمرلنك ، على يد قاصدٍ من جهة تلمان(١) باللسان الأعجمىّ ، وأنه عَرّبه وفَهِم مضمونَه وجهّزه لِيُحيط العلومَ الشريفة بمضمونه ، وهى على الخواطر الشريفة ، فيكونُ ذلك على الخاطر الكريم ، وشكرْنا همّته العلية .

وأمّا ماأشار إليه من ورود كتاب تلمان(١) عليه ، وهديّته على يد قاصده ، وأنه لم يَقْبل هديّته وأعاد جوابَه ، فإنه إن كان مناصحًا فى الخدمة الشريفة وهو صادقٌ فى كلامه ، فيحضُرُ إلى المهمّ الشريف ، وما شرح فى هذا المعنى فقد علمناه على الصورة التى شرحها ، وشكرنا جميلَ آعتماده وسعيدَ رأيه . وكذلك أحاطت العلومُ الشريفةُ بما ذكره من أمر حاكم عرركبر(؟) وما شرحه فى ذلك ، فقد علمناه على الصّورة التى شرحها .

وأما ماأشار إليه من أمرِ مَلَطْيَةَ المحروسةِ ، وأنها تحتاج إلى الفِكْر الشريف ، والنظر فى أحوالها وترتيبِ مصالحها ، وإقامة عسكر لرجال يحُونها من طوارق الأعداء المخذولين : إلى غير ذلك مما شرحه فى هذا المعنى ، فقد علمناه على الصّورة التى شرحها ، وبقِىَ ذلك على خواطرنا الشريفة . وعقِيبًا إن شاء الله تعالى تبرُزُ المراسيم الشريفةُ بما فيه المصلحة للبلد المذكور على أكمل ما يكون .

وقد آستصْوَبوا رأىَ المقرّ الكريم فى هذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضرورىّ . وقد شكرنا للمقرّ الكريم جميلَ آعتماده ، وحسنَ رأيه ، وبَذْلَ همته وآجتهاده فى هذا

(١) كذا فى الأصل غير واضح .

المهمّ الشريف . والقصدُ منه الاستمرارُ على ماهو فيه من بَذْل الاجتهاد فى المهمّات الشريفة بقلبه وقالَبِه، والعملِ على بياض وجهه عند الله تعالى، من الذّبّ عن عباده وبِلاده، وبَذْل المـالِ والرُّوح فى رضا الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلم فى ذلك، وآستقرارِ خواطرِنا الشريفة بذلك . فإن المقرّ الكريم يعلم ما نحنُ مُثابِرون عليـه، ومُنْقادون إليه، من محبّة رضا الله تعالى فى النصيحة بصَلاح العباد، وعِمارة البلاد، وتَسْطيرِ ذلك فى صحائفِ حَسَنات الدهر بين يدى الله تعالى . والمقرُّ الكريمُ يعلم أن جُلّ آعتمادنا عليه فى أكابر دولتنا الشريفة . ونحن واثقونَ برأيه السديد فى حَركاته وسَكَناته فى المهمّات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قرّبْناه، ورَضينا به لنا وعلينا، وكلّما بلَغنا عنـه آعتمادٌ حسنٌ تتضاعَفُ منزلتُه عندنا . والآنَ فإنّ نوّاب السلطنة الشريفة وأمراءَ دولتنا كبيرَهم وصغيرَهم تحت أمره ومشورته، وما بَقِى مثلُ هـذه الأيام المباركة والأوقات السعيدة، ولم يبقَ سِوى آنتهاز الفُرَص، وآغتنام أوقات السعادة، وهو الحاضرُ والنائب عنّا فى كل ما يحصلُ من المصالح العائد نفعُها على البلاد والعباد . والمبادرةِ إلى عملها من غير مُعاودة الآراء الشريفة فى كل قَضيّةٍ تتّفِق له، فإن المسافةَ بيننا وبينه بعيدةٌ، وتَضِيعُ المصلحةُ فى وصول الخطاب وعَوْدِ الجواب . وقد فوّضنا إليه الرأىَ فى ذلك، والعمل بمـا تقتضيه المصلحةُ الحاضرة، فى جليلِ الأمور ودقيقِها، فيكون ذلك على خاطرِه الكريم، ويعملُ بمقتضاه . وقد أعدْنا مملوكه بهذا الجواب، فيُحيط علمُه بذلك .

* * *

وهذه نسخة مكاتبة فى معنى الرضا عن آبن دلغادر التُّركمانى وغير ذلك :

وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمةَ وردتْ على يد فلان الدين فلان مملوكه، فوقفنا عليها وعلمنا ماتضمّنته .

فأما ماذكره فى معنى آبن دلغادر، وتكرار كُتُبه بالتصريح والتّرامى عليه فى سؤال الصدقات الشريفة فى الرّضا والعَفْو عنه ، فقد علمنا ذلك؛ والذى نعرّف به المقرّ الكريم أنا كنا رسمْنا بأن لا يُكتبَ له جواب وردّ كتابه وقاصده ؛ ولما تكرر آستشفاعه بالمقرّ الكريم، ودخل دخُولَ الحَرِيم، وعرفْنا أنه ضاقتْ عليه الأرض برُحْبها وأخلص فى النّدَم، عطفت عليه الصدقاتُ الشريفةُ بالحُنُوّ والعفو كرامةً للمقر الكريم ، وإعلاءً لشانه، ورفعًا لمكانته ومكانِه . ورسمنا للمقر الكريم أن يكاتِبَ المذكورَ بهذا المعنىٰ، ويلتزم علىٰ نفسه العفوَ الشريفَ،والصّفْح المُنيف، وإيصالَ أنواع الخير وفوقَ مافى خاطِره من الأمان علىٰ نفسه وماله ، وغير ذلك . والذى نعرّفه أنه كان جرىٰ علىٰ اللسان الشريف الحلِفُ أنه لابدّ من حضوره إلىٰ الأبواب الشريفةِ ودَوْسِ البِساط الشريف ، ولا بدّ من تحقيق ذلك لحصول البِرّ والخَلَاص من الحَلِف الشريف، وقيامِ النـاُموسِ عند القريب والبعيد : ليعلموا أنّ سلطاننا غالبٌ علىٰ مَنْ تمرّد ، ومراحِمَنا شاملة لمن يلتجِئ إلىٰ حَرَم عَفْونا الشريف ، وأنه قريبٌ منه .

وأما ماذكره فى معنىٰ كَشْف الصّفْقة الفلانية ، ووقوع الآختيارِ علىٰ فلان الدين فلان ، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من تقريره فى ذلك، وبُروزِ المَراسيم الشريفة بكتابة مرسومِه وتقرير غيره[1] ، فقد علمنا ذلك ورسمْنا بتقريره ، وكتبنا مرسومَه الشريف ، وجهّزناه علىٰ يد فلانٍ العائدِ بهذا الجواب الشريف .

وأما ماذكره من جهة الزاوية المستجِدّة بشَقْحَبَ وتجهيزِ قائمةٍ متضمّنة بما تدعو الضرورةُ إليه من تقريرِ السِّماط وأربابِ الوظائف، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من كتابةِ مرسومٍ شريف مربّع علىٰ حُكْمِها،أو بما تقتضيه الآراءُ الشريفةُ من زيادةٍ أو نقص، فقد علمنا ذلك ورسَمْنا به حسَبَ ما آقتضَتْه الآراءُ الشريفةُ[2]: من آستقرار

(١) لعله وتقريره (٢) يظهر أن فى الكلام سقطا ولعله «وما عرضه علىٰ الآراء الشريفة من الخ» .

فلان الدين فلان فى الولاية فى الثغر المذكور، فقد علمنا ذلك ورسمنا به، وكتبنا مرسومه الشريف، وجهزناه على يد العائد بهذا الجواب الشريف . فالمقر الكريم يوصيه بحسن السيرة وترك ما كان عليه .

وأما ماذكره من جهة خفارة الجهة الفلانية، وما عرضه على الآراء الشريفة : من إمضاء القائمة المجهزة بأسماء من قرره فى الخفر المذكور، فقد علمنا ذلك ورسمنا بإمضائه حسب ماقصده المقر الكريم .

وأما ماذكره من جهة فلان المعتقل بقلعة دمشق، ووقوف أولاده وعياله وشكواهم حالهم بعد كشف ما نقل عنه وعدم صحته وما عرضه على الآراء الشريفة من الإفراج عنه، فقد علمنا ذلك ورسمنا به فيتقدم أمر المقر الكريم بالإفراج عنه .

وأما ماذكره فى معنى ما ورد به كتاب النائب بالرحبة المحروسة : من الأخبار والمتجددات، فقد علمناه وصار على خواطرنا الشريفة .

وأما ماذكره من وصول قاصدى حاكم الدربند وحاكم القنيطرة بما على أيديهما وتجهيز ماورد معهما من الكتب واستئذان الآراء الشريفة على مانعتمده فى أمرهما وفيمن يحضر بعدهما، فقد علمنا ذلك، وكتبنا الجواب عن ذلك، وجهزناه قرين هذا الجواب الشريف، فيتقدم بإعادتهما إلى مرسلهما . وكذلك يفعل فى كل من حضر من تلك النواحى إلا فى مهم شريف على عوائد همه . وقدأعدنا مملوكه إليه بهذا الجواب الشريف، فيحيط علم المقر الكريم بذلك .

❖

مكاتبة أخرى — من هـذا النمط فى معنى أمور مختلفة . وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت على يد المجلس السامى الأميرى فلان . فوقفنا عليها وعلمنا ماتضمنته على الصورة التى شرحها .

فأما ما أشار إليه: من وصوله إلى دمشقَ المحروسةِ عائدًا من الأغْوار السعيدةِ، وأنه وجدها وسائرَ أعمالهـا وضواحِيهَا والسواحلَ والموَانى فى حِرْز الأمْن والسلامةِ، فقد علمنا ذلك وحَمِدْنا الله تعالىٰ وشكرناه علىٰ ذلك .

وأما ما أشار إليه : من أنه جهَّز من متحصَّل دار الضرب السعيدة بدمشقَ المحروسة كذا وكذا مثقالا بمقتضىٰ رسالة وما قصَد من إعادة رَجْعةٍ شريفةٍ بذلك، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور، وكُتِب به رَجْعةٌ شريفة علىٰ العادة فى مثل ذلك، وجُهِّزت علىٰ يدِ فلان المشار إليه ، فيكونُ ذلك علىٰ خاطرِه الكريم .

وأما ماذكره : من أمرِ النُّحَاس وقلّته من عدم وصول شيء منه، وأنه لم يُوجَد منه بعد الجَهْد سوىٰ مبلغ عشرين قِنطارا عند الفَرَنج، وأمرِ الفُلُوس العُتُق وبقائها، وكثرةِ الفلوس الجُدُد، وقلّةِ وجُود الدِّرْهم والدِّينار، وتوقُّف المَعَايش بسببِ ذلك، وما عرضه علىٰ الآراء الشريفة إن اقتضت الآراءُ الشريفةُ إبطال دار الضرب نحو شَهْرين إلىٰ أن يحضُر نحاسٌ يستعْمَل، وتخِفّ الفلوسُ ويستصرف ما فى أيْدى الناس، فقد علمنا ذلك وأجبْنا سؤاله فيه . ومرسومُنا أن يَعْمَل فيه بما تكون [به] المصلحةُ عامّةً للرعية ، وتَبْطيل دار الضرب مدّةً يراها المقرُّ الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمرِ الأمير فلان وما قصده من حُسْن النظر الشريف فى حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وصار ذلك علىٰ الخواطرِ الشريفة .

وأما ما أشار إليه : من أمرِ فلان، وما اتّفق من الكَشْف عليه حسَبَ ما اقتضته المراسيم الشريفة، وما ادُّعىَ عليه من كذا وكذا، وما كُتِب عليه من المحاضر وتجهيزها إلى الأبواب الشريفة، وتجهيز المشار إليه إلىٰ الأبواب الشريفة صُحبةَ البَرِيدىّ المجهِّز

فى طلبه فى أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك على الصُّورة التى شرحها ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ به جملةً وتفصيلا ، وبما آشتملت عليه المحاضرُ المذكورة ، وبقى ذلك على الخواطر الشريفة ؛ وآقتضتِ الآراءُ الشريفة إعادتَهُ ومن معه لخلاص من شكاته عند المقرّ الكريم ، وقد أعدْناهم صُحبةَ من يَحْضُرُبهم إلى المقرّ الكريم ليُكْشَف عليه وتُنَظَّم المَحَاضِرُ وتُجهّز .

وأما ما أشار إليه من تجهيز (١) وتعريف الحِسْبة بالأسعار عن البرّ الفلانى على العادة فى ذلك إلى الأبواب الشريفة ، فقد علمنا ذلك ووصل ماجهّزه من ذلك ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بما آشتمل عليه ، وشكَرْنا همةَ المقرّ الكريم وسعيدَ تَقَدماته ، وجميلَ آعتماداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيُحيط علمُهُ بذلك .

قلت : وعلى ذلك يُقاس مايُكتَب به إلى سائر النُّوّاب بالشام والديار المصرية فمَنْ دُونَهم ممن جَرتِ العادة بمكاتبته من الأبواب السلطانية فى الآبتداء والجواب .

المأخـــذ الثانى

(فى مَعْرِفة أوضاع هـــذه المكاتبات)

أوّلُ مايجب من ذلك معرفة قَطْع الورق الذى يُكْتَب فيه . وقد سبق فى المقالة الثالثــة فى الكلام على قَطْع الورق بيانُ مقادير قَطْعه ، وأنّ من جملتها قَطْع العادة : وهو القَطْع الصغير . وفى هذا القطع تُكتَب عامّةُ المكاتبات المتقدّمة ، مما يكتب به لأرباب السُّيوف والأقلام بمصر والشـام على آختلاف مقاديرهم ، وتبايُنِ مَرَاتبهم

(١) بياض فى الاصل .

فى الرُّقعة والضّعَة؛ خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِب إلىٰ والدة السلطان الأشرف «شعبان بن حسين» فى قطع الشامىّ الكامل . وقد تقدّم هناك أنّ الكتابة فى قطع العادة جملةً تكون بقَلَم الرِّقاع . فتكون كتابةُ جميع هذه المكاتبات به .

ثم أوّل مايكتُبُ الكاتب فى المكاتبة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكْتُب فى رأس الدَّرْج ، من وجه الوَصْل، من أوّله، من الجانب الأيمن «إلىٰ فلان» . ويكتب علىٰ سَمْته فى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» . ويكتب فى وسَطِهما علىٰ سَمْتِهما التعريفَ بالعلامة التى تُكْتَب . فإن كانت العلامةُ الآسمَ، كتب «الاسمُ الشريفُ» . وإن كانت بالأخوّة، كُتِب «أخوه» . وإن كانت بالوالِديّة، كتب «والده» . ثم يَقْلِب الدَّرْجَ فيكتُب علىٰ ظاهره عُنْوانَ المكاتبة فى أسفل ما كتب عليه فى رأس الورق باطنا من أوّل عرض الدَّرْج إلىٰ آخر ألقابِ المكتوبِ إليه . ويقلب الدعاء المبتدأ به فى المكاتبة ، فيدعُو له به فى آخر الألقاب . ثم يخلى بياضًا ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نيابةِ سلطنةٍ أو ولايةٍ أو آسم أو غير ذلك . وتكون الأسطر متقاربةً متلاصقةً .

فإن كان المكتوب إليه النائبَ الكافلَ مثلا، كتب فى العنوان : «المقرّ، الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ» إلىٰ آخر ألقابه . فإذا آنتهى إلىٰ آخر الألقاب ، كتب «أعز الله تعالىٰ أنصاره» . ثم يترك بياضا ويكتب : «كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» بحيث ينتهى آخر كتابة ذلك إلىٰ آخرِ السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافلَ السلطنة بالشام، كتب : «المقرّ الكريم» إلىٰ آخر الألقاب «أعز الله تعالىٰ أنصاره» ثم يترُك البياضَ المذكور؛ ثم يكتب : «كافلُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس» .

وإن كان المكتوب إليه نائبَ السلطنة بحلَب، كتب : « الجَنَـابُ الكريم » إلى آخر ألقابه « أعز الله تعالى نُصْرته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائبُ السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة » .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابُلُس، أو نائب حَمَاة ، أو نائب صَفَد ، كتب : « الجنـاب العالى » إلى آخر ألقابهم « ضاعف الله تعالى نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصَفَد المحروسة » . وكذا فى البواقى بحسَبِ تعريف كلٍّ من المكتوب إليهم على ما مر ذكره فى مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له «المَقرّ الكريم» ، أو « الجناب العالى » ، أو « المجلس العالى » مع الدعاء ، ترك من أعلى الدرج ثلاثةَ أوصالٍ بياضا بالوصل المكتوب فى ظاهره العُنوان ، ثم تكتب البسملة فى رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوبُ إليه ممن يُكْتَب له «المجلس العالى» مع «صدرَتْ» فما دُونَ ذلك، تُرِك فى أعلى الدرج وصلانِ بياضًا فقط . وتكتَبُ البسملة فى رأس الوصل الثالث، ثم يكتَبُ سطران من أوّل المكاتبة تحتَ البسملة على سَمْتِها ملاصقًا لها، ثم يُخلَى بيتُ العلامة بياضًا ويكتب السطر الثانى على رأس إصبع[1] أو نحوه من أسفل ذلك الوصل، ثم يكتب السطر الثالث فى الوصل الذى يليه على بُعْد ثلاثةِ أصابع معترضات من السطر الثانى، ويؤتى على ذلك إلى آخر المكاتبة .

(١) المراد على قدر إصبع .

وقد كانت أوصالُ الوَرَق فى الزمن المتقدّم طويلةً : فكان يكْتَب فى كل وَصْل ثلاثةُ أسطر، وبين كلّ سطرين أكثرُ من عَرْض ثلاثة أصابعَ . أما الآن ، فقَصُرت الأوصال، وصار كلُّ وصل لايتّسع فى الغالب أكثرَ من سطرين . فإذا انتهى إلى آخر المكاتبة، أخْلَى بياضًا يسيرا، ثم كتب فى وَسَط الوصل : « إن شاء الله تعالى » ثم يكتب : « كتب فى كذا من شهر كذا » فى سطر، وتحته سنة كذا وكذا فى سطر تحته، بينهما قدرُ إصبعيْن؛ ثم يكتب المستنَد بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلقّى كاتب السرّ كتب « حَسَب المرسوم الشريف » . وعلى ذلك يجرى الحكم فى جميع مايُكْتَب فى البَريد، وهو المختصّ بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلقّى كاتب السّرّ أو أحد من كُتّاب الدَّسْت، كتب : «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته « من دار العَدْل الشريف » فى سطر آخر. وإن كان بقِصّة مشمولة بخطّ السلطان، كتب : «حَسَب الخطّ الشريف» بمقتضى أعلى ذلك . وإن كان بخَطّ النائب الكافل، كتب : « بالإشارة العالية الأميريّة العاليّة الفلانية» فى سطر، وتحته فى سطر آخر « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى» . وإن كان بأمر الوزير، كتب « بالإشارة العالية الأميريّة الوزيرية الفلانية » فى سطر، وتحته فى سطر آخر « مدبّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشارة العالية الوزيريّة الصاحبيّة الفلانية ، مدبّر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى » سطرين على نحو ما تقدّم . وإن كان برسالة الدّوادار : فإن كان مقدّم ألف ، كتب « برسالة الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفلانىّ » فى سطر، وفى سطر آخر تحته «الدّاودار الناصرىّ أو الظاهرىّ» ونحو ذلك «ضاعف الله تعالى نعمتَه» . وإن كان طبلخاناه، كُتِب بدل الجناب «المجلس» ويدعو له «أدام الله تعالى

نعمته» . وإن كان بأمر الإستادار، كتب «بالإشارة العالية الأميرية الفلانية إستادار الفلانية أعلاها الله تعالى» . وإن كان من ديوان الجيوش المنصورة ، كتب «حسب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته «من ديوان الجيوش المنصورة» فى سطر آخر. وإن كان من ديوان الخواص الشريفة ، كتب «حسب المرسوم الشريف من ديوان الخواص الشريفة» على ماتقدّم . وإن كان من الدولة الشريفة : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليل ، كتب «حسب المرسوم الشريف من الدولة الشريفة» على نحو ماتقدّم . وقد تقدّم الكلام على المستندات فى الجملة، فى مقدّمة الكتاب عند الكلام على ديوان الإنشاء .

المَقْصَـــد الثـانى

(فى المكاتبات العامّة إلى أهل هذه المملكة : وهى المُطْلَقات)

قال فى "التعريف" : وأقسامُها لا تخرُج عن ثمانية أقسام : إلى الوجه القبلىّ ، وإلى الوجه البحرىّ ، وإلى عامّة الدّيار المصرية ، وإلى بعض البلاد الشامية ، وإلى البلاد المصرية والشامية، وإلى الممالك الإسلاميّة وما جاورها ، وإلى بعض أولياء الدولة ؛ كالأمراء بدمشق أو حلب ، وإلى قبائل العرب ، أو التُّركمان ، أو الأكراد أو بعضهم .

قلت : والقاعدة فى المطلقات أنه إذا آجتمع فى المُطْلَق كبارٌ وصغار، يغلّب حُكمُ الأكبرِ منهم على الأصغر : تعظيماً لأمر الأكابر . فإن كان فى المطلق من الألقاب مايختصّ به الأكابر دُونَ غيرهم ، آستُوفِى للكبير مايختَصّ به من الألقاب وأُتِى بالقدر المشترك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها مايُختَم . قال فى "التعريف" : وهو ماكان لبعض أولياء الدولة إذا كان فى سِرٍّ يُكتَم ولا يُرادُ إظهارُه إلا عند الوقوف عليه ، فيُختَمَ على عادة الكُتُب . وهذا يكون عنوانُه بظاهره كما فى غيره من المكاتبات المفردة .

ومنها مالايُختَمَ ، وهو سائر المطلَقات . قال فى "التعريف" : وعُنوانُها (مخالف لعنوان)[1] الكُتُب المفردة للآحاد : فإنّ تلك فى ظاهر الوَرَق ، وهذه فى باطن الورق، فوقَ وصلين أو ثلاثة، فوقَ البسملة . ويقال فيها : مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلى الوُلَاة والنُّوّاب، أوغير ذلك من نحو مافى الصدر، فيضَمّن العنوانُ ملخَّصَ مافيه . ثم يقال : على ماشُرِح فيه، أو حسَبَ ما شُرِح فيه . ومن قاعدتها أن يصَرَّح بذكر المكتوب إليهم فى المطلَق، بخلاف غيرها من المكاتبات المفردَة . قال فى " التعريف " : ثم بعد التعريف فى المطلَقات الدعاءُ ، ثم الإفضاء إلى الكلام ؛ وفى آخرها يتعيّن أن يقال : «فليَعلَموا ذلك ويَعتمِدُوه» .

وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل
(المطلَقات المكبَّرة)

قال فى " التعريف" : وهى مايكتب إلى سائر النُّوّاب بالممالك الشريفة، خلا سِيسَ فإنها مستَجِدّة، غير أنه إن رُسِم باضافته إليهم ، فيحتاج إلى تحرير الحال فى أمره : هل يُكتَب له بعدَ نائب طَرَابُلُس أو بعد نائب صَفَدَ ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدّم العسكر بغَزّة، ولا نائبِ الكَرَك، لأن رتبته فى المكاتبة أعلى منهما ، فإنها نظيرُ مكاتبة نائب طرابُلُس وحماة وصفد .

(١) فى الاصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والتصحيح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا على ما كان الامر استقرّ عليه من كونها نيابةً فى أوّل الامر ، أما بعد آستقرارها تقْدمةَ عسكر، فإنه يكون بعـد مقدّم العسكر بغزّة : لأن كُلًّا منهما مقدّم عسكر ، ومقـدّم العسكر بغزّة أقدمُ من مقـدّم العسكر بسِيسَ . وأيضـا فإن غَزّة مضافةٌ إلى دِمشْق وسِيس مضافةٌ إلى حَلَب، ودِمَشْقُ أكبرُ من حلَب .

قال فى "التثقيف" : وصورةُ هذا المطلَق أن يكتب فى الطُّرّة : «مثالٌ شريف مطلَق إلى الجنابين الكريمين، العاليين، الأميريّين، الكافليّين، الفلانيين، نائبَي السلطنة الشريفة بالشام وحلَب المحروستين، أعزّ الله تعالى نُصْرتهما، وإلى الجنابات العالية الأميريّة الفلانية أو الفلانى والفلانى» على الترتيب. ثم يقال : «نُوّاب السلطنة الشريفة بطَرَابُلُس وصَفَد وحَماةَ المحروسات . وإلى الجَنَاب العالى والمجلس العالى الأميرى الأمـيريّين الفلانيين أو الفـلانى والفلانى، مقـدّم العَسْكر المنصور بغزّة المحروسة، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس، أدام الله تعالى نعمتَهما ، بما رُسِم لهم به أن يتقـدّم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلى آخره . ثم يُخْـلِي بياضًا يسيرًا . ثم يكتب «على ماشُرِح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضًا بالوصل الذى تُكتَب فيه الطرّة . ثم تكتب البسملة فى أعلى الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره بإصبعين ماصورته : «أعزّ الله تعالى نُصْرة الجنابين الكريمين! وضاعفَ وأدام نعمة الجناب العالى، والمجلس العالى، الأميريّة ، الكبيرية ، العالمية ، العادلية ، المؤيّدية ، الزعيمية ، الغَوْثية ، الغِيَاثية ، المُثاغرِيّة ، المرابطيّة ، المشيّدية ، الظهيرية ، الكافلية ، الفلانية أو الفلانى والفلانى » إلى آخرهم : « أعِزّاء الإسلام والمسلمين ، سادات الأمراء فى العالمين ، أنصار الغُزَاة والمجاهدين ، زُعَمـاء الجيوش ، مقدّمى العساكر ، ممهّدى الدّوَل ، مشـيّدى المـمالك ، عمادات المِلّة ، أعوانِ الأمة ، ظهيرى الملوك والسـلاطين ، سُيوف أمير المؤمنين ، نُوّاب السـلطنة الشريفـة بالشام وحَلَب

وطَرابُلُس وحَماةَ وصَفَد المحروسات ، ومقدَّم العسكر المنصور بغزّة المحروسة ، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ثم الدعاء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجَنَابين الكريمين والجنابات العالية ، والمجلس العالى ، تُهْدِى إليهم من السلام كذا ، وتُوضِّح لعلمهم الكريم كذا وكذا ، فيُحيط علمُهم الكريمُ بذلك ، والله تعالى يؤيِّدهم بمنّه وكرمه » . وتكمَّل بالمشيئة وما بعدها . والعلامة «أخوهم» . قال : فى "التثقيف" : وإن أضيف إليهم نائب سِيس ... ... [1] فى الطرّة والصدر حسب ما تقدّم ذكره .

قال فى "التثقيف" : ومما ينبَّه عليه أنه قد يُكْتَب تارة إلى بعض هؤلاء النوّاب ويُختَصر البعض ، بحسَب ماتدعُو الحاجة إليه ، فيُكْتَب كذلك ويختصر منه من رُسِم باختصاره ، ويُذْكَر كلُّ واحد منهم فى محلّه ومرتبته على الصُّورة المتقدّمة من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذى لم يزَل الحالُ مستقرّا عليه حين كانت مكاتبةُ نائب الشام « الجناب الكريم » نظيرَ نائبِ حَلَبَ . أما الآن حيث آستقرت مكاتبته «المقرّ الكريم» ، فإنه لايليق أن يكتب لغيره بألقابه الخاصّة به . وإن آختُصِرت الألقابُ الخاصّةُ به كان فيه نقصٌ لرتبته ؛ فيلزم من ذلك أن يكتب إليه على آنفراده ، ويُكْتَب المطلَقُ لمن رُسِم به ممّن عداه من النوّاب المذكورين .

قلت : وقد رأيت فى بعض الدساتير كتابة المطلقِ الشاملِ لكافل الشام وغيره من النوّاب بعد آستقرار مكاتبة نائبِ الشام بالمقرّ الكريم على صورتين :

---

(١) بياض بالأصل ولعله يضاف ، أو أضيف فى الطرة الخ .

الصورة الأولى — أن تُستوفى ألقابُ المقرّ الكريم بدعائه، ويؤتى بألقابه الخاصّة به ، ثم يُعطَف عليه الجناب الكريم، والجنابات العالية ، والمجلس العالى، بالألقاب المشتَرَكة ، ويميّز مايمكن تمييزه منها ، ويكمّل على نحو ماتقـدّم : وذلك بأن يكتب فى الطرّة «مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلى كافلِ السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أعز الله تعالى أنصاره ، ونُوّابِ السلطنة الشريفـة بحَلَب ، وطرابُلُس ، وحماةَ ، وصَـفَدَ ، ضاعف الله تعالى نعمتهم، ومقدّم العسكر المنصور بغَزّةَ وسِيسَ المحروستين، أدام الله تعـالى نعمتهما بمـا رسم لهم به» إلى آخره . ثم يُخْلِى ثلاثة أوصال، على ماتقـدّم؛ ويُكْتب تِلْوَ البسملة فى أوّل الوصـل الرابع : «أعزّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الكريم العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ ، العابِدىّ، الناسِكىّ ، الأتابكىّ ؛ ونُصرةَ الجناب الكريم، وضاعف وأدام نعمة الجنـابات ، والمجالس العاليـة ، الأميريّة ، الكبيريّة ، العالمية، العادلية ، المثاغريّة، المرابطيـة، العَوْنية، الذُّخرية، الغِياثيّة، المهّدية، المشيّدية، المقدّمية، الظهيرية، الكافلية، الفلانى والفلانى» إلى آخرهم : «معزّ وعِزّ الإسلام والمسلمين ، سـيّدى الأمراء فى العـالمين ، ناصر ونُصْرة الغُزَاة والمجاهـدين، زُعَماء الجيوش أتابك ومقـدّمى العساكر، ممهّدى الدول، مشـيّدى الممـالك، أعوانِ الأمة ، كُهُوف الملة، ظُهَراء الملوك والسلاطين، عَضُد وسيوف أمير المؤمنين ، كافل السلطنة الشريفـة بالشام المحروس ، ونُوّاب السلطنة الشريفة بحلب ، وطرابُلُس ، وحماةَ، ومقدّم العسكر بغزّة وسيس ؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس » ولا زال إلى آخره . « أصـدرناها إلى المقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية ، تُهْدى إليهم من السلام كذا ، ومن الثّناء كذا ، وتُبْدى لعلمهـم الكريم كذا وكذا . ومرسومنا للمقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيُحيط علمُهم بذلك» .

الصورة الثانية — أن تُكتَب الطرّة على ماتقدّم، ثم تكتبُ ألقابُ المقرّ إلى آخرها . ثم يقال : « وتبدى لعلمه الكريم وعلم الجناب الكريم والجنابات العالية والمجلس العالى الأميرية الكبيرية » إلى آخر الألقاب « أن الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا للمقرّ والجناب الكريمين والجنابات العاليةِ والمجلس العالى أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيحيط علمهُم بذلك » والعلامةُ فى هذا المطلق « أخوهم » اعتبارا بالعلاّمة إلى كافل الشام ونائب السلطنة بحلَبَ .

الضرب الثانى
(المطلَقات المصغّرة)

وقد ذكر لها فى "التعريف" قواعدَ كليّة، وأشار إلى اختلاف مقاصدها فى ضمن الكلام المجمَل، فقال : وفى كلّها يُكتَبُ : « مثالنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية، الأمراء، الأجلاّء، الأكابر، المجاهدين، المؤيدين، الأنصار، الغُزَاة، الأنجاد، الأمجاد، أمجادِ الإسلام، أشرافِ الأمراء، أعوانِ الدولة، عُدَد الملوك والسلاطين : الوُلاةِ، والنوّابِ، والشادّين، والمتصرّفين، بالوجه الفلانى، أو بالديار المصرية، أو بالبلاد الشامية، [أو بالبلاد الفلانية، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية][1] وسائر الممالك الاسلامية » . قال : وقد يزاد فى هذا لمقتضيه : « والثغور والحصون والأطراف المحروسة » . قال : فإذا كان إلى الممالك الإسلامية، قيل « بالديار المصرية، والبلاد الشامية، وسائر الممالك المحروسة، وما جاورَها من البلاد الشّرقية، والممالك القانيّة » . وقد تكون إلى جهة الرُّوم . فيقال : « وما جاورَها من البلاد الروميّة ومايليها » . ثم عَقّب ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلى بعض أولياء

(١) ساقط من قلم الناسخ والتصحيح من التعريف .

الدولة نظر : فإن كان إلى عامّة أمراء دِمَشْق ، قيل : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجالس العالية الأمراء » . وبقيـة الألقاب من نِسْبة مايكتبُ للجلس العـالى . فإذا آنتهى إلى أعضاد الملوك والسـلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويجوز إطلاق هـذا الافراد على الجمع](١) قال : جماعة الأمراء مقـدّمى الألوُف ، وأمراء الطبلخاناه، وسائر [مجالس الأمراء](١) أمراء العَشَرات، ومقدّمى الحَلْقة المنصورة . وإن كان يُكتبُ إلى حلَبَ أو غيرها من الممالك فبالسامية . وإن كان لأمراء العُرْبان أو التُّرْكُمان أو الأكراد، كُتِب على عادة المطلَقات بالسامية، وكتب بعد عُضَد الملوك والسلاطين «الجماعة الفلانية» أو غير ذلك مما يقتضى التعريفَ بمن كُتب اليه .

أما فى "التثقيف" فقد رتّب المطلقات المصَغّرة على ستة أصناف :

الصنف الأوّل — المطلقات إلى جميع نُوّاب القلاع بالمملكة الشامية، أو بالمملكة الحلبيّـــة .

وصورة ما يكتب اليهم فى الطرّة : « مثـالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلى المجالس العالية والسامية الأميريّة ، ومجالس الأمراء النُّوّاب بالقلاع الفُلَانية المحروسـة ، أدام الله تعالى نعمتَهم بمـا رُسِم لهم به من كذا وكذا» إلى آخره. ثم يقال : على ماشُرِح فيه ؛ ثم يُخْلَى وصْلَان بيـاضا بوصل الطرّة؛ ثم تكتب البسملة فى أعلى الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعـد البسملة : « صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجالس العاليـة والسامية الأميريّة » وبقية ألقابهم . « ومجالِس الأمراء الأجِلّاء، الأكابر، المجاهديـــن، المؤيَّدين، الأنصار، أمجاد الإسـلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء فى العالمين، أنصارَ الغُزَاة والمجاهـدين، مقدّمى العساكر ، كُهُوف الملّة ، أعوانِ الأمّة ، ظهيرى الملوك

(١) الزيادة من التعريف .

والسلاطين، النّواب بالقِلَاع المنصورة بالمملكة الفلانية المحروسة». والدعاء إلى آخره «موضحة لعلمهم كذا وكذا . ومرسومُنا للمجالس العالية والسامية ، ومجالس الأُمَراء أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فيُحيطُ علمُهم بذلك . والله تعالى يؤيّدهم بمنّه وكرمه» والعلامة «والدهم» .

الصنف الثانى — المطلَقات إلى أصاغر نوّاب القِلاع، ممن يكتب إليه بالسامىّ بالياء، أو بالسامى بغير ياء، أو بمجلس الأمير .

وصورة مايكتَب إليهم فى الطرّة : «مثالٌ شريفٌ مطلَق إلى المجالس الساميّة، ومجالس الأمراء النّواب بالقلاع الفلانية ، أو بولاية فلانة وفلانة ، أدام الله تعالى عُلُوّهم» بما رُسِم لهم به نظير ماتقدّم . وبعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس الساميّة، ومجالس الأمراء، الأجِلّاء، الأكابر، الغُزَاة، المجاهدين، المؤيّدين، الأنصار، أمجاد الإسلام ، أشراف الأمراء، زُيُون المجاهدين، عُمَد الملوك والسلاطين، أو عُدَد الملوك والسلاطين، النُّوّاب بالقلاع الفلانية المحروسة» حَسَب ما كتب فى الطرّة ، والدعاء «يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسومنا للمجالس الساميّة ومجالس الأمراء أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فليعلموا ذلك ويعتمِدُوه ويعملوا بحَسَبه، والله الموفق بمنّه وكرمه» والعلامةُ الاسم الشريف .

الصنف الثالث — المطلقات إلى عُرْبان الطاعة بالممالك الشاميّة .

والأمر فيه كما فى الصنف الذى قبله . قال فى "التثقيف" : فإن كان المطلَق إلى طائفة من العُرْبان ممن له عادةٌ بمكاتبة جليلة : بأن تكون العلامة «والده» أو نحو ذلك : كآل مُهنّا، وآل فَضْل، وآل علىّ، وآل مِرا، ونحوهم، فإنه تكونُ صورة مايكتب فى الطُّرة : «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى جماعة العُرْبان، آل فلان»

إلى آخره . وفى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء» وبقية الألقاب «الكُشّاف[1] والوُلاة والنوّاب بالوجهين القبلى والبحرى» . ثم الدعاء . ثم يقال : «يتضمّن إعلامهم كذا وكذا» . ثم البقية من نسبة ما تقدّم .

قال فى "التثقيف" : وغالبا يُفْرَد الوجه القبلىّ بمطلقٍ شريف ، والوجه البحرىّ بمطلقٍ شريف . قال : وقد تضافُ إلى الوجه البحرىّ الثُّغُور . فيقال : «الكُشّاف والوُلَاة والنُّوّاب بالوجه البحرىّ والثُّغُور المحروسة » . قال : وإضافة الثُّغُور لاتقع إلا نادرا، لاسيما وقد صار ثغرُ الإسكندرية نيابةً لا ولايةً . ثم قال : وفى هـذا الوقت قد يتعذّر إضافة نائب الوجه القبلىّ مع الوُلَاة فى المطلق لارتفاع مكاتبته عنهم بدرجات؛ فيفرَد بمثالٍ شريف، ويُكْتَب المطلق إلى بقية الكُشّاف والوُلَاة . ثم قال : هذا الذى يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم، بأن يكتب : «أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى» إلى آخره . ثم يقال : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى» إلى آخره «وتُوضِّح لعلمه الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء» إلى آخر ألقابهم «الوُلَاةِ بالوجه القبلى» أن الأمر كذا وكذا : ويكمل على ماتقدّم .

قال فى "التثقيف" : ومما جرَت العادةُ به أن يُكتَب مطلقٌ شريفٌ إلى الأمراء بالمملكة الطرابُلُسِيَّة ، أو الحَمَوية ، أو الصَّفَدية وغيرها ، عنـد ولايةِ نائب السلطنة

---

(١) من هنا إلى قوله بعد قال فى التثقيف ومما جرت العادة به الخ لايتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالممالك الشامية الذى هو موضوع الصنف الثالث كما لايخفى ، ولعله مقدم مما يأتى بعد فى الكلام على المطلقات بالديار المصرية فتنبه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ، فيكتب على هذا الحكم، ولكنه بعُنوانٍ بغير طُرّة .
قال : وصورته فى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية ، ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكابر» إلى آخر الألقاب، والدعاء «يتضمن إعلامهم كذا وكذا» إلى آخره كما تقدم،ولكنه لا يصرّح بذكر الوُلاة والنواب كما يصرّح بذكر من يُكتَب إليـه المطلقُ فى غير هذه الحـالة . والعنوان : « المجالس السامية ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكابر» إلى آخر الألقـاب والنُّعوت جميعها ، والدعاء ، والتعريف «أمراء الطبلْخاناة والعشَرات بطرابلس المحروسة» أو بحماةَ، أو بصَفَد، أو بغزّة . قال : أما مملكتا الشـام وحلب ، فإنه لم تجر العـادةُ بكتابةِ مطلق بولاية نائبهـما، بل يُكتب إلى أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكَرَك : فإنه يكتب إلى والِى القلعـة به بمثـل ذلك . وكـذلك يكتب إلى الحـاجب بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيئان يجب التنبه لهما .

أحدهما كلُّ ما كان من ألقاب المطْلَقات بصيغة الجمع وهو (١) كأعضاد، فإنه يجوز فيه الإفراد فيقال : فيه عَضُد، وهذا مما نبّه عليه فى "التعريف" فى الكلام على المطلقات .

الثانى . قال فى "التثقيف" : فإن قلت : لأىّ شىء تُذْكَر أسماء الوُلَاة والنُّوّاب والعُرْبان وغيرهم فى الصَّـدْر بعد تمـام النُّعوت وقبل الدعاء، ولا تُكْتَب فى صدر المطلقات إلى الأمراء بالممـالك المتقدمة الذكر عنـد ولاية النائب بهـا أو غيره ؟

---

(١) بياض بالأصل . ولعله وهو فى الأصـل مصدر كأعضاد الخ كما تقدم مثله للمؤلف فى الألقاب مرارا، فتنبه .

فالجواب أن ذلك فى صدر المثال الشريف هو التعريفُ الذى من عادته أن يكون فى العُنْوان ولا يُستغنىٰ عنــه فهو قائم مَقامَه، حيث لاعُنْوان لذلك المطلَق ، إنمـا هو بطرّة لاغير ، ولهـا عُنْوانات ، والتعريف مـذكورٌ فيهـا فلا حاجة إلىٰ ذكره فى الصدر . ثم قال : ومن الجمـاعة من يُنازع فى ذلك، ويدّعى أنّ ذلك فى الطرّة كافٍ ومغْنٍ عن ذكره فى الصدر، وقائمٌ مقام التعريف فى العُنْوان . ثم قال : وهو خطأ، وليس بشىءٍ . والأصح ماقلناه .

[الصـنف](١) الرابع — قال فى "التثقيف" : إذا كان المطلق فى أمر يتعلّق بالديار المصرية والبـلاد الشامية، تكون صــورتُه « إلىٰ الكُشّاف والوُلّاة والنّواب والشادّين والمتصرفين بالطُّرقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة، آختُصِر منه ذكر الطرقات المصرية» .

[الصنف](١) الخامس — ذكر فى "التعريف" أنه يقال فى آخر المطلقات بعــدَ فليَعلَموا ذلك ويعتمِدُوه : «بعد الخط الشريف» . قال فى "التثقيف" ولعل هذا كان فى الزمن الذى كان هو مباشرا فيه، أما الآنَ فإنه لم تجر بذلك عادةٌ، ولم يكتب ذلك فى مطلق شريف مكبّر ولا غيره أصلا .

[الصنف](١) السادس — ذكر فى "التثقيف" أنه رأىٰ بخط القاضى ناصر الدين آبن النَّشائى أنه كتب مطلقا إلىٰ المجاهدين بمِصْـياف ؛ يعنى الفِـداوية صورته : « يعـلَمُ كلُّ واقف علىٰ مثالنا هــذا من المقدّمين الأجلاء الغُزاة المجـاهدين المؤيّدين الأنصار، الأتابك فلان والأتابك فلان جماعة المجاهدين» ثم الدعاء .

(١) زدنا هذا اللفظ توضيحا للتام وتميما لقسم الكلام .

الضـــــرب الثــانى

(مــن المطلقــات ، البَرَالِغ)

بالباء الموحدة والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة[1] جمع بَرْلَغ ، وهى لفظة تركيــة معناها المرسوم ؛ وعليهــا جرىٰ عُرْف كُتَّاب بلاد الشرق ، وقلّ أن تُكْتَب بالديار المصرية ، ولذلك لم يتعرّض لها فى "التعريف" ولا فى "التثقيف" : وهذه صورة بَرْلَغ شريف رأيتهــا فى تذكرة المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله فى الجزء السادس والأربعين منها ، بخط أخيه المَقَرّ العلائىّ بن فضل الله رحمهما الله تعــالىٰ ؛ كتب فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» . فى عاشر شهر رجب الفَرْد سنةَ تسع وعشرين وسبعمائة لتمربغا ، الرسولِ الواصل إلىٰ الديار المصرية ، عن القانِ أبى سعيدٍ صاحب مملكة إيران بالإكرام والمساعة بمــا يلزمه . وصورته فى أوّل الدرج .

مثــالٌ شريفٌ مطلق إلىٰ كافّة من يصل إليه ، ويقف عليــه ، للمجلس السامىّ الأميرىّ السيفىّ تمربغا الرسول ، بالطَّرْخانيّة ، وتمكينِ أصحابه من التردّد إلىٰ الممــالك الشريفة الإسلامية ، وإكرامِ حاشيتهم وتسهيل مَطْلَبهم ، ومساعتِهم فى البيع والشّراء بمــا طُلِب مــن الحقوق علىٰ اختلافها ، وتحذيرِ من سَمِــع هذه المراسيمَ المطاعة ثم أقْدم علىٰ خلافها . وبعد البسملة :

الحمد لله الذى بسط أيدينَا الشريفةَ بالجُود ، ونَصَب أبوابَنَا الشريفة كعبةً تهوِى إليها أفئدةُ الوُفُود ، وأطاب مَنَاهِلَها لكافّة الأُمَم لتنتَابهَا فى الصُّدُور والوُرُود .

نحمَده علىٰ نِعَمِه التى كَمْ بلَغتْ راجيًا مايرجُوه ، ونشهد أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَهُ لاشريك له شهادةً تبيضُّ بهــا الوُجوه ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسوله الذى ندَب

(١) كتب بهامش الأصــل ما نصه «لو لم يقيــده بالباء الموحدة لكان أولى على مالا يخفى» ومراده أنه بالمثناة التحتية كما تقدم .

إلى مكارم الاخلاق بقوله : «إذا أتاكُم كريمُ قومٍ فأكرِموه» ، صلى الله عليه صلاةً تزيد من يقرن الثناء بها تكريمـا ، ثم على آله وصحبه وسلّم تسليما .

وبعد : فإنه لمـا حضر المجلسُ السامىُّ الأميرىّ ، الأسفهسلارىّ ، السّـيفىّ ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ناصحُ الدولتين ، ثقةُ المملكتَين ، فخرُ الخواصّ المقرَّبين ، عضدُ الملوك والسلاطين ، تمربغا الرسول ـ أنجح الله تعالى مَساعيه ، وأوجب الرعاية لمن يُراعيه ـ إلى أبوابنا الشريفة ونُورُ ولائه يَسْعىٰ بين يديه ، وإخلاصُ نيّته يَظْهر عليـه ، بلّغ إلينا ماأُرسل فيه عن الحضرة الشريفة العاليـة ، السلطانية ، العالميّة ، العادليّة ، الشاهنشاهية ، القانيّة ، الأوحدية ، الوَلَدية ، العزيزية ، المعظَّمية ، المَلَكية ، العلائيـة ، أبى سعيد بهادر خان ـ زِيدتْ عظمتُـه ـ وظهر لنا من كمال صِـفاتِه ما رمىٰ البدْرَ التمـام بنَقْصه ، ومن حسن تأتّيـه فى خِدمة من أرسـله مايُعْرَف به أنه أرسل حكيما ولم يُوصِّه ، وعَرَضَ علىٰ نظرنا الشريف البرلغ الشريف المكتتَب له عن الحضرة الشريفة ، السلطان الأعظم ، الولد العزيز المعظَّم ، الملك بو سعيد ، أعز الله تعالىٰ شأنه بالطَّرخانيّة ، وما نبّه عليـه من مكانته العليه ، ورفّه مطالبه من تأكيد الوصيّه ، ثم رَغِب إلينا فى الكتابة علىٰ حُكْمه إلى كافّة الممالك ، وأن يُسَطَّر له منها صحائفُ حَسَـنات تقضى بها الملوكُ وترضىٰ بها المَلائك ، فأجرَتْه مراحمنا الشريفـةُ علىٰ كرمها المُعْتاد ، وأجارته نِعَمُنا الجزيلةُ وجاورَتْه حيث سار من الأرض أو أقام من البِلاد ، وأجابت صدقاتُنا الشريفة بتحقيق المأمول ، وأكرمت كتابَهُ بمـا يستحق أن يكرم به كتابُ الرَّسول . ومرسومُنا إلىٰ كلّ واقف عليه من النُّوّاب والوُلاة والشادّين والمتصرفين والمبـاشرين والمتحدِّثين وبقية الحكام أجمعين إلىٰ كافة الممالك الشريفة الإسلامية شرقًا وغربًا ، وبُعْدا وقُرْبا ، أيَّدهم الله بالتوفيق ، ويَسَّر لهم الطريق ، وجعل حُسْن تلقّيهم الوفودَ يأتى بهم من كلّ فَجٍّ عَميق ، أن يُجرىٰ

الأمير الكبير المقرّب تمربغا الرسول على ماألِفَه فى أبوابنا الشريفــة من كَرَم إكرامه، وفارقنا عليــه من توقير جانبه وتوفير آحترامه؛ ويُفْسَح لكلّ من يصــل من جهتِــه فى التردّد إلى هذه المَـالك الشريفه، والتردّى بملابس النِّعم المُطيفه؛ وأن تُضاعَف له الإعانة والعِنَـاية، والمُراعاة والرّعايه ؛ ولا يُطْلَب أحد منهــم فى البيع والشّراء ، والأَخْذ والعطاء، بشيءٍ من المقرّرات الدّيوانيه، والمُوجَبات السلطانيه؛ ولا يُؤْخَذ منهم عليها شيءٌ سواء كان قليلًا أو كثيرا، جليـلًا أو حقيرا ؛ ولا يتأوّل عليهم أحدٌ فى هذا المرسوم الشريف ، ولا يتعدّىٰ حكمَه فى تصرّف ولا تصريف ؛ بل يقف كلُّ واقف عليه عنده، ويعمَلُ به فى اليوم وما بعدَه ، ويلحَظُ منــه علىٰ مَن خالفه سـيفًا مسلولًا وعلىٰ مَنْ تجاوز حدّه؛ فنحن نحذّر ونُنْذر من سَطَواتنا الشريفـة من سمعه ثم زاغ قلبُه عنــه، أو مَنْ بلغه من لايفهم مضمونَه ثم لايسأل عمّـا هو فُرُبَّ حامل كلامٍ إلىٰ مَنْ هو أوعىٰ منه؛ فلتكُنْ عيونُهم له مُراعِيَه، ومسامعُهم منصتـةً إلىٰ سمـاعه بأُذُنٍ واعيه؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه .

المقصــــد الثـالث

(من المكاتبات، فى أوراق الجَواز وبطائق الحَمَـام، وفيه جملتان)

الجمــلة الأولىٰ

(فى أوراق الجَــوَاز)

وهى المعبَّر عنه فى زماننا بأوراق الطّريق . قال فى "التثقيف" : تكون ورقةُ الطريق فى ثلاثةِ أوصال فى قَطْع العادة، يُكْتَب فى أعلاها سطرٌ واحدٌ، صورته : « ورقةُ طريقٍ علىٰ يد فلان بن فلان الفلانى » لاغير . ثم يُخلَّىٰ بيتُ العلامة بقدير شبر، ويكْتَب فى بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثانى بأربعــة أصابع مطبوقةٍ بغير

بسملة : « رُسِم بالامر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ المَلكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه ، وأنفـذه وصرّفه ـ أنْ يمكّن فلان الفلانىُّ » . وتُذكر ألقابه إن كان أميرا، أو متعمّما كبيرا ، أو ممن له قدر، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسب مايقتضيه الحـال « من التوجه إلىٰ جهة قَصْـده والعَوْد . ويحمل علىٰ فرس واحد أو أكثر من خيـل البريد المنصور من مَرْكَزٍ إلىٰ مَرْكز علىٰ العادة متوجّها وعائدا » فإن كان متميز المقـدار كُتِب : « ويعـامَلُ بالا كرام والاحترام، والرّعاية الوافرة الأقسام ، فليُعتَمد ذلك ويُعمَلْ بحسبه ، من غير عُدُول عنه بعـد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه » . قال : وما تعلّم من كتابة أنه يمكَّن من التوجُّه والعَوْد ، هو فيما إذا كان عائدًا ورُسِم بتمكينـه من العَوْد، وإلا فيكتَب « أن يمكّن من التوجُّه إلىٰ جهة قَصْده » . فإن كان قد حضر إلىٰ الأبواب وهو عائدٌ، فالأحسن أن يكتب فيـه « أن يمكّنَ من العود إلىٰ جِهَة قصده» . وكذا «ويعامل بالإكرام والاحترام» لايكتَبُ إلا لأمير، أوذى قَدْر كبير . فإن كان غيره، كتب [بَدَ]له «مع الوصيّة به ورِعَايته» ونحو ذلك . وإن رسم له بنَفَقة، كتب بعد ذكر خيل البريد: « ويُصْرَف له من النَّفـقة فى كلّ يوم كذا وكذا دِرْهمـا » خلا الأماكن الموسوم بإبطالهـا . وذلك أن بالطُّرُقات أماكن لا يُصْرَف فيها شىء الآنَ ، فيُحتاجُ إلىٰ أن تُستثنىٰ ، وكانت قبل ذلك تُعيّن ، وهى : بُلْبَيْس، وطَفِيس ، وأَرْبَدُ وغيرها . ثم كثُرت عن التَّعداد، فصار يكتب كذلك . ثم قال : وممـا ينبّه عليه أن صاحب ورقة الطريق إنْ كان من ممـاليك النّواب أو رُسُل أحدٍ من أكابر البلاد، ذكر فيه بعد ذكر مايليق به من الألقاب : «فلانٌ مملوكُ فلان أو رسول فلان» . وتُذكَر ألقاب مخدومه التى كوتب بها آختصـارا . والا تذكر نعوته علىٰ يدِ من رسم بنفقيه ، (١)

(١) كذا فى الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلىٰ يد مَن ، وإن رسم بنفقيه كتب الخ تأمل .

كتب : «أنْ يمكّن الأميرُ فلان الدين فلان من التوجُّه صُحبةَ فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة، أو أحد النقباء بالباب الشريف ليوصِّله إلىٰ المكان الفلانى، ويحمل علىٰ كذا وكذا فرسًا من خيل البريد المنصور» إن كان قد رُسِم له بشىء من خيل البريد «ويحمل البَرِيدى علىٰ كذا من خيل البريد المنصور» أو «ويحمل النقيبُ علىٰ فرسٍ واحدٍ من خيل الكِرَاء من ولاية إلىٰ ولاية علىٰ العادة فى ذلك، ويمكّن البَرِيدىّ إن كان بَرِيديًّا أو النقيبُ إن كان نقيبًا من العود إلىٰ الباب الشريف» . ثم يكمل بنسبة ماتقدّم .
وإذا فرغ من صورته، كتب بعد ذلك « إن شاء الله تعالىٰ » ، ثم التاريخ والمستَنَد علىٰ العــادة .

قال : فى "التثقيف" : والمستَنَد فى أوراق الطريق أحدُ ثلاثة أمور : إما خطُّ كاتب السر، وهو الغــالب . أو رسالةُ الدَّوادَار، وهو كثير أيضا . أو إشارةُ نائبِ السلطان إن كان ثَمَّ نائب، وهو نادر . فإن كان بخطّ كاتب السر، كُتِب علىٰ الهامش من الجانب الأيمن سَطْر واحد يكون آخرُه يقابل الســطرَ الأوّل الذى هو رُسِم بالأمر الشريف ، وهو « حَسَبَ المرســوم الشريف » . وكذا إن كان بإشــارة النائب، كُتِب سطران علىٰ الهامش المذكور آخرهــا أيضا يقابل أوّل السطر الأوّل « بالإشــارة العــالية » كما تقدّم فى الكلام علىٰ المستَنَدات فى المقالة الثانية[(1)] . قال : وفى هاتين لايُكْتَب فى ذيلهما بعد التاريخ سِوىٰ الحَسْــبَلة لاغير . وإن كان برسالة الدَّوادار، كتب علىٰ الهــامش «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط ، وكُتِب تحت التاريخ سطران هما «رسالةُ المجلس العالى الأميرىّ الفلانىّ فلان الدَّوادار المنصورىّ أدام الله تعالىٰ نعمته» ، ثم الحَسْبَلة .

(1) صوابه الثالثة . والذى تقدم فى ج ٦ ص ٢٦٤ «فيكتب» ـــ بالاشارة العالية الأميرية الكبيرية الكافلية ، كافل الممالك الشريفة الاسلامية أعلاها الله تعالىٰ ـــ سطرين ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانيــــة .

الجمـــــلة الثانية

(فى نُسَخ البطائق، وهى علىٰ ضربين)

الضــــرب الأوّل

(أن تكون البطاقةُ بعلامةٍ شريفةٍ)

قال فى "التثقيف" : وتكونُ نحوَ ثلُثَى وَصْل من ورق البَطائِق . قال : وصورتها أن يكتب فى رأس الورق المـذكور فى الوسط سَواءً « الاسمُ الشريف » وتحتَـه مُلْصَـقا به من غير بياض سطرٌ واحدٌ كامل من يمين الورق بغـير هامش بمـا يأتى ذكره . ثم يُخْلى بيتُ العلامة تقـديرَ أربعة أصابع مطبوقةٍ، ثم تُكتَب تتمةُ الكلام أسطرا متلاصقة بنسبة الأوّل، بغير هامش أصلا إلىٰ آخره . والذى يكتب من يمين الورق . «الله الهادى . سُرِّح الطائرُ الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى الساعة الفلانية من اليوم الفلانىّ من الشهر الفلانىّ من سنة كذا وكذا، إلىٰ المجلس الكريم، أو السـامى ، الأمير فلان وَالِى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعْلِمه أنّ الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا له أنْ يتقـدّم بكذا وكذا ، فلْيَعْـلمْ ذلك ويعتمِدْه ، والله الموفِّق بمنّـه وكرمـه إن شاء الله تعـالىٰ، حَسْبنا الله ونعم الوكيل » . والمستندُ لهـا « حَسَبَ المرسومِ الشريف» .

الضرب الثـانى

(أن تكون بغير علامــــة)

وصورتهـا أن يكتب فى رأس الورقة فى الوسط موضعَ الاسم : «الله الهـادى بكرمه » ، والاسـطر متلاصقةٌ بغـير هامش، ولا يُخْلىٰ فيها بيتُ علامة . وصورة

مايكتب فيها : «المرسوم بالأمر الشريف، العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانى، أعلاه الله تعالىٰ وصرّفه ـ أنْ يُسَرَّح هذا الطائر الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى وقت كذا وكذا» . ويكمّل علىٰ حَسَب ماتقدّم «والله الموفق، حَسَبَ المرسوم الشريف، إن شاء الله تعالىٰ» . قال فى "التثقيف" : وقد يقتضى الحالُ نقلَها من مكان إلىٰ مكان آخَر، مثل أن تنقل من بلبيس إلىٰ قطْيا، فيكتب بعد ذكر المرسوم به : «ويتقدّم بنقل هذه البطاقة إلىٰ فلانٍ الفلانىّ ليعتمدَ مضمونَها ويعمَلَ بحسَبها» . فإن كانت منقولة إلىٰ مكانٍ ثالث، كتب بعد ذلك : «ثم ينقلُها إلىٰ فلان ليعتمدَ مضمونَها أيضا ويعملَ بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمده» . والتتمة حَسَب ماتقدّم .

الطـــرف الثـالث

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الإسلام، ومن ٱنطوَتْ عليه ممالكُهُم ممّن دُونَهم من الملوك والحُكّام المنفردين ببعض البُلْدان، والأمراءِ والوزراءِ وسائرِ مَن ضمّه نِطاقُ كلّ مملكة من تلك الممالك، ممّن جرتِ العادةُ بمكاتبته عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ممن هو مستمرُّ المكاتبة أو زالت مكاتبته بزواله : ليُقاس عليه مَنْ لعله يظْهر مَظْهَره)

وٱعلم أن كُتّاب الديار المصرية يُراعُون فى المكاتبة إلىٰ كلّ مملكةٍ صورةَ المكاتبة الواردة عن تلك المملكةِ فى غالب حالها : فى الابتداء والخطاب والاختتامِ وغيرذلك .

وفيه أربعة مقاصد :

المقصـــد الأوّل

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الشّرق، ومَنِ انطوت عليه كلُّ مملكة من ممالكهم، ممن جرتِ العادةُ بمكاتبته، وفيه أربعة مَهَايِـع)

المَهْيَـــع الأوّل

(فى المكاتبة إلىٰ الملوك والحُكّام، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم بمملكة إيرانَ، وهى مملكةُ الأكاسرةِ الصائرةُ إلىٰ بيت هُولاكُو من بنى جنكزخان)

وقد تقدّم فى المقالة الثالثة فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ذكرُ حدودِ هذه المملكة وقواعدها ومُدُنها ، وإلىٰ من تُنْسَب ، ومَنْ ملكها جاهليّـةً وإسلامًا إلىٰ زماننا . والمقصُود هنا ذكرُ المكاتَبات فقط، ويشتمل المقصود منها علىٰ ثلاث جُمَل .

الجمـــلة الأولىٰ

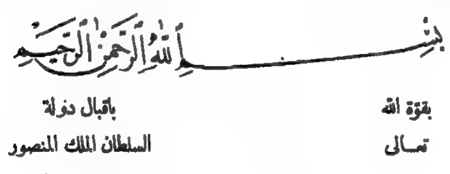
(فى رسم المكاتبة إلىٰ قانِها الأعظم الجامع لحُدُودها، علىٰ ما كان الأمرُ عليه من مَبْدَإ ملك بيتِ هُولاكُو وإلىٰ آخر دولة أبى سعيد، وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — ما كان الأمر عليه فى رَسْم المكاتبة فى أوائل الدولة التُّركية ، والعداوةُ بعدُ قائمةٌ بين ملوك الديار المصرية وبين مُلُوكها . وفيه أسلوبان

الأسلوبُ الأوّل — أن يكْتَب تحتَ البسملةِ من الجانبِ الأيمن «بقُوّة الله تعالىٰ» ويكون "بقوة الله" سطرا و«تعالىٰ» سطرا، ثم يكتب من الجانب الأيسر: «بإقبال دولة السلطانِ الملك الفلانى» . ويكون « بإقبال دولة» سطرا، وباقى الكلام سطرا ثانيا . ثم يكتب تحتَ ذلك «كلام فلان» سطرا ثانيا « إلىٰ السلطان فلان سطرا ثالثا » . ثم يُؤتىٰ ببَعْديّة وخُطْبة ، ويُؤتىٰ بالمقصود .

وطريقُهم فيه علىٰ التكلّمُ عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ، والخطابِ لسلطان إيران بميم الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم فى جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِب به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحبِ الديار المصرية ، فى جوابِ كتابٍ ورد عن السلطان أحمدَ القانِ بإيران فى زمانه . يذكر فيه أنّه أسلم ، إذ كان أوّل من أسلم من مُلُوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبيرَ كان قد عَزَم علىٰ دخول ممالك الديار المصرية قبل مَوْته ، وأنه مَنَع ذلك ، وأنه لا يحب المسارعة إلىٰ القتال ، وأن المشير بذلك الشيخُ عبدُ الرحمن : أحد صُلَحاء بلادهم ، وأنه حَرّم علىٰ عساكره الغاراتِ علىٰ البلاد ، وتعرّض فيه إلىٰ أمر الجَوَاسيس ، وأشار إلىٰ أنّ الاتّفاقَ فيه صلاحُ العالَمَ ، وأشار إلىٰ أشياءَ حَمَّلها لرُسُله يذكرونها مُشافهةً ، ووقع الجواب عن جميع ذلك علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكُتُب الواردة علىٰ الديار المصرية .
وكُتِب بخط ناصرِ الدين شافع بن علىّ بن عباس : أحد كُتّاب الإنشاء ، فى رمضان سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة . والتكلّمُ بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدّم فى الأسلوب الأوّل ، وهى :



باقبال دولة	بقوّة الله
السلطان الملك المنصور	تعالى

كلام قلاوون

إلىٰ السلطان أحمد

أما بعدَ حمدِ الله الذى أوْضَح بنا ولنا الحَقّ مِنْهاجا ، وجاءَ بجاه نصرُ الله والفتحُ ودخَل الناسُ فى دينِ الله أفواجا ، والصلاةِ علىٰ سيدنا ونبيّنا محمد الذى فَضّله الله

علىٰ كلِّ نبيٍّ نُجِّي به أمته وعلىٰ كل نبيٍّ ناجا، صلاةً تُنير مادَجَا ؛ فقد وصل الكتابُ الكريم، المتلقَّى بالتكريم ، المشتملُ علىٰ النبأ العظيم ؛ من دُخُوله فى الدِّين ، وخُروجِه عمن سلفَ من العشـيرةِ الأقربين ؛ ولما فُتِح هذا الكتاب بهذا الخبر العَلَم المُعْلِم ، والحديثِ الذى صَحَّح عند أهل الإسلام إسلامَه وأصحُّ الحديث مارُوِى عن مسلم ، توجَّهت الوجوهُ بالدعاء إلىٰ الله سـبحانه فى أن يُثبِّته علىٰ ذلك بالقول الثابت ، وأن يُنْبِت حَبَّ حُبِّ هـذا الدين فى قلبه كما أنبتَ أحْسَن النَّبْت من أخشن المَنابت ؛ وحصل التأمُّلُ للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه فى أول عُنْفُوان الصِّبا إلىٰ الإقرار بالوَحْدانيه ، ودُخُوله فى المِلَّة المحمديه ، بالقول والعمل والنيَّه ؛ فالحمدُ لله علىٰ أنْ شرح صدرَه للإسلام ، وألهمه شريفَ هذا الإلهـام ؛ فحمِدْنا اللهَ علىٰ أنْ جعلَنا من السابقين إلىٰ هـذا المَقَالِ والمقام ، وثبَّتَ أقدامنا فى كلِّ موقِفِ آجتهاد وجِهَاد تتزلزل دُونَه الأقدام .

وأمّا إفضاءُ النَّوبة فى المُلْك وميراثُهُ بعد والده وأخيه الكبير إليه ، وإفاضةُ جَلابيبِ هذه النعمةِ العظيمة عليه ، وتوقُّله للأسِرَّة التى طَهَّرها اللهُ بإيمانِه ، وأظهرها بسُلْطانه ؛ فلقد أورثها اللهُ مَن آصطفاه من عباده ، وصَـدَّق المبشِّرات من كرامة أوليـاءِ الله وعُبَّاده .

وأمّا حكاية الإخْوان والأمراء الكبار ومقدَّمِى العسـاكر وزُعمـاء البلاد فى مجمع قوريليـاى الذى ينقدح فيـه زَنْدُ الآراء ، وأن كلمتهم آتفقت علىٰ ماسبقتْ به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلىٰ هـذا الجانب ، وأنه قد فكَّر فيما آجتمعت عليـه آراؤهم ، وآنتهتْ إليه أهواؤهم ؛ فوجده مخالفًا لما فى ضميره : إذ قَصْـدُه الصَّلاح ، ورأيُهُ الإصلاح ؛ وأنه أطفأ تلك النائره ، وسكَّن تلك الثائره ؛ فهذا فعل الملك المتَّقِى ، المُشْفِق من قومه علىٰ مَنْ بَقِى ؛ المفكِّر فى العواقب ، بالرأْى الثاقب ؛ وإلا فلو تُرِكوا

وآرائهم حتى تحملهم النزه، لكانت تكون هذه هى الكره؛ لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فلم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى .

وأما القول منه إنه لا يحب المسارعه، إلى المقارعه؛ إلا بعد إيضاح المحجه، وتركيب الحجه؛ فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته متركبه، على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبه؛ فإن الله سبحانه وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا إنما هو لله؛ وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول؛ وبارتفاع المنافره، تحصل المظافره؛ فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض، ومن أقام مناره فله أهل بأهل فى كل مكان وجيران بجيران بكل أرض .

وأما ترتيب هذه الفوائد الجمة على إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن، أعاد الله تعالى من بركاته، فلم يزل ولى قبله كرامة كهذه الكرامه، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار إسلام دار إقامه؛ حتى تتم شرائط الإيمان، ويعود شمل الإسلام مجتمعا كأحسن ما كان؛ ولا ينكر لمن بكرامته ابتداء هذا التمكين فى الوجود، أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود .

وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين، الموثوق بنقلهما فى إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من أحوال أحواله، وخطرات خاطره، ومسطورات ناظره؛ ومن كل مايشكر ويحمد، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى أن النفوس إن[1] كانت تتطلع فى إقامة دليل، تستحكم [به] دواعى الود الجميل؛ فلينظر إلى ماظهر من مآثره، فى موارد الأمر ومصادره: من العدل

(١) لعل زيادة "إن" من قلم الناسخ

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدّم بإصلاح الأوقات ، فهذه صفاتُ من يُريد لمُلْكه الدوام ؛ فلما مَلَك عدل،ولم يلتفتْ إلىٰ لَوْم مَنْ عدا ولا لَوْم من عَذَل . علىٰ أنها وإنْ كانت من الأفعال الحسـنه ، والمَثُوبات التى تستنطق بالدعاء الألْسِـنه ؛ فهى واجبات تؤدّى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أوعليـه يقتصر، أوله يدّخر؛ إنمـا يفتخر المَلِك العظيم بأن يُعطِىَ ممـالكَ وأقاليمَ وحُصُون ، أو يبْـذُل فى تشييد مُلْكه أعزّ مصُون .

وأما تحريمُـه علىٰ العساكر والقَراغُولات والشحانى بالأطراف التعرّضَ إلىٰ أحد بالأذى ، و[تحتيم] إصفاء مَوَارد الواردين والصادرين من القَذىٰ ؛ فمن حينَ بلغنا تقدُّمه بذلك تقدّمْنا أيضا بمثله إلىٰ سائر النُّوّاب ، بالرَّحْبة وحَلَبَ وعَيْنتاب ، وتقـدّمنا إلىٰ مقدَّم العسـاكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ، وإذا اتحد الإيمـان ، وانعقدت الأيمـان ، تحتّمَ إحكام هذه الأحكام ، وترتب عليه جميعُ الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أُمسِـك وأُطْلِق وأنّ بسبب من تزيّا من الجواسيس بزىّ الفقراء قُتِـل جماعةٌ من الفقراء الصُّلَحاء رجمًـا بالظن ، فهـذا باب من ذلك الجانب ستْرُوه ، وإلىٰ الاطّلاع علىٰ الأمور صَوَّروه ؛ فظفِر النوّابُ منهم بجماعةٍ فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ماغطّته خرقة الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلىٰ أن فى اتفاق الكلمة يكونُ صَلَاحُ العالم ، وينتظم شملُ بنى آدم ؛ فلا رادَّ لمن طرَق بابَ الاتّحاد ، ومن جَنَح للسِّلْم فمـا جارَ ولا حاد ؛ ومن ثنىٰ عِنانَه عن المكافحه ، كمن يُرِيد المصافحة الصالحه ؛ والصُّلح وإن كان سيدَ الأحكام فلا بدّ من أمورٍ تُبْنىٰ عليها قواعده ، وتُعلَمُ من مدلولها فوائدُه ؛ فإن الأمور المسطورةَ فى كتابه عن كلّيّات لازمة ينعم بها كلّ معنًى معلوم إن تهيأ صلح أو لم ، وثَمَّ أمورٌ لا بدّ أن تُحكَم ، وفى سلكها عقودُ العهود تُنْظَم ؛ قد تحمّلهـا لسانُ المشافهَة التى إذا أُوردتْ أقبلتْ

من معنىٰ دُخوله في الدين ، وآنتظام عِقْـده بسلك المؤمنين ؛ وما بَسَطه من عَدْل وإحسان، وسـيرة مشهورة بكلّ لسان ، فالمِنّة لله في ذلك فلا يَشِيبُها منه بامْتِنان ؛ وقد أنزل اللهُ تعالىٰ علىٰ رسُوله صلّ الله عليـه وسلم في حَقّ من آمتَنّ بإسلامه : ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَدَاكُمْ للإيمـان﴾ .

ومن المشافَهة أنه قد أعطاه الله من العَطَاء ماأغناه به عن آمتدادِ الطَّرْف إلىٰ مافي يدِ غيره من أرضٍ ومال ، فإن حصَلت الرغبةُ في الآتفاق علىٰ ذلك فالأمْنُ حاصل ؛ فالجواب أنَّ ثمّ أمورا متىٰ حصَلَت عليهـا الموافقه ، تمّت المُصاحبة والمُصادقَه ؛ ورأىٰ اللهُ تعـالىٰ والناسُ كيف يكون إذلالُ مُعادينا ، وإعزازُ مُصافِينا ؛ فكم من صاحبٍ وُجِد حيثُ لا يُوجَد الأبُ والأخُ والقَرَابه ، وما تمّ أمرُ الدين المحمـديّ وآستحكم في صدر الإسلام إلا بمُظافرة الصَّحَابه؛ فإن كانت له رَغْبـةٌ مصروفة إلىٰ الآتحاد، وحُسنِ الوِدَاد، وجميلِ الآعتضاد، وكَبْت الأعداء والأضْداد، والإستناد إلىٰ من يشْتَدّ به الأزْر عند الآستناد، فقد فُهِم المراد .

ومن المشافَهة إذا كانتْ رغبَتُنا غيرَمتمدّة إلىٰ مافي يده من أرضٍ ومال، فلا حاجةَ إلىٰ إنفاذ المُغيرين الذين يُؤذون المسلمين بغـير فائدةٍ تعودُ؛ فالجواب أنه لو كُفَّ كَفُّ العُدْوان من هُنالك،وخُلّي لملوك المسلمين مالهم من مَمَالك؛ سكَنتِ الدَّهْماء ، وحُقِنت الدِّماء ؛ وما أحقّـه بأن لاينْهى عن خلق ويأتي مِثْـلَه ، ولا يأمُرَ بشيء وينسىٰ فِعْله ؛ وقنغرطاب بالرُّوم الآنَ، وبين بلاد فيأيديكم خراجُها يُجْبىٰ إليكم، فقد سَفَك فيها وفَتَـك ، وسبىٰ وهَتَـك ؛ وباع الأحرار ، وأبىٰ إلا التمـادِي علىٰ ذلك والإصْرار .

ومن المشافهة أنه إن حصَل التصميم علىٰ أن لاتُبْطَل هذه الإغارات، ولا يُقْتَصر عن هـذه الإثارات؛ فتُعَـيِّن مكانا يكون فيه اللّقاء، ويُعطِي اللهُ النصرَ لمن يشاء؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى آتفق فيها ملتقى الجمعين مرّة ومرة ومرة قد عاف مواردَها من سلَف من أولئك القوم ، وخافَ أن يُعاودها فيعاودهُ مصْرَعُ ذلك اليوم، ووقتُ اللّقاء علمه عند الله لا يُقدَّر، وما النصر إلا من عندالله لمن أقدر لالمن قدر؛ وما نحن ممن ينتظر فَلْته ، ولا ممّن له إلى غير ذلك لَفْته ، وما أمرُ ساعة النصر إلّا كالساعة التى لاتأتى إلا بغْتة، والله تعالى الموفّق لما فيه صَلاحُ هذه الأمة، والقادر على إتمـام كلّ خير ونعمه ؛ إن شاء الله تعالى . مُستَهَلّ شهر رمضان المعظم قدره، سنة إحدى وثمانين وستمائة. الحمدُ لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه. حسبنا الله ونِعْم الوكيل .

الأسلوب الثـانى

(أن يُكتَب تحتَ البسملة على حِيَال وَسَطها « بقُوّة الله تعـالى ومَيَامين المـلة المحمدية »)

ويكون « بقوة الله تعالى » سطرا . و« مَيَامين الملة المحمدية » سطرا ثانيـا . ثم يؤتى ببعديّة وخُطْبة مختَصَرة ؛ ثم يُكتَب سطران ببياض من الجانبين ، فيهما : « بإقبال دولةِ السلطان الملِك الفلانى، كلام فلان بن فلان» . ويكون السطر الأوّل « بإقبال دولة السلطان الملِك » وباقى الكلام فى السطر الثانى . ثم يقال : « فليَعْـلَمْ السلطان فلان» . ويؤتى على المقصود إلى آخره .

وهــذه نسخةُ كتاب من إنشاء القـاضى علاءِ الدين علىّ بنِ فَتْح الدين محمد بن محيى الدين بن عبـد الظاهر، صاحبِ ديوان الإنشـاء بالديار المصرية فى جواب كتابٍ وردَ عن السلطان محمود غازَان، القان بمَمْلكة إيرانَ ، يذكُر فيه أنّ جماعةً من عساكر البلاد الشاميّــة أغاروا على ماردين ، وأن الحَميّة آقتضتِ الرُكوبَ فى مُقابَلة

ذلك . وذكر أنه قدّم الرُسُلَ بالإنذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا علىٰ تماديهم فى غَيِّهم؛ ويذكر فيه نُصرتَه علىٰ العساكر الإسلامية فى المرّة السابقة . ويذكر فيه أنه أقام بأطراف البلاد، ولم يدخُلها خوفَ التخريب والفساد . ويذكر فيه جمعَ العساكر وتهيئةَ المجانيق وغير ذلك من آلة القِتال . ويذكر أنه إذا لم تجرِ مُوجِبات الصلح كانتْ دماءُ المسلمين مطلولةً ؛ ويذكر إرسال رُسُله بكتابه ويلتمس التُّحَف والهَدَايا ، مما كُتِب به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى المحرّم سنة إحدىٰ وسبعمائة وهى :



بقُوّة الله تعالىٰ

ومَيَامين الملّة المحمدية

أمّا بعد حمدِ الله الذى جعلنا من السابقِينَ الأوّلين ، الهادين المهتَدين ، التابعين لسُنّة سيد المرسلين ، بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين ، والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فَضَّل الله مَنْ سبق منهم إلىٰ الإيمان فى كتابه المكنون ، فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿والسّابِقُون السابقُون أُولٰئك المُقَرّبُون﴾ .

بإقبال دولةِ السلطان الملك

الناصر كلام محمد بن قلاوون .

فلْيَعلَمِ السلطانُ المعظَّم محمود غازان أنّ كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام ، ورعَيْنا له حقّ القصد فتلقيناه منّا بسلام ، وتأمّلناه تأمُّل المتفهّم لدقائقه، المستكشف عن حقائقه ؛ فألفيناه قد تضمّن مُؤاخَذاتٍ بأمورٍ هم بالمؤاخَذة

عليها أخرىٰ، معتذرا فى التعدّى بما جعله ذُنُوبا لبعض طالبَ بها الكُلّ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .

أمّا حديثُ مَنْ أغار علىٰ ماردينَ من رِجّالة بلادنا المتطرّفة وما نسـبُوه إليهم من الأمور البَديعـه، والآثام الشّنيعه ؛ وقولُهم : إنهم أَنِفُوا من تهجُّمهم، وغارُوا من تَهَجُّمِهم ؛ وٱقتضت الحميّةُ رُكُوبَهم فى مقابلة ذلك، فقد تلمّحْنا هذه الصورةَ التى أقامُوها عُذْرا فى العُدْوان، وجعلُوها سبباً إلىٰ ما ٱرتكبوه من طُغْيان ؛ والجواب عن ذلك أنّ الغاراتِ من الطّرَفين[و]لم يحْصُل من المُهادَنة والموادَعة مايكُفّ يدَنا الممتدّه، ولا يُفَتّرِ هِمَمها المستعدّه ؛ وقد كان آباؤُكُم وأجدادُكم علىٰ ما علمتم مِن الكُفْر والشّقاق، وعدمِ المُصافاة للإسلام والوِفَاق ؛ ولم يزل مَلِكُ ماردِينَ ورعيّتُه متقّذين ما يصدر من الأذىٰ للبلاد والعباد منهــم ، متولّين كِبْرَ نُكرِهم ؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وحيث جعلتم هــذا ذَنْبا للحميّة الجاهليّه، وحاملاً علىٰ الانتصار الذى زعمتم أنّ هِمّتكم به مَلِيّه ؛ فقد كان هذا القصدُ الذى ٱدّعيتمُوه يتِمّ بالانتقام من أهــل تلك الأطراف التى أوجبَ ذلك فعلُها، والاقتصارِ علىٰ أخْذ الثار ممن ثار، ٱتباعا لقوله تعالىٰ:﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ لا أن تقصِدُوا الإسلام بالجموع الملفّقة علىٰ ٱختـلافِ الأدْيان ، وتطَـئُوا البِقاعَ الطاهرةَ بعَبَدة الصُّلْبان ؛ وتنتهِكُوا حرمــةَ البيت المقــدّس الذى هو ثانِى بيتِ الله الحَرَام ، وشــقيقُ مسجد رسول الله عليه الصلاةُ والسلام؛ وإِن ٱحتججتم بأنّ زمامَ تلك الغارة بيدِنا، وسبب تعــدّيهم من سُنّتنا ؛ فقد أوضحنا الجوابَ عن ذلك ، وأنّ عدم الصُّــلْح والموادَعة أوجب سلوكَ هذه المسالك .

وأما ما ٱدّعَوْه من سُلوكِ سَنَن المرسلين ، وٱقتفاءِ آثار المتقدّمين ، فى إنفاذ الرُّسُل أوّلا، فقد تلمحنا هذه الصُّوره، وفهِمْنا ماأورَدُوه من الآيات المسطُوره؛ والجواب

عن ذلك أنّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وصلُوا إلينا إلا وقد دنَتِ الخِيامُ من الخِيام، وناضلتِ السهامُ السِّهام، وشارفَ القومُ القومَ، ولم يبْقَ للّقاء إلا يومٌ أو بعضُ يوم، وأشْرعت الأسِنّةُ من الجانبَيْن، ورأىٰ كلُّ خَصْمَه رأْيَ العين، وما نحن ممن لاحَتْ له رَغْبةُ راغبٍ فتشاغَلَ عنها، ولا ممن يُسالِمَ فيقابِلَ ذلك بجفْوة النِّفار، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. كيف والكتاب بعُنْوانه! وأميرُ المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه يقول: «ما أضْمَرَ إنسانٌ شيْئا إلا ظَهَر فى صَفَحاتِ وَجْهِه وفَلَتاتِ لِسانِه». ولو كان حضور هٰؤلاء الرُّسُل والسُّيوفُ وادعةٌ فى أغمادها، والأسِنّة مستكِنّة فى أعوادها، والسِّهامُ غيرُ مفوّقه، والأعِنّة غير مُطْلَقه، لسمِعْنا خِطابَهم، وأعَدْنا جوابهم.

وأما ما أطلقُوا به لسانَ قلَمِهم، وأبدَوْه من غليظ كَلِمِهم، فى قولهم: فصبَرْنا علىٰ تَمادِيكم فى غَيّكم، وإخلادكم إلىٰ بَغْيِكم، فأىُّ صَبْرٍ ممن أرسل عِنانه إلىٰ المكافَحه، قبل إرسال رُسُل المصالحَه، وجاسَ خِلالَ الدِّيار، قبل مازَعَمه من الإعْذار والإنْذار؟ وإذا فكَّروا فى هـذه الأسباب، ونظروا ما صـدَر عنهم منْ خِطاب، علموا العُذْر فى تأخير الجواب، وما يتذَكَّرُ إلا أُولُوا الألباب.

وأمّا ما تبجّحُوا به ممـا اعتقَدُوه من نُصْره، وظنّوه من أنّ الله جعل لهم علىٰ حِزْبه الغـالبِ فى كلّ كرّةٍ الكَرّه، فلو تأمّلُوا ما ظنُّوه ربما لوجَدُوه هو الخُسْران المبيـن، ولو أنْعَمُوا النظرَ فى ذلك لمـا كانُوا به مفتخرين، ولَتحقّقُوا أنّ الذى اتّفق لهم كان غُرْمًا لا غُنْما، وتدبَّرُوا معنىٰ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. ولم يخْفَ عنهم ما نالتْه السيوفُ الإسلامية منهم، وقد رأَوْا عَزْم مَنْ حضر من عساكرنا التى لو كانتْ مجتمعةً عنـد اللّقـاء ماظهر خبَرٌ عنهـم، فإنا كُنّا فى مُفْتَتَح مُلْكنا، ومبتدإ أمرِنا، حلَلْنا بالشأم للنظر فى أمور البلاد والعِباد. فلما تحقّقْنا خبركم، وقفَوْنا أثرَكم،

بادرْنا نَهُدّ أديمَ الأرض سَـيْرا ، وأسرعنا لندفعَ عن المسلمين ضَرَرا وضَيْرا ، ونؤدّى من الجهاد السنّةَ والفَرْض ، ونعمَلَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوٰاتُ والأَرْض﴾ . فاتفق اللّقاءُ بمن حضَرمن عساكرنا المنصوره ، وُثُوقا بقوله تعالىٰ :﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَه ﴾ . وإلا فأكابرُكم يعلمُون وقائعَ الجُيُوش الإسلاميّـة التى كم وَطِئتْ مَوْطِئًا يَغِيظ الكُفّار فكُتِب لهـا عملٌ صالح ، وسارتْ فى سبيل الله ففَتَح عليها أبوابَ المَنَاجِح ، وتعدّدتْ أيامُ نُصْرتها التى لو دقّقتم الفكرَ فيها لا زالَت ماحصَـل عندكم من لَبْس ، ولَمّـا قَـدَرتم أن تُنْكِروها وفى تَعَبٍ مَنْ يُنْكِرُ ضَوْءَ الشمس ، وما زالَ الله نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النصير ، وإذا زاجعْتمُوهم قَصُّوا عليكم نبأَ الاستظهار ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبِير ، وما زالت تتّفِق الوقائع بين المُلُوك والحُرُوب ، وتجرِى المواقفُ التى هى بتقـدير الله فلا فَخْرَ فيهـا للغالب ولا عارَ علىٰ المغلوب ، وكم من ملِكٍ آستُظْهِر عليـه ثم نُصِر ، وعاوَدَه التأييدُ فجُبِر بعد ما كُسِر ، خصوصا ملوكَ هـذا الدّين ، فإنّ الله تعالىٰ تكفَّل لهم بحُسْن العُقْبىٰ فقال تعالىٰ : ﴿والعاقبةُ للمتّقين﴾ .

وأما إقامتُكُـم الحجةَ علينا ، ونِسْبتُهم التفريطَ إلينا ، فى كوننا لم نُسَيِّر إليهم رسولًا عند ماحَلُّوا بدمشق ، فنحن عنـد ماوصَلْنا إلىٰ الديار المصرية لم نَزِد علىٰ أن آعتدَّينا وجمَعْنا جُيوشَـنا من كل مكان ، وبذَلْنا فى الاستعدادِ غايةَ الجُهْـد والإمكان ، وأنفقْنا جزيلَ الأموال فى العساكر والجَحافل ، ووَثِقْنا بحُسْن الخلَف لقوله تعـالىٰ : ﴿ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِل ﴾ . ولَمّـا خرجنا من الديار المصرية ، بلَغَنا خروجُ الملك من البلاد ، لأمرٍ حال بينَه وبينَ المُراد ، فتوقَّفْنا عن المسير توقُّفَ من أغنىٰ رُعْبُه عن حَثّ الركاب ، وتثَبّتْنا تثبُّتَ الراسيات ﴿وَتَرىٰ الجِبَالَ تَحْسَـبُها جامِدَةً وهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب﴾ . وبعثنا طائفةً من العساكر

لمقاتلة من أقام بالبلاد فما لاحَ لنا منهم بارقٌ ولا ظَهر ، وتقدّمتْ فتخطّفَتْ من حلّه على التأخُّر الغَرر ، ووصلتْ إلى الفُرات فما وقفتْ للقوم على أثر .

وأما قولهم : إننا ألقيْنا فى قلوب العساكر والعَوامّ أنهم فيما بعدُ يتلقَّونا على حَلَب أو الفُرات ، وأنهم جمَعُوا العساكر ورحلُوا إلى الفُرات وإلى حلب مرتقبين ؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حينَ بلَغنا حركتُهم جزَمْنا ، وعلى لقائهم عزَمْنا ؛ وخرجْنا وخرج أمير المؤمنين الحاكمُ بأمر الله ابنُ عم سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم الواجبُ الطاعة على كُلِّ مُسْلِم ، المفتَرَضُ المبايعةِ والمتابعةِ على كل منازِع ومسَلِّم ، طائعين لله ولرسوله فى أداء مُفْتَرَض الجهاد ، باذلين فى القِيام بما أمَرَنا الله تعالى غايةَ الاجتهاد ؛ عالمين بأنه لا يتِمّ أمرُ دينٍ ولا دُنْيا إلا بمشايعته ، ومَنْ والاه فقد حَفِظَه الله تعالى وتولّاه ، ومَنْ عانده أو عاند مَنْ أقامه فقد أذلّه الله ؛ فحينَ وصَلْنا إلى البلاد الشامية تقدّمت عساكرُنا تملأ السَّهل والجبَل ، وتُبَلِّغُ بقوّة الله تعالى فى النصر الرَّجاءَ والأمَلَ ؛ ووصلتْ أوائلُها إلى أطراف حماةَ وتلك النواحى فلم يُقْدِم أحدٌ منهم عليها ، ولا جَسَر أن يمُدَّ حتّى ولا الطَّرْفَ إليها ، فلم نزل مقيمين حتّى بلَغَنا رجوعُ الملك إلى البلاد ، وإخلافُه موعِدَ اللقاء والله لا يُخلِف الميعاد ؛ فعُدْنا لاستعداد جُيُوشنا التى لم تزل تتدفّع فى طاعتنا اندفاعَ السيل ، عاملين بقوله تعالى ﴿ وأعِدُّوا لهُمْ ما استطعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيْل ﴾ .

وأمّا ماجعلُوه عُذْرا فى الإقامة بأطراف البلاد وعَدَم الإقْدام عليها ، وأنهم لو فعلُوا ذلك ودخلُوا بجُيُوشهم ربما أخربَ البلادَ مُرورُها ، وبإقامتهم فسدَتْ أمورُها ؛ فقد فُهِم هذا المقصود . ومتى أَلِفَت العبادُ والبلادُ منهم هذا الإشفاق ؟ ومتى اتّصفَتْ جيوشُهم بهذه الأخلاق ؟ وهذا آثارُهم موجودةٌ على مُلْك آل سَلْجُوق وما تعرّضُوا

لدارٍ ولا جار ، ولا عفّوا أثرًا من الآثار ؛ ولا حَصَل لمسلم منهم ضَرَر ، ولا أُوذِىَ فى وِرْد ولا صَدَر ؛ وكان أحدُهم يشترى قُوتَه بدرهمه وديناره ، ويأبىٰ أن تمتدَّ إلىٰ أحدٍ من المسلمين يدُ إضراره ؛ هذه سُنّةُ أهل الإسلام ، وفعلُ مَنْ يُريد المُلكَ الدوام .

وأما ما أرعَدُوا به وأبرَقوا ، وأرسلُوا به عِنَان قلمِهم وأطلَقوا ؛ وما أبدَوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلىٰ غير ذلك مما ذكره من التهويل ، فالله تعالىٰ يقول : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وأما قولهم : وإلا فدماءُ المسلمين مَطْلُوله ، فما كانَ أغناهم عن هذا الخِطاب ، وأولاهم بأنْ لا يصدُرَ إليهم عن ذلك جوَاب ؛ ومَنْ قصَدَ الصُّلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القولَ الذى عليه فيه من جهةِ الله تعالىٰ ومن جهةِ رسوله أىُّ جُنَاح ؟ وكيف يُضمِر هذه النيه ، ويتبجّحُ بهذه الطويّه ؟ ولم يخَف مواقِعَ زَلَلِ هذا القول وخَلَلِه ، والنبى صلّى الله عليه وسلم يقول : "نِيّةُ المَرْءِ أبلغُ من عَمَله" وبأىّ طريق تُهْدَر دماءُ المسلمين التى من تَعرّض إليها يكون اللهُ له فى الدنيا والآخرة مطالبًا وغريمًا ، ومؤاخذًا بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ؟ وإذا كان الأمرُ كذلك فالبُشرىٰ لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهِمَم المصروفة إلىٰ الاستعداد ، وجمع العساكر التى تكونُ لها الملائكةُ الكرامُ إن شاء الله تعالىٰ من الأنجاد ، والاستكثار من الجيوش الإسلاميةِ المتوفِّرة العَدَد ، المتكاثِرة المَدَد ، الموعُودة بالنصر الذى يحُفُّها فى الظَّعن والإقامه ، الواثقةِ [به](١) من قوله صلّى الله عليه وسلم : "لا تَزالُ طائفةٌ من أُمّتى ظاهِرِينَ

(١) أى بالنصر وزدنا الجار والمجرور لاقتضاء الكلام إياه .

علىٰ عَلُوِّهِمْ إلىٰ يوم القيامه" . المبلِّغة فى نَصر دين الله آمالا، المستعدّة لإجابة داعى الله إذا قال : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا ﴾ .

وأما رُسُلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووَفَدُوا علينا؛ وأكرمْنا وِفَادتهم، وعَزَّزْنا لأجل مُرْسِلهم من الإقبال مادّتهم، وسمِعْنا خِطابَهم ، وأعدْنا عليهم جوابَهم ؛ هــذا مع كوننا لم يخْفَ علينا انحطاطُ قَدْرِهم ، ولا ضَعْفُ أمرهم ؛ وأنهم مادُفِعوا لأفواه الخُطُوب، إلا لِمَـا ٱرتكبوه من ذُنُوب؛ وما كان ينبغى أن يُرسَلَ مثلُ هؤلاء لمثلنا من مثله ، ولا يُنتدَبَ لمثل هذا الأمر المهمّ إلا من يُجمَع علىٰ فَصل خطابه وفَضْله .

وأما ما ٱلتمسوه من الهَــدايا والتُّحَف، فلو قدّموا من هَدَاياهم حسَــنةً لعوّضناهم بأحسن منها، ولو أتحفُونا بتُحْفَة، لقابلناها بأجلّ عوضٍ عنها . وقد كان عمُّهم الملك أحمدُ راسَــلَ والدَنا الشهيد، وناجىٰ بالهَدَايا والتُّحَف من مكانٍ بعيــد، وتقرّب إلىٰ قَلْبه بحُسْن الخطاب، فأحسن له الجوَاب، وأتىٰ البُيوتَ من أبوابها بحُسْن الأدَب، وتمسَّك من الملاطَفَة بأقوىٰ سبَب .

والآنَ حيثُ ٱنتهتِ الأجوبة إلىٰ حَدّها ، وأدركتِ الأنَفةُ من مقابلة ذلك الخطاب غايةَ قَصْدها ، فنقول : إذا جنَح الملك للسِّــلْم جنَحْنا لهــا ، وإذا دخل فى المِلّة المحمدية ممتثلًا ما أمر الله تعــالىٰ به مجتنبا ما عنه نهى ، وآنتظَم فى سِلْك الإيمــان، وتمسك بمُوجَباته تمسُّك المتشرّف بدُخُوله فيه لا المنَّان ، وتجنّب التشبُّه بمن قال الله تعــالىٰ فى حقهم : ﴿ قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْــلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإيمــان﴾ . وطابق فعلُه قولَه ، ورفَضَ الكُفّارَ الذين لا يحِلُّ له أن يتّخِذَهم حَوْله ، وأرسَل إلينا رسولًا من جهتــه يرتّل آياتِ الصلح ترتِيلا ، ويَرُوقُ خطابُه وجوابُه حتّى يتلُو كلُّ أحد عنــد عوده : ﴿ يالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مع الرَّسُولِ سَبِيلا ﴾ .

صارتْ حجّتنا وحجّته مركبةً علىٰ مَنْ خالف ذلك ، وكلمتُنا وكلمتُه قامعةً أهلَ الشرك في سائر الممــالك ، ومظافرتُنا له تُكْسِب الكافرين هَوَانا ، والشاهــدُ لمصافاتنا مُفادُ قوله تعالىٰ : ﴿ واذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكُمْ إذْ كُنتُمْ أعْداءً فألّفَ بيْنَ قُلوبِكُمْ فأصْــبحْتُمْ بِنِعْمتِه إخْوانا ﴾ . ويَنتظِمُ إن شاء الله تعالىٰ شَملُ المصالح أحسَنَ آنتظام ، ويحصُلُ التمســك من الموادَعة والمظافَرة بعُروةٍ لا آنفِصال لهـا ولا آنفِصام ، وتستقِرُّ قواعدُ الصُّلح علىٰ ما يُرضِى اللهَ تعالىٰ ورسولَه عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحـالة الثانيـــة

(ما كان عليه رسمُ المكاتبةِ فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" إلىٰ أبى سعيد بَهَادِرخان بن خدابندا : آخرِ ملوك بنى هُولاكُو، ملك إيران)

قال فى "التعريف" : وهو كتاب يكتب فى قَطْع البغدادىّ الكامل، يبتدأ فيه بعــد البسملة وسطر من الخُطْبة الغراء[1] المكتتبة بالذهب المزَمّك ، بألقاب سلطاننا علىٰ عادة الطغراوات ، ثم تكمَّل الخطبة وتفتتح ببعْــديّة إلىٰ أن تُساق الألقــاب ، وهى : « الحضرةُ الشريفــةُ ، العالية ، السـلطانية ، الأعظميّة ، الشاهنشاهيّة ، الأوحدية ، الأخَوِيّة، القانية، الفلانية» من غير أن يخلط فيها « المَلَكِيَّة » لهَوانها عليهم وآنحطاطها لديهم ثم يدعىٰ له بالأدعيــة المعظّمة المفخّمة الملوكية: من إعزاز السلطان ونَصْر الأعوان ، وخُلُود الأيام ، ونَشْر الأعلام، وتأييــد الجُنود، وتكثير الوفود . وغير ذلك ممــا يجرى هذا المَجْرىٰ . ثم يقال ما فيه التلويحُ والتصريحُ بدوام الوِداد، وصفاء الاعتقاد، ووصْف الأشــواق ، وكَثْرة الأتْواق، وما هو من هــذه

---

(١) فى التعريف ص ٤٤ "بالطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يؤتى على المقاصد، ويختم بدعاء جليل، وتستعرض المراسيم[1] والخدم، ويوصف التطلع إليها، ويظهر التهافت عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطغراه [وعنوانه][2] بالذهب المزمك، وكذلك كل ما وقع فى أثنائه من آسم جليل، وكل ذى شأن نبيل : من آسم الله تعالى، أو لنبينا صلى الله عليه وسلم، أو لأحد من الأنبياء، أو الملائكة عليهم السلام، أو ذكر دين الإسلام، أو ذكر سلطاننا، أو السلطان المكتوب إليه، أو ما هو متعلق بهما . مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كل هذا يكتب بالذهب، وما سواه يكتب بالسواد .

فأما العنوان، فهو بهذه الألقاب إلى أن ينتهى إلى اللقب الخاص، ثم يدعى له بدعوة أو آثنتين، نحو : «أعز الله سلطانها، وأعلى شأنها» أو نحو ذلك . ثم يسمى آسم السلطان المكتوب إليه، ثم يقال «خان» كما كنا نكتب، فتقول : « بو سعيد بهادرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطمغات عليها ألقاب سلطاننا، تكون على الأوصال، يبدأ بالطمغة على اليمين فى أول وصل، ثم على اليسار فى ثانى وصل، ثم على هذا النمط إلى أن ينتهى فى الآخر إلى اليمين . ولا يطمغ على الطرة البيضاء . والكاتب يخلى لمواضع الطمغة مواضع الكتابة، تارة يمنة، وتارة يسرة .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" وبينه، فقال : والمكاتبة إليه فى عرض البغدادى الكامل، والطرة ثلاثة أوصال، والبسملة ذهب مزمك بألفات طوال بالمسطرة بخط الذهب، ثم الخطبة، وأولها « الحمد لله » والسطر الذى يلى البسملة الشريفة

---

(١) فى التعريف ص ٥٤ "اللواعج" .

(٢) الزيادة من التعريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بقيّة السطور التى من أوّل السطر الثالث إلى آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضعُ بيت العلامة الشريفة) طُرّةُ ذهب بالألقاب الشريفة ، ثم بعـد هذين السطرين الملاصقين للطُّرّة المذكورة بقيّةُ السطور بهامش جيّد فى يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكملة إلى آخر الورق ، لا يخلى فيهـا للطّمْغة مكان . وبعدَ الخطبة ما يناسب الابتداء إن كان، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهى : «الحضرة ، الشريفة ، العالية ، السلطانية ، الأعظَمِيّة ، العالمية ، العادلية ، الأكمليّة ، القاآنيّة ، الشاهنشاهية ، الوَلَديّة ، العزيزية ، المَلَكية ، الفلانية» . ثم الدعاء . وفى أثناء خطابه «الحضرة الشريفة» تارة ، وتارة « الحضرة العاليـة » والدعاء فى أوساطه نحو «زِيدتْ عظمتُه ، ودامت معْدَلتـه ، وأعلى الله مقامه ، وأعزّ الله شانه» . والخطبة جميعها بالذهب المُزَمَّك . وبعدها بالأسود خلا ذكر اللهِ تعالى أو رسـولِه صلّى الله عليه وسـلم ، أو ما أضيف إليهما ، أو ما يُعظَّم ذكره : كالحق والعدل وأمثالها ، أو كلّ لقب أو نعت ، أو كلمة مضافة إلى المكتوب عنـه أو المكتوبِ إليـه ، أو ضمـير فيهما ، فإنه بالذَّهَب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفى آخرها الدعاء له من غير توقُّف .

قال : وكان قد آستقر من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يميـن السطرين : الثانى والثالث ، وهو مما يلى بيت العلامة « المُشْتاق محمد» . ثم قال : ورأيت بخط القاضى المرحوم ناصر الدين بن النَّشائى أنّ ذلك نظـيرُ الكتاب الوارد منه فى رجب سـنة تسع وعشرين وسبعمائة . ثم قال : وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثة أمور زائدة [1] التنبيه عليها .

(١) بياض بالاصل ولعله لابد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفُه فى العُنْوان . فيكتب بعد ذكر الاسم «خان» . فيقال : «بُو سعيد بَهادِرْخان» .

ثانيها — أنه تستعمل الطُّمَغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لايكتب فى ألقابه «المَلَكية» . وذكر أنه لَمْ يكتب لأحد بهذه المكاتبة بعد السلطان أبى‌سعيد، خلا ماذكر القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أنه كتب نظير ذلك بعد أبى سعيد لطغاى تمرخان . قال : ولو كتب بالمُغْلية كتب فى القطع المذكور . أما الملطفات، فنى قَطْع الثلث .

وهذه نسخة مكاتبة كتب بها المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل‌الله عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلىٰ السلطان أبى سعيد بَهادِرخان المقدّم ذكره، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَلَنا بنِعْمته إخْوانا، وجَمَعنا علىٰ طاعته أصولًا لاتتفرّق أغصانا؛ نحمده علىٰ ماأولانا ، ونشكُرُه علىٰ ماوَلّانا ، ونرغَبُ إليه فى مزيد ألطافه التى شَمِلت أقصانا وأدْنانا، ونشهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وحده لاشريكَ له، شهادةً كالشمس لاتَدَع فى الأرض مكانا ، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى شيَّد بِنَا لشريعته أركانا ، وشدّ بعْضَنا ببعض لنكونَ كما شبَّهَنا به بنانا أو بنيانا ، صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لاتتَوانىٰ، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا، وسلّمَ تسليما كثيرا .

وبعد: فإن من أعظمِ المُبْهِجات لدَيْنا، المُنْهِجات لطريق السُّرور إلينا، المُلْهِجات بوصفِ أكرمِ وارد علينا، هو الكتابُ الشريفُ، بل السَّحابُ المُطِيفُ، بل البحرُ الذى يَقْذِفُ دُرَرا، ويقُصُّ عن السحاب أثرا، ويَرْقَع سَرَرا، ويُطْلِع قمرا، ويطوِّلُ أوضاحًا وغُررا، ويحدِّث عن العجائب خبَرا، بل ينشُر الروضَ حبَرا، ويهُبُّ الرياح

مَقَرا، ويُبْرق ذهبهُ المُوّهُ آصالًا وبُكَرا، الصادرُ عن الحضرة الشريفة العالية السلطانيه، الأعظمية، العالِميّة، العادلية، الشاهنشاهية، الأخَوِيّة، القانيّه، زادها الله شرفا، وأدام بها تُحَفا، وصاغ بها لكلّ سمع شَنْفا، وأيّدها بزائد مزيده حتّى تقول : حَسْبِي وكفىٰ، فإنه وصلَ صُحْبَةَ المجلس السامى الأمير، الكبير، المقرّب، المجتبىٰ، المرتضىٰ، المختار، شرف الدين، مجدِ الإسلام، زينِ الأنام، جمال المقرّبين، مرتضىٰ الملوك والسلاطين، الحاجّ أحمد الأشقر ؛ والشوقُ إليه شديد ، والتطلّع إليه كمثل العِيد، فقرّبناه إلينا نَجِيّا، وتلقّينا منه مَهْـدِيّا، وكأنّ السماء ألقتْ منه حُلِيّا، أو أقلّت كَوْكبًا دُرّيّا، أو ملّت من المَجَرّة دَرْبا، وعطَفت من مُهَنّـدات البُروق خُلُبا ؛ وقدّتْ من سَوَاد القلوب شَطْر كلّ سطر فيها، وأثارتْ مُقْلَةَ كلّ رَيْم قام بسَوَاد ناظِرِه يُفَدّيها، وسرّحْنا منه الحَدَق فى حَدَائق، ونَفَحْنا به لمقانب حقائق ؛ وآستطلَعْنا به شُموسَ الاعتقاد ، وآطّلَعْنا منـه علىٰ نُفُوس نفائس الوِدَاد ؛ وصادف مِنّا قلبا صادِيًا إلىٰ مايروقُ من أخباره، وشـوْقًا إلىٰ ما يَهُبُّ من نَسِيم دِيَاره ؛ وتطلّعْنا إلىٰ مَنْ يَرِد من رُسُـله الكِرام، ويَقُصّ علينا مالا يُستقْصَىٰ من مواقع التّمام، وعلِمْنا منه وممـا ذكره المقرّبُ الحـاجّ شرفُ الدين أحمدُ ماللحضرة الشريفة عليه من نعمةٍ يلتحف بمَلَابسها، ويقتطف من مَغَارِسها، وتُجْرِى فى السّـيْف رَوْنقا، وتُزَيِّن بالكواكب أُفُقا، وتَجُرّ علىٰ الكُثْبان من الشُّموس رِدَاءً مُخَلّقا . وأحضَرْنا الحـاجّ شرفَ الدين أحمدَ بين أيدينا الشريفه ، وشَمِلناه بحُسْن مُلاحظَتِنا التى زادتْ تشريفَه؛ وكان حُضُوره وركابُنا الشريف بِهيجَانِ الصيد المحمود ، ونحن نَلْهَج بذكره عند آنتهاز كل فُرْصة فى الصُّيود؛ وما حصلنا فيه علىٰ لَذّة ظَفَر إلا وتمنّينا أنْ يكونَ له فيها مشاركةُ شُهود، أو أن يكون حاضرا يرىٰ كيف يُسَهّل اللهُ لنا بلوغَ كلّ مقصود؛ وخرجَ معنا إلىٰ المَصايِد، وتفرّجَ علىٰ الصائد ؛ ورأىٰ ماحَفّ بموكبنا المنصور من ذوات الوَبَر

والجناح، وما سُخّر لنا من جياد الخيول من الرّياح؛ فشاهد ما أوتينا من المُلك السُّليمانى فى سُرْعة السير، واختلافَ ما جُمِع لنا من الإنس والوحش والطّير، واستغرقتْ أوقاتُنا الشريفةُ فى السؤال عن مِزاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرور المستديم، والتأييد الذى انقلب به أولياؤه بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْهم سُوءٌ واتّبعوا رضوانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عظيم، وتجدّدت المَسَرّات، بهذه البشائرِ المُسِرّات (١)، وأضفْنا هذه النعمةَ إلى ما نحمدُ اللهَ عليه مما أيّدَنا به من النصر والظّفر والتأييد، والنعم التى توالَتْ إلينا ونحن نرجُو المَزِيد، ونُضاعفُ الحمدَ والشكرَ لله على هذه المواهب التى أطافَتْ بنا بِطاقاتُها الثمينة، وأنارت فى آفاقنا أقمارُها المُبِينه، وشمِلتْ ملوكَ الإسلام نعمُها من كل جانب، وأشرقتْ شموسُها حتّى ملأتْ بأنوارها المَشارقَ والمَغارب .

وأما ما أتحفْتَ به من البلكات الشريفة فقد وصلتْ، وتُقُبّلتْ وقُبّلتْ، وأُكْرِمت لأن مُهْدِيَها كريم، وأُعْظِمت لأنها تُحْفَةٌ من عظيم؛ وأثنينا عليه بما طاب، وشكَرْ بحرُنا الزاخرُ جُودَ أخيه السّحاب .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضى تجهيزة من الملاكين والسوقات فقد رسمْنا بالانتهاء إليه، لأنه لا فرقَ بينَنا وبينَ أخينا فيما يخصُّ مراسمَنا جميعًا عليه؛ وقد جُهّز من الملاكين والطين المختوم ما أمكنَ الآن، ومنه ما كُنّا رسمْنا باستعماله من البلكات باسمه الشريف وتأخر؛ فلما فَرَغ جُهّز معه، وبعد هذا نُجهّز من يتوجّه إلى حضرته العالية ليجدّد عَهْدا، ويؤدّى إليه وُدّا، وما يتأخر إلا ريثما تنجلى السُّحب المتواليه، ويمكنُ التوصّل سالما إلى حضرته العاليه .

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أسرّه بمعنى أفرحه كما حكاه ابن سيده فى تفسير المثل «كل مجر بالخلاء مسر» انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هـذا : فهو أنّ الحاج أحمد أحضر إلينا ورقةً كريمه ، بل دُرّةً يتيمه ؛ بخط يد الحضرة الشريفة فأعْجِبْنا بهـا ، ووجدْناها فى غاية الْحُسْن التى لا يعدّ زَهْر الرياض لها مُشْبِها ؛ وما رأينا مثلَ ما كُتب فيها ، كأنّ السماء قد نظّمت فى سُطورها النجومَ الزُّهْر من دَرَارِيها ؛ فأكرِمْ بيدٍ كتبَتْ سطورا آعترف بها الرُّمْح للقلم ! وآستمدّ السَّحابُ من طُروسها الكَرَم ! وجرتْ بجامدِ ذهبٍ وسائلِ دم ، وتنافسَتْ علىٰ إثباتها صحائفُه وأقلامُه ودُوِيُّه والجو والبُروقُ والدِّيَم ، وطلعتْ منها تَباشيرُ النَّجاح ، وتحاسدَ عليهـا مِسْكُ الليل وكافُورُ الصَّباح ، وآتفقتْ علىٰ معنًى واحد وقد تنوّعت قسما ، وأشرقَتْ فتمنَّت السماءُ أن تكون لهـا صحيفةً والبرقُ قلَما ؛ فأرخصتْ قدرَ ياقوتٍ فى التقليب ، وحسَّنَتْ بمحاسنها هِجْرانَ حبيب ؛ لقد أُوتِيتْ من الخَطِّ غايةَ الكمال ، وبسطَتْ يدَ آبن هلال فيه عن فَمِ آبنِ هلال ؛ فأما الوَلِىُّ فإنّه من أوليائهـا ، وأنواؤه ممـا فاض من إنائهـا ؛ طالمَـا حَدّق إليه أبو علىٍّ فآختطف برقُه أباه مُقْله ، وفَطِن آبنُ أسد أنه لو أدركه أبُوه لنَسِى شِبْله ؛ فسبحانَ من صَرّف فى يمينه القلمَ بل الأقاليم ، ووهبه من أفضل كلِّ شىء ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾

وقد أُعِيد المقرّبُ شرفُ الدين أحمدُ ، وحَمّل من المشافهات الشريفة ما تُفَضّ علىٰ أخينا عقودُه ، وتُفاض برودُه ؛ والحضْرةُ الشريفةُ لاتقطع أخبارَها عنّـا التى تَسُرّ بأنبـائه ، وتَسيرُ بنُجوم سمائه ؛ لازالت مناقبُه مسمُوعه ، والقلوبُ علىٰ ما يجمع كلمةَ الإيمانِ مجموعه . إن شاء الله تعالىٰ .

تنبيه — أما الملَطّفات التى كانت تُكتَب إلىٰ هذا القان ، فقد ذكر فى "التثقيف" أنها فى قَطْع الثلث ، وكذا مايكْتَب به بالمُغْلّ ، فإنه يكون فى القَطْع المذكور أيضا .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات إلى مَنْ ملك تَوْرِيز وبَغدادَ بعد موتِ أبى سعيد)

قد تقدّم أنه ملك تَوْرِيزَ وبغدادَ بعد السلطان أبى سعيد (موسى خان) ثم محمدُ بن صدجى[1]، ثم الشيخُ حَسَن الكبير، ثم ٱبنه الشيخُ أُوَيس، ثم ٱبنُه حسن، ثم أخوه أحمد . ومنه ٱنتزعها تمرلنك . وذكر فى " التثقيف " أنّه ملك بعد أبى سعيد أرفاخان، ثم موسى خان، ثم طغاى تمرخان؛ بعد أنْ ذكر أنه لم يُكْتَب إلى أحدٍ بعد أبى سعيد بالمكاتبة المتقدّمة . ثم قال: ورأيت بخط القاضى ناصر الدِّين بن النَّشائى أن مكاتبة طغاى تمرخان كانت نظير مكاتبة أبى سعيد . ثم قال: وهذا يدل على أنه لم يكاتَبْ بذلك بعد أبى سعيد غير طغاى تمرخان المذكور .

قلت : وقد وقفت على مكاتبة عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » إلى موسى خان المقدّم ذكره من إنشاء المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله، فيما ذكره صاحب " الدُّرّ الملتقط " جواباً عن كتاب وردَ منه يذكُر فيه النُّصرةَ على عدوّه ؛ والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا . بدأ فيها بعد الافتتاح بآية من القرءان الكريم فى معنى النصر بقوله :

«إلى الحضرة الشريفة» إلى آخر الألقاب المناسبة «من أخيه ومحبه»؛ ثم خطبة بعد ذلك مفتتحة بـ « الحمد لله » . ثم « وبعد ، فقد ورد الكتاب الشريف » . والخطاب بـ « الحضرة الشريفة » . والاختتام بالدعاء . ولاخفاءَ فى أن هذه نحو المكاتبة إلى أبى سعيد؛ لكنى لم أقف على مقدار قَطْع الورق فيها ، ولا صورة الكتاب . وهذه نسختها :

(١) كذا فى الأصل هنا وتقدم فى ج ٤ ص ٤٢٤ (غبرجى) .

﴿وقالُوا الحَمْدُ لله الَّذى أذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لغَفُورٌ شَكُور﴾. ﴿ويومئذٍ يفرحُ المُؤمنُون بنَصْرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وهو العَزيزُ الرحيم﴾ .

إلى الحَضْرة الشريفة العاليــة ، السلطانيّــة ، الأعظميّة ، العـالميّة ، العادليّة ، الأوحديّة ، الشاهنشاهيّــة ، القانيّــة ، الأخوية ، الأخ العزيز ، الكبير ، المعظّم ، موسى خان ، أعزّ الله سلطانه ، وثبّت بسعادة مُلْكه أوطانَه . مِنْ أخيه ومحبّــه ، المخلِص فى حُبّه ، الصادقِ المودّةِ له فى بُعْده وقُرْبه .

الحمـدُ لله الذى أيّد الإسلامَ بنصره ، وضيّق على أعدائه مَجَال حَصْره ، وجدّد بتأييده فى زمانه ما تحلّى به أعطافُ عَصْره .. نحمَـدُه عن الدّين الحنيف على نُصْرةٍ أضاء لهـا الوُجودُ بأسْره ، وأوقعتْ كلَّ خارجٍ[1] على الدّين والمُلْك فى قبضة أسْره ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُخْلِص قائلُها غايةَ اجتهاده ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى جاهدَ فى الله حقّ جِهاده ، صلَّى الله عليــه وعلى آله وصَحْبه صلاةً تستقِلُّ ببشائرها أعباءُ عِباده ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فقد ورد الكتابُ الشريفُ من الحضرة الشريفة العاليــة ، السلطانيّة ، القانيّــة ، أخينا وولدنا العزيز ، المؤيَّد بالنصر على الأعداء والفتحِ الوَجيز ، لا زالتْ دولتُه الشريفة دائمةَ الإقبـال ، متزيّدةً تزيُّد الهـلال ، على يد المجلسَيْن الساميَيْن ، الأميرين ، الكبيرَيْن ، عضُدَى الملوك والسلاطين : "دلنجى ، وكراى" أدام الله تعالى عزّتهما — بالبشائر بنُصْرة الإسلام ، وتأييد أخينا على عدُوّه الخارجِ[1] على الدّين والمُلْك . وحَمِدنا اللهَ تعالى على هذه النُّصره ، وتضاعفتْ بها المَسَرّه ، ونحن كُنّا خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلاميّة ، لنَتَساعدَ كلُّنا على نُصْرة الإسلام . وما تأخّرْنا

(١) فى الأصل "خارجى" .

إلا لمّا جاءتْ إلينا ماري(؟) الأخبار وما كنا تحققناها ثم تحققنا بحمد الله تعالى بهذه الأخبار، وضربْنا لها البشائر في سائر الأقطار، وعرّفنا بها عنايةَ الله تعالى بأخذ المسلمين بنَواصي الكُفّار، وقيام الجناب الكريم العالي الأميرِ الكبير النُّوَيْن العادل المعظّم على باشا، أعزّ الله تعالى نُصرتَه في إعادة الحقِّ إلى أهله، وصَبْره على ما سبقَ به كلَّ أحدٍ إلى جميلِ فعْله، واجتهادِه في هذا الأمر الاجتهادَ الذي ما كان يُطْلَب إلا من مثله؛ وكذلك الجنابات العاليةُ الأمراءُ النُّوَيْنات الأكابر، زيدتْ سعادتُهم! فإنّهم سارعُوا إلى ما كان يجب ويتعين عليهم في خدْمة سلطانه، ومن هو أحقّ بهم وأولى من عظيم عظم قانهم؛ وما من الأمير النُّوَيْن العادلِ على باشا وبقيةِ الأمراءِ الأكابرِ إلا مَنْ قام بما كان عليه من العُهُود، وبذل اجتهادَه حتّى حصَل بحمد الله المقصُود؛ وما قصَّروا في قيامهم حتّى تسلم المستحقُّ حقَّه وميراثَه وما هو أحقُّ به وأوْلى. وهم - جزاهم الله الخيرَ - قد عملُوا ما يجب عليهم، وبقِيَ ما يجب على الحضرة الشريفة من الإحسان إليهم.

وأما قولُ الحضرة الشريفة: إنه مثلُ ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعزّ من الولد، وكلُّ أحدٍ منّا لأخيه في الاتّفاق على المَصالح الإسلامية عضُد ويدٌ، وذُخْر وسَنَد؛ وقد سبَق من تألُّف القلوب ما اشتدّت به الآنَ أواخيه، وأضحى له منّا شفقةُ الوالدِ على الوَلَد وتوقيرُ الأخِ لأخيه؛ وقد أعدنا رسُلَه الكرام وحمّلناهم مشافَهةً ووصيةً للحضرة الشريفة في أمورٍ تقتضيها مصْلحتُه؛ فإنه عندنا أعزّ من الوَلَد. وما القَصْد إلّا الاتفاقُ على مصالح الإسلام، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوِئام]، فيُديم المواصلةَ بكُتبُه وأخباره السارّه، والله تعالى يديم مَسارّه ويضاعف مَبارّه، إن شاء الله تعالى.

ولم أقِفْ لهذه المكاتبة على قَطْع ورق، والظاهر أنها في قَطْع النصف لما سيأتي أنه الذي عليه الحالُ في مكاتبة صاحب بغداد وتوريز، فيما بعدُ إن شاء الله تعالى.

وآعلم أن صاحب "التثقيف" قد ذكر أن المكاتبة إلى الشيخ أُوَيْس : صاحب بغدادَ وتَوْريز، وآبنه حسَنٍ بعده فى ورَق قطع النصف . ورسمها : «أعزّ الله تعالى أنصارَ المَقام الشريف العالى، الكبيرىّ ، السلطانىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المجاهِدىّ ، المؤيدىّ ، المرابطىّ ، المنصورىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ» بلقب السلطنة «الفلانى» بلقبه الخاص . والدعاء بمـا يناسبه « أصدرناها إلى المقام الشريف تُهْـدى وتبدى » و«القصد من المقام الشريف» . ويختم بدعاء يناسب، مثل: «أعزّ الله أنصاره» ونحو ذلك . ومخاطبته بـ«المقام الشريف» . والعنوان «المقام الشريف» إلى آخر الألقاب المذكورة. والدعاء «أعز الله تعالى أنصاره». وتعريفه "فلان بهادرخان" مثل أن يقال : « الشيخ حَسَن بَهادرخان » . والعلامة إليه « أخوه » . قال فى "التثقيف": وكان الشيخ أُوَيْس المذكور عند آستقراره بتَوْريز وبغدادَ يكتب له «المقام العالى» ، ثم كُتِب له بعد ذلك «المقام الشريف» .

وهذه نسخةُ مكاتبـة كُتِب بها إلى الشيخ أُوَيْس المقدّم ذكره، جواباً عن كتابٍ ورد منه، من إنشـاء القاضى تقىّ الدين آبن ناظر الجيش ، حينَ كان يُكْتَب إليه « المقام العالى » لآبتداء أمره، على ما تقدّم، وهى :

أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام العالى، إلى آخر ألقابه، ولا زال المُلْك زاهرًا زاهيًا بشَرَف سلطانه، والفَلَكُ يجْرِى بإعزاز قَدْره، وإحراز نَصْره، مدى زمانه، والفتك منه بالأعداءِ يسُرّ الأولياءَ من أهل مَوَدّته وإخوانه، وسِلْك جواهرِ عِقْـد وَلائه منظّما من الإخلاص بجُمَانه، ولا بَرِح مؤيّدا بأنصار الإسلام وأعوانه، مُجَدِّدا سعدُه الذى يبلّغه جميلَ أوْطاره فى جميع أوْطانه .

أصدرناها إلى المقام العالى تصِفُ ما لدينا من المحبّة التى ظهر دليلُها بواضح بُرْهانه، وتَبُثُّ إلينا أنباء مكنون المودّة التى تَغْنَى عن صريح القول وتِبْيانه ، وتُبْـدِى لعلمه

الكريم أن كتابه الكريم ورد على يد فلان رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه؛ وعلمنا ماتضمنه من محبته وموالاته، ومخالصته ومصافاته؛ وما آشتمل عليه ضميره من صحيح الوداد، وصريح الاتحاد، وجميل الاعتقاد، وجزيل المخالصة التي يتم بها الأمل والمراد . وأن المقام العالي جهز رسوله المشار إليه ليوضح إلينا ماهو عليه من ذلك، وينهي إلينا أسباب الائتلاف التي عمرت أرجاء الجهتين هنا وهنالك ؛ ويبدي ماتحمله عنه من المشافهات، وتفهمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطنا علماً بذلك ووصل رسوله المذكور، وتمثل بمواقف سلطاننا المنصور؛ وشمله إقبالنا الشريف، وإنعامنا المطيف؛ وسمعنا جميع كلامه، وما تحمله من المشافهة الكريمة من عالي مقامه؛ وشكرنا محبة المقام العالي ووده الجميل ، وأثنينا على موالاته التي لا تميد عنها ولا تميل، وآبتهجنا بسلامة مقامه الجليل . وقد أعدنا فلانا رسوله المذكور بهذا الجواب الشريف، إلى المقام العالي أعز الله أنصاره، فيتحف بمكاتباته ومهماته ، والله تعالى يمده بالتأييد في حركاته وسكناته ، ويعز نصره ويزيد في حياته .



أما المنفرد بتوريز خاصة، فقد ذكر في " التثقيف " أن المكاتبة إلى الأشرف (آبن علاء الدين تمرتاش) الذي كان قد وثب على تبريز خاصة فملكها، في قطع الثلث بقلم التوقيعات «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي الأميري الكبيري» وبقية الألقاب والنعوت، ومنها النوينى . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي وتوضح» والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الأشرف بن تمرتاش » .

ثم ذكر أن أخي جق الذي وثب عليه وقتله وآستولى على تبريز بعده آستقرت مكاتبته كذلك، وأنه كان يكتب في تعريفه «أخي» لا غير . ثم قال: وقد ماتا وبطل ذلك.

(أبو بكر بن خَوَاجا على شاه) وزير صاحب تِبْرِيزَ «الأسمُ» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخواجا المرحوم على شاه . قال فى "التثقيف" : ولم أعلَمْ وُزِّر فى زَمَن مَنْ من المتولِّين

(عُمَر بك) أحد أمراء الأشرف بن تمرتاش صاحب تِبْرِيز فى قَطْع الثلث ، الدعاء[1] و « العالى » والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى "التثقيف" : وهذا ممن بطل حكمه بزوال مخدُومه .

الجملة الثالثة

(فى رسم المكاتبة إلى مَن انطوتْ عليه مملكةُ إيران، ممن جَرَت عادتُه بالمكاتبة عن الأبواب السلطانية، فى أيام السلطان أبى سعيد فمَنْ بعده، وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاوّل

(كُفَّال المملكة بحضرة القان ، وهم على ضربين)

الضرب الاوّل

(كُفَّال المملكة بالحَضْرة فى زمن القانات العِظام كأبى سعيد ومَنْ قبله من ملوكهم حينَ كانتِ المملكة على أتم الأُبَّهة وأعلى الترتيب)

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنّ القائمَ بتدبير العسكر لهذه الدولة حين كانتْ قائمةً على نمط القانِيَّة المتقدّم إلى آخر زمنِ أبى سعيد أربعةُ أمراءَ، يعبَّر عنهم بأمراء الألُوس، ويعبَّر عن أكبرهم بِبكلارى بك بمعنى أمير الأمراء . وربما أُطلِق عليه أمير الألُوس أيضا. والقائمُ بتدبير الأمور العامَّة هو الوزير .

---

(١) يظهر قياسا على ماقبله أنه سقط هنا من قلم الناسخ شىء نحو والمكاتبة ضاعف الله الخ. ثم الدعاء والعالى الخ .

فأما الأمراءُ المذكورون ، فقد كان كلٌّ من الأمراء الأربعة والوزير يكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية. وقد ذكر فى "التعريف" أن المكاتبة إلى بكلارى بك فى قَطْع النصف : « أعزّ الله تعالى نَصْرَ المقر الكريم » . وإلى الثلاثة الذين دُونَه فى قطع الثلث : « أدامَ الله تعالى نصر الجناب الكريم » . وأنَّهُ يقال لكلٍّ من الأربعة «النُّوينِىّ» . ثم قال : ومثلُ هذا مكاتبة أرتنا بالرُّوم، وأمير التُّومان بديار بَكْر : من سُوناى وبنيه وكذلك سائرُ الامراء النُّوينات : وهم أمراءُ التَّوامين .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن المكاتبة إلى الشيخ حسن الكبير أمير الألُوس كانت على ما استقر عليه الحال إلى حين وفاته ببغدادَ فى قَطْع الثُّلث بقلم التوقيعات: «أعزّ الله تعالى أنصارَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ، المؤيّدىّ ، الزّعيمىّ، العوْنىّ، الغياثىّ، المُثاغرىّ، المُرابطىّ، الممهّدىّ ، المشيّدىَ، الظّهيرىّ، النُّوينىّ، الفلانىّ : عونِ الإسلام والمسلمين، سيِّدِ الأمراء فى العالمين، ناصرِ الغُزاة والمجاهــدين ، زعيمِ جُيوش الموحِّدين، ممهِّد الدُّوَل، عمادِ الملة ، عَوْنِ الأمه ، كافى الدولة القانيّه ، كافِلِ المملكة الشّرقيه ، آمرِ التَّوامين ، أمير الألُوس، ظهيرِ الملوك والسلاطين، عضُدِ أمير المؤمنين» . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدَرْناها إلى الجناب الكريم » و« تبدى » و « القَصْد من الجناب الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه «الشّيخ حسن ألُوس بك» .

قال فى "التثقيف" : ولما تُوفِّىَ الشيخُ حسنٌ المذكور إلى رحمة الله تعالى لم يَقُمْ غيره مكانَهُ فيما أظن، ولا كُوتِبَ أحدٌ بعده بهــذه المكاتبــة . قال : والنُّوينىّ فى ألقاب هؤلاء بدل «الكافِلىّ» فى ألقاب النُّوَّاب، يعنى بالمملكة المصريّة والشاميّة. ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمَل دائمًا لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعمَل الكافلىّ أصلا.

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو «الكافِلىّ» فى الألقاب التى أوردها فى المكاتبة إلى الشيخ حَسَن الكبير .

وأما الوزير بهــذه المملكة فقد ذكر فى "التعريف" أن رسمَ المكاتَبة إليه فى قطع الثلث «ضـاعفَ اللهُ تعـالى نِعـمةَ المجلس العالى الأميرىّ الوزيرىّ» على عادة المكاتبات إلى الوزراء بألقـاب الوِزَارة . قال : فإن لم تكُنْ له إمْرة ، فيقال له «الوَزيرىّ» ولا يُقال له «الصاحِبىّ» لهَوَانها لديْهم . ولم يتعرّض فى "التثقيف" إلى المكاتبـة إلى وزير هــذه المملكةِ ، ولا إلى الأُمراءِ الثلاثة البـاقين من أُمراء الأُلُوس، بل عَدَل عن ذلك إلى المكاتبــة إلى الوزير ببلاد أزبَك . وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء اللهُ تعالى .

قلت : وقد مُحِيتْ رسومُ تلك المملكة، وعفَتْ آثارها بزَوَال ترتيبِ المملكة بموتِ السلطان أبى سعيد: آخر ملوك بنى جنكزخان بهذه المملكة. وإنما ذكرْنا ذلك حفظًا لما كان الأمرُ عليه: لاحتمال طُرُوّ مثل ذلك فيما بعد، فيُنْسَج ما يأتى على مِنْوال مامضى، ويُجْرىٰ فى المســتقبل على مِنْهـاج المـاضى ؛ فالأمور ترتفِـعُ ثم تنخفِض ، وربمـا انخفَضَتْ ثم ارتفعت . والله تعالى يقول : ﴿وتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاس﴾ .

الضرب الثـانى

(كُفّالُ المملكة بالحضرة بعد موت أبى سعيد)

قد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً : منهم محمدُ الكازَرُونىُّ وزكَرِيّا وزيرَا الشيخ أُوَيْس . وقد ذكر أنّ رسم المكاتبة إلى كلٍّ منهما فى قَطْع العـادة « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، الأوحَدىّ، المقدّمىّ، المنتخَبىّ، الفلانىّ ، مجدِ الإسلام ، بَهاءِ الأنام، شرفِ الرؤساء، أوحدِالأعيان، صَفْوة الملوك

والسـلاطين» . ثم الدعاء . والعلامة «الأسمُ الشريف» وتعريفُـه «فلان وزير الشيخ أُوَيْس بَهادِرخان» .

ومنهم ـ الطَّواشى مَرْجان، نائبُ القان أُوَيْس ببغداد، ولقبه أمينُ الدين بالِس. ورسم المكاتبة إليه «والده» و«السامىّ» بالياء . وتعريفه «خَوَاجا مَرْجان» .

ومنهم ـ محمدقَلْتان، نائب الشيخ أُوَيْس أيضا . وذكر أنّ رسمَ المكاتبة إليه مثل المكاتبـة إلىٰ مَرْجان . والعلامة «الأسمُ الشريف» . وتعريفه : «قَلْتان نائب الشيخ أُوَيْس» .

قلت : فإن آتفق أنْ أُقِيم لصاحب بغدادَ: كأحمد بن أُوَيْس ومن فى معناه مثلُ هؤلاء ، كانت المكاتبـةُ إلىٰ كلٍّ منهم نظيرَ مثله من المذكورين بحسَب مايقتضيه الحـالُ .

الصـــــنف الثـانى

(ممّن جرَتِ العادةُ بمكاتبته بمملكة إيرانَ عن الأبواب السلطانية ، صِغَارُ الملوك المنفردين ببعض البُلْدان ، والحُكّامُ بها ممن هو بمَمْلكة إيران)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنّ مملكة إيرانَ تشتمِلُ علىٰ عِدّة من الأقاليم داخلةٍ فى حدودها، منتظمةٍ فى سِلْكها . وقد ذكر فى "التعريف" جملةً من المكاتبات عن الأبواب السُّلْطانية إلىٰ بعض هؤلاء الملوك . وخالفه فى "التثقيف" فى بعض المواضع وزاد عليـه عِدّةَ مكاتبـات . وها أنا أذكر ما ذكراه من ذلك ، وأزِيد ما آتّفق زيادتُه مميِّزا لكلّ إقليم من أقاليم هـذه المملكة بمَنْ فيه من المُلُوك والحُكّام ومَنْ جرىٰ مجراهم :

فمّن جرت العادةُ بمكاتبته من الملوك والحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة، ممـا بين دِجْلةَ والفُرات من ديار بكر وربيعةَ ومُضَر وغيرها على ماتقدّم ذكره فى المسالك والممـالك فى المقالة الثالثة

صاحبُ ماردِينَ — وقد تقدّم فى المَسالك والمَمالك أنها مدينةٌ ذاتُ قلْعة حَصِينة بديار بكْر من هذه الجزيرة ، وأنها بيد بَقَايَا بنى أُرْتُق[1] المستقِلّين بمُلْكها من قديم الزمان وإلى الآنَ .

ورسمُ المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «اعزّ الله تعالى نُصْرة المقرّ الكريم العالى، الكبيرى، المَلَكى الفلانى، الفلانى» يعنى باللّقب الملوكى، واللّقب المضاف إلى الدين، مثل «الصّالحى الشّمْسى» وما أشبه ذلك . ثم الدعاء . قال فى "التثقيف" : ثم يقال : «أصدرناها إلى المَقرّ الكريم» ، «وتُبْدى لعلمه الكريم» . «فيتقدّم أمره الكريم» . ويُختَم بمـا صورته «فيُحيط علمُه الكريم بذلك» . والدعاء . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «صاحب مارِدِينَ» . وورقُه قَطْع العادة . ثم قال : ويتعيّن أن تكون ألقابُه إلى آخر اللقب الملوكى سَطْرَيْن سواءً ، وأن يكون لقبُـه العادى كالفَخْرى مثلا أوّل السطر الثالث .

وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثةَ صُـدُور لمكاتبة تتعلّق بصاحبها فى زمانه ، وهو «الصالح شمس الدّين صالح» .

أحدها — ولا زالَ مَلِكا تاجُه المَدائح، ومِنهاجُه المَنائح، وطريقتُه إذا وُصِفتْ قيل : هذه طريقةُ الملِك الصالح. أصدرْناها إليه وشكْرُها تَسُوقه إليه حُداةُ الركائب، وتَشوقُ منـه إلى لقـاء الحَبائب ، وتُثْنى على مكارمه التى كلّما أَقْلعتْ منهـا سحائبُ أعقبَتْ بسحائب، وتُوضّح للعلم الكريم .

[1] هو بهذا الضبط كما فى ص ٨٦ ج ١ من تاريخ ابن خلكان .

الثانى — ولا زالتْ شمسُه فى قُبّة فَلَكها ، وسَمــاءُ ممالِكه مملوءةً حَرَسًا شــديدًا وشُهُبا بمَلِكها ؛ ونِعَــمُه تتعب البِحارَ إذا وقفت فى طــريقها ، والغمائمَ إذا جازت فى مَسْلَكها ، أصدرناها إليه والسلامُ متنوّع علىٰ كَرَمه، متضوّع بأطيبَ من أنفاس المِسْك فى نِعَمه، متسرّع إليه تَسرُّع مواهِبه إلى وُفُود حَرَمه. وتوضّح للعلم الكريم .

الثالث — ولا زالتِ العُفاة تتحف بنَعْمائه ،وتنتجِع مَسَاقِطَ أنْوائه ،وتستضىء منه بأشرق شمسٍ طلعت من المُلْك فى سَمَائه ؛ أصدرناها وثناؤها يسابِق نَجْلا ، ومدائحها تُجيد مَترويًا ومُرْتجِلا ؛ وشُكْرها لو رُصّع مع الجواهر لأقام عُذْرَ الياقوت إذا آكتسىٰ خَدُّه الحمرةَ تَخجلا ، وتوضّح للعِلْم الكريم .

قلت : وعلىٰ نمط هــذه الصدور يجرى الكاتبُ فيما يكْتُبه إلىٰ صاحبها مناسـبا لحاله ولقَبِه بحَسَبِ مايقتضيه الحال من المُناسَبات .

وهذه نسخةُ كتاب ، كُتِب به إلىٰ الملك "الصالح شرف الدّين محمود بن الصالح صالح"[1] ، جواباً عمّا ورد به كتابهُ : من وفاةِ والده المنصور أحمد . نقلتها من مجموع بخطّ القاضى تقىّ الدين آبن ناظر الجيش وهو :

أعزّ الله تعالىٰ نُصرةَ المَقرّ الكريم، الى آخر ألقابه — ولا زال المُلْكُ باقيا فى بيته الكريم، والفَلَكُ جاريا بإظهار شَرَفِه العَميم ؛ وأعظَم له الأجْرَ فى أكرمِ مَلِك آنتقل إلىٰ جنّات النعيم ، وهنّاه بما أوْرثه من ذلك المحلّ الأسنىٰ الذى هو الأَوْلىٰ فيه بالتقْديم ؛ وضاعفَ لسلطانه الصالح عُلُوّ جَدّه، بما مَنَحه من مُلْكه المورُوث عن المنصور أبيه والصالح جَدّه، وبما خَصّه من إقبالنا الشريف وإحساننا المستديم . أصدرناها مُعْرِبةً عن الوُدّ الثابت الصَّميم، مهنّئة له بقيــامه بأُمور مملكته التى تجمّلت بمحمود صفاته

(١) هو على مايؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح فنسبه إلى جدّه .

ومَنْ سلَفَ من أسلافه فى الحديث والقديم ، مُبدِيَةً لعلمه الكريم أنّ مكاتبته الكريمه ، ومُخاطَبَته التى فَضَحتْ من الدُّرّ نَظِيمه ، وردَتْ علىٰ أبوابنــا الشريفة علىٰ يدِ فلان فأقبلْنا عليها ، وأقْبَلْنا وجهَ الكرامة إليها ، وعلمنا ماتضمَّنته من آستمْساك المقرّ الكريم بأسباب الوِدَاد ، وآقتفائه فى ذلك سبيلَ الآباءِ والأجْداد ، وماشَرحه فى معنىٰ ماقَدّره الله تعالىٰ من وَفاة والده طابَ ثَراه ، مستمِرّا علىٰ الإخلاص فى الطاعة الّذى لم يكن شانَهُ شينٌ ولا آعتراه ، وأنه مضىٰ ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ إلىٰ الجنة وقد خَلَّف من خَلْفه ، وآرتضىٰ بمــا نال من الرِّضا عما قدّمه من العمل الصالح وأسْلَفه ، وماأبداه : من أنه إن آقتضت مراسِمُنا الشريفة وآراؤُنا العاليةُ أن يقومَ مقامه ، ويرْعىٰ فى حقوقه ومَصَــالح تلك المملكة ذِمَامه ، فتَرْسُمُ بإجرائه علىٰ السُّنَّة المعتاده ، من إحسانِ بيتنا الشريف الذى بَدَأ به وأعاده ، وإلا فتَبْرُزُ الأوامر الشريفة بمَنْ يَسُــدّ آختلالهــا ، ويُسَدّد أحوالها ، ويشَيِّد مَبانِيَها ويُصْلِــح أعمالها ؛ ليقصِدَ المَقامَ الشريفَ بأبوابنا الشريفة سالكًا سبيلَ الطاعة المُبِين ، منتظمًا فى سِلْك أوليائنا المُقَرّبين ؛ إلىٰ غيرذلك ممــا حَمَّله لأستاد داره من مشافهته ، وجميلِ مقاصده ووافر محبّته وطاعته ؛ وقد أحطْنا علمــا بذلك وسمعنا المشافَهةَ المذكوره ، وشكرنا محبّتَه المأثوره ، وإخلاصــه فى الخِــدْمة الشريفه ، وجميــلَ الموالاة التى تمنَحُه تكريمَه وتشريفَه ، وآستمْساكَه بسُنَّة آبائه الكِرام ، وآجتهادَه فى المُنَاصحة والطاعة التى لاتُسَامىٰ من مثله ولا تُسَام ؛ ونحن نُعرّف المقرَّ الكريم أنّ محلّه ومحلّ بيته الكريم لم يَزَلْ لدينا رفيعًا مِقدارُه ، عاليًا مَنَــاره ؛ وأن مكانَتَــه من خواطرنا الشريفةِ متمكّنه ، ومنزِلتَــه قد صحّت أحاديثُها المعَنْعَنه ؛ وهو الأحقُّ بمحلّ مُلْكه ، والأولىٰ بأن يكون من نظام عُقودِ مُلُوكه واسطةَ سِلْكه ؛ وقد آقتضت آراؤُنا العاليــة أن يقومَ مَقام والده المرحوم ، ويحُلّ محلّ هذه السلطنة ليعْلوَ قدْرُه باقبــالنا الشريف علىٰ زُهْرِ النُّجوم ؛ وليجلِسْ بمكانه ، وليَبْسُط

المَعْدلة لتكونَ حليــةَ زمانه، وليستنصرْ علىٰ أعدائنا وأعدائه بأنصارالمَلك وأعوانه؛ وليستقِرَّ على ماهو عليه من المحافَظة على الوِداد ، وليستمسِكْ بعُرىٰ الإخلاص المبَرّا من شوائب الانتقاد ، وليقْتَفِ فى ذلك سبيلَ سَلَفه الكريم ، وليُواصِــلْ بمكاتباته وأخبارِه علىٰ سَنَنِهم القَويم، وقد أعدنا إستاد داره بهذا الجواب الشريف إليه .

وٱعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنّ ممن يكتَبُ إليــه عن الأبواب السلطانية من أتباع صاحب مارِدِينَ نائبُه، وذكر أنه كان ٱسمه فى زمنه «بَهَادِر» . وأن رسم المكاتبــة إليه الأسمُ والسامى بغير ياء ؛ وكذلك نائبُ الصالحيّــة من عَمَل مارِدِينَ ؛ وأنّ رسمَ المكاتبة إليه الأسمُ و «مجلس الأمير» . فليَجْرِ الكاتب علىٰ سَنَن ذلك إن ٱحتيج إلىٰ مكاتبتهما .

صاحب حِصْن كَيْفَا — وهى مدينةٌ من دِيار بكرمن بِلاد الجَزِيرة، بين دِجْلةَ والفُرات . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن صاحبها من بقَايا الملوك الأيوبيّة، وممن تَنْظُر إليه ملوكُ مصرَ بعين الإجلال: لمكان وَلَائهم القديم لهم، وٱستمرار الوداد الآنَ بينهم .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «أدام اللهُ نعمةَ المجلسِ العــالى، المَلَكى ، الفلانى » باللّقب الملوكى « العالِمِىّ ، العادِلِىّ ، المجاهِــدىّ ، المؤيَّدىّ ، المرابِطىّ ، المُثَاغِرىّ ، الأوحدىّ ، الأَصِيلىّ، الفلانى» باللقب المتعارَف «عِزّ الإسلام والمسلمين، بقيّةِ الملوك والسلاطين، نُصْرة الغُزاة والمجاهِدين، زَعيم جُيوش الموحِّدين ، شَرَف الدُّوَل ، ذُخْرِ الممــالك ، خليلِ أميرِ المؤمنين» . ورُبَّمــا قيل : «عَضُد أميرِ المؤمنين» إذا صُغِّر .

وذكر فى "التثقيف" مايخالِفُ فى بعض ذلك، فقــال : إنّ مكاتبته : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابِطىّ،

المثاغرى"، الأوحدى"، الفلانى" باللقب الملوكى واللقب المتعارف . «عزّ الإسلام والمسلمين، زعيم جيوش الموحّدين، ذُخر الملة، سليل الملوك والسلاطين، عضُد أمير المؤمنين» . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى . "والعلامة" أخوه» وتعريفه «صاحب حِصْن كَيْفا» . قال : والكتابة إليه فى قَطْع العادة .

وقد ذكر فى "التعريف" صُدورا لمكاتبته .

صدر : وٱستعادَ به من الدّهر من عُهود سلفه ماتسلّف، وحاز له من مَوَارِيث المُلك أكثر مما خَلّى له أوّلُه وماخَلّف، وحطّ للرحال فى حِصْن كَيْفا به على مَلِكٍ : أما المستجيرُ به فيتحصّن وأما فضلُه فلا يُكيّف، وأمانــ السحابَ الذى كَلَّ عن مجاراته ويجْرِى هو ولا يتكلف . أُصــدِرتْ هذه المكاتبةُ إليــه ونوعُها يَصُوب، ولألاؤها تَشُقّ به الظلماءُ الجُيوب، وثناؤُها على حُسْن بَلائه فى طاعة ربّه يقول له : صَبْرا صبْرا كما تعوّدتم يا آلَ أيُّوب .

صدر آخر : وشَدّ به بَهِيّة البيت، وحَيّا طَلَلَه البـالى وأحْيـا رسْمَه المَيْت، وذَكّر به من زمان سَلَفه القديم مالا يُعْرَف فيه هَيْت، وأبقىٰ منه مِلكا من بنى أيُّوبَ لا يَثْنِى وعْدَه اللَّىّ ولا يقـال فيه لَيْت، ونوّر الملك بغُرّته لا بمـا قَرَع السـمْعَ عن الشّـمع ووَرَدَ المصابيحَ من الزّيْت، وحَفِظ منه جَوَادا لو عِنهُ[1] أخُوه السّحابُ على السَّبْق، لقال له : هَيْهاتَ كم خَلّفْت مثلَك خَلْفِى وخلّيْت . أُصدِرتْ هذه المكاتبةُ إليه، أعزّ الله جانبه والتحيّاتُ موشّحةٌ بنُطُقها، مصبّحةٌ لسَجاياه الكريمة بخُلُقهـا، ساحبةٌ إليه ذيْلَ خُيلَائها : لأنها إذا ٱختالتْ به تَخْتال، وبسَبَبه على السُّرور تُحتال .

ملوك كيلانـ — قال فى " التعريف " : وهم جمـاعةٌ كلٌّ منهم مسـتقلٌّ بنَفْســه، منفردٌ بمُلكه، على ضِيقِ بلادهم وقُرْب مجاورةِ بعضِهم من بعض . وقد

(١) كذا بالأصل، وفى التعريف "عتبه" والأولى عاتبه أنظر كتب اللغة .

تقدّم الكلامُ على بلادهم فى المسالك والممالك . قال فى " التعريف " : ورُسُلهم قليلة، وكُتُبهم أقلُّ من القليل .

ورسمُ المكاتبة إلى كلٍّ منهم على ماذكره فى "التعريف" نحوُ مايكتَب إلى صاحب حِصْن كَيْفا. يعنى يكْتَب لكلٍّ منهم : « أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى المَلَكى الفلانى » إلى آخر ما تقدّم هُناك . قال فى "التعريف" : إلا صاحب يُومِنْ فإنه يكْتَب له بـ«بالجناب» . وهو مثلهم فى بقيّة الألقاب . قال فى " التثقيف " : ولم أرَ لهم مكاتبةً ، ولا كُتِب لهم فى مدّة مباشرتى بديوان الإنشاء الشريف شىْءٌ ؛ غير أنى رأيت بخطّ المولى القاضى المرحوم زين الدين خَضِر، أنه كتب أمثلةً شريفةً إلى جماعة، منهم «حَرَم الدين» . بيُومِنْ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهابُ الدين أنّ مكاتبته أعلى مكاتباتهم، وأنه يكْتَب إليه «الجناب» . قال : ومايَبْعُدُ أن الجماعة الذين كُتِبَ إليهم على ماذكر القاضى زينُ الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كِيْلان . ثم عدّد مَنْ كُتِب إليه منهم فقال : وهم نُوباذ شاه، وسالوك ولده ، فى قَطْع العادة .

ورسم المكاتبة إليهما : «خلّد الله تعالى سعادةَ الجَنَابين الكريمين، العاليين، الكبيريّين، العادلِيّين، المجاهديّن، المرابطين، المَلَكيين : الشَّرَفىّ والسَّيْفىّ» . والدعاء. والعلامة «أخوهما» . والعُنْوان سطران . وتعريفهما : نُوباذ شاه وسالُوك ولده صاحبا كوحسفا (؟) .

ناصر الدّين بهلَوَانُ ، وشَرَفُ الدين شَرَف الدولة صاحبا لاهجان مثلُ ذلك سواءً .

فَلَك الدين صاحب دشْتَ كذلك .

حُسَام الدين صاحب يُومِن كذلك . ثم قال نقلا عن ابن الزَّنْبَقِ خَضِر أيضا : وقيل إنّ حُسام الدين هــذا كان صاحب يُومِن، وصاحبُها الآنَ أخُوه علىٰ ماذكره محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكَيْلانى حين كَتَب إليهم .

قلت : وهٰؤلاء هم ملوك كَيْلان ، وهذه مُدُنهم علىٰ ما تقدّم فى المسالك والممالك . والعَجَب كيف وقع الشّك فى ذلك من صاحب "التثقيف" حتّى قال : وما يبعُد . وأما التسويةُ فى الآخرين صاحب يُومِنْ وغيره ، فيجوز أنّ قدْره آنحطّ بعــد زمن صاحب "التعريف" أو جَهِل الكاتب الثانى مِقدارَه .

صاحب هَرَاةَ ــ وهى مدينة من خُراسانَ . قال فى "التعريف" : ولا يجْرِى علىٰ الألْسُن الآنَ إلا صاحب هَرِىٰ . قال : وكان مَلِكُها الملكَ غياثَ الدين . ولم أسمع أعجمياً يقول إلا قِيَاس الدين . وكان مَلِكا جليلا نَبيلا مفخّما معظّما، له مكانةٌ عند الملوك الهُولا كوهِيَّة، ومنزلةٌ رفيعة عليّه . وكان بينه وبين النُّوِيْن جُوبان مودّةٌ أكيدة وصــداقةٌ عظيمة ؛ فلما دارتْ به دوائرُ الزمان وأفضَتْ به الحال إلىٰ الهَرَب ، لجأ إلىٰ صاحب هَرِىٰ هذا، على أنه يُسَهِّل له الوُصُولَ إلىٰ صاحب الهند، أو إلىٰ مَلك ماوراء النهر، فأجابه وأنزله ، وبسَــطَ أمَلَه ، وأسرّ له الخِدَاع حتّى آطمأنّ إليه ، فأصــعَدَه إلىٰ قلعته ليُضيفه ، فصعِد ومعه آبنُه جلوقان ، وهو آبنه من خُوَندة بنت السلطان خدابَنْدا، وجُلُوقان هذا هو الذى أجيب إلىٰ تزويجه ببنت السلطان الملك النــاصر، وعلىٰ هذا تمّتْ قواعدُ الصُّلْح . وبنىٰ جُوبانُ أمْرَه علىٰ أنه بعدَ التزويج يأخذ له مُلكَ بيتِ هُولا كو بِشُبْهة أنه آبن بنْت خدابندا، وأنه لم يبْقَ بعد أبى سعيد من يَرِث المُلْك سِواه . ثم يستضيف له مُلكَ مصر والشام بشُبْهة أنّ بنتَ صاحب مصر هى التى تَرِث المُلْك من أبيها، فحالت المَنَايا دُون الأمانِى .

وحالَ صُعودِ جُوبان وآبنه جلوقان القلعة أمسكهما غياثُ الدِّين وخنَقهما ليتَّخذ وجها بذلك عند أبى سعيد ، وبعث بذلك إلى أبى سعيد، فشكَرله إمساكَهما، وانكر عليه التعجيلَ فى قتلهما ؛ فاعتذر بأنى لو لم أقتُلهما لم آمَنِ آستعدادَ مَنْ معهما لمحاصرتى ؛ فقبل عُذْره، وطلب منه إبهام[1] جُوبانَ ليعْرِف أنه قد قتله ، وكان فيه زيادةُ سِلعة ظاهرة يُعرف بها ؛ فجهزه إليه فأكرم رُسُلَه وبعث إليه بالخِلَع ، وأمر بإصبع جُوبان فطيف بها فى الممالك . ثم سألتْ بغدادُ خاتُون بنتُ جُوبان : آمرأةُ أبى سعيد، وكان شديد الكَلَف بها ، فى نقل أجسادهما فنُقلتْ ؛ فعقَدتْ لهما المآتِمَ ؛ ثم أمرتْ بحملهما إلى مكّة المعظّمة ، ثم إلى المدينة المشرّفة ليُدْفَنا فى التربة الجُوبانيّة التى كان جُوبانُ أعدّها لدَفْنه فى حال حياته ؛ فمُكِّنت من ذلك إلا من الدَّفْن فإنهما دُفِنا بالبَقِيع . ثم حَضَر غياثُ الدين حضرةَ أبى سعيد ، فأُكْرِم وأُعطِىَ العطايا السنيّة ؛ ثم لم يلبَثْ أن مات وولِى آبنُه . قال : ولم يكن صاحبُ هذه المملكة ممن يكاتَب عن السلطان حتّى كانت واقعةُ جُوبان فكُتِب إليه .

ورسم المكاتبة إليه على ماذكره فى "التعريف" : «أعزّالله تعالى نَصْر المقرّ الكريم، العالى، العالمىّ، العادلىّ، المجاهدىّ، المؤيّدىّ، المرابِطىّ، المُثاغِرىّ، الأوحدىّ الملك الفلانىّ ، شَرَف الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين» . قال فى "التثقيف" : ولم أطَّلِعْ على مايكتب إليه سوى ماذكره القاضى شهابُ الدِّين بعد واقعة جُوبان . قال : والذى يظهر لى أنه لم يكاتَبْ بعد ذلك هو ولا مَنْ قام مَقَامه : لأنه لم تكن له مكاتبة مشهورةٌ متداوَلة بين الموالى الجماعة ، ولا كتب إليه فى مدّة مباشرتى شىء . على أنّ القاضىَ شهابَ الدين لم يذكر تعريفه

(١) أى أصبعه الابهام .

الحكام بهـــذه المملكة

(مَنْ جرتِ العادةُ بمكاتبته من الحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة من هذه المملكة)

الحاكم بشِمْشاطَ — وقد تقدّم فى الكلام على المســالك والممــالك أنّها بلدةٌ من ديار مُضَر بين آمِد وخَرْتَ بِرْتَ . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليـه «السامىّ» بالياء . والعلامة الاسمُ . وتعريفه «الحاكم بشِمْشَاط» .

الحاكم بميّافارِقينَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدة دِيارِ بكْر . قال: فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامِى» بغير ياء . والعلامة الاسم . وتعريفه «الحاكم بميّافارِقينَ» .

الحاكم بِعيزانَ — وقد تقدّم فى المسالك والممــالك أنها مدينة من ديارِ بكر . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «الحاكم بِعيزان» وهو معدود فى "التثقيف" فى جُمْلة الأكراد .

الحاكم بجزيرة ابن عُمَر — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ صغيرةٌ على دِجْلة من غربيِّها . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» باليـاء . والعلامةُ له الاسم . وتعريفه «الحاكم بجزيرة ابن عُمَر» . وذكره فى "التثقيف" فى جملة الأكراد، وقال : كان بها عِزُّ الدين أحمد اليخشى . وذكر أن رسم المكاتبة إليه الاسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» . واستقرّ بعد وفاته ولدُه عيسىٰ، وورد كتابه فى صَفَر ســنة أربع وستين وسبعمائة، أخبر فيه بوفاة والده واستقرارِه مكانَهُ، على أنه قد ذُكر معبّرًا عنه بصاحب الجزيرة، وسماه بكلمش . وذكر أن المكاتبة إليه الاسم و «السامى» بغير ياء .

الحاكم بسِنْجار — وقد تقدّم فى المسالك والممــالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة . قال فى "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخُو الحاكم بها مرسومٌ شريف بأن يكون

نائبًا بها حَسَب سؤاله فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة . قال : وكانت المكاتبةُ إليه أوّلا الآسم و « مجلس الأمير » وكُتِب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتَلّ أعْفَرَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قلعةٌ بين سِنْجارَ والمَوْصل . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامِىّ» بالياء . والعلامة له الآسم وتعريفه « الحاكم بتَلّ أعْفَرَ » .

الحاكم بالمَوْصل — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلاد الجزيرة كلِّها فى القديم حيث كانت بيد الجَرامِقَة . قال فى "التثقيف" : والمكاتبةُ إليه فى قَطْع العادة الآسم، و «صدرتْ » و « السامى» . وتعريفه «الحاكم بالمَوْصل» . ورأيت فى بعض الدساتير أن العلامة آستقرتْ له «والده» عند آستقراره نائبَ السلطنة بها .

الحاكم بالحَديثة — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلدة على الفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء . وتعريفُه « الحاكم بالحَديثة » . وهى غير حَديثة المَوْصل . وهى بلدةٌ شرقىّ دِجْلة تُعَدّ فى بلاد العراق .

الحاكم بعانَةَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلدةٌ صغيرة على جزيرة فى وَسَط الفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الآسمُ و « السامىّ » بالياء . وتعريفهُ « الحاكمُ بعانَةَ » . ورأيتُ فى بعض الدساتير أنّ المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتِكْريت[1] — وفى "التثقيف" صاحب تِكْريت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من آخر مُدُن الجزيرة بين دِجلةَ والفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ الحاكم بالمَوْصل، فتكون فى قَطْع العادة . والعلامةُ الآسم . وتعريفُه « الحاكم بتكْريت » .

(١) فى معجم ياقوت بفتح التاء والعامة يكسرونها .

الحـاكم بقَلْعة كُشَاف — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها فى الجنوب عن المَوْصل بين الزّاب والشّطّ، وأنه عدّها فى "تقويم البُلْدان" من بلاد الجزيرة مرّةً، ومن عِراق العجم أُخرى. وأنه أوردها فى "التثقيف" بإثبات الألف واللام. قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ حاكِمَىْ عانةَ والحَدِيثة، فتكون المكاتبة إليه «السامى» بالياء. ورأيتُ فى بعض الدساتير أن المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء. وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف».

الحاكم بإسْعِرْد — وهى سِعِرْتُ. قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من ديار رَبيعة. قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «مجلس الأمير». وحينئذ فتكون فى قَطْع العادة. والعلامةُ الاسم. وتعريفه «الحاكم بإسْعِرْدَ».

صاحب حَانِى — ويقال لها حَنَا. وهى مدينةٌ من ديار بكر. وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ صاحبها تاجُ الدين. ورسْمُ المكاتبة إليه الاسم «والسامى» بغير ياء.

من جرت العادة بالمكاتبة إليه

بالجانب المختصّ ببنى جنكزخان من بلاد الرُّوم من مارِية وما معها

أُرْتَنَا، الذى كان قائما بهذه البلاد عن بَنِى هُولاكُو من التّتر. ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث : «ضاعف اللهُ تعـالى نِعْمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العَونىّ، الزّعيمىّ، المهّدىّ، المشيّدىّ، الظّهيرىّ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، كهف المِلّة، ذُخْر الدولة، ظَهِير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين». والدعاء والسلام. والعلامة «أخوه».

وذكر فى "التثقيف" أنه كتب إلى ولده محمد بعده كذلك فى قطع الورق والمكاتبة والعلامة . وأنه كتب إلى على بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا فى العلامة فانها آستقرت له «والده» وكتب تعريفه : «على بك آبن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحكام ببلاد العراق

الحاكم بهيت — وعبر عنه فى "التعريف" بصاحب هيت . وقد تقدم فى المسالك والممالك أنها شمالى الفرات من أعمال بغداد . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامى» بالياء؛ وتعريفه «الحاكم بهيت» .

الحاكم بالقنيطرة — وقد تقدم فى المسالك والممالك أنها بلدة بالقرب من مرسى الحلة . قال فى "التثقيف" : والمكاتبة إليه « السامى » بالياء . والعلامة الآسم . وتعريفه « الحاكم بالقنيطرة » . ثم قال : وآخر ما آستقرت مكاتبته عليه «السامى» بغير ياء . وعبر عنه فى موضع آخر« بابراهيم صاحب القنيطرة» . وذكر أن المكاتبة إليه الآسم و «السامى» . وأن تعريفه آسمه خاصة .

من جرت العادة بمكاتبته من الحكام ببلاد الجبل
"وهى عراق العجم"

الحاكم بإزبل — وعبر عنه فى "التثقيف" بصاحب إزبل . قال فى "التثقيف" : كان بها الشريف علاء الدين على الدلقندى ؛ ثم آستقر بها الشريف يحيى ؛ ثم آستقر بها على ولده . قال : والمستقر بها الآن على ماتحرر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أسد الدين أسد . ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «الحاكم بإزبل» .

صاحب قاشان — وسمّاها فى "التثقيف" قَيْشان. ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء .

صاحب باب الحديد — المعروفة عنـد الترك بَمُرْقابُو . وهى باب الأبواب . قال فى "التثقيف": كان بها كاوُوس، وكتب إليه جوابٌ فى ثانى عشر ربيع الأوّل سنة آثنتين وستين وسبعمائة أويس (١) فى قَطْع الثلث ، والدعاء والعالى . وتعريفه آسمُه لا غيرُ .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكّام ، ببلاد فارِسَ

الحاكم بشِيرازَ — وقد تقـدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلادِ فارس . قال فى "التثقيف": والمستقرّ بها على ماتحرّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، شاه شُجَاع، أخو شاه ولى . وذكر أنه لم يُكْتَب إليـه فى مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء، ولا وقف على مكاتبةٍ إليـه . ثم قال : غيرَ أنه يمكن أن تكون المكاتبةُ إليـه نظيرَ المكاتبـة إلى الأشرف تمرتاش المستولى على تِبْرِيزَ، فإنه قال : إنّ شـيرازَ قدرُ تِبْرِيزَ ونظيرُها. فعلى هذا يكون رسمُ المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث : «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ، الكبيرىّ» وبقيّة الألقاب والنعوت . ويكون فيها «التّوْنِيّ» كما فى مكاتبة المستولى على تِبْرِيزَ .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كَرْمانَ

صاحب هُرْمُزَ — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنّ قاعدةَ كَرْمان القديمة السِّيرَجَان وأن هُرْمُزَ فُرْضـة كَرْمان ، وأنها خرّبها التتر عند خُروجِهم على تلك البـلاد بكثرة الغارات ، وآنتقل معظمُ أهلها إلى جزيرةٍ بجُحَيْرة بحر فارس على القُرْب منها تسـمّى وَزَرُونْ (٢). وقد كُتِب إلى صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" آبن الظاهر

(١) كذا فى الاصل ولعله زائد من قلم الناسخ (٢) هى بهذا الضبط فى الأصل ولم تذكر فى المعجم ولا فى التقويم

بَرْقُوق فى سنة ثلاث عشرةَ وثمـانمـائة مفاتحةً فى قطع (١)

من جرتِ العادةُ بمكاتبته من بلاد أَرْمِينِيَةَ وأَرّان وأَذْرَبِيجانَ

النائب بخِلَاطَ من أَرْمِينِيَة — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها كانت قاعدةَ بلاد الكُرْج . قال فى "التثقيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، واسْمُه أبو بكر بن أحمد بن أزبك . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه الأسمُ و «السامىّ» بالياء ؛ فيكون فى قَطْع العادة . وتعريفه «النائب بخِلَاطَ» .

الحاكم بحِصْن أَرْزَنَ — وهى أَرْزَنُ الرُّوم . قال فى "التثقيف": وهو ـ على ما اتّضح آخِرا فى رمضانَ سنةَ ستٍّ وسبعين وسبعمائة ـ علاءُ الدين علىّ بن قَرَا . وردت مكاتبتـه أن صاحب حِصْن كَيْفَا ابنُ خاله . ورسم المكاتبة إليـه على ما فى "التثقيف" مثـلُ صاحب حِصْن كَيْفَا من غير زيادة ولا نَقْص . على أنه فى "التعريف" قد ذكر أنّ المكاتبة إليه «السامىُّ» بالياء . قال فى "التثقيف": والصحيح ماتقدّم، فإنى كتبتُ إليه بهذه المكاتبة مَرّات، وهو المتداوَلُ بين المَوَالى الجماعةِ إلى آخرِ وقْت . وقد تقـدّم فى المسالك والممالك أنهـا فى آخِرِ بلاد الرُّوم من جهة الشرق .

صاحب بِدْلِيسَ — قد ذكر فى "التعريف" أنه كان فى زمانه الأميرَ شرفَ الدين أبو بكر. وقال: إنه يُتّهم بمذهب النّصيريّة. ثم قال: وبلده صغيرٌ، ودَخْله يسير، وعمله

(١) بياض بالأصل مقدار أربعة سطور .

ضيِّق . وهو طريقُ المارّة وقُصّادِ الابواب السلطانية إلىٰ الأردو إذا لم يكن بالعراق وله خِدْمة مشكورة. ومدّه فى "التثقيف" فى جملة الأكراد . قال فى "التعريف": ورسمُ المكاتبة إليه : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ » أسوةَ الامراء . وذكر فى "التثقيف" أنه كان بها ضياءُ الدين أبو الفَوَارس الروشكى أخو الفرس بالو، وأن المكاتبة إليه الأسم و«السامىّ» بالياء. وتعريفه «صاحب بِدْلِيس». وأنه آستقرّ بعده ولده الرماح، وكوتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

صاحب مُوقانَ — وهى مُوغانُ . وسمّاها فى "التثقيف" ميوغان . قال فى "التثقيف" : وكان بها محمدُ شاه بن أميرشاه، وكتب إليه مستجدًّا فى سنة سبع وستين وسبعمائة «السامى» بغير ياء .

النائب بخَرْتَ بِرْتَ — وهى حصنُ زِياد . ذكره فى "التثقيف" من جملة تُرْكمان البلاد الشرقية، وذكر أنّ آسمه يومئذ باليس، وأن رسم المكاتبة إليه الأسم و«السامىّ» بالياء . وتعريفه آسمه، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلىٰ صاحب خَرْتَ بِرْتَ قبله. ثم ذكر أنه رأىٰ بخط القاضى شِهابِ الدين بن الصَّفَدىّ أنه آستقرّ بها علاءُ الدين آبنُ خالد المليكشى بعد حُسَام الدين خَرْبَندة، وأن مكاتبته «السامىّ» بالياء .

الصـــــنف الثالث

(ممن يكاتبُ بهذه المملكة العُرْبان، وهم : عبادة وخَفَاجة)

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ أنســاب العرب أن نَسَبَهما فى عامر بن صَعْصَعة من قَيْس عَيْلان . وأجلُّ من يكتب إليه منهم رسْمُه «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى الأمير» . علىٰ أنّ صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يَطَّلع علىٰ مكاتبةٍ إليهم .

الصـــنف الرابع
(ممن يكاتب بهـــذه المملكة التُّركمان)

قال فى "التثقيف" : والأكابرُ فى البلاد الشرقية الذين يُكتَب إليهم من هذه الطائفة مفردا قليلٌ . أما بقيَّتهم من تُركمان الطاعة الشريفة، فقد يُكتَب إليهم عند المهمّات مُطْلقَاتٌ شريفة، ثم ذكر جماعةً ممن يكتب إليه على انفراده، ولم يعيِّن لأحد منهم بلدا ولا رياســة قومٍ معروفين . وها أنا أذكرهم على ماذكرهم : ليقاس عليهم لدى تحقُّق مَقَامهم .

منهم ـــ مُراد خَوَاجا . ورسم المكاتبة إليه الأسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفُه آسمه .

ومنهم ـــ باكيش الكبير ابن أخى تُوزْطُوغان . ورسمُ المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه آسمُه .

ومنهم ـــ زَيْن الْمُلْك تُوزْطُوغان . ورسم المكاتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء، وتعريفه «مُقدَّم التُّركمان بالبلاد الشرقية» .

ومنهم ـــ على بن إينَال التُّركمانىّ من الطائفة البُوزقية . ورسم المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء وتعريفه آسمه .

ومنهم ـــ يعقوب بن على شَار . ورسم المكاتبة إليه الأسم و « السامىّ » بالياء . وتعريفُه آسمه . قال فى "التثقيف" : وقد ذكر القاضى ناصرُ الدين بن النَّشائى أنه كتب إليه كذلك فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة .

ومنهم ـــ سالمٌ الدُّلكرىّ، ورسم المكاتبة إليه الأسم و «السامىّ» بالياء، وتعريفُه آســـمه .

وٱعلم أنه قد تقــدّم فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشامية نقلا عن "التثقيف" أن من طوائف التُّرْكُمان الذين هم تحتَ الطـاعة مَنْ لم يُكْتَب إليـه بعدُ ؛ بل إذا كتِبَ فى مهمّ شريف، كتِب إلىٰ كلّ طائفــة منهم أو إلىٰ ســائر الطوائف مطلَقٌ شريف . وعدّ منهم طوائف :

الأولىٰ — البُوزقية : جماعة ٱبن دلغادر وابن إينال المقدّم ذكره .

الثانيــة — أولاد رمضان : الأَصريّة .

الثالثــة — الأوشَريّة : تُرْكُمان حلَبَ .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكرىّ .

الخامسة — الخَرْبَنْدَليّة : جماعة مصطفىٰ .

السادسة — الأغاجريّة .

السابعة — الورَسق : تُرْكُمان طَرَسُوس .

الثامنــة — القنقيّة .

التاسعة — البابَنْدرِيّة : وهم التقيبيّة[1] .

العاشرة — البكرْليّة[2] : أولاد طشحون .

الحاديةَ عشرةَ — البَياضيّة .

ثم قال : وثَمّ جمائعُ كثيرة لايمكن ٱستيعابُهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شىءٌ بهذه البلاد ، فحكمه ماتقدّم فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشامية .

(١) فى الضوء ص ٢٢٧ وهم من القنيبية .
(٢) فى الضوء ص ٢٢٧ البلولية وأولاد طسحون .

الصـــنف الخامس
(ممن يكاتب بهـذه المملكة الأكرادُ)

وقد تقـدّم الكلامُ علىٰ طوائفهم ومنـازِلهم من بلاد الجبال من عِراق العَجَم . قال فى "التعريف": وهم خلائقُ لايُحْصَوْن، ولولا أن سيفَ الفتنة بينهم يستَحْصِدُ قائمهم، ويُنَبّـه نائمهم ، لفاضوا علىٰ البلاد ، واستضافُوا إليهـم الطارفَ والتّلاد ؛ ولكنهم رُمُوا بشَـتَات الرأى وتفرّق الكلمة ، لا يزال بينهم سـيفٌ مسْلُول ، ودمٌ مطلول، وعَقْد نِظامٍ محلول، وطرفٌ باكيةٍ بالدماء مبْلُول . وهم علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل
(المنسوب منهم إلىٰ بلادٍ ومقَرّاتٍ معروفة)

قال فى "التعريف": ولهم رأسان كلٌّ منهما رجل جليل، ولكلٍّ منهما عدد غيرقليل .

أحدهـا ـــ صاحبُ جُولَمَرك، من جبال الأكراد من عِراق العَجَم . قال فى " التعريف " : وهو الكبير منهما الذى تتّفق طوائفُ الأكراد مع آختلافها علىٰ تعظيمه، والإشارة بأنّه فيهم الملكُ المُطاع والقائدُالمتّبع . وهو صاحب مملكةٍ متسعةٍ ومُدُن وقِلاع وحُصون، وله قبـائلُ وعشائرُوأنفار . قال : وهم يُنْسَبُون إلىٰ عُتْبة آبن أبى سفيانَ بن حرب بنِ أُميّـةَ بن عبدِ شمْس بن عبْد منَاف . ثم قال : وكانت الإمرةُ قد آنتهت فيهم إلىٰ أسد الدّين موسىٰ بن مُجَلّى بن موسىٰ بن منكلان . وكان رجلا كريمـا عظيما نَهّابا وَهّابا ، تُجِلُّه ملوكُ الممـالك الجليلة، وتعظّمه حُكّام الأردو وصاحبُ مصر . وإشارتُه مقبولة عنـد الجميع . وإذا آقتتلتْ طائفتان من الأكراد فتقدّم إليهما بالكَفّ كفُّوا ، وسمِعُوا له سمعَ [مُرَاعٍ لاسمعَ](١) مُطيع . وذكر أن القائم

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

فيهم إذ ذاك من بَنِيه الملكُ عمادُ الدين مجلِّى : وهو رجل يحبُّ اهلَ العلم والفضل، ويُحِلُّ منهم عنده مَنْ أتاه أعظَمَ محل . وقد مضىٰ القول علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك، من المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبة إليه «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرى» والألقاب التامة الكاملة .

الثانى — صاحب عقرشوش من بلاد الجزيرة . قال فى "التعريف" : ومُلُوكها الآنَ من أولاد المبارز كَك . قال : وكان مبارزُ الدين كَكْ هذا رجلا شجاعًا كريما تَغْلِبُ عليه [ضرائب من](1) الهوس . فيدّعى أنّه ولىٌّ من الأولياء يقبل النُّذُور . وكانت تُنْذَر له النذورُ تقربًا إليه،(2) فإذا أتاه النذرُ أضاف إليه مثلَهُ [من ماله](1) وتصدّق بهما جميعا . قال : وأهل هذا البيت يدّعون عَراقةَ الأصل فى الإمرة وقِدمَ السُّؤدَد والحِشْمةِ . ويقولون إنهم عُقِدت لهم ألويةُ الإمارة وتسلّموا أزِمّة هذه البلاد وتسنّموا صَهَواتِ الصَّياصِى بمناشير الخُلَفاء، وأنهم كانُوا لَهُمْ أهلَ وَفَاء . ولهم فى هذا حكاياتٌ كثيره ، وأخبارٌ مأثوره، وهم أهل تنَعُّم ورَفَاهِية ونِعْمة ظاهره، وبِزّة فاخره، وأدُرٍ مُزَخرفه، ورياض مُفَوّفه ، وخيول مسوّمه ، وجَوَارِحَ معلّمه، وخَدَم وغِلْمان ، وجَوارٍ حسان ، ومعَازِفَ وقِيَان، وسِمَاط ممدود وخُوَان(3) . قال : وموقع بلادِهم من أطرافِ بلادِنا قَرِيب، والمدْعُوّ منهم من الرَّحْبة وماجاورها يكادُ يُجِيب . ثم قال : وملُوكًا تشكُر لهم إخلاصَ نَصِيحه، وصفاءَ سريرةٍ صحيحه . وذكر أن القائم فيهم فى زمانه شجاعُ الدين آبن الأمير نجم الدين خَضِر بن المبارز كَكْ ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) فى التعريف زيادة (بما تتفق عليه لا اعتقادا فيه فيسر بذلك) .

(٣) فى التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة وإخوان) .

لم يبلُغْ مبلَغَ أبيه، بل لايُقارِب به ولا يُدانيه[1]؛ علىٰ أنه قد مَلَكَ مُلْكَه، ونَظَم سِلْكَه . وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك أيضا فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" مثل صاحب جُولَمَرْك، وهى : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ» . وذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة كانت إلىٰ خَضِر بنِ المبـارِزكَكْ «صدرت» و «العـالى» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «خَضِر بن المبارِزكَك» . مع عدم تعريجه علىٰ مافى "التعريف" جملة . وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً سِوىٰ مَنْ تقدّم ممن هم منهم بالجزيرة، كالحاكم بجزيرة آبن عمر، والحاكم بحانى، وصاحب عقرشوش . ولم يذكر بلاد من ذكره منهم ممن يأتى ذكره منهم ومَنْ كان بكل بلد منهم من أكابرهم وحُكّامهـم ؛ ورَسْم المكاتبة إليهم علىٰ ما ذكره، وهم قسمان :

القسم الأوّل ــ من عُلِمت المكاتبة إليه، وهم :

صاحبُ برْخُو ــ وهو يومئذ أمير حُسَينُ بنُ الملك أسـد . ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء .

صاحب البلهيّة ــ قال: وكان بها شمسُ الدين بن البيليق، ثم آستقرّ بعده أخوه أحمدُ . ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و «السامىّ» بالياء أيضا .

صاحب الدَّرْبَنْده ــ وهو سيف الدين أَصْبر بن أَزْشير الحسينانى . ورسم المكاتبة إليه الآسم و«السامى» بغير ياء. وتعريفه «أمير أَزْشير الحسينانى صاحب الدَّرْبَنْده» .

صاحب كَرْمَلِيس ــ وهو محصب[2] مسعود . ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و«السامى» بغـير ياء .

---

(١) فى التعريف ولا أنه يقاربه الخ .

(٢) لعله وهو المعروف بيخت مسعود .

صاحب العِمَاديَّة — عِمادُ الدين إسماعيلُ بن علىّ بن موسى . ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء . وتعريفه «صاحب قَلْعة العِمَادية» . وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجُولَمَرْكية . قال فى "التثقيف" وكان بها أولادُ الحاجىّ بن عُمَرَ، وردت مطالعتُه كذلك «الحاجّى بن عمر صاحب العِمَادية» فى سنة أربعين وسبعمائة .

صاحب مازكرد — حَسَنُ بن إسماعيل . ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب رنْدشت — بجبال همَذَانَ وشَهْرزُور . وهو عبدُ الله بن حُسام الدين رَسْلان . ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب جُرْذَقِيلَ — بهاءُ الدين عمرُ بن إبراهيم الهكّارىّ . ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب سكراك — كُرْجى بك . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب ملس[1] — سلطان شاه . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الأسم .

صاحب شكوش — أمير أحمد . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الأسمُ .

صاحب جُرْموك — «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الأسمُ الشريف .

(١) كذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليها كما لم نعثر على كثير غيرها من هذه الاسماء ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بهرمان — عبد الصمد . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الأسم .

صاحب حِصْن أرّان — وهو حِصْن الملك — شجاع الدين خَضِر بن عيسىٰ الشهري . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» والعلامةُ الأسم .

القسم الثانى — من ذكره فى التثقيف ولم يذكر مكاتبتَه وقال : إنه وقف عليه كذلك، وهم :

صاحب خُفْتيَان — تاجُ الدين أخُو باشاك .

صاحب سُوبَجَ — أمير عيسىٰ بن بَاشَاك .

صاحب أكريستا — مَلِك بن بَاشَاك .

صاحب بزاكرد — بهاء الدين الزرزاري .

صاحب زابْ — فخر الدّين عثمان الزّابي .

صاحب البرسه(1) — شمسُ الدين بن بهاء الدّين .

صاحب الدَّرْبَنْدات القَرَابلية — علىّ بن كَراق، تعريفهُ «صاحب دَرْبَنْد القَرَابلي» .

صاحب قلعة الجَبَلَيْن — حُسامُ الدين بنُ تاج الدين العاملىّ .

صاحب سِيدَكان — أمير علىّ بن حسام الدين الزّرْزارىّ .

صاحب هَرُورَ — بَهاءُ الدّين حسَنُ بن عِمَاد الدين .

صاحب رَمَادَان — أميرُ عبد الله الكُركانىّ .

صاحب الشّعْبانِيّة — حُسام الدين أمير مرى السيفى .

---

(1) كذا فى الأصل بغير نقط .

صاحب تمريه — بهاء الدين .

صاحب سياح — سُنْقُر .

صاحب المحمدية — الشيخ محمد .

صاحب كزليك — .

الضـــرب الثـــانى

(من لم يُصَـــرَّح له بمكان)

وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً ممن كان فى الزمن المتقــدِّم، وصرَّح بذكر المكاتَبة إليهـم، فذكر منهـم أبُو بكر بن المبارِز كَكْ الاسمُ و « السامى » بغير ياء، وتعريفه اسمه .

مبارِزُ الدين عبد العزيز أخوه مثلُه .

علىٌّ وعمر ولدا ابن روحى[1] خليل بن روحى[1]، ورسم المكاتبة إلى كلٍّ منهما الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

خالدٌ المليكشِى كذلك .

أولاده : محمودٌ وأحمد «مجلس الأمير» .

بهاء الدين بن الغِرْس بألو ـ الأسم و «السامى» بغير ياء .

عبد الله الشُّهْرىّ ـ الأسم و «السامى» بغير ياء .

شجاعُ الدين خَضِر بن عِيسىٰ الشُّهرى أخو عبدالله الشُّهرىّ ـ الأسم و «السامى» بغـــير ياء .

---

(١) كذا بالاهمال ولم نعثر عليه بعد البحث .

مبارز بن عيسىٰ بن حَسَن النَبْلاَرى ـ الأسم و« السامى » بغير ياء . قال فى " التثقيف " : ومكاتبته مستجدّة فى العشر الأُوَل من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

خَضر بن محمد المَكّارِىّ ـ الأسم و«السامى» بغير ياء. قال: وهو مستجدّ المكاتبة أيضا فى العَشْر الآخِر من صَفَر سنة تسع وستين وسبعمائة .

قلت : فإن اتّفق المكاتبة إلىٰ أحد من هؤلاء المجهولى الكتابة أو غيرهم من الأكراد كُتِب له علىٰ قدر مقداره بالنسبة إلىٰ من عُلِمت المكاتبة إليه .

قال فى " التعريف " هنا : ومما يُنَبَّه عليه أنّ فى طُرُق المارّين، ومسالكِ المسافرين، من بلادنا إلىٰ خُراسانَ ومنها إلينا يظهرُ فى بعض الأحيان أهلُ فساد يعتمدون إلىٰ عميد يقدّمونه عليهم فيقْطعون السُّبُل ، ويُخيفون الطُّرُق ، وتطير سمعةُ عميدهم ، وتنتشر فى قريبهم وبعيدهم ؛ فيكاتَبُ ذلك العميدُ من أبواب الملوك ، ويُضْطَرُّ إليه لفتح الطريق بالسُّلُوك ،ويكون من غير بَيْتِ الإمْرة ،ورُبّما هوىٰ نجمُه، فانقطع بانقطاع عُمْره اسْمُه، مثل الجلوكِ الخارج بطريق خُراسانَ ، والغِرْس بالو الخارج فيما يقارب بلاد شَهْرَزُور ، ومثلُ الخارجين علىٰ دَرْبَنْد القرابلى . قال : وهؤلاء وأمثالهم يَطْلُعون طُلُوع الكَمْأة لا أصلٌ ممتدّ، ولا فَرْع مشتدّ؛ فهؤلاء لا يعرف لأحد منهم رُتْبة محفوظة، ولا قانونٌ فى رسم المكاتبة معروف ؛ وإنما الشأن فيما يكتب إلىٰ هؤلاء بحَسَبِ الاحتياج وقَدْرِ ما يُعْرَف لهم من اشتداد الساعد، وعدد المُساعد . قال : ولقد كتبنا إلىٰ كلٍّ من الجلوك والغِرْس بالو ، بالسامى بالياء ، وجُهِّزت إليهما الخِلَعُ وأُتْحِفا بالتُّحَف .

الصـــــنف السادس

(ممن يكاتَب بمملكة إيران أربابُ الأقلام)

ذكر فى "التثقيف" أنه كُتِب إلىٰ مجْد الدين أخى الوزير غِيَاث الدين: «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العـالى، الصاحِىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الكافِلىّ، المـاجدىّ، الزَّينِىّ، الأَميرىّ، الأَوحدىّ، المعظّمىّ، الذُّخرىّ، المجاهدىّ» . قال فى "التثقيف": هذا ماوجدته بخطّ القاضى ناصر الدين بن النشائى؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه . وكُتِب إلىٰ عَلَاء الدين صاحب الديوان مثلُه . والعلامة إليـه «أخوه» . قال فى "التثقيف": هكذا وجدْتُه فى خطّ آبن النَّشائىّ . ولم يذكر تعريفَه .

الوزيرُ شمس الدين — قال فى"التثقيف": نقلتُ من خطّ القاضى شهابِ الدين آبن الخَضر أن مكاتَبَته فى قَطْع العادة الأسم و «السامىّ الأميرىّ الشرِيفىّ الحسيبىّ النسيبىّ» ، وبقية الألقاب،ولم يُكْتَبْ له «الصاحبىّ» ولا «الوزيرىّ» . قال: ولم يذكر شيئًا غيرهــذا . ثم قال: ولا أعلم لمن وُزِّر المذكورُ، ولا من أىّ بلاد الشرق .

ضياءُ الدين صاحبُ الديوان — المكاتبة إليه حسَبَ مانقله فى"التثقيف" عن خط آبن الخَضر أيضا الأسمُ و «السامى الأميرُ الأجلُّ» . وذكر أنه كُتِب إليــه علىٰ يد سراج الدين قاضى قَيْسارِيَّة . قال فى "التثقيف": وعلىٰ هذا أنَّ ضِياء الدين هذا من أهل المملكة الرُّومية .

مُعين الدين صاحبُ الديوان — مثلُه .

الصـــنف السابع
(ممن يكاتَب بمملكة إيرانَ أكابر المشايخ والصُّلَحاء)

قد ذكر فى " التثقيف " ممن كُوتِب من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم لِيُقَاس عليهم، ولئلّا يهمَلَ شىءٌ ممـا أورده فى التثقيف .

الأوّل — شمسُ الدين الطُّوطىّ . قال فى " التثقيف " : وهو فيما أظُنُّ ممن كان يُكْتَب إليه قديما، ولم يُكْتَب إليه بعد ذلك. قال: ورسمُ المكاتبة إليه حسَبَ مانقلتُه من خط القاضى ناصر الدين بن النَّشائى : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الشَّيْخىّ، الأجلِّ ، العالمىّ، العامِلىّ، الكامِلىّ ، الفاضِلىّ، الزاهِـدىّ، الوَرَعىّ، العابِدىّ، الخاشِـعىّ، الناسِكىّ، القُدْوىّ، الأوحدىّ، الفلانى؛ مجد الإسـلام، صدرِ الأنام، بقيّةِ السَّلَف الكِرام ؛ فخرِ العلماء ، أوْحدِ الكبراء، زينِ الزُّهَّاد، عِمَاد العُبَّاد؛ قدوةِ المتورّعين، ذُخْرِ الدُّول، ركن الملوك والسلاطين» . والدعاء «وتَصِف لعلمه المبارك» . والعلامةُ الاسم . قال فى "التثقيف" : هذا صورةُ ماوجدتُه من غير زيادة . ولم يذكر تعريفَه ولا محـلَّه من البلاد . قال : وقد كُتِب فى نعوته : «ركن الملوك والسلاطين». وهو غريبٌ لأنه خلافُ ماجرتْ به العادة .

الثـانى — الشيخ غِياث الكَجَجى بِتبْرِيز. ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره المشارُ إليه : «أعادَ الله تعالى من بركة المجلس السامىّ الشيخىّ». وبقية الألقاب «الغِيَاثى» وتكملة النعوت بمـا يناسب . والعلامةُ الاسم، وتعريفُه «محمد الكَجَجانىّ» .

الثـالث — الشيخُ حسنُ بنُ عبد القادر الجِيلانىّ . وكان من المتأصِّلين الذين يُكْتَب إليهم قديما . قال فى " التثقيف " : ورسمُ المكاتبة إليه الاسم و«السامىّ» بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : «الشيخُ العالمُ العاملُ القدوةُ المرشدُ فلان الدين» .

قلت : هذا نُحُول منه، وإلا فمقتضىٰ هذه الألقابِ المجرّدةِ عن الياء أن تكون الكتابةُ إليه «والسامى» بغير ياء .

الصـــــنف الثامن
(ممن يكاتَب بمملكة إيران النِّساء)

وقد ذكر فى "التثقيف" المكاتبةَ إلىٰ أربع منهنّ (١) :

الأولىٰ — دلّ شاد زَوج الشيخ حسن الكبير . كُتِب إليها فى قَطْع العادة : «أدام الله تعالىٰ صَوْنَ الجهةِ المحجَّبة، المصونَةِ، العِصْمِيّةِ، الخاتُونيّةِ، المعظَّميّةِ، سيدةِ الخواتين، زينةِ نساء العالمين، جميلةِ المحجّبات، جليلةِ المَصُونات، قرينةِ نُوَيْنِ الملوكِ والسلاطين» . والدعاء، والعلامة «أخوها» . وتعريفها «الخاتون المعظمة دلْ شاد» .

الثانيــة — كلمش والدة بولاد مثلها ، غيرَ أنَّ العلامة الأسم ، وتعريفها آسمُها المـــذكور .

الثالثــة — زوجة أملكان آبن الشيخ حسن الكبير علىٰ ما آستقرّ عليه الحال عند ما كتِب جوابها علىٰ يد رسولها فى ذى القَعْدة سنةَ أربعين وسبعمائة مثل دلشاد، والعلامة «والدعاء» . وتعريفها سلطان بخت .

المهيــــــع الثانى
من المكاتبة إلىٰ الملوك
(مملكةُ تُورَانَ ، وهى مملكةُ الخاقانيّةُ)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية نقلا عن المقرّ الشّهابىّ آبنِ فضل الله فى كتابه "التعريف" أنّ هذه المملكةَ من نَهْر بلْخ إلىٰ مَطْلَع الشمس

(١) لم يذكر الرابعة فى الأصل .

على سَمْت الوَسَط ، فما أخَذَ عنها جنوباً كان بلادَ السِّنْد ، ثم الهِنْد ، وماأخذ عنها شمالاً كان بلاد إلخفجاج وفى طائفة القَبْجاق ، وبلادَ الصَّقْلَب ، والجَهَارْكس ، والرُّوس ، والمَاجار ، وما جاوَرَهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال .
فيدْخُل فى هذه المملكة ممالكُ كثيرةٌ وبلادٌ واسعة ، وأعمالٌ شاسعةٌ ، وأممٌ مختلفة لاتكادُ تُحصى ، تشتمل على بلاد غَزْنةَ ، والباميان ، والغور ، وخُوَارِزْم ، ودَشْت القَبْجاق ، وما وراء النهر : نحو بُخَارا ، وسَمَرْقَنْد ، والصُّغْد ، والخُوجَنْد . وبلاد تُرْكُستان ، وأُشْروسنةَ ، وفَرْغانةَ . وبلاد صاغُون ، وطِرَاز ، وضريوم . وبلاد الخطا نحو بشمالق والمالق إلى قَرَاقُوم ، وما وراء ذلك من بلاد الصِّين وصين الصِّين ؛ فإنها كانت فى القديم بيد فَرَاسْياب ، بن شنك ، بن رُشْتم ، بن تُرْك ، بن كومَر ، آبن يافث ، بن نُوح عليه السلام . وهو ملكُ الترك فى زمان موسى عليه السلام ، على خلافٍ فى نسبه سبقَ هُناك . وأنها الآنَ بيد بنى جنكزخان من ولد طُوجى خان آبن جنكزخان .

ثم هذه المملكةُ بيد ثلاثة ملوك عِظام من بنى جنكزخان .

الأوّل — صاحبُ خُوارِزْم ودَشْت القَبْجاق . وتُعرَف فى القديم بمملكة صاحب السَّرير ، ثم عُرِفت فى الدولة الجنكزخانيّة ببَيْت بَرَكةَ ، نسبةً إلى بَرَكةَ آبن طُوجى خان بن جنكزخان . وقاعدتُها مدينة السَّرَاى(1) وهى مدينةٌ على نهر إتِل ، بناها بَرَكةُ بن طُوجى خان المقدّم ذكره . وقد تقدّم الكلام على ذلك مستوفًى فى الكلام على المسالك والممالك .

ثم فيها جملتان :

(1) هى مدينة الصراى بالصاد المهملة المتقدمة فى ج ٤ ص ٤٥٧ .

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى رسم المكاتبـــة إلىٰ قآنِهـا القائم بهـا)

قال فى "التعريف": وكان صاحبُها فى الأيام الناصريّة، (يعنى محمد بن قلاوون) «أُزْبَك خان» . وقد خطَبَ إليه السلطانُ فزوّجه بنتا تقرُّباً إليــه . قال : ومازال بين مُلوكِ هذه المملكة وبين ملوكنا قديمُ آتّحاد، وصِدْقُ وِداد، من أوّل أيام الظاهر بيبرس وإلىٰ آخر وقتٍ . ثم قال : والملكُ الآنَ فيهم [فى أولاد أزبك](١) : إما تنى بك، وإما جانى بك ، وأظُنُّها فى تنى بك . وقد تقدّم أن المَلِك بعد أزبك كان جانِى بك لا تنى بك، علىٰ خلافِ ماظنه فى التعريف .

ورسم المكاتبـة إلىٰ قآنِها الجامع لحـدودها قال فى " التعريف " : والأغلبُ أن يُكتَب إليه بالمُغْلِىّ . وذلك مما كان يتولّاه ايتمش المحمّدى، وطايرِبُغا الناصرى، وإرغدلق التَّرْجمان ، ثم صار يتولّاه قُوصُون الساقى . ورأيت فى بعض الدساتير نقلا عن القاضى علاءِ الدين بن فضل الله أنه كتب له مسوّدة علىٰ أن تكتب له بالعربىّ ثم بطل وكُتِب بالمُغْلى . قال : فإن كتب له بالعربى، فرسْمُ المكاتبة إليه مايكتب إلىٰ صاحب إيرانَ .

وقد تقــدّم نقلا عن " التعريف " انه يكتب فى قَطْع البَغْـدادىّ الكامل ، يبتدأ فيه بعـد البسملة وسطر من الخطبـة المكتتبة بالذهب المُزَمَّك ـ بألقـاب سـلطاننا علىٰ عادة الطُّغراوات ، ثم تُكمل الخطبـة ، ويفتتح ببعدية إلىٰ أن تساق الألقاب، وهى: «الحضرةُ الشريفةُ، العالية، السلطانية، الأعظميّةُ، الشاهنشاهيّةُ، الأوحَدية، الأخَوية، القانية . ولايخلطُ فيها «المَلَكيّةِ» لهوانها عليهم . ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المعظّمة المفخّمة الملوكية : من إعزازِ السلطان ، ونَصْرِ الأعوان، وخُلُود

(١) الزيادة من "التعريف" .

الأيام، ورَفْع الأعلام ، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وما يجرى هذا المَجْرىٰ . ثم يؤتىٰ بذكر دوام الوِدَاد والشَّوْق، ثم يذكر القَصْد ، ثم يختم بدعاء جليل وتستعرض المراسيمُ ويوصف التطلُّع إليها والتهافُتُ عليها .

قال في "التثقيف" : وكان يُكْتَب إلىٰ أزبك في الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» في ورق عَرْض البَغْدادىّ الكامل . وبعد البسملة الشريفة سطران هكذا :

بقُوّة الله تعالىٰ

ومَيَامِنِ المِلّة المحمدية

ثم يخلى موضعُ بيت العَلَامة ، ثم تكتَب الألقابُ السلطانيةُ، وهى : «السلطان الأعظم » وبقيةُ الالقاب الشريفة علىٰ العادة حسَبَ ما يأتى ذكْرُه . ثم بعد الحمدلة وخطبةٍ مختصرة جدًّا : «فقد صدرَتْ هذه [المكاتبة] إلىٰ الحضرة الشريفة العالية، حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشَّفِيق، العالِم، العادلِ، القانِ الأعظم، الأوحدِ، شاهنشاه ، الملك ، أزبك إل خان ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أوحدِ الملوك والسلاطين، عمدةِ المُلْك، سلطان المُغل والقِبْجاق والتُّرك، جمالِ ملوك الزمان، ركنِ بيت جنكزخان، معز طُغَاج، صاحب التَّخْت والتاج، عضُد المتقين، ذُخْر المؤمنين . والدعاء بما يناسبه . «فإننا نخصُّه بالسلام وآستعلام أخباره ونُفاوِض علمَه الشريف» . قال : والكتابةُ بالذهب والأسود حسَبَ ماتقدّم فى المكاتبة إلىٰ أبي سعيد ، وكذا العُنْوان . ثم قال : ولم يكاتَب أحدٌ بعده بنظير ذلك . وكان قد ورد علىٰ الأبواب الشريفة فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كتابُ جانى بك آبن أزبك ، وكُتِب إليه الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده، وهو فى ورقٍ دُونَ البغداديّ بثلاث أصابعَ مطبوقةٍ، والآفتتاحُ بخطبةٍ مناسبةٍ مكتتبةٍ بالذهب جميعِها، ثم أما بعد

بالأسود خَلَا ماتقدّم ذكره فى مكاتبة أبى سعيد. والعُنْوان بالذهب. والذى كُتب إليه من الألقاب: «الحضرةُ الشريفةُ، العاليةُ، السلطانيّةُ، الأعظميّةُ، العالمية، العادليّة، الأكملية، القانيّــة، الأخويّة، العزيزية، المَلَكيّة، الشَّرَفيّة زيدت عظمتها».

قال: ولمـا كان فى العشر الآخر من ربيع الأوّل سنةَ ست وسبعين وسبعمائة، رسم لى بالكتابة إلىٰ القان محمد ببلاد أزبك، وهو القـائمُ مَقام أزبك علىٰ ماقيل، علىٰ يد رُسُــل الأبواب الشريفة، بالسلام والمودّة وآستعلام الأخبار ونحو ذلك فكتبتُ إليه فى عَرْض البغدادىّ الكامل حسَبَ مارُسِم به، بخطبة مختَصَرة بالذهب، والبقيّة بالأسود والذهب علىٰ ما تقدّم ذكْرُه فى مكاتبــة القان أبى ســعيد. وكُتِب له من الألقاب بعد المراجعة: «المَقَام العالى، السلطانىّ، الكبيرىّ، المَلَكىّ، الأكرمىّ، الأعْدَلىّ، الشمْسىّ، شمْسُ الدنيا والدين، مؤيِّد الغُزَاة والمجاهدين، قاتلُ الكَفَرة والمشركين، ولىُّ أمير المؤمنين خُلِّدت سلطنته». والعنوان بالذهب بغير تعريف. وعلم له فى بيت العلامة الشريفة بالمَغْرة العراقيّة «المُشْتاق شعبان».

وهذه نسخةُ ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة.

الحمد لله الذى وهَبَنا مُلْكا دانتْ له ملوكُ الأقطار، وآزدانَتِ الأَسِرّةُ والتِّيجان بمـا له من عظمة وفَخَار، وأذعنتِ العظماءُ لعزّة سلطانه الذى شَمِل الأولياءَ وقَصَم الأعداءَ ببِرّه الجابر وقهره الجبّـار، وقاد الجيوشَ إلىٰ أن فتح اللهُ علىٰ يديه الشريفتين معاقلَ الكُفّار، بأمره الجارى علىٰ الرِّقاب وعسكره الجَرّار، ومَنَحه خدمةَ الحرمين الشريفين اللذين لم يزَلْ لهما منه الآنتصابُ وبهما له الآنتصار. نحمده علىٰ أن جعل مملكتنا الشريفة هى مَحَلّ الإمامة العباسية فلا جُحودَ ولا إنكار، ومرتبتَنا المنيفةَ بمـا عَهِد به إلينـا أمير المؤمنين إلىٰ قيـام الساعة عليّةَ المِقْدار، ونشكره علىٰ أنْ أورثَنـا مُلْكَ أسلافنا الشُّهداءِ فأقرّ العيونَ وسَرّ الأسرار، وجعل الســلطنةَ المعظمة فى بيتنا المكَرّم تنتقِلُ

تَنَقَّل الْبُدور فى بُروجِها إلا أنهـا آمنةٌ من السِّرار . ونشهد ان لا إِلٰهَ إلا اللهُ وحده لاشريك له شهادة لم نزل قائمين بنُصْرتِها، قانتين بالإخلاص فى كلمتها . لُنَعَدّ بذلك من الأبرار ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله المؤيدُ بملائكته، المخصوصُ بنبوّته ورسالته، الذى عَظّم الله قدرَه على سائر الرُّسُل كما جاءت النصوصُ والأخبار. صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أُولى الفضل الدارّ، صلاةً دائمةً باقية بدوام الليل والنهار، وسلّم.

أما بعد ، فإنَّ قلوبَ الأولياء وإن تناءتِ الأجسامُ متعارفةٌ بالإئتلاف، متقاربةٌ على بُعْد الديار حيثُ لاتناكُرَ بينهـا ولا اختِلاف، لاسيَّما ملوكُ الإسلام، الذين هم متَّحِدون بالمُصافاة والاستِسْلام ، فإن سرائرهم لم تزل متدانِيَه ، وضمائرهم متُكافِيه؛ هذا والمحبةُ لبيته(١) الكريم قديمه، والمودّة بين الأسلاف لم تَزَل مستَديمه؛ فلم نكُنْ وَرِثْنا ذلك عن كَلَاله، بل تَبِعنا فيه سبيلَ السلف الصالح على أحسنِ حاله : لمـا هو محكَم من عقود الاتّحاد والوَلَاء، حيث المحبةُ فى الآباء صلةٌ فى الأبناء، وكان لنا مدّةٌ مديدةٌ وقد تأخرتْ رسلُنا عن حَضْرته ولم تصدر من جهتنا الشريفـة، كذلك ولا وردت رسل من جهته؛ ولم يَشغَلْنا عن ذلك إلا مواقعـةُ الفرنجِ المخذُولين أعداء الدين، ومقارَعتُهم فى سائر السَّواحل بشدّةِ البأس والتَّمكين؛ إلى أن أمكنَ الله عز وجلَّ من نَوَاصِيهم وصَيَاصِيهم بنَصْرٍ من عنده، كما قال تعالى: ﴿وكانَ حَقًّا علَيْنا نَصْرُ المُؤمِنين﴾.

والآنَ فقد صدرَتْ هذه المكاتبة إلى المقام العالى السلطانى — وبقيةُ الألقاب والنُّعوت إلى آخرها حسب ماتقدّم ذكره — تخُصُّ مقامه بسلامٍ أرقَّ من النَّسِيم، وألطفَ مِزاجًا من التَّسْنيم، وثناءٍ قد أزْرَى نَشْرُه بالعَبِير، وسَرى بِشْره فغدَتْ تتهلّل به الأَسارير. وتُبْدى لعلم المقام العالى زيدتْ معدَلتُه أنه لمـا بلغنا من عدل الحضرة الشريفه، وإنصافه للرّعايا وتأمين سُبُل الجوْر المُخِيفه ؛ وسُلُوكه سَنَن الإحسـان ،

---

(١) لم يتقدم فى الكلام ما يعود عليه الضمير.

وتأكّد عقود المحبة على عادة مَنْ سلَف فى سالف الزمان ؛ قصَـدْنا مفاتحتَه بهـذه المكاتبَه، واردنا بُداءَته بهذه المُخاطَبه ، ليعلَمَ مانحن عليه من صحِيح الوِداد ، وأكيد الاتّحاد، وجميل الاعتقاد، وحُسنِ المُوالاة الخالصة من شَوائب الانتقاد، وجهّزنا بها رُسُلَنا فلان وفلان ومَنْ معهما نستدْعِى وُدّه، ونستدْنِى ولاءه الذى أحكم عَقْده، لتأكّد المصافاة بين هاتين الدَّولتين، والمخالصة من كِلْتا الجهتين، والمُوالاة بين المملكتين؛ ويأمر المقامُ العالى لازال عاليا بتَرَدُّد التُّجّار من تِلْكُم الديار، والمواصلة بالأخبار على حسب الاختيار، ومتابعةِ الرُّسُل والقُصّاد ، على أجمل وجهٍ معتاد .

وقد وجَّهنا إلى المقام العالى أعلى الله شأنه صحبةَ رسُلنا المذكورين من الأقمشة السَّكَندرىّ وغيرها على سبيل الهَدِيّه ، والمَواهِبِ السنِيّه، ماتضمّنتْه الورقة المجهَّزة طَيَّها ؛ فليأمُرِ المقام العالى دامت معْدَلتُه بتسليم ذلك، ويتيَقّنْ وفُورَ المحبة من سلطاننا المـالك، وتأكّدَ أسبابِ المودّة على أجمل المَسالك ، والله تعالى يجمِّل ببقاء سُلْطانه مُلْكَ المـالك، ويديم عَدْلَه المبسوطَ على الأولياء ويرْمِى ببأسه الأعداءَ فى مَهاوِى المَهالك، ويخلّد مُلْكَه الذى تفتخِرُ بالملك من مَقامه العالى السُّرُر والأرائك ؛ بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

وٱعلم أنّ صاحب " التثقيف " قد ذكر أن المكتوب إليه بهـذه المكاتبة هو القائم مقام أزْبَك، وأن ٱسمَه محمد، وأن المكاتبة إليه كانتْ فى سنة ستٍّ وسبعين وسبعمائة . وقد تقدّم ذكرُ من وَلِىَ هذه المملكةَ بعد أزْبَك ولم يكن فيهم من ٱسمُه محمد . وقد كان القائمُ بهذه المملكة فى سنة ستٍّ وسبعين المذكورة ٱسمه " أرْص " وهو الذى ٱنتزع المملكة من أبيك خان المقدّم ذكره ؛ وأصله من خُوارِزْم على ماتقدّم ذكْرُه فى الكلام على المسالك والممالك، فيحتمل أن يكون اسمُه محمـد وأرْص لقب

عليه، كما كان خَدَابَنْدا والدُ أبى سعيد من ملوك إيران، آسمُه محمد، ولقبه خَدَابَنْدا. والأمر فى ذلك راجع إلى النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : وقد كُتِب فى الدولة الناصرية "فرج" بن الظاهر برقوق، للقان القائم بها فى سنة آثنتى عشرةَ وثمانمائةٍ فى قَطْع البغدادىّ الكاملِ من الورق المِصْرىّ المعمولِ على هيئة البغدادىّ، آبتُدِئَ فيه بعد خمسة اوصالٍ بياضٍ بالبسملة فى أعلى الوَصْل السادس، ببياضٍ من جانبيها عرضَ إصبعين من كل جهة، والسطر الثانى على سَمْته فى آخِرِ الوَصْل، بخلوّ بياض من الجانبين بقَدْر السطر الأوّل، والطُّغْراة بينهما بألقاب سلطاننا على العادة، مكتوبةٌ بالذهب بالقلم المحقّق مزَمّك بالسواد، بأعلى الطُّغْراة قدرُ عَرْض ثلاثة أصابع بياضًا، ومثل ذلك من أسفلها، وباقى السُّطور بهامش من الجانب الأيمن على العادة، وبين كلِّ سطرين قدرُنصف ذراع بذراع القُماش القاهرِىّ، والأسماءُ المعظَّمة : من آسم الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلم، وآسمِ سلطاننا والسلطان المكتوب إليه، والضمير العائد على واحد منهما بالذّهب المزَمّك كما تقدّم تقريره فى الكلام على مكاتبة صاحبِ إيرانَ فى القديم .

وهذه نسخة ممــا أنشأتُه، كتبتُ بإشارة المَقر العالى الفتحىّ : صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف وهى :

الحمد لله مؤيِّد سلطاننا «الناصرِ» بعزيزِ نَصْره، ورافعِ قدْرِ مَقامِنا الشريف بإعلاء مَنَاره وإعظام ذِكْره، ومُشَيِّد أركان مُلْكنا الشامخ بإسعاد جَدّه العالى والله غالبٌ على أمره . نحمَدُه على ماجنّب من مَوَاقع الحَرَج، وجعل أُمُورَ رعايانا بمعْدَلتنا الشريفة بعــدَ الضِّيق إلى فَرَج ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارثُها عظماءُ الملوكِ كابرًا عن كابر، ويتناقلُها منهم الخلَفُ بعد السَّلَف فيُسْنِدها الناصِرُ عن

الظاهر ، ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله أفضلُ نبيّ جمع بعُموم دعْوته مفترِق الأُمم، ووفّق بحنيفيّ ملّته بين أقيال العرب وأساوِرة العَجَم؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آخى بينهم فسنّ المُؤاخاه،ونقّى من نَغَل الضّغائن صُدورهم ففازُوا بأكمل المُصافاة وأتمّ المُوافاه؛ صلاةً تَسِير بفضلها الرّكائب، وتترنّم بذكرها الحُداة فتعمّ نفحاتُها المَشارِقَ والمَغارِب، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فإنّ الأرواحَ إذا تمازَجتْ تناجتْ بالضّمائر، والقلوبَ إذا تآلفت اغتنتْ بشواهد الحِبالِ عن إبراز مافي السّرائر؛ والأجسادَ إذا تباعدتْ تعلّلتْ بالمكاتَبات في بُلوغ الأوطار، والدّيارَ إذا تنابت اكتفتْ بالمُراسلة عن تقارُب الدّار؛ والمودّةَ إذا صفتْ لايؤثّر فيها البِعاد، والمحبّةَ إذا صدَقتْ لاتزال كلّ يوم في ازْدياد؛ (والأُذُن تعشَق قبْلَ العينِ أحيانا)، والوصفُ يُحرّك من الشّوق أغصانًا وأفنانا .

هذا وإنّ أحقّ مااتّخذته الملوك ذَريعةً لدواعِي الابتهاج، وأهمّ مااهتمّ به مُتختِّت بتخْت أو مُتوّجٌ بتاج؛ إحياءُ مَذاهب الملوكِ السالفةِ في الوِداد، واقتفاءُ آثارِهم الجميلةِ في مَوارِد المكاتبات على التّنائي والبِعاد؛ ومن ثمّ صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المقام العالي، السلطانيّ، الكبيريّ، الأخويّ، الفلانيّ؛ ركنِ الملّة الإسلاميّـه، عمـادِ المملكة الجنكزخانيّه، ذخيرةِ الدين، خليلِ أمير المؤمنين ـ زيدتْ عظمَته، ودامتْ معْدلتُه ـ تخُصّه بسلامٍ تهُبّ به الجنوب فتؤثّر به في الشَّمال القَبُول ، وتخُصّ به إلى السّراي سُراها ليكونَ لها ببيْت بركةَ أشرفُ قَدَم وأكرمُ وُصول؛ وتمُدّ على خُوارزْم والدّشت فضلَ رُواقه المَديد؛ وتنْشُر على مملكةِ السّرير لواءَه فيعم مابين جَيْحُون وطرنا[1] ويشْمَل مابين الخِطّا[2] والباب الحَديد. وتُناجِي علمَه الشريفَ بأنه غيرُ خافٍ عن شريف مَقامه

---

(١) لعله طنبا . أو طرلو .

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر كما تقدم ضبطه كذلك في ج ٤ ص ٤٨٣ .

أن مَنْ سلفَ من ملوك مملكتنا العالية الذُّرى، والمملكة القانية المرفوعة الذِّكْر رفْع نار القِرى؛ لم تزل ملوكهم مجتمعةً مع تنائى الدِّيار، مؤتلفةً على المحبَّة وإن شطَّ المزار، محافظين على تتابُع الرُّسل وإن حالَ دونهم الصِّفاح، مثابرين على توارُد الكُتُب ولو على أجنحة الطير ومتون الرِّياح؛ وقد مضت مدّةٌ مديدةٌ لم يقدم علينا من المقام الشريف ـ عظّم الله تعالى شأنه ـ رسولٌ يُطفئ لواعجَ الاشتياق، ولا ورَدَ عنه كتابٌ يتعلَّل المحبُّ بتلقِّيه عن حقيقة التلاق؛ بل سُدَّ بابُ المكاتبة حتَّى كأنَّ المكاتبة لم تُخلَق، وأُغلِقَ بابُ المراسلة وإن كان بابُ المحبَّة ـ بحمد الله ـ لم يُغلَق؛ فطمَح بخاطرنا الشريف طامحُ الشوق المُتزايد، وحملنا موصولُ المحبَّة المستغني بمواصلته عن الصِّلة والعائد، أن نُفاتحَ المقامَ العالىَ دامتْ معدلتُه بهذه المُفاوضة: لتُجدِّد من العهود القديمة رُسومَها، وتُطلِعَ من مشارق المخاطَبة نُجومَها؛ وتنسخَ آيةَ الهجران وتمحُوَها، وتصقُلَ مرآةَ المُصافاة وتجلوَها؛ وتستجلبَ الأُنس وإن عمَّ الميثاق، وتُذكِّرَ الخواطرَ الوِداد وإن ثبتَتْ منه الأُصول ورسَخت الأعراق؛ وتنوبَ عن نظرنا الشريف فى مُشاهَدة مُحيّاه الكريم، ومُصافحة كفِّه التى حديثُ وُدِّها قديم؛ وتستطلِعَ أخباره، وتستعرِض على تعاقُب الأزمان أوطاره.

وقد اخترنا لتبليغ رسالتِها، وأداء أمانتِها؛ المجلسَ السامىَ المقرَّبَ الأمين خواجا فلان أعزّه الله تعالى، وحمّلناه من السلام ما يهتدى بضَوْئه السارى، ويفُوقُ بعَرْفه العنبرَ الشِّحْرىَّ والمِسكَ الدّارى: ليُحكم بحُسْن السِّفارة من المُخالَصة مبانيَها، ويعقِدَ منها بمتابعة الرُّسل والقُصّاد أواخيَها؛ وجهّزنا صحبتَه كذا وكذا على سبيل الهديَّة المندوبِ بذلُها وقبولُها، والحاكم بصحّة عقد المحبَّة كثيرُها وقليلُها؛ والله تعالى يزيدُ فى ارتفاع قدْره الخطير، ويحُوط به من ملكه الجنكزخانى ما يُحقِّق أنّه صاحبُ التاج والسَّرير.

الجمــلة الثــالثــة
(فى رسم المكاتبة إلىٰ مَن انطوت عليه هذه المملكةُ من الأتباع والحُكّام؛
وهم علىٰ [1] أصــناف)

الصِّــنفُ الأوّل
(كُفّال المملكة)

قد تقدّم أن ترتيب هــذه المملكة فى أُمَراء الأُلُوس والوزير نحوُ مملكة إيرانَ ، وإنْ لم يكن لأَميرِ الأُلُوس والوزير بهــذه المملكة من نَفَاذ الأمر نظيرُ ماهُنالك . ومقتضىٰ ذلك أن يكونا منحطَّين فى الرتبة عن أُمَراء الأُلُوس بإيرانَ والوزير بهــا؛ وهذه الرسوم التى وقعتْ فى مكاتباتهم علىٰ ما أورده فى "التثقيف" .

وأمَراء الأُلُوس أربعة، أكبرهم يسمّٰى بكلارى بك بمعنى أمير الأمراء كما تقدّم فى مملكة إيران . فقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان منهم فى ســنة اثنتينِ وثمــانينَ وسبعمائة قطلوبُغَا إيناق ، وأنه كُتب إليه فى عاشر جمادىٰ الآخرة منها ما صورته :

«ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمى، العادلىّ، المؤيَّدىّ، العَونىّ، الزّعيمىّ، الممهَّدىّ، المشيَّدىّ، الظهيرىّ، الذُّخرىّ، السَّيفىّ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين، سيفِ الأمراء فى العالمين، نُصْرةِ الغُزاة والمجاهدين، زَعيمِ الجيوش، مقدّمِ العساكر، كهفِ الملة، ذُخْرِ الدولة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيفِ أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والعلامة «أخوه» وتعريفُه «قطلوبُغا إيناق نائب القان جانِى بك» .

---

(١) بياض فى الأصل ومع ذلك لم يذكر الا صنفين .

ثم ذكر أنَّ الأمر كان عند القان محمد بمثابة الأمير يلبغا العُمَرى ، يعنى الخاصكىّ بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وأنه آستُحدِثت المكاتبةُ إليه فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وأنه كتب إليه فى قطع الثُّلُث ما صورتُه :

«أدام اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيَّدى ، الذُّخرىّ ، النَّصيرىّ ، الهُمامىّ ، المقدَّمىّ ، التَّوفيقىّ ، السيفىّ ، عِزِّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأمراء فى العالمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، ذُخر الدولة ، عَضُد الملوك والسلاطين ، حُسَام أمير المؤمنين» . والدعاء المناسب . والعلامة «والده» . وتعريفه «بماى» . وفى هذا نظر : لأنَّه إذا كان بمثابة ما كان عليه يَلبغا بالديار المصرية ، فمقتضاه أن يكونَ أكبرَ أمرائه . وإذا كان كذلك ، فكيف يكتب إليه دونَ أمراءِ الألُوس؟ فقد تقدّم أنه يكتَبُ إليهم : « ضاعف الله تعالى نعمةَ الجَنابِ العالى» .

الوزيرُ بهذه المملكة . قد ذكر فى "التثقيف" أن الوزير بها كان آسمُه محمودا ، ولقبُه حُسَام الدين ، وكان يعرف بمحمود الدِّيوان . وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قطع الثلث ما صورتُه :

«أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، الأوحدىّ ، الأكملىّ ، المتصرِّفىّ ، العَونىّ ، الوَزيرىّ ، الحُسامىّ ، مجدِ الإسلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء والوزراء فى العالَمين ، جمالِ المتصرِّفين ، أوحَدِ الأولياء المقرَّبين ، ذُخرِ الدولة ، مشيرِ الملوك والسلاطين . ثم الدعاء ، والعلامة «والده» . وتعريفُه «خَواجا محمود وزير المملكة القانيّة » .

قلت : وقد علمتَ أنّ المكاتبــةَ إلى أمراء الألُوس والوزير بهــذه المملكة دُونَ المكاتبــة إلى أمراء الألُوس والوزير بمملكة إيرانَ ، فقد تقدّم أنــ المكاتبةَ إلى بكلارى بك أكبر أمراء الألُوس بمملكة إيران: «أعزّ الله تعالى نَصْر المَقَرّ الكريم» ، وإلى الثلاثة الذين دُونَه : «أدام الله تعالى نَصْر الجناب الكريم » ، ثم آستقرّ «أعز الله تعالى أنصارَ الجناب الكريم » . وأن المكاتبة إلى الوزير : « ضاعَفَ الله تعالى نِعمةَ المجلِس العالى» . والمعنىٰ فى ذلك ماتقدّم من أنه ليس لِأُمراءِ الألوس والوزيرِ بهذه المملكة من التصرُّف مالأُمراء الألُوس والوزيرِ من التّصرّف بتلك المملكة .

قَجَا على بك بهذه المملكة . قال فى "التثقيف" : وهو ممن آستُحدِثَت المكاتبة إليه فى سنة خمس وستين وسبعمائة .

وزمم المكاتبة إليه فيما ذكره فى " التثقيف " الأمم و « السامىّ » بالياء وتعريفه آسمــــه .

الصـــــنف الثـانى

(الحُـــكّام بالبـــلاد بهـــذه المملكة)

وها أنا أذكُرُ مَنْ ذكر المكاتبةَ إليه منهم فى "التثقيف" .

الحاكم بالقِرِم : وهو إقليمٌ شمالىَّ بحر نِيطِش . وقاعدتُه مدينة صُلْغَات ، وهى مدينة على نصف يومٍ من البحر، وقد غَلَب عليها آسمُ القِرم . وقد ذكر فى "التثقيف" أن الحاكم بها فى سنة خمسينَ وسبعمائة كان آسمُهُ زينَ الدين رمَضَان ؛ ثم آستقرّ بعده على بك آبن عيسى بن تلكتمر . وقـــد رأيت فى بعض التواريخ أن الحـاكم بهـا فى حدود ســنة ستّ وسبعين وسبعمائة كان مَامَاى المقــدّم ذكرُه . وقد ذكر

فى "التثقيف" أن رسمَ المكاتبة إلى الحاكم بها فى قَطْع العادة، والعلامة «أخوه». و «صدرتْ» و «العالى». والذى رأيتُه فى دُستورٍ يُعزَى فى الأصل للمقرّ العَلَائىّ بن فضلِ الله أنه يكتَبُ إليه فى قطع الثُّلث وأن المكاتبةَ إليه «السامىّ» بالياء. وتعريفه «الحاكم بالقِرِم».

الحاكم بأُوزَاق : وهى مدينةٌ على بحر مانِيطش المقدّم ذكره فى الكلام على المسالك والممالك. وهو المعروفُ الآنَ ببحر الأزْرَق؛ وهى عن القِرِم فى جهة الجَنُوب والشرق، وبينهما نحوُ خمسَ عشرةَ مرحلةً. قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إلى الحاكم بها مثلُ الحاكم بالقِرِم على السّواء. والذى رأيته فى الدُّستُور المقدّم ذكرُه أنه فى قَطْع الثلث «السامىّ» بالياء كما فى الحاكم بالقِرِم.

الثـــــانى

(من ملوك تُورانَ من بنى جنكزخان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدةُ مُلْكه فى القديم بُخارا، والآنَ سَمَرْقَنْد. ومن مضافاتها غَزْنَةُ وما والاها من مُتَاخِم الهند. وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام على المسالك والمَمَالك. وقد ذكر فى "التعريف" أنّ آخرَ ما استقرّتْ لترماشِيرِينَ، وكان حسَنَ الإسلام عادلَ السِّيرة، طاهرَ الذّيْل، مُؤْثِرا الخير، محبًّا لأهلِه، مُكْرِما لمن يَرِد عليه من العلماء والصُّلَحاء، وطوائف الفُقَهاء والفقراء.

قال : وكُتِب إليه على رسم المكاتبة إلى صاحبِ إيرانَ. وقد تقدّم فى الكلام على المكاتَبةِ إلى صاحب إيران نقلا عن "التعريف" أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع

البغدادىّ الكامل ، يبتدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخُطْبة الغراء المكتتبة بالذهب المزمَّك بألقاب سلطاننا على عادة الطُّغراوات ؛ ثم تكمَّل الخطبةُ ويُفتتح ببعدية الى أنْ تُساق الألقابُ، وهى : «الحضرةُ العالية، السلطانيّة ، الأعظميّة، الشاهنشاهيّة، الأوحدية، الأخَوية، القانيّة، الفلانية» . ولا يخلط بها «الملَكِية» لهوانِها عليهم ؛ ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المفخّمة الملوكية : من إعزاز السُّلطان، ونَصْر الأعوانِ، وخُلُود الأيام، ونَشْر الأعلام، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . ثم يُقال مافيه التصريحُ والتلويح بدَوام الوِداد ، وصفاءِ الاعتقاد، ووَصْف الأشواقِ، وكَثْرة الأتواق، وما هو من هذه النسبة؛ ثم يُؤتى على المَقاصد ،ويختمُ بدعاءٍ جليل وتستعرض المَرَاسيم والخِدَم،ويُوصَف التطلُّع إليها، ويظهر التهافُتُ عليهـا؛ وأنه تكتَب جميع خُطبة الكتاب وطُغراه بالذهب المزمَّك، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من آسم جليل ،وكل ذى شأنٍ نبيلٍ : من آسم الله تعالىٰ أونبيه صلّى الله عليه وسلم؛أو ذكرِ الإسلام،أو ذكر سلطاننا أو السلطان المكتوب إليـه، أو ماهو متعلّق بهما ، مثل لنا ولكم، وكتابُنا وكتابُكم، جميعُ ذلك يكتب بالذهب وما سِواه بالسَّواد . وأن العُنوانَ يكون بالألقاب إلى أن ينتهىَ إلى اللقب الخاص ؛ ثم يُدْعىٰ له بدعوةٍ أو اثنتين نحو أعزَّ الله تعالى سلطانَها ، وأعلىٰ شانَها؛ ونحو ذلك . ثم يسمَّى آسمُ السلطان المكتوب إليه؛ ثم « يقال » خان : مثل أن يقال : ترماشيرين خان ، ويطْمَغُ بالذهب طَمَغات عليها ألقابُ سلطاننا تكونُ على الأوصال، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أوّل وَصْل،وعلىٰ اليسار فى ثانِى وصْل،ثم علىٰ هذا النمط إلىٰ أن ينتهِىَ فى الآخر إلىٰ اليمين؛ ولا يُطْمَغ علىٰ الطرّة البيضاء. والكاتب يخلِي لمواضِع الطَّمْغَة مواضعَ الكتابة تارةً يمنةً ، وتارة يسْرةً، إلىٰ غير ذلك مما سبق القول عليه .

قلت : وآخرُ ما آستقرت هذه المملكة لتُمُرلنك، وتُمُر آسمه الذى هو علَمٌ عليه، ومعناه بالتركية حديد . ولَنْك لقبٌ عليه، ومعناه بالفارسية أعْرَج : لأنّه كان به عرَجٌ ظاهر، ولذلك تسمّيه التُّرك تُمُر أقصق، إذ أقصَق عندهم بمعنىٰ أعرج . وهو يتسمّى فى كُتُبه تيمور كوركان . ومن هذه المملكة آنساب علىٰ بلاد إيرانَ حتّىٰ آستولىٰ علىٰ جميعها، وسار إلىٰ بلاد الهند فاستولىٰ عليها، ثم طاح إلىٰ الشام فى سنة ستٍّ وثمانمائة وعاثَ فسادًا، وخرّب وأفسد ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » فرَج آبن الظاهر برقوق صاحب مصر والشام علىٰ دِمَشْق، وجرت بينهما مراسَلةٌ، ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ماأوجب عَوْده إلىٰ مصر لأمرٍ عرَض له من جهة بعض أمرائه، وبقِىٰ تُمُرْلنك نازلًا بالشام محاصِرًا لدمَشْقَ، إلىٰ أن خدَعَ أهلَها وفتحها صُلْحا، ثم غَدَر بهم ونهبها وسبىٰ حريمَها، ثم حرّقها بعد ذلك بعد أن أسرف فى القتل وأثخَن فى الجراح، وأمعَن فى الأسْر .

والمكاتبة اليه حالتان :

الحالة الأولىٰ — حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج - عزّ نصره - بالشام محاربا له، وكُتُبه حينئذ تَرِد فى القطع الصغير علىٰ ماسيأتى ذكره، وكان يكتب إليه حينئذ فى قطع [1]

(١) بيض المؤلف لبقية الكلام، وآستدرك بعضهم له بقية وأثبتها فى النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا "بما فات المؤلف" .

ممـا فات المؤلف رحمه الله تعالىٰ

ما كُتب عن مولانا الشهيد الملكِ الظاهر أبي سعيد برْقُوق، تغمّده الله تعالىٰ برحمته ورِضْوانه ، فى جوابِ الأمير تمرلنك المدْعُوّ تيْمور ، عن الكُتُب الواردة منه قبْـلَ ذلك ــ من إنشاء المرحوم المَقرّ البـدْري محمد ،ابن المرحوم المقر العلائىّ علىّ ابن المرحوم المقرّ المحْيَوى يحيى، بن فضل الله العُمَرى العـدَوى القرشىّ رحمهم الله تعالىٰ ــ فى سنة ست وتسعين وسبعمائة، عند سَفَر مولانا السلطان المشار إليه إلىٰ حَلَبَ المحروسة لملتقى المذكور، فى قطع الثلُث بغير علامة ،وسَعةُ مابين السطور قدر عَرْض الإصبعين . والطرّة وصلان، طولُها نحو الذّراع الهاشمىّ ، وكان عُنوان كتاب تمرْلنك الذى ورد آخرًا وهو الذى اقتضىٰ الحركةَ الشريفةَ والجوابَ المشارَ إليه :

سلامٌ وإهْداءُ السّلامِ من البُعْدِ * دليلٌ علىٰ حُسْن المودّةِ والعَهْدِ

فكتب العنوان الشريف :

طَويلُ حياةِ المرْءِ كاليوْمِ فى العدّ * فَخيرتُهُ أن لايَزِيدَ عن الحدّ!

فلا بُدّ من نقْصٍ لكلّ زيادةٍ * لأنّ شديدَ البطْش يقتصّ للعبْد!

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلىّ الشان، العظيمِ السلطان، العَميمِ الإحسان، العليمِ بما كانَ ومايكونُ فى كل زمانٍ ومكان، تاهتْ فى ميَادين فَلَوات معرِفته سَوَابقُ جيادِ الأفهام، وتدكْدكتْ لهَيْبة جَلَاله جبالُ العُقُول والأوهام، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد حبيب الرحمٰن، وسيدِ الأكوان، وصاحبِ المعجزات والبرْهان ، المبعوثِ الىٰ الخلق أجمعين من الإنس والجـانّ ، والمنعُوتِ بالفضل العميم، والخُلُق العظيم، فى التّوراةِ والإنجيل والزبور

والفُرْقان، وعلى آله وصَحْبِه الغُرِّ الكِرامِ الحِسان، وعلى التابعين لهم بإحسان، وسَلَّمَ تسليما كثيرا ماتَعاقَبَ الحَدَثان .

وبعد، فقد وصلَ إلى أبوابنا الشريفةِ العاليةِ كُلُّ ماجهَّزته أوّلا وآخرا بالأمير تيمور من كِتاب، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بما فيها من كلامٍ وخِطاب، وقَصْدٍ وعِتاب، وإرْعادٍ وإرْغاب وإرْهاب .

فأما ما ذكرته فى أول كُتُبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم، والتَّبجيل والتفْخيم، فقد علمناه وعَرَفناه، ولكن وجدنا الكلمتيْن اللتين فى الطمغات آخِرَ الكُتُب وهما راسْتي رِسْتي منافيتَين لذلك التعظيم، وهذا غيرُ مستقيم، لأنه متناقضٌ غير متناسِب، فعجِبْنا من هذا التناقُض الواضح، والتخالُف الفاضح، وفى المثل السائر : « أَصْلِحْ وقابِلْ وأفسِدْ وقابِلْ » .

وأمّا إرسالُك السيفَ والتَّرْكاش لنا، فقد تعجّبْنا منه إلى الغايه، وأنكَرْناه إلى النّهايه : لأنك لم تزَلْ فى كُتُبك كلّها تستشهِد بتاريخ جنكزخان وأخبارِه وأحوالِه، وتقتَدِى به فى أقوالِه وأفعالِه، وما سمِعْنا فى التواريخ ولا اتّفق قطُّ من جنكزخان، ولا ممن تقدّمَه وتأخّره من ملوك مملكته فى زمنٍ من الأزمان، أنّه أهدَى إلى خادم الحَرَمين الشريفين سَيْفا ولا تَرْكاشا، ما اختلَفَ فى ذلك اثنان . فإرسالُها منك إلينا هل هو من باب المحبة أولا، وإن كان تخويفا، فنحن مانخافُ من سَيْفك وتَرْكاشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السَّيْفُ والرُّمْحُ والنُّشّاب قد علِمَتْ * مِنّا الحُروبَ فَسَلْها فَهْىَ تُنْبِيكا!
إذا التقَيْنا تَجِدْ هذا مُشاهَدَةً * فى الحَرْبِ، فاثبُتْ فأمرُ الله آتِيكا!
بخِدْمة الحَرَمَيْنِ اللهُ شَرَّفَنا * فَضْلًا ومَلّكَنا الأمصارَ تَمْلِيكا!

وبالجيلِ وحُلْوِ النَّصْـــرِ عوَّدنا، * خُذِ التَّوارِيخَ واقْـــرأْها تُلَبِّيكا!

والأنبياءُ لنا الرُّكْنُ الشَّـــديدُ فكَمْ * بجـاهِهِمْ من عَدُوّ راحَ مَفْلُوكا!

ومَن يكُنْ ربه الفَتّاحُ ناصِرَه، * ممَّن يخافُ؟ وهذا القولُ يكْفِيكا!

وقد أجبناك عن السيف والتَّرْكاش فيما مضى قبلَ هذا الوقت وتقدّم ، فاعرِفْ ذلك واعْلَمْ .

وأما ما ذكرتَه من قولك : إنك فتحتَ معنا بابَ المحبة والوِدَاد ، والصُّحْبة والاتِّحاد، لا بابَ المخاصمة والمُشارَرة والعِناد، فقد علمنا ذلك وفهمناه. والذى نُعرّفك به أنّ الذى وقع منك بخلاف ماقلتَ : لأنك لو كنتَ صادقا فى قولك، كنتَ لمّا حضر إليك شُكْر أحمد وأرْغُون السلامى اللذان هما من بعض مماليكنا ومن جملة رَعايانا أمسكْتَهما وجهَّزتَهما إلينا بعد أن قيَّدتَهما ؛ فما فعلت ذلك بل عملت بالضدّ منه لأنك آويتَهما، وحَميتَهما وعظَّمتهما وأكرمتهما، وجعلتَهما من خواصِّك وأحبابك، وأوليائك وأصحابك . وأيضا توجّه إليك صَوْلة بن حِيار(1) الذى هو قِطْعة هجّان من هجّانتنا فأكرمته، وألبسته التاجَ وعظَّمته، وبعثتَ معه خِلعةً إلى نُعَيْر المذكور وإلى غيره من عُرْبانه، ووعدتَه بالتَّقْدِمة والإماره، بالتصريح العظيم لا بالتلويح والإشاره؛ وكتبتَ إليه كتابا ما تركتَ فيه ولا خَلَّيت، وأظهرتَ كلَّ ما كان عندك وما أبقيت؛ فجهّزه إلينا وقُرِئَ على مسامعنا الشريفة كلمةً كلمه، وعرَفْنا واضحَ معناه ومبهَمه؛ وها نحن نشرحُه لك لتعلَمَ وتتحقّق أنه وصل إلينا، واطّلعنا عليه وما خفِيَ أمره علينا . وهذا نصه :

(1) هذا الضبط من الأصل ورسم فيه تحتها حاء صغيرة إشارة إلى الإهمال ولكن الذى سبق فى الأجزاء المتقدمة جبار بالجيم والباء تبعا للأصل والضوء والتعريف فحرر .

دام دولتـــه

الأمير الكبير، المعظَّم أمير نُمَير، أدام [الله] دولته شمسا. نُعْرِض لعلُوّ علومه المحروسة أنه قد اتّصل بنا طَرْدُك عن الشام، ومعاملتُهم معك غيرَ الواجب. حال وُقُوفك على هذا المثال تُشْرِع فى الوصول إلينا بحيث نُعْطيك ما أُعطِىَ المرحوم عمك أمير سليمان طابَ ثراه، ونجعلُك مقدَّم العساكر المنصورة؛ وبهذا بَرَزَ الحكمُ المطاعُ من الحضرة العاليــة ؛ ففى عزم العساكر والجيوش المعظّمة الوصولُ إلى أطراف البــلاد شَرْقا وغَرْبا ورُوميًّا من سائر النواحى والأمصار، والبلاد والأقطار، وإنْ أبطأ ركابُك عن الوصول، فنحن واصلُون إليكم فى طريقنا إلى مِصْر وغيره، ولا يبقى لطاعتك مزيّة ولا منّــة ، فيكون ذلك على الخاطر المبارَك . فينبغى أن لايكونَ جوابُ الكتاب، إلا قُدومَ الركاب؛ ففيه لكم الفوائدُ العظيمه، والعطايا الجسيمه، ومعَ [ذلك] إصابةُ الرأى منكم، تُغْنى عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عَرِض من المهامّ يقضىٰ حسَبَ المراد، ومَنْهج السَّداد؛ والله الموفق .

وبحاشية الكتاب المذكور ما نصُّه :

وقد كتبنا إلى الســلطان أحمد أنْ يصــلَ إلينا ، فانظُرْ كيف كان عاقبةُ أمره ؟ فينبغى أن تتوجّهَ أو يتوجّه بعضُ أولادك إلينا لأجل مَصَالحك كافّةً .

فيا أمير تَيْمُور لو كنتَ صادقًا ، وكلامُك بالحق ناطقا، ما وَقَع منك مثلُ هذا ولا صدَر، ولا اتّفق بَلْ ولا ببالك خَطَر؛ ولكن كلُّ مايكونُ فى خاطر الإنسان يظهر من الكلام الذى يخْرُج من فيه، وكلُّ وعاءٍ ما ينضح إلا بمــا فيه .

يافاعِلًا بالضِّـــدّ من قَوْلِهِ * فِعلُ الفتى دالٌّ على باطنه،

والمَــرْء مَجزِىٌّ بأعمــاله * إذا أظهرتْ ما كان فى كامنه!

وأما طلبُك منّا السلطان أحمد الجَلايرى غيرَ مرّة، فقد علمناه. ولكن عرِّفنا يا أمير تيْمُور إيش تحمل بك ؟ حتّى حلفت له عِدّة مرار بأيمـان الله تعالى العظيمة وأعطيتَه العهود والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلى مملكته ولا تواقيه ولا تشوّش عليه، حتّى أطمأنّ بأيمـانك، وركن إليك، وأحسن ظنّه فيك، ووَثِق بك، وأعتمدَ عليك بُحتّه وغدْرته، وأتيته بغتة على حين غَفْلة وبَدْرته ؛ وأخذت مملكتَه وبلادَه، وأموالَه وأولادَه . وأعظمُ من ذلك أنّك أخذتَ أيضـا حريمَه وهُنّ فى عَقْد نِكاحه وعصْمته وأعطيتَهنّ لغيره، وقد نطق الكتابُ والسنةُ بتحريم ذلك وعُظْمِ ذَنْب فاعله وقَبيح جُرْمه، ففى أىّ مذهَب من المذاهب يحلُّ لك أخذُ حريم المسلمين، وإعطاؤُهنّ لغير أزواجهنّ من المُفْسِدين الظالمين ؟ وهنّ فى عِصْمة أزواجهنّ وعقْد نكاحِهِنّ إنّ هـذا لَهُوَ البَلاء المبين ؛ وكيف تدّعى أنك مسلم وتفعَل هذه الفِعَال ؟ عَرِّفنـا فى أىّ مذهَب لك هـذا حَلال ؟ فأعمالُك هـذه كلُّها منافيةٌ لدعواك، بل منافيةٌ لدِين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . قال الله تعـالىٰ : ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الكافِرُون﴾ وقال : ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الظّالِمون﴾ وقال : ﴿ومَنْ لم يَحْكُمْ بمـا أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُم الفاسِقُون﴾ وقال عز وجل : ﴿ومَنْ يَتَعدَّ حُدُودَ الله فقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾ وقد بيّن لنا الخيرَ والشرّ، والحلالَ والحرامَ وأهلها فقال : ﴿إنّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِى القُرْبىٰ وَيَنْهىٰ عنِ الفَحْشَاءِ والمُنكرِ والبَغْىِ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنَا إنّهُ كانَ فاحِشَةً ومَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا﴾ وقال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُون الّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خاشِعُونَ والّذِينَ هُمْ عَنِ اللّغْوِ مُعْرِضُون والّذِينَ هُمْ للزّكاة فاعِلُون والّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلّا علىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ فإنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرَاءَ ذٰلِكَ فأُولئكَ هم العادُون﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كُلُّ المُسْلِمِ علىٰ المُسْلِمِ

حرامٌ دمُه ومالُه وعِرضُه". وقال عليه السلام: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ ولِسَانِهِ". ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تستحِلُّ هـذه المحرّمات العظيمة، والمُنْكَراتِ القَبِيحة الشنيعة الجَسِيمة، التى يهتزُّ لهـا العَرْش ويَغْضَبُ اللهُ عز وجلّ لهـا ورُسُلُه والملائكةُ والنـاسُ أجمعون؟ وما كفىٰ ما فعلْتَ مع القان أحمد المشار إليه حتّى تطلبُه منا؟. اعلم أنّ القانَ أحمد المشار إليه قد آستجار بنا وقَصَدنا، وصار ضَيْفَنا؛ وقد ورد: مَنْ قصَـدَنا وجَبَ حقُّه علينا. وقال تعـالىٰ لسيد الخلق أجمعين فى حقّ الكفار الذين هم أنحس الناس: ﴿وإنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ آسْتَجَارَكَ فَأَجِرْه حتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه﴾ فكيف بالمسلمين إذا آستجاروا بالمسلمين؟ وكيف بالمُلُوك أبناءِ ملوك المسلمين، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع مُلُوك الإسلام خُدّامِ الحرمين الشريفين صُحبةٌ ومحبةٌ وأخوّة فى الله تعالىٰ؟ ولو لم يكن ذلك كيف يجوز فى شَرع المُرُوءة والنَّخوة والوفاء أن نُسَلِّم ضيفَنَا ونزيلَنَا والمستجيرَ بنا؟ خصوصًا وجِنْسُنا جَرْكَس جنسُ ملوك الإســلام السالفين، خُدّامِ الحرمين الشريفين الذين آتّفق لهم مع التّتار ما تشهَدُ به التواريخ، ومن عادتنا وشأننا وطِبَاعِ جِنْسنا أننا لا نُسَلِّم ضيفَنا ولا نزيلَنا ولا مَنِ آستجار بنا لأحدٍ. وإن كنت ما تُصدّق ذلك فعندك مَنْ هم من جنســنا، سَلْهُم يعرفُوك، فنحن لا يُضام لنا نَزِيل، ونَقْرِى الضَـيفَ ونعامِلُه بالجميل، وهـذه جِبِلّتنا الغريزيّةُ وعادةُ أصْلِنا الأصــيل؛ فإرسالُ القان أحمد إليك أمرٌ مستحِيل.

إنّا ذَوُو الفَضْلِ الغَزِيرِ الوارِفِ * أبوابُنَـا هِىَ مَلْجأٌ لِلخـائفِ!

نَقْرِى الضُّيوفَ ولا يُضامُ نَزِيلُنا، * شِيَمٌ وَرِثْنَـا فَضْلَها عن سالِفِ!

وكُلَيْمةٌ تَكْفِى الذى هو عاقِلٌ، * والرَّمْزُ تصريحًا غَدَا للعـارِفِ!

وقولك : إن العادة كانتْ جاريةً بين مَنْ سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار، أنه مَنْ هرب من جهةٍ إلىٰ أخرىٰ يُمْسكه الملك الذى يهرُب إليه ويقيّده ويجهّزه إلىٰ الملك الذى هَرَبَ من عِنْـده ، وأن دَمِرْداش بن جُوبان لمـا هرب فى الزمن المـاضى من مَلِكه وجاء إلىٰ سلطان مملكتنا المعظَّمة المشرَّفة، أمسكه وقيّده وأرسله إليه، فقد علمناه ، وليس هذا الذى قلتَه وحكيْتَه بصحيح ، لأن الذى وقع واتّفق بخلافه : وهو أنَّ أميرا من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمّى قَرَاسُنْقُر، هرب من عنده وراح إلىٰ أبى سعيد فقَطَع رأسَه ،وجَهّزه إلىٰ الملك الناصر. وأما دَمِرْداش المـذكور فالملك الناصر ما أرسله إلىٰ أبى سـعيد مثـل ما قلْتَ وما مات دَمِرْداش المذكور إلا فى مصر المحروسة ، فليَكُنْ ذلك فى علمك ثابتًا، وعلىٰ كلِّ حال فكلامُك حجّةٌ عليك لا لك : لأنّك قد آويْتَ شُكْر أحمد وأرْغون السلامى وأكرمتهما وقرّبتهما ، وكذلك كلُّ مَنْ حضر إليـك من ممـاليكنا ورَعايانا وخَدَمِنا من أهـل مملكتنا، فلو أمسكْتَهم وقيّـدتَهم وجهّزتهـم إلينا، كنتَ تكون صـادقًا فى قولك ، وكنتَ إذا طلبتَ منـا أحدًا ما أتلّام علىٰ طلبـه ، فكيف وأنت البادى والمعتَـدى ؟ فهـذا الكلام كلُّه شاهدٌ عليك لا لك .

وأما قولك : إنَّ صاحب تِكْرِيتَ كان حَرَاميًا قاطعَ طريق، ففعلتَ معه ما فعلتَ مقابَلةً له علىٰ نحسـه وحَرَامه وقَطْعه الطُّرُقات، فقد علمناه وسلَّمنا لك هذا الأمر، بيَّضَ اللهُ وجهَك، وما قصَّرت فيه، فحبّذا ما عمِلْت، ونِعم ما فَعَلْت فى حقِّه من إعطائه جزاءه. أفأهلُ بغـداد كانوا حرامِيّةً قُطّاع طريق حتّى فعلتَ بهم ما فعلتَ ، وقتلت منهم من التُّجّار خاصّةً ثمانمائةِ نفسٍ فى المُصادَرة بالعقوبة والعذاب. ففى أىِّ مذهب يجوز هذا ؟ وهل يحلُّ لمن يَدّعى الإسلامَ أن يعمل بخَلْق الله تعالىٰ الذين أمر بالشفقة عليهـم والإحسان إليهم ونَشْر العدل فيهم هذه الفِعالَ ؟ وقد تعجّبْنا منك

يا أمير تيمور إلى الغاية ! كيف تدعى أنك عادل، وتعمل بأهل بغداد المسلمين الموحدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل؟ أما تعلم أن الشفقة على خلق الله تعظيم لأمر الله، وأن الله رحيم يحب من عباده الرحماء، وأن الظلم حرام فى جميع الملل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول : ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا" . وقال عليه السلام : "لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن " . وورد : "إن فاتنى ظلم ظالم فأنا الظالم" وحسب الظالمين رب العالمين الذى قال فى حقهم ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وقال ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . والباغى له مصرع . ولما جاء هولاكو ومنكوتمر وغازان وقصدوا ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين، الذين كانوا من جنسنا كما ذكرنا لك أعلاه، اتفق لهم ما اتفق مما هو مشروح فى التواريخ ومعلوم عند الناس؛ فمهما أخذه أولئك تأخذه إذا جئت .

وأما قولك فى كتبك : إنه إن لم نجهز إليك السلطان أحمد الجلايرى مقيدا تجيء فى أول فصل الربيع إذا نزلت الشمس برج الحمل، أو لما تنزل الميزان ، وإن جهزناه إليك مقيدا، لتأكد المحبة والصحبة بيننا وبينك ، فقد علمناه ؛ والذى نعرفك به هو أننا كنا نتوقع أنك تجيء قبل هذا الوقت، فقد أبطأت كثيرا، وملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلنا ما تصالحوا مع مثل هولاكو وغيره إلا حتى تزاوروا وتقابلوا واجتمعوا، ونحن أيضا كذلك ما نصطلح إلا بعد أن نتزاور ونتقابل ونجتمع . وأنت طلبت أحمد الجلايرى، وهانحن واصلون إليك به، نطلب منك أن تشفعنا فيه، وتهبنا ذنبه الذى صدر منه، وندخل عليك بسببه، ونسأل إحسانك أن تعين لنا موضعا نلتقى معك فيه، حتى نأتيك بأحمد الجلايرى

المذكور فيه ، ونشفع فيه عندك . فعيّن لنا الموضعَ المذكورَ على حسب ماتختار : إما من ذاك الجانب من الفُرات، أو من هذا الجانب . وأىّ موضع عيّنته وسمّيته لنا جئناكَ بالمشار إليه فيه، وندخل عليك فى أمره، ونستوهب ذَنْبَه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذى نُعرّفك به هو أن الرسولَ المذكور كان يكتُبُ المنازلَ منزلةً منزلةً إلى بلادنا المحروسة ، وأطّلعَ عليه فى ذلك جماعةٌ من جهتنا ؛ ولما وصلَ إلى الرَّحْبة المحروسة، قال للنائب بها : بُسِ الأرضَ للأمير تيمور وأقرأ الخُطبةَ باسمه . فلو كان رسولاً مُصْلحا ما كان كتبَ المنازل، ولا أكثرَ فُضُولَه ، وتحدّثَ بما لا يَنْبغِي له ، وتكلّمَ فيما لا يَعْنِيه، وتعدّى طَوْرَه : لأنه لاينبَغِي للرسول أنْ يكونَ إلا أعمىٰ أخرسَ غزيرَ العقل، ثقيلَ الرأس، كما قال بعضهم :

إذا قَصَدْتَ المُلوكَ فالْبَسْ * من التُّقىٰ والعَفافِ مَلْبَس!
أدخُلْ إذا مادَخَلْتَ أعمىٰ، * وأخْرُجْ إذا ماخَرَجْتَ أخرس!

وكيف يُمْكن نائبَنا الذى هو من جملة مماليكنا، وجُبِل لحمُه ودمُه على أنْعُمِنا وصَدَقاتِنا ،وغُذّىَ ورُبِّى بلِبَان فَضْلنا وجُودنا [أن] يبوسَ الأرض لغيرنا، أو يخطُبَ باسم غيرنا؟ وكيف يترُكُ اسمَ خادم الحرمين الشريفين أستاذِه، ويذكُرُ اسمَ غيره؟ .

فقد تكرّرت منك الفِعالُ القبيحة،الموجِبةُ لما يقدّره الله تعالىٰ؟ ونحن نُقْسِم بالله تعالىٰ لولا قلت لنُغيِّر تعالَ حتّى أعملَكَ مقدّمَ العساكر، ونمْشى على الشام ومصر، وقرّبْت مماليكَناوآويتَهم ،وبدأتَ بهذا كلّه وحصَلَ منك التعدّى ،ما كان يتفِقُ لرُسُلِكَ ماآتّفق . ولكنّ الجزاءَ من جِنْس العمل،والخيرُ بالخير والبادِى أكرم،والشرُّ بالشر والبادى أظلم .

وأيضا كلَّ وقت تَسأل عن ممالكنا المصونة،وكثرةِ عساكرنا المنصورة من قلّتها . فلوكنتَ طالبًا المحبةَ والصحبةَ والمصادَقة، ماوقع منك هذا .

وأما قولك إنَّ هُولا كو أخذ من كلِّ مائة رجلٍ رجلين وجاء بهــم ، وأنت قد جئتَ بالرجلَيْن و بالمـائة، وآعتمادُك علىٰ كثرة عَسْكرك علىٰ قولك فقد علمناه ، وإن كان آعتمادُك علىٰ كَثْرة عسكرك فاعتمادُنا نحن علىٰ الله تعـالىٰ وآستمدادُنا من الحرمين الشريفين، ومَدَدُنا ممَّن بهما من الأنبياء، صلواتُ الله وسـلامُه عليهم أجمعين ، والصحابةِ والصالحين رضى الله عنهم. فاذا تلاقَيْنا يكون مايقدِّره الله تعـالىٰ و يُعْطِى الله النصْرَ لمن يَشَاء، وتَعلَمُ ذاك الوقتَ لمن العاقِبــةُ ؛ و يظهرُ فعلُ الله الربِّ القادر تعـالىٰ ، وعوائده الجميلةُ بنـا التى لا شكَّ عندنا فيها ولا رَيْبَ ، وقَطُّ ملوكُ التتار ما آنتصروا علىٰ ملوك الإسـلام، بل ملوكُ الإسلام خدّامُ الحرمين الشريفين، هم المؤيَّدون المنصُورون المظفَّرون بعون الله تعالىٰ، و ببركة سـيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم، معوَّدُون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغَنَائم والفُتُوحات : لأنهم أهل الكتاب والسُّنَّة والعَدْل والخير والخَوْف من الله تعـالىٰ ، لايقَعُون فى محَارِمه ، ولا يُقدِمُون علىٰ آرتكاب مايَنهىٰ عنه، فهم المؤمنون المتَّقُون . وقال الله تعالىٰ : ﴿وكَانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنِينَ﴾ وقال تعـالىٰ : ﴿إنَّا لَنَنْصُر رُسُلَنا والذِينَ آمَنُوا﴾ وقال : ﴿والعاقِبَةُ للتَّقوىٰ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ولقد كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْد الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبَادِىَ الصَّالِحُون﴾ وسوف يُنْجِزُ الله تعالىٰ وعده، لأنه لايُخْلِف الميعاد .

وأما ماذكرته من أمر قَرا يُوسف و بير حسن وغيرهما ، وأنَّ فى معاشهم زَغَلا، وأنَّهم مفسِدُون . وجعلُك لكل واحدٍ منهم ذنبا، وأنك أنتَ العادل الخيِّرُ المُفْلِح ، والناس كلُّهم مناحيس وأنت الصالح، والله يعـلم المُفسِدَ من المُصْلِح، فقد علمناه. والذى نعترفك به هو أنَّ النُّور لايجتَمِع مع الظلام، ولا اليَقظةُ والمنَام، ولا الخـير والشَّر فى حيزٍ واحد : لأنها متَضَادّة، ليس بينها آتِّفاق ولا آلتئام ، وفعلُ المرء دالٌّ علىٰ نيته وطويَّته ، قال الله تعـالىٰ : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ علىٰ شَاكِلَتِه﴾ وقال :

﴿وما يستوى الأعمىٰ والبصيرُ ولا الظُّلماتُ ولا النورُ ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ وما يستوى الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾ وقال : ﴿إنَّ أكرمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم﴾ وشتّانَ مابين أهل الخير والفَساد، وأهل العَـدل وأهل البَغى والعِناد ؛ فالخيِّرُ هو المتّقى ، ومن يرتكب ماحرّم الله ويعتقدُ أنه علىٰ الحق فهو الشّقى .

إذا المرءُ لم يَعرِف قَبيحَ خَطيئتِه * ولا الذّنبَ منـه معْ عَظيمِ بليَّتـهْ

فذلكَ عينُ الجَهل منه مع الخَطا * وسـوفَ يرىٰ عُقْباه عِندَ مَنيَّتـه

وليسَ يجـازىٰ المرءُ إلا بفِعْـله * وما يَرجِعُ الصَّـيّاد إلا بنيَّتـه !

وأما قولُك إنَّ نُعير العرب أرسلَ بالخُفية يطلُبُ السلطانَ أحمد، وأننا نرسُم لنوّابنا أنْ يحترزوا من توجُّهه إليه ولايُمكِّنُوه من ذلك، فإنه إن اتّفق توجهه إليه يكُنْ ذلك سببا لخَراب الدِّيار، فقد علمناه. والذى نعرِفك به هو أننا تحقّق أن مايحصُلُ خرابُ الديار والدِّمار ومحوُ الآثار إلا لمن يسعىٰ ويتكلّم بخراب الديار ﴿ولا يَحيقُ المكرُ السيِّئُ إلّا بأهْلِهِ﴾ . وستعلَم ديارُ مَنْ تُخرَّب، وعُمُرُ من يَذْهب، وعلىٰ من تكون دائرةُ السُّوء دائره، وسَطَواتُ المَنايا قاهره؟﴿وَسيَعلَمُ الّذينَ ظَلَموا أىَّ مُنقَلَبٍ ينقَلِبونَ﴾. وها نحنُ واصلون بجيوش وجُنود وعساكر مؤيَّدة من السِّباع أسبَع، لاتَروىٰ أسلحتُهم من دِماء البُغاة ولا تَشبع، والجواب ماترى لا ماتَسمَع :

قُلْ لِلَّذى فى الورَىٰ أضحىٰ يُعادينا : * احذَرْ فأمرُكَ ربُّ العَرْش يكْفينا !

مازالَ يَمنَحُنا فضـلا ويكلَؤنا * وفى العِـدا بعظيم النَّصر يَشفينا !

أقامَنا رحمـةً للنـاس أجمعِهم، * ولم يزَلْ من جَزيل الجُود يُعطينا !

بالعِزِّ والنَّصرِ والتأييـدِ عوَّدَنا، * وزادَنا فى سَـديد الأرض تمكينا !

وبالجميل وفِعْـلِ الخـيرِ وفَّقَنا، * شُكرًا له سِـترُه الأعلىٰ يُغطّينا !

قَدْ أَسْكَنَ الرحمةَ الحُسْنَى التى أَمِنَتْ * بِهَا الأنَامُ بأقصَى مُلْكِنا فِينَا!

فكُلُّما بالدُّعاء المُرتَضَى نَطَقَتْ * لنا الرَّعايَا، أجابَ الكَوْنُ آمِينَا!

اللهُ حافِظُنا، اللهُ ناصِرُنا، * مَنْ ذا يُعانِدُنا؟ من ذا يُقاوِينَا؟

واللهُ الموفِّق بفضله العميم، والهادى إلى الصراط المستقيم؛ بمنّه وكرمه، وجُوده ونعمه، إن شاء الله تعالى .

كتب فى ... ... من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة[1] .

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشأم إلى الديار المصرية ونحرّب هو دمشق وحرّقها، ثم انتقل عنها، وتردّدت رسله بطلب أطلمش : أحدِ أمرائه الذى كان قد أُسر فى أيام السلطان الملك الظاهر "برقوق" .

وفى هذه الحالة كان يُكتَب له فى قطع الثلثين ، والعنوانُ بقلم جليل الثُّلُث بحَلّ الذهب سطرانِ ، مضمونهما « المقامُ الشريفُ العالى ، الكبيرىُّ ، العالِمىُّ ، العادلىُّ ، المؤيَّدىّ ، المظفَّرىّ ، المَلْجَئىُّ ، المَلاذىّ ، الوالِدىّ القُطْبىّ ، نُصْرة الدين ، مَلْجأ القاصدين ، ملاذُ العائذين ، قطبُ الإسلام والمسلمين ، دامتْ معْدَلته تيْموركور كان» . والبسملة فى أوّل الوصل الرابع ، والخُطبةُ جميعها بالذهب ، وكذلك البَعْدية وما يتعلّق بالمكتوب إليه على عادة القانات ، والعلامةُ بجليل الثُّلُث بحَلّ الذهب بالهامش ماصورته : « المشتاقُ فرجُ بن برقوق » إلا أنه آختلفَ مكانُها فى المكاتبات على ماسيأتى ذكره . إلا أن افتتاح المكاتبة إليه فى هذه الحالة كان على ضربين بحسَب ماآقتضاه الحالُ .

---

(١) هنا آخر ماأضيف الى الأصل من بعضهم .

الضـــــرب الأوّل

(الافتتاح بـ«أما بعد» وذلك عند أوّل عقد الصلح)

وهـــذه نسخةُ مكاتبـــةٍ كُتِبت إليه جوابًا عمـا ورد منه بطلب أطلمش المذكور[1] والتماس الصُّلح. جُهِّزت صحبةَ الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك ، والأمير قانى بيه صحبةَ رسوله خَواجا مسعود الكججانىّ رسوله الوارد بكتابه، فى جمادى الأولىٰ سنة خمس وثمـانمـائة . وعُلِّم له فيها فى الهامش بين السطرين الثانى والثالث بقلم جليل الثلث بحَلّ الذهب « المشـتاق فرج بن برقوق » علىٰ ما تقدّم ذكره؛ والورق قطع الثلثين وهى :

أمّا بعد حمدِالله الذى جعل الأرواح أجنادًا مجنّده، ووصلَ أسباب الرُّشْد والفلاح بمَنِ افتتح بابَ الإصـــلاح ولم يُخْلِف مَوْعِدَه، وكَفَل لمن توكّل عليه فى أموره النجاحَ يومَه وغَدَه. والشهادةِ له بأنه الله القاهرُ فوق عباده بقدرته المؤيِّده، والصلاةِ والسلام علىٰ أشرف نبىٍّ طيَّب الله عنصُرَه ومَحْتِدَه ؛ وأصلح ببعض نَسْلِهِ الشريف بين فئتين عظيمتين بلَغ كلٌّ منهما من الخير مَقْصِدَه . وعلىٰ آلِهِ الطاهرين، وذُرِّيته الظاهرين بالمصالح المُرْشِده، وأصحابه الذين كانتْ غالبُ قضاياهم صُلْحًا بين النـاس ورسُلُهم بالاتّفاق مردّدة ومِنْ عدَمِ الشِّقاق غير متردِّده؛ صلاةً وسلامًا نَصِل بهما حبْلَ البُنُوّة بالأُبُوّة المتجدِّده، ونُخمِد بهما نارَ الحَرْب المتوقِّده .

فقد أصدرنا هـــذه المفاوضةَ إلىٰ المقام الشريف، العـالى، الكبيرىّ، العالمىّ، العـادلىّ، المؤيّدىّ، المظفَّرىّ، المَلْجَئىّ، المَلاذىّ، الوالِدىّ، القُطْبىّ، نُصْرة الدين، مَلْجإِ القاصدين، ملاذِ العائذين، قُطْبِ الإسلام والمسلمين، تَيْمُوركوركان ، دامتْ مَعْدِلتُه . تُهْدِى إليه سلاما تُتْلىٰ سُوَره وآياتُه، وثناءً تتوالىٰ غَدَواته ورَوْحاته

---

(١) سيأتى قريبا قانى باى الخاصكى .

ولا تتناهىٰ غاياتُه ؛ وتبدى لشريف علمه أنّ مفاوَضَته العالية [التى] وردَتْ أوّلا وآخِرا ، تضمنت رموزُها باطنا وظاهرا، تجهيزَ الأمير أطلمش لزَم المقـام الشريف إلىٰ حضرته العليّـــة : لتنحَسِمَ مادّةُ الحركات ، وتسكُنَ القلوب والخواطرُ فى سائر الجهات ، وتتّحِدَ المملكتان فى الصّـداقة والوفاء ، والمحبّة والصَّفاء، علىٰ الصُّورة التى شَرَحها ، وبيّن مَنَاهجها ووَضَّحها، خصوصا ما أشار إليه من أنّ لجواب الكتّاب حقًّا لا يضيع، فوقَفْنا عليها وُقوفَ إجلال ، وفَهِمْنا ما تضمَّنْته علىٰ التفصيل والإجمال .

والذى نُبْديه إلىٰ علومه الشريفـة أنّ سـبب تأخير أطلمش أنه لمّـا قدِم المقام الشريف إلىٰ حدود الممـالك الشاميّة ، وتوجّهْنا من الديار المصريه ، عرض لنـا ما أوجب العَوْدَ إليها سريعا، وكان الحزمُ فيما فعلناه بمشيئة الله تعالىٰ . ثم تحقّقْنا من المفاوضة الواردةِ علىٰ يد سُودُون، وسودون (؟) والنمر، والحاج يبسق أحد أمراء أخوريه، قَسَمَه بالله الطالب الغالب، المُدْرِك المُهلِك، الحىّ الذى لا ينام ولا يموتُ أنه إن جُهِّز إليه أطلمش المشارُ إليه ، رجع المقام الشريف إلىٰ بلاده، وأنه متوقِّع حُضُوره إليه بقَارَة ، أو سَلَمية ، أو حِمْص، أو حماة . فأخذْنا فى تجهيزه إلىٰ حضرته الشريفةِ علىٰ أجمل مايكُون .

فبينَا نحنُ علىٰ ذلك إذ وردَتْ علينا الأخبارُ بما آتفق لدِمَشْقَ وأهلها : من أنواع العذابِ وتخريب قلْعتها ودِيارها، وإحراقِ جامعها الذى هو الجامعُ الفَرْد فى الممالك الإسلاميّة، وغيرِه من المساجد والمَدَارس والمَعَاهد والمَعَابد. فلمّا تواترتْ هذه الأخبارُ، وتحقّقتْ هذه المَضَارّ ، لحنا من عدم ترحُّلِكم عن دِمَشْق وهى عامرةٌ نقْضَ ما تقرّر ، وعدمَ آلتفاتكم إلىٰ الأمير أطلمش المذكور وتجهيزه . فلما وردتْ مفاوضتُه الشريفةُ المجهَّزةُ إلىٰ صاحب ماردِين، أرسلها إلينا [وهى] الواصلةُ علىٰ يد المجلس السامىّ، الشيخىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الناسكىّ، الحسيبىّ، النّسيبىّ، الشّرفىّ، عبدِ المؤمن، شيخ

الجبال، ٱبنِ وَلِيِّ[1] الله، إمام العارفين، عبد القادر الكِيلانىّ، أعاد الله تعالىٰ من بركاته؛ والصَّـدرِ الأجلِّ فخر الدِّين التـاجر السَّفّار، المؤرّخةُ بثانى عشر ذى القَعْدة الحرام من سـنة أربع وثمـانِمائة، المتضمِّنةُ وصولَ المقـام الشريف إلىٰ أَرْزَنْكان وكَاخ قاصدًا للبلاد الرُّومية، والقصدُ فيها تجهيزُ الأمير أطلمش وأن يُفْتَح بابُ المصالحه، ويُسْلَكَ طريق المصادقة، رعايةً لصَلَاح المملكتين، ونظرًا إلىٰ إصلاح ذاتِ البَيْن؛ وأنَّه لامَطْمَعَ إلا فى صحة المودّة، وإرسال أطلمش صحبةَ شخص من مقرَّبى حضرتنا الشريفة: لينظر ما يصـدُر بعد وُصُولها من تمهيد قواعد المجاملة، وتشييدِ مَبَـانى المحبة. وأنَّ المقـام الشريف ـ زِيدتْ عظمَتُه ـ أقسمَ بالله الّذى هو فى السَّماء إلٰهٌ وفى الأرضِ إلٰهٌ، أن يكون فى هذه الحياة محبًّا لمن يُحِبُّنا، مُبْغضا لمن يُبْغِضنا، وأنَّا نتلَقّط بحضورالأمير أطلمش كما تلفَّظتم. فعند ذلك ٱجتمَعْنا مع مولانا أمير المؤمنين، المتوكل علىٰ الله، أدام الله تعالىٰ أيّامه، والشيخِ الإمامِ الفرد، شيخ الإسلام سراج المِلّة والدِّين عمر البُلْقينىّ ـ أعاد الله تعالىٰ من بركته ـ وقُضاة القضاة ومشايخ العِلْم والصَّـلَاح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرِئتِ المفاوضـةُ بحضورهم. فلمـا سمِعُوا ما تضمَّنَتْه من عظيمِ القَسَم، والحَلِف ببـارئ النَّسَم، وعلموا أنَّ جُلَّ القَصْد فيها تطلُّعُ المقـام الشريف إلىٰ تجهيز الأمير أطلمش المذكور، فٱجتمعتِ الآراءُ علىٰ إرساله إلىٰ حضرته الشريفة صحبةَ من ٱقتضَتْه الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك المفاوضةُ من المقام الشريف ـ زِيدت عظمتُه ـ علىٰ يدِ شخص من أهل أَزْمِـيرَ ـ مؤرَّخةً بثانى عَشر شهر صفر المبارك سـنة تاريخه، متضمِّنةً ما حصل من النصر على ٱبن عُثْمان، والظَّفَر به، والٱستيلاء علىٰ غالب قلاعه. وزُبْدة الكلام فيها الإسراعُ بتجهيز أطلمش المذكور، ليجتمع شمْلُه بأولاده بالحَضْرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

(١) يريد أنه من ذريته لان عبد القادر توفى سنة ٥٦١ .

علينا مفاوضةٌ شريفةٌ علىٰ يد المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الكبيرىّ ، الأوحدىّ ، العارفىّ ، السالكىّ ، المقربىّ ، مسعود الكججانىّ ، رسول المقام الشريف ، وصحبته المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الإمامىّ ، القُدْوىّ ، الشَّمْسىّ ، شيخ القُرَّاء ، إمام أئمة الكُبَرَاء ، محمد بن الجَزَرىّ أدام الله النفع به . مؤرّخةٌ بغرّة ربيع الأوّل سنة تاريخه ، متضمنة معنى الكتابين المجهَّزَيْن من ماردين وأَزْمير . وجُلُّ القصد فيها تجهيزُ الأمير أطلمش لتحصل طُمَأْنينة قلوب العالمين ، وإخمادُ باب الفِتَن ، وأنّ العمدة علىٰ المشافهةِ التى تحمّلها الخَوَاجا نظامُ الدين مسعودٌ المشار إليه ، وأن قولَه قولُ المقام الشريف . ومهما عَقَد الصلح عليه والْتَزَم به ، كان من رأى المقام الشريف وشوره [1] ، لا يخْرُج عنه ولا يميل إلىٰ غيره بقول ولا فعل . فلما أحضَرْناه وأصْغَينا إلىٰ ما تحمّله من المشافَهة ، فإذا هى مشتملةٌ علىٰ خالص المحبّة ، وأن يكون المقامُ الشريف والدَنا عوضًا عمن قدّس الله تُرْبه ؛ وأن نُجهز الأميرَ أطلمش إليه ، وتكون عمدتُنا بعدَ الله عز وجلّ عليه ؛ فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار ، ومَحَونا آيةَ ليل الجَفَاء ، وأثبتْنا آية نهار الوَفَاء ، فى الإعلان والإسرار ؛ وقبِلْنا أُبوّتَه الكريمةَ علىٰ مدىٰ الأزمان وتَوَالِى الأعصار ، وشاهَدَ الخواجا مسعودٌ حال أطلمش ، وعلم اهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمُدّةٍ اعتمادا علىٰ أَلِيّته السابقه ، ووُثوقا بما صرّح به من الاتّحاد والمصادَقَه ، وعقَدْنا الصُّلْح مع الشيخ نظامِ الدين مسعودٍ المذكور بطريق الوَكَالة الشرعية عن المَقَام الشريف ، وحلَفْنا نظيرما حَلَف عليه ، بموافقة مولانا أمير المؤمنين ـ أدام الله أيامه ـ علىٰ ذلك بمحضَر من شيخ الإسلام ، وقضاة القضاة ، ومشايخ العِلْم والصَّلاح ، وأركانِ الدولة الكِبَار ، مع حضور الأمير أطلمش ، لزَم المقام الشريف ، وشهادةِ من يَضَعُ خطه علىٰ نُسَخ الصُّلْح التى

(١) كذا فى الأصل وهى عامية لا أصل لها فى اللغة بالمعنى المراد له اذ مراده المشورة كما لا يخفى .

كتبت ، وجهّزنا منها نسختين مثْبُوتَتَيْن إلىٰ حضرته الشريفة قرينَ هـذا الجواب الشريف ، لتُحيط العلومُ الشريفـة بمضمونِهما ؛ و بأحدهما خطُّنا الشريف لتخلَّد بخزانته الشريفة ، والأُخرىٰ يشمَلُها بخطه الشريف وتُعادُ إلينا صحبةَ رسولنا : المجلس العـالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيدىّ ، المقرّبىّ ، الأعزّىّ ، الأخصّىّ ، الأصيلىّ ، الشّهابىّ ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقرَّبنـا ومقرّب والدنا الشهيد ـ أدام الله تعـالىٰ نعمته ـ وجهّزنا صحبتَه المجلسَ الساميَ ، الأميرَ ، الأجلَّ ، الكبير ، المقرَّبَ ، المرتضىٰ ، الأخصّ ، الأكمَل ، سيفَ الدين ، قانِى باى الخاصكِىّ الناصرىّ ، أدام الله سعادته ، المتوجهَيْنِ بهـذا الجواب الشريف ، المجهّزين صحبة الأمير أطلمش ، وبقية قُصّاد المقام الشريف ورُسُله .

وممـا نبديه لعلومه الشريفـة أنه ممـا تضمنه الملخّص الشريف المجهّز عطفَ الكتاب الواصل علىٰ يد الشيخ مسعود الكججانى مضاعفةُ الوصـية بأولاد الشـيخ شمس الدين الجَزَرىّ ورعايةِ أحوالهم وتعلُّقاتهـم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقبُول وقرّرنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله ـ وكفىٰ به شَهيدا ـ قد أخلَصْنا النيـة للمقـام الشريف ، وعاهدْنا اللهَ عز وجلّ فى التعاضـــد والتناصُر والاجتهاد ، فى عمل المَصالح للعباد والبلاد ، وعدم التَّقاصُر والعمل بمـا فيه بياضُ الوجه عِنْد الله فى الدنيا والآخرة ، وإجراءُ الأمور علىٰ السَّداد . بتوفيق الله عز وجلّ ، وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم استقبل لسان الحال يُنْشِدنا :

* يا أوّلَ الصَّفوِ هٰذا آخِرُ الكَدَر *

فيكون ذلك فى علومه الشريفة ، والله تعالىٰ يُديم عوارفَه الوَرِيفه ، بمنّه وكرمه .

والمستند «حسَبَ المرسوم الشريف» .

الضـــــرب الثـانى

(ما صار إليه الأمر بعد وُصُول أطامش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوانُ سطران بقَلَم الثلُث بماء الذهَب ماصورتُه :

«المقامُ الشريفُ، العالى، الكبيرىُّ ، العالمىُّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، المظفَّرىّ، المُجيّ، المَلاَذىّ، الوالِدىّ، القُطْبىّ، نُصْرةُ الدين، ملجأُ القاصدين ، مَلاَذُ العائِذين، قطبُ الإسلام والمسلمين، تيمُورْكوركان ـ زيدت عظمته ـ .

والطرّةُ ثلاثة أوصال، والبسملةُ الشريفة فى أوّل الوصل الرابع . ثم « الحمدُ لله » وتتمّة الخُطْبــة بالذّهب، وبيت العلامة عرضُ أربعــة أصابع مضمومةً، وما يليها من الأسطر سعةُ ثلاثةِ أصابع ، والعلامةُ الشريفة بين السطر العاشر والحادى عشَرَ من سطور الكتابة ، موافِقا لانتهاء الخطبة عند « أما بعــد فقد صدرت هــذه المفاوضةُ» . والعلامة الشريفة بجليل الثلُث بماء الذهب «المشتاقُ فرج بن برقوق» . وهامش الكتاب أربعةُ أصابع مطبوقةً ، والخطبة وما يليها من البَعْدية وألقاب المقام القُطْبى المركبة والمفردة الجميعُ بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمدُ لله الذى شيَّد قواعدَ الإصلاح، ومهّد مواطنَ الرُّشْد والنّجاح، وجعل آذانَ المؤمِن يُجيب داعِىَ الفَلاح .

نحمَــدُه على أنْ ألَّف بين القلوب بلطيف الارْتيــاح ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له إلٰهٌ زمَّ نفوسَ المؤمنين بحبْــل التقوىٰ من جَمْيَّة الجِمَــاح، ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى وَضَح من نُور رسالته فجرُ الإيمــان ولَاح ، ونَفَح

من نَوْر معجزاته زَهَرُ الدين الحنيفىّ وفاح ؛ صلّى اللهُ عليه وعلى آله الذين شـدُّوا ظهورَ كلمهم من الصِّدْق بأتقنِ وِشَاحٍ، وعلى صحابته الذين بينوا من عُهُودهم(؟) بفقههم فى الدين الواجبَ والمندوبَ والمحظورَ والمُباح؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد، فقد صدرَتْ هذه المفاوضةُ إلى المقام الشريف، العالى، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ، الملجئىّ، المَلاذىّ، الوالدىّ، القُطْبىّ، نُصْرة الدين، ملجإ القاصدين، ملاذِ العائذين، قطبِ الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يفوقُ الخلقَ طُرًّا هيبةً * فيــهِ نهـايةُ غايةِ التَّأميـلِ!

تيمور كوركان — زيدَتْ عظمتُه، ودامتْ معدلتُــه، ولا زالتْ راياتُ نَصْره خافقةَ البُنود، وآياتُ فضله متلوّةً فى التهائم والنُّجود، وسُحُبُ فضائله هامية بالكرم والجُود، ومَهَـابةُ سـطوته تملأُ الوُجُود — تُهْدِى إليــه من السلام ماحَلا فى حالتى الصُّــدُور والورُود، ومن الإخلاص ما صَفَا وضَفَتْ منه البُرود .

وتبــدى لعلمه الشريف أن مفاوضــتَه الشريفة وردَتْ علينا جوابًا عمــا كتبناه إلى حضرته الشريفة، على يد المجلس العــالى الأميرىّ الشهابى، أحمــد بن غلبك وسَــيْف الدين، قانى بيه النــاصرى، المجهَّزين صحبةَ المجلس العــالى، الأميرىّ، الجلالىّ أطلمش، لزَمَ المقــام الشريف، بوصول الأمير جلال الدين أطلمش إلى حضرته الشريفة طيِّبا، مبديًا بين يديه ماحَمَّلناه من رسائل الأشواق، مبيِّنًا ماهو اللائق بخِلاله الحســنة عن حضرتنــا مادبَّج به الأوراق، شاكرًا لإنعاماتنا التى هى فى الحقيقة من شِيَم فضلكم الخفَّاق، مثنيًا منه ومن فحوى الخطاب فى نظم الكتاب صدقَ المَقَال وصحّةَ العهد ورسُوخَ الميثاق، وأنه قد ثبتَ بما بثَّ من غرائب المَعَانى حصولُ الأمانىّ، وسَرى بعدُ مايكون من هدَايا التَّهانى، وأن الذى اتفق الآنَ هو

المطلوب ، والمكتوبَ به إلى والدنا الشهيد الطاهر أوّلا هو المرغوب ؛ وخلافُه كان موجِبًا لتقل الحركات الشريفة إلى جِهَة البلاد ، وما اتفق فيه للعباد ؛ ولكن كلٌّ بقضاء وقَدَر . ولما حصل قبولُ الإشارة بتجهيز الرُّسُل والأمير أطلمش ، صارت القلوب متّفقه ، والعيونُ قارّة ؛ وصفَتْ مواردُ الصّفاء ، وضَفَتْ بُرود الوفاء ؛ وقُطِعت حبالُ المنافاةِ والجفاء . وأنّ المقام الشريف كان أقسَمَ فى كتبه قَسَما وأعاده ، ثم فصَّلَ مجملَه وأفاده ؛ وهو ـ واللهِ الطالب الغالبِ ، المدرِكِ المهلِك ، الحىِّ الذى لا ينام ولا يموت ـ من يومه هذا لا يخالِفُ ماصدر من عقد الصُّلْح المسطور ، ولا يرجع عن حُكْمِه للعهد المَزْبُور ؛ ويُحِبُّ من يُحِبُّنا ويُبْغِض من يُبْغِضنا ؛ ويكون سِلْما لمسالمينا ، حَرْبا لمحارِبِينا ؛ ومتى استنصَرْنا به على أحد من مخالفينا أمدَّنا بما شئنا من العساكر ، وأنه أمْرٌ ماناله أحد من الناس غيرَنا ، وإنه لوكان القَسَم على الوجه الذى ذكره مصرَّحا مذكورا فى لفظ الكتاب ، وعبارة الخطاب ؛ لكان أوْضَح ، والتبيينُ أملَح ؛ وأنه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورةِ لممالكنا أحدٌ من المفسدين يجهّزه إلينا مقيَّدا . وحيث كان أحدٌ من المفسدين بممالكنا المجاورةِ لممالكه يعرّفنا به لنجهِّزه إليه : لاتفاق الكلمتين ، واتحاد المملكتين ، وطمأنينةً لقلوب الرعايا والسالكينَ من الجهتَين ؛ وما تفضّل به : من سؤال المقام الشريف اللهَ عزّ وجل زيادةَ أسبابِ دولتنا ، ونُمُوّ إيالَتِنا ؛ وأن الهلالَ إذا رأيت نموّه ، أيقنْتَ أن سيصير بَدْرا كاملا . وأنّا سنرى ما يصنعُه المقام الشريف ، من الفضل المنيف ؛ ومن تَلاَفِى الأمور ، مايظهر للخاصّة والجُمْهور ، مما يَزِيدُ بدْرَنا نُمُوّا ، وقَدْرنا بين المُلُوك سُمُوّا : لأنه لنا أكفى كفيل ، وأشفَقُ من الوالدِ والصاحبِ والخليل ؛ وإن من علامة الصفا ، إظهار ماخفى : وهو أن فى أطراف ممالكنا الآنَ بلادًا كانتْ داخلةً فى ممالكه ، وهى أَبُلُسْتَينُ ، ومَلَطْيَةُ ، وكَرْكَرُ ، وكَخْتَا ، وقلْعة الرُّوم ، والبِيرةُ ؛ وأنه

كان حُمِل معناها على لسان المجلس السامى، النظامى، مسعود الكججانى أوّلا، المجهّز الآن صحبةَ الامير شهاب الدين بن غلبك وسـيف الدين قانى بيه ، وأن القصد أن تأمر مَنْ بها من النوّاب أن تسلّمها لنوابه، والمعوّل فى آنتظام الأمور على ماتحمّله المشارُ اليه وعوّلَ عليـه، وأنه شاكرٌ لمرافقنا، موافقٌ لمُوافقنا، وأنه يصغىْ الى ماتُبْديه ، وتُتْحِف به وتُهْديه ، على الصورة التى أبداهـا، والتحيّة التى بكريم الشّيَم أهْداها؛ فقـد علِمْنا ذلك جملةً وتفصيلا ، وشكَرْنا حسنَ صنيعه إقامةً ورَحيلا ؛ وتضاعَفَ سُرورُنا بوصول الأمير أطلمش إلى الحضرة الشريفة . ووصــل إلينا الأميرُ شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه مرتّلَيْنِ من ذكر محاسِنكم ترتيـلا ، وعَرَضَا ماتفضلتم به فى حقّنا إكراما وتوقيرا وتبجيلا، وأنهَيَا بين أيدينا ماعُومِلا به من الفضل الذى ماعليـه مَزِيد، والبِرّ الذى تَعْجِز الفصحاء أن تُبْدِئ بعض محاسنه أو تُعِيـد؛ وأنهما كانا كلّ يوم من توفُّر الفضل فى يوم عِيد، وحصَلَ لهما من الإقبال مالا يُحْصَى بالحصر والتحديد؛ فحمِدنا للمقام الشريف الوالدىّ حُسنَ هذا الفَضْل العام، وشكَرْنا جميلَ تفضّله الذى أخجل الغَمَام، وتزايد شوقُنا وحبُّنا حيثُ زُمْزِمتْ ألفاظُ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام .

لَيْس علىْ الله بمُسْتَنكَرٍ * أنْ يجمَعَ العالَمَ فى واحِد!

وهذا هو اللائق بالجَلال الشريفـه ، والمؤمّل فى جَلَال صفاته المُنِيفه ؛ ووصل الخواجا نظامُ الدين صحبتهما مبدياً عن جَنابكم من رسائل المحبّـة والصَّفاء، والمَوَدّة والوفاء، مايَعْجِز عن وَصْـفه الناظمُ والناثِر، مُظْهِرا من حُسْن المودّة وغَزِير المعرفة مايَفْخَرُ به المُوالِى والمؤاثِر، سالكًا من تأكيد أسباب الصُّلْح ماتجمّل به مَفَارِقُ المفاخر، معتذِرًا عما تقدّم فما قُدِّر رُبّما يكون سبباً لإصلاح الآخِر، متكفِّلا عن صفاء طويّتكم لنا بمـا يَسُرّ السرائر . فضاعَفْنا إكرامَه، ورادَفْنا إنعـامه، ووفَّرنا من العزّ

أقسامه، وأنزلناه منزلا يليق به، ووصلنا كلّ خير بسببه ، وما هو إلا مستحقّ لكل ما يُراد به من فيض فضل وفضل .

وأمّا ما أشار إليـه من إعادة القسم تأكيدًا للصُّلح ، وتوضيحا للنُّجح ، ولو كان القسم الذى أقسمنا به مصرّحا لكان أولى ، فقـد علمنا ذلك وكتبنا ألفاظ القسم فى كتاب الصُّلح مصرّحةً، وأعدناه إلى حضرته ليُقرأ على مسامعه الشريفة، ويشمله الخط الشريف ويُعادَ إلينا، ونحن نكرّر القَسَم، بيارئ النَّسَم ، الذى لا إله إلا هو، الطالبُ الغالب، المدركُ المهلِك، الحىّ الذى لاينـام ولا يموت، أنّا من يومنا هذا لانُخالف ما انتظم من عقـد الصُّلح المسطور، إلى يوم البعث والنُّشور، ولا تُحـلُّ عُراه الوثيقـةُ المشارُ إليها ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها ، ونكونُ حَرْبا لمن حاربه، وسِـلْما لمَنْ سالمه ، ومُبغِضين لمُبغضيه، ومحبّين لمحبّيه، ومَنْ أشارَ بإشاره، أو شنّ على أحد من [رعاياه] غاره، رادفْنا إسعافَه وضاعفْنا استظهاره ، وأخلصنا القولَ والعمل فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بحمد الله قد تمّ وكَمَل، فيكون ذلك فى شريف علمه .

وأمّا ما أشار إليه من أمر القُرى التى قصد تسليمَها لنُوّابه، وأنّها داخلةٌ فى حدود مملكته : كأبلُسْتَين، ومَلَطية، وكَرْكَر، ونَخْتا، وقلْعة الرُّوم، والبيرة، فقد علمنا ذلك .
ونحن نُبْدى إلى علومه الشريفة أنّ هـذه البلادَ لايحصُـل لنا منها خَراج، ولا ينالُ مُلكَنا ونُوّابَنا منهـا فى كلّ وقتٍ إلا الانْزِعاج ، وإذا جهّزنا إليها أحدًا من النُّوّاب، نتكفّل له غالبًا بالخيل والرَّجْل والرِّكاب ، وبضواحيها من سُرّاق التُّرْكمان ، وقُطّاع الطريق من العُرْبان ، مالا يَخْفى عن مقامه . ولو كانتْ دِمَشْقُ أو حَلَبُ، أو أكبر من ذلك بماله(؟) عن الطَّلَب، ماتوقّفنا فيها عن قَبُول إشارته لتأكيد المحبّه، واتّحاد الكلمتين من الجانبين فى أعلى رُتْبه ، غير أنّ لتسليمها من الوَهْن لمَمْلكتنا منافاةً لمـا

تفضّل به المقامُ الشريف من سُؤال الله تعالىٰ فى زيادة سَلْطنتنا، خصوصًا وقد وعَدَ المقامُ الشريف الوالدىُّ بما سنرىٰ، وسوف تظهر نتيجتُه مما يتفضّل به بين الورىٰ؛ وأنّ الذى سمح لنا به من الآستظهار مانااله أحدٌ من النـاس ، وما حصل لنا بمـا أبداه الخواجا مسـعود بين أمراءِ دولتنـا من المشافَهة عن مقامه الشريف من قوّة الجاش والإيناس ؛ ونحن نترقّب بيُمْن حَرَكاته ، وسديدِ إشاراته ؛ زيادةَ الخـير فى النّفس والمُلْك والمال، ونتوقّع من جميل كَفَالته السعادةَ الأبديّةَ فى الحال والمآل؛ فيكونُ ذلك فى شريف علْمه .

وقد جهّزنا بهـذه المفاوضة المجلسَ العـالىَ، الأميرىَّ ، الكبيرىَّ ، الأعزىَّ ، الأخَصّىَّ، المقرّبىَّ، المؤتَمَنىَّ، الأوحدىَّ ، النِّصيرىَّ ، مجدَ الإسلام والمسلمين، شرفَ الأمراء الخواصّ فى العالمين ، منتخَبَ الملوك والسـلاطين ، منكلى بُغَا النـاصرى أميرحاجب ، أدام الله تعـالى سعدَه ، وأنجح قصْـدَه ؛ وعلى يده من الهـديّة المصرية ما تهيّأ تجهيـزُه بمقتضىٰ القـائمة الملْصقة بذَيْلهـا ، وأعدنا المجلسَ العـالى النظامىَّ : مسعودًا ومَنْ معـه إلىٰ المقـام الشريف، متحمّلين من رسائل الأشواق والآتِّحاد ، مالا يقع عليـه الحصرُ والتّعداد ؛ وماأخرنا الخواجا نظامَ الدين مسعودا هـذه المدّةَ بالباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضيّة السلطان أحمد بن أويس، وهربه من بغـدادَ إلى حَلَب ، وجهّزنا من البـاب الشريف من يُحْضِره إلىٰ دمشق ليَحْصُلَ منه الأرب ؛ ثم بعـدَ ذلك بأيّام ورد الخبرُ من كافل الشام المحروس ، بوصول قَرَا يوسُفَ بن قَرَا محمد إلىٰ دِمَشْـق فى نَفَر قليل . فجهّزنا أحدَ الأمراء إلىٰ كافل الشام بمثـالٍ شريف ، يتضمّن القبض علىٰ السـلطان أحمدَ بن أويس وقَرَا يوسفَ المذكورين، وإيداعَهُما الآعتقالَ بقلعة دمشْقَ المحروسة، وفاءً

للعهد وتأكيدًا . وحمّلنا الأمير سيف الدين منكلى بغا المذكور، مشافهةً فى معناها.
والقصدُ من جميل محبّته، وجزيل أُبُوّته، قبولُ المجهّز من ذلك، وبسطُ العذر فيه
إذا وصل إلى حضرته هنالك : لأن الديارَ المصرية وأعمالَها حلّ بها من المَحْل لعدم
طلوع النّيل فى هذه السنة ما لايُحْصَر ولا يحصى، ولا سُمِع بمثله . وشمولُ نسخةِ الصلح
المعادة بالخط الشريف ، ومضاعفةُ إكرام حاملها الأمير منكلى بغا بالبرّ الوَرِيف ؛
والإصغاءُ إلى ما حمّله من المشافهة فى معنى أحمد بن أُوَيْس وقَرا يوسف، والله تعالى
يشيِّد بتمهيده قواعدَ الدين الحنيف، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

الثـــالث

(من مُلُوك تُورَانَ من بنى جنكزخان القانُ الكبير، صاحب التَّخت، وهو صاحب الصِّيـن والخِطَا)

قال فى "التعريف": وهو أكبر الثلاثة، ووارثُ تَخْت جنكزخان . قال : ولم يَكُنْ
يكاتَبُ لترفّعه وإبائه، وطَيَرانه بسُمْعة آبائه، ثم تواتَرتِ [الآن] الأخبارُ بأنه قد أسلَمَ
ودانَ دِينَ الإسلام، ورَقَم كلمةَ التوحيد على ذَوائب الأعْلام . قال : وإن صَحّ ذلك
ــ وهو المؤمّل ــ فقد ملأتِ الأمةُ المحمدية الخافقين، وعمّت المشرقَ والمغربَ ،
وامتدّت بين ضَفّتى المحيط . ثم قال : فإنْ صَحّ إسلامه وقُدِّرت المكاتبةُ إليه، تكون
المكاتبة إليه كالمكاتبة إلى صاحبِ إيرانَ ومَنْ فى معناه من سائر القانات المقدّم
ذكرهم، أو أجلّ من ذلك .

قلت : ولم يتعرض إلى المكاتبة إليه على تقدير بقائه على الكفر، ويشبه أن تكون المكاتبة إليه على ذلك وشدّة سطوته،[1] فيُعطى من قَطْع الورق بقدر رُتبته . ثم يجوز أن تبتدأ المكاتبـةُ إليه كصاحب القُسْطنطينية ومَنْ فى معناه ، مع مُراعاة معتقَده فى ديانته بالنسبة إلى [2] كما يُرعى مثلُ ذلك فى المكاتبة إلى ملوك النَّصْرانية ، والوقوف فى الخطاب ومايَنخرِط فى سلكه عنـــد الحدّ اللائق به . والأمرُ فى ذلك موكولٌ إلى آجتهاد الكاتب ونظرِه .

المهيـــــع الثـــالث

(فى المكاتبات إلى مَنْ بجزيرة العرب ممــا هو خارجٌ عن مضافات الديار المصرية، وفيـــه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى المكاتبات إلى ملوك اليمن، وهم فرقتان)

الفـــــرقة الأولى

(أئمـــة الزيدية)

قال المقرّ الشهابىّ بن فضـــل الله فى "التعريف" : وهو من بقايا الحَسَنِيِّين القائمين بآمُل الشَّطِّ من بلاد طَبَرِسْتان، وقد كان سلفُهم جاذبَ الدولةَ العباسية حتّى كاد يُطيح رداءها، ويُشْمِت بهـا أعداءها. وهـذه البقية الآنَ بصَنْعاء و بلاد حَضْرَمَوْت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآنَ فيهـم فى بنى المُطَهَّر، وتقدّم فى المقـالة الثانية فى الكلام على المَسالك والممـالك أن أوّل مَنْ قام من هذه الأئمة باليمن الإمامُ (يحيىٰ الهـادى) بن الحُسَيْن الزاهد، بن أبى محمد القاسم الرَّسِّىّ،

---

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدّة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله النعوت والألقاب كما يعلم مما تقدم .

ابن إبراهيم طَبَاطَبا ، بن إسماعيل الدِّيباج ، بن إبراهيم الغَمْر[1] ، بن الحسن المثنّى ، ابن الحسن السِّبط ، ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى سنة ثمان وثمانين ومائتين فى خلافة [المعتضد][2] ؛ وأنه كان فقيها عالما مجتهدا فى الأحكام ، حتى قال فيه ابن حزم : إنه لم يبعُد عن الجماعة فى الفقه كلّ البُعد . ثم [ولى بعده ابنه محمد المرتضى وتمّت له البيعةُ فاضطرب الناس عليه واضطُرّ إلى تجريد السيف بجنوده ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثلثين وعشرين سنة من ولايته و[3]] ولى بعده أخوه (أحمدُ الناصر) ثم أخوه (القاسمُ المختار)[4] ثم (الحُسَين المنتَجَب) . واطّرد أمرهم بصنعاءَ إلى أن غلب عليهم السُّليمانيُّون أمراءُ مكة عند خُروجهم منها ، فاستقرت بأيديهم إلى أنْ ملك اليَمَن من جهة الساحل (أحمدُ المُوطّئ) ابن الحسين المنتجَب المقدّم ذكره ، وذلك فى أيام سيف الإسلام ابن أيوبَ سنة خمس وأربعين وستمائة . وبقى أمر الزيديّة هناك فى عَقِبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله أن الإمامة فى زمانه ، فى الدولة الناصرية ابن قلاوون كانت فى (حَمْزة) وذكر فى "مسالك الأبصار" أنّ يحيىٰ بنَ حمزة وُلّى بعد أبيه ، وكان فى زمن المؤيّد داود بن يوسف صاحب اليمن . وذكر قاضى القضاة ابن خلدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعمائة كان (علىّ بنَ محمد) من أعقابهم ، وتُوُفّى قبل الثمانين . وولى ابنه (صَلَاح) وتابعه الزيدية ، وكان بعضهم يُنكر إمامتَه لعدم

---

(١) ذكره فيما تقدم فى ج ٥ ص ٤٧ "عبد الله" . وقد نبهنا هناك نقلا عن "الكامل لابن الأثير" أنه إبراهيم كما هنا ، فليتنبه .

(٢) فى الأصل المأمون وهو خطأ فان المأمون توفى سنة ٢١٨ وقد تقدم الكلام على هذه الدولة فى ج ٥ ص ٤٧ وما يليها فارجع إليه .

(٣) الزيادة من ج ٥ ص ٤٨ وهى لازمة لأن أحمد الناصر ابن يحيى الزاهد لا أخوه .

(٤) أخوه فيما تقدم عما بعده .

آستكمال الشروط فيه فيقول : " أنا لكم ماشئتم إمام أو سلطان " . ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده آبنه (نجاح) فامتنع الزيدية من بيعته فقال : أنا "محتسب لله تعالى". قال في "التعريف" : وأمراء مكة تسر طاعته، ولا تفارق جماعته . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرسولي باليمن مهادنات ، ومفاتحات تارة وتارة. قال : وهذا الإمام وكل من كان قبله على طريقة ماغيروها. وهي إمارة أعرابية لا كبر في صدورها، ولا شمم في عرانينها؛ وهم على مسكة من التقوى، وترد بشعار الزهد؛ يجلس في ندي قومه كواحد منهم، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم، سواء عنده المشروف والشريف، والقوي والضعيف؛ وربما آشترى سلعته بيده ، ومشى في أسواق بلده، لايغلظ الحجاب ، ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ، ولا تكثر غير مشبع ؛ هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل، وفضل كامل . قال : في "مسالك الأبصار" : ولشيعة هذا الإمام فيه حسن الآعتقاد، حتى إنهم يستشفون بدعائه ، ويمرون يده على مرضاهم، ويستسقون به المطر إذا أجدبوا، ويبالغون في ذلك كل المبالغة . ثم قال : ولا يكبر لإمام هذه سيرته ـ في التواضع لله ، وحسن المعاملة لخلقه ، وهو من ذلك الأصل الطاهر، والعنصر الطيب ـ أن يجاب دعاؤه ويتقبل منه . قال : وزي هذا الإمام وأتباعه زي العرب في لباسهم والعمامة والحنك ، وينادى عندهم بالأذان «حي على خير العمل» .

ورسم المكاتبة إليه على ماذكره في "التعريف" : أدام الله تعالى أو ضاعف الله تعالى نعمة ، أو جلال الجانب الكريم ، العالي ، السيدي، الإمامي، الشريفي، النسبي، الحسيبي، العلامي، سليل الأطهار، جلال الإسلام، شرف الأنام، بقية البيت النبوي، فخر النسب العلوي، مؤيد أمور الدين، خليفة الأئمة، رأس العلياء،

صالح الأولياء، عَلَم الهُداة، زَعيم المؤمنين، ذُخْر المسلمين، مُنْجِد الملوك والسلاطين.
ولا زَال زمانُه مُرْبِعا، وغيلُه مُسْبِعا، وقِراه مُشْبِعا، وكرَمُه لفيض نَدَاه مَنْبَعا، وهُدَاه حيثُ أمّ بالصُّفُوف متّبعا، ومُلْكه المجتمع باليَمَن لو أدركه سيفُ بنُ ذى يَزَن لم يكن إلا لديه منتضًى وتُبَّعٌ لم يكن له إلا تَبَعا. ولا فتِئَتْ معَاقِدُ شرَفه بالجوزاء، وعقائدُ حُبّه تُعَدُّ لحسن الجزاء، ومعاهِدُ وطنِه آهلةً بكثرة الأعِزّاء، ومبَاسِمُ أهل ولائه تعزُ إليه بالاعتزاء، ومبَاسِم ثغور أودّائه ضاحكةَ السُّيوف فى وجُوه الأرْزاء، هذه النَّجْوى إلى روْضِه المُمْرِع وإلا فما تُزَمّ الركائب، وإلى حَوْضِه المُتْرَع وإلا فما الحاجةُ إلى السَّحائب، وإلى حِمَاه المُخْصِب وإلا ففيمَ يَسْرِى الرائد، وإلى مَرْماه المُطنّب فوق السماء وإلّا إلى أيْنَ يُرِيد الصاعد، تَسْرِى ولهـا من هادى وَجْهه دَلِيل، وفى نادى كَرَمِه مَقِيل، وإلى بادى حَرَمه وما فيه للعاكف، وإلى عالى ضَرَمه مالا ينكره العارف، وفى آثارِ قدَمه ما يحكُم به كل عائف، وفى بدار خِدَمـه مايَذَرِ عِداه كرمادٍ اشتدَّتْ به الرِّيح فى يومٍ عاصف. مبديةٌ وأوّل ما تبدأ بسلام تُقدِّمه على قولِ كَيْتَ وكَيْتَ، وثناءٍ ولا مثلَ قوله: ﴿إنّمـا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ﴾.



صدر آخر — ولا عُطِّل محراب هو إمامُه، ولا بَطَل عمَلٌ هو تمامه، ولا جَفَّ ثرىً نباتٍ هو غَمَامه، ولا خَفَّ وَقَارُ امرئٍ بيده المصَرِّفة زمامُه، ولا ارتدّ مَضْرِبُ سيفٍ رءوسُ أعاديه كِمَامُه، ولا ارتأى فى حصُول الخيرة له مَنْ كان إلى كَنَفه انضمامُه. وأطال الله باعَ عَلْيائه، وأطابَ بأنبائه سَمَاعَ أوليائه، وأدامَ إجماعَ السُّرور عليه، ومُصافاتَه لأصفيائه وترامِيَه إليــه. صدرَتْ بها الركائبُ إليه مُحِفّه، وسَرَتْ

بهـا النجائبُ لتقفَ عليـه والقلوبُ بها مُحفَّه(١)، وأهوتْ لدَيْه يَشْـمَخُ بها لوصولها إليه الكبر، وطوَتْ إليه البِيدَ طَيَّ الشُّقَّة تَميسُها المَطَايا بالأذْرُع والثُّرَيّا بالشِّـبْر؛ تأتى بالعَجَب إذ تَجْلُبُ إليــه المِسْكَ الأذْفَر، وتجلُوله الصَّـباحَ وما لاحَ والليلَ وما أسْفَر؛ وتَحُلُّ فى مَقَرِّ إمامتــه، وتُحَلِّى العاطلَ بمـا تَرَه من الطَّلِّ صوبُ غَمَـامتِه؛ مُوصِّـلةً لعلمه مالا يُقْطَع، ومضوِّعة عنده من عَنْبَر الشِّحْر ما يُستَبْضَع، ومُعْلِمةً له كَيْت وكَيت .

قلت : هــذا ما أصَّله فى "التعريف" وحاصلُه أنه يأتى بالصَّــدْر المقدَّم ذكره إلىٰ قوله : « مُنْجِد الملوك والسـلاطين » ، ثم يأتى بالدعاء المناسب؛ ثم يقول : «هذه النجوىٰ» إلىٰ آخره «مبدية لعلمه» أو «معلِمة» أو « صدرتْ بها الركائب » ونحو ذلك .

ثم لم يتعرّض فى "التعريف" لقطع الورق الذى يُكْتَب إليه فيــه، ولا للعلامة له، ولا لعُنْوان كتابه، ولا لتعريفه، ونبَّه علىٰ ذلك فى "التثقيف" وأنه أهمل ذلك ثم لم يُنَبِّه هو عليه . وقد رأيت فى دُسْتور منسوب للمقر العَلَائى بن فضـل الله بيانَ ما أهملاه من ذلك فقــال : والخطابُ له بمولانا الإمام، والطلب منه «والمسـئول» وخَتْمُ الكتاب بالإنهاء ، والعُنْوان بالألقـاب والدعاء المقـدّم ذكره ، والعلامة « الخـادم » .

وقد ذكر فى "التعريف" أنه وصل إلىٰ الديار المصرية، فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» سقىٰ الله عهده رسولٌ من هذا الإمام [ابن مطهَّر إمام الزيدية](٢) من صَنْعاءَ، بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطال فيه الشَّكْوىٰ من صاحب اليمن، وعدَّد قبائحَه،

(١) لعله محفة فانه ليس فى كتب اللغة التى بأيدينا أحف به ولكن حف به واحتف فتنبه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

ونشر على عيون الناس فضائحه، واستنصر بمدد يأتي تحت الأعلام المنصورة لإجلائه عن دياره، وإجرائه مجرى الذين ظلموا في تعجيل دماره؛ وقال: إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها، وقاد إليها الأشراف والعرب أجمعها؛ ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه . ثم قال: فكتبت إليه مؤذنا بالإجابه، مؤديا إليه ما يقتضي إعجابه؛ وضمن الجواب أنه لا رغبة [لنا][1] في السلب، وأن النصرة تكون لله خالصة وله كل البلاد لا قدر ما طلب .

وهذه نسخته :

ضاعف الله تعالى جلال الجانب ـ بالألقاب والنعوت ـ وأعز جانبه عزا تعقد فواضله بنواصي الخيل، وصياصي المعاقل التي لم يطلع على مثلها سهيل ،وأقاصي الشرف الذي طلع منه في الطوق وتمسك سواه بالذيل؛ وقدمه للتقين إماما، وجعله للمستقين غماما ، وشرفه على المرتقين في علا النسب العلوي ونوره وصوره تماما ، ومن على اليمن بيمنه، وأطمع بصنعاء حسن صنيعه وبحضرموت [حضور][2] موت أعدائه، وبعدن أنها مقدمة لجنات عدنه؛ ولا زالت الآفاق تؤمل من فيضه سحابا دانيا ، وتتهلل إذا شامت له برقا يمانيا، وتتنقل في رتب محامده ولا تبلغ من المجد ما كان بانيا .

هذه النجوى وكفى بها فيما يقدم بين يديها، ويقوم ولا يقوم من كل غالي الثمن ما عليها؛ تطوي المراحل، وتجوب البر والبلد الماحل، وتثب إليه البحار وتقذف منها العنبر إلى الساحل؛ وتربي به سفنها، وتحط إليه بل تحط لديه مدنها، وتؤذن علمه ـ سره الله ـ بما لم يحل إليه من نظر، ولم يخل منه من سبب ألف به النوم أو نفر، ورود وارد

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥ .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦ .

رسوله فقال : يابُشْرای ولم يقُل هذا غُلام، ووصولِهِ بالسلامة والسلام؛ وماتضَمّنه ما آستَصْحَب منه من صحيفة كلُّها كَرَم ، وأخبارٍ صحيحةٍ كلُّها مما لو قُذِف به الماء لاَضْطَرم؛ذكَر فيها أمْرَ المتغلِّب العادى، [والصاحب الذى يَفْعَل فِعْلَ الأعادى](1)، والجار الذى جارَ والظالِمِ البادى ؛ وما مَدَّ الأيدىَ إليه من النِّهاب، وما آختطَفَ به القلوبَ من الإرهاب ؛ وتحدَّث عن أخباره وعِنْدنا علمه، وأخبر عن أفعاله ممـا له أجْرُ الصبر عليه وعليه ظُلْمُه ؛ وقصَّ رســولُه القَصَص، وزاد الشَّجىٰ وضَيِّق مَجَالَ الغُصَص؛ وأطار من وَكْر هذا العُـدْوان طائرا كأنمـا كان فى صَدْره، وحَرَّك منـه لأمْرٍ كان يتجرّع له كأس صَبْره ؛ وقد أسمعَ الدّاعى، وأسْرع الساعِى؛ وبلّغ الأمانةَ حاملُها، وأوصل الكلمةَ قائلُها؛ ومَرْحبًا مَرْحبًا بداعى القيام مِنْ قِبَله ، وأهْلًا أهْلًا بمـا بَلّغ علىٰ ألسنة رُسُله ؛ وهلُمَّ هلُمَّ إلىٰ قلع هذه الشجرة التى لم يُخِب ظَنَّ غارسها، وقَطْع هذه الصَّخْرة التى لم تُنْصَبْ إلا مَزْلقةً لدائسها،والتعاضُدَ التعاضُدَ لِمـا هتَفَ به هاتِفُه الصارخ، وسمِعَه حتّى الرُّمحُ الأصمُّ والسيفُ المُتصاوِخ ، فلْيأخُذْ لهذا الأمرِ الأُهْبه، ولْيَشُدَّ عليه فقد آنَتِ الوَثْبه ؛ فقد سُطِّرت وقد نَهَض إلىٰ الخيل مُلْجِمُها، وبادَرَ وضعَ السهام فى الكَنائن مُزْجِمها، وكأنّه بأوّل الأعِنّه، وآذانُ الجيادِ تفوِّق بين شَطْرى وجهها الأسِـنّه ؛ وكأنه برسوله القائد وفى أعقابه الجيشُ المُطِلّ ، والألويةُ وكلُّ بَطَل باسِـل يبتدِرُ الوَغىٰ ولا يَسْتذِل؛ ولا أربَ لنا فى آستزادة بلادٍ وسَّع الله لنا نِطاقَها، وكثَّر بنا موادَّ أموالها وقدَّر علىٰ أيدينا إنفاقَها؛ وإنما القصْـدُ كلُّه والأربُ جميعهُ كشْفُ تلك الكُرَب، وتدارُكُ [ذلكَ النَّماء الذى](1) أوْ شَـك أو كَرِب، وإن قُدِّر فُتُوح ، وتَيَسَّر ماطَرْف سوانا إليــه طَمُوح ؛ كان هو أحَقَّ بسقْبه(2) : لأنه جارُ

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عن التعريف ص ١٧ .

(٢) فى الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكانىّ كما لايخفىٰ .

الدار، والأوّلُ الذى كان له البِدَار ؛ ويقِلُّ له لعظيم شَرَفه ما نَسْمَح به وإنْ جَلّ ، ومانَهَبُهُ منه وإن عَظُم - شأنُ كلّ تَبَع وهو ببعْضه ما آستقلّ؛ وكأنّه والخيلُ قد وافَتْه تُجِدّ فى الإحضار، وتُسْرِع إليه وتَكْفِيه مـئُونَةَ الآنتظار، إن شاء الله تعالىٰ .

الفِرْقة الثـانيــــة
(أولاد رسول)

وهم المعرُوفُون بملوك اليمن عنـد الإطلاق، ومقرُّ مملكتهم حِصْنُ تَعِزّ. ورسولٌ هذا الذى كان يُنْتَسب إليه ملوك هـذا النَّسَب من اليمن هو رسولٌ أميراخُور الملك الكاملِ محمدِ بن العادل أبى بكر بن أيُّوب . قال فى "التعريف" : ولمـا بعثَ الملكُ الكامل ولدَه الملِكَ المسعود أطْسز، وهو الذى تسـمِّيه العامّة أقسيس ، بعثَ معه رسـولًا أميراخور فى جملة مَنْ بعثه معه . قال : ثم تنقَّلت الأحوال حتّى آستقلّ رسول بمُلْك اليمن، وصار المُلْك فى عَقِبـه إلىٰ الآنَ . والذى ذكره المؤيَّد صاحب حمـاة، وقاضى القُضاة ولِيُّ الدين بن خلدون فى تاريخيهما وهو الصـواب أنّ أوّلَ مَنْ ملَك اليمن علىُّ بنُ رسول، ثم آبنه المنصورُ عمرُ، ثم آبنه المظَفّر يوسُفُ، ثم آبنه الأشرفُ عمرُ، ثم أخُوه المؤيَّد هِزَبْر الدين داودُ، ثم آبنه المجاهدُ سيفُ الدين علىٌّ، وهو الذى قال المقرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى " التعريف " إنه كان فى زمنـه ، ثم المنصور أيوبُ، ثم المجاهدُ علىّ المقدّم ذكره ثانيا، ثم آبْنُه الأفضلُ سيف الدين عبّاس . وهو الذى قال فى "التثقيف" إنه كان فى زمنه فى الدّوْلة الأشرفية «شعبان آبن حسين » ثم آبنُه المنصورُ محمـد ، ثم أخوه الأشرفُ إسماعيل، وهو الذى كان فى الدولة الظّاهرية برقوق . ثم آبنه [الملك الناصر أحمد] (١) وهو القائم بها الآنَ .

---

(١) بياض بالأصل هنا وفى ج ٥ ص ٣٣ أيضا عند الكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحيح من بغية المستفيد لابن الديبع .

وٱعلم أنّ المكاتبات بينَ صاحب مصر وصاحب اليَمَن من حين ٱستقرت مملكةُ اليمن مع بنى أيُّوب ملوكِ مصر وصارت المملكتان كالمملكة الواحدة ، ثم تواصلت المكاتبات بين مُلوكهما وتأكّدت المودّة إلىٰ زماننا هذا، خَلَا ماوقع فى خِلَال ذلك من حصول تباينٍ وقع بين أهل المملكتين فى بعض الأزمان، وهو علىٰ ضربين :

الضــــــرب الأوّل

(ما كان الأمرُ عليه فى الدولة الأيوبية ، وهو أن تُفْتتح المكاتبة بلفظ « أصـــدرناها »)

وهذه نسـخةُ كِتابٍ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ صاحبِ مصر والشام ، إلىٰ أخيه سيفِ الإسلام صاحب اليمن يستقدِمُه إليه ، معاوناً له علىٰ قتال الفَرَنج، ويُخْبِره بما وقع له من الفُتُوحات فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهى :

أصدَرْنا هذه المكاتبةَ إلىٰ المجلس، ومما تجدّد بحضرتنا فُتُوح «كَوكَب» وهى كرسىُّ الإسبتارِيَّة ودارُ كُفْرهم ،ومستقَرُّ صاحبِ أمرِهم ، وموضعُ سلاحهم وذُخْرهم ، وكان يجمَع الطُّرُق قاصدا،وللتَقىٰ السُّبُل راصدا ، فتعلّقت بفتحه بلادُ الفتح وٱستُوطِنَت، وسُلِكت الطرقُ فيها وأُمِّنت، وعُمِّرتْ بلادُها وسُكِنت، ولم يبقَ فى هـذا الجانب إلا «صُور» ولولا أنّ البحر يُنْجِدها والمراكب تَرِدها ، لكان قيادُها قد أمكَن ، وجِمَاحُها قد أذْعَن ، وماهمْ بحمد الله فى حِصْن يحميهم، بل فى سِجْن يحويهم، بل هم أُسارىٰ وإن كانوا طُلَقاء ، وأمواتٌ وإنْ كانُوا أحيـاءً، قال الله عز وجلّ : ﴿ فلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ ولكل ٱمرئٍ أجلٌ لابدّ أن يَصْدُقَه غائبُه، وأملٌ لابدّ أن يكْذِبه خائبُه .

وكان نزولُنا علىٰ « كوكب » بعد أن فتحْنا «صَفَدَ» بلدَ الدَّيوية ومَعْقِلَهم ، ومُشْتَغَلَهم وعملَهم وعلَمهم الأحْصَنَ ومتْرَلَهم ؛ وبعد أن فتحنا « الكَرَك » وحصُونَه ، والمجلسُ السيفى - أسماه الله - أعلمُ بما كان على الإسلام من مَئُونَتِه المُثْقِلة ، وقضيَّته المُشْكلة وعلَّته المُعْضِلة ؛ وأن الفَرَنْج - لعنهم الله - كانوا يقعُدون منه مَقَاعِد للسَّمْع ، ويتبوَّءون منه مواضع للنَّفْع ؛ ويحولُون بين قات (؟) وراكبها ، فيُذَلِّلون الأرضَ بما كان منه ثِقلًا علىٰ مناكبها . والآنَ ماأمْنُ بلادِ الحَرَمين ، بأشدَّ من بلاد الحَرَمين ؛ فكلُّها كان مشتَرِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت تُرامِى ولا تُرام ، وتُسامِى ولاتُسام ؛ وطالمَا ٱستفرَغنا عليها بيوتَ الأموال ، وأنفقنا فيها أعمارَ الرجال ، وقرَعنا الحديد بالحديد إلىٰ أن ضَجَّت النِّصالُ من النِّصال ؛ والله المشكورُ علىٰ ما ٱنطوىٰ من كلمة الكُفْر وٱنتشر من كلمة الإسلام . وإنَّ بلاد الشام اليومَ لاتسمعُ فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلًا سلامًا سلامًا [فادخُلُوها بسلام][1] ؛ وكان نزولُنا علىٰ «كَوْكَب» والشتاءُ فى كَوْكَبه ، وقد طَلع بُيْنَ الأنواءِ فى مَوْكِبه ؛ والثلُوج تنْشُر علىٰ البلاد مُلاءها الفَضِيض ، وتكسُو الجبالَ عمائِمَها البِيض ؛ والأوديةُ قد عجَّت بمائها ، وفاضَتْ عند ٱمتلائها ؛ وشمَخَتْ أُنوفها سُيُولا ، فخرقَتِ الأرضَ وبلغتِ الجبالَ طُولا ؛ والأوْحالُ قد ٱعتقَلت الطُّرُقات ، ومَشْىُ المطلَقُ فيها مِشْيةَ الأسيرِ فى الحَلَقات ؛ فتجشَّمنا العَناءَ نحن ورجالُ العساكر ، وكاثرْنا العدوَّ والزَّمانَ وقد يُحْرِز الحظَّ المُكاثِر ؛ وعلِم اللهُ النيَّةَ فأنجدَنا بفضلها ، وضميرَ الأمانة فأعانَ علىٰ حَمْلها ؛ ونزلنا من رُءوس الجبالِ بمنازلَ كان الاستِقْرارُ عليها أصعبَ من نَقْلها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلها ﴿ وأمَّا بنِعْمةِ ربِّك فحدِّث ﴾ .

---

(١) الزيادة عن كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (ج ٢ ص ١٣٦) .

والحمدُ لله الذى ألهمَنا بنعمَته الحديث ، ونَصر بسَيف الإســلام الذى هو سيفُه وسيف الإســلام الذى هو أخونا الطيِّبَ علىٰ الخبيث ؛ فمدحُ السيف ينقسِم علىٰ حدَّيه، ومدحُ الكريم يتعدَّى إلىٰ يدَيه ؛ والآن فالمجلسُ ـ أسماه الله ـ يعلمُ أنَّ الفرنج لايَسْلُون عما فتحنا، ولا يَصبِرُون علىٰ ماجَرَحْنا ؛ فإنهم ـ خذَلهم اللهُ ـ أممٌ لا تُحصىٰ ، وجيوشٌ لاتُستَقصىٰ ؛ ووراءَهم من مُلوك البحرِ من يأخذ كلَّ سـفينةٍ غَصْبا ، ويطمعُ فى كلِّ مدينةٍ كَسْبا ؛ ويدُ الله فوقَ أيديهم ، والله محيطٌ بأقرَبيهم وأبعَديهم ؛ و﴿سيَجعَلُ اللهُ بعْدَ عُسْرٍ يُسْرا﴾ . ﴿لا تَدْرى لعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعْدَ ذٰلكَ أمْرا﴾ .

وماهُمْ إلا كلابٌ قد تَعاوَتْ، وشياطينُ قد تَغاوَتْ . وإن لم يُقذَفُوا من كلِّ جانبٍ دُحُورا ، ويُتبَعُوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحُورا ؛ استأسدُوا واستكلبُوا ، وتألّبُوا وجَلّبوا وأجلَبُوا ، وحاربُوا وحَرَّبوا ؛ وكانُوا لباطلهم الدّاحض ، أنصرَ منّـا لحقِّنا الناهض ؛ وفى ضَلالهم الفاضح ، أبصرَ منّا لهُدَانا الواضح ؛ ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ يَنْصُر الكَرَمَ ابنُها * وابنُ اللَّئيمةِ لِلّئام نَصُورُ!

فالبِدَارَ إلىٰ النَّجْدة البِدَار ! ، والمُسارعةَ إلىٰ الجنـة فإنها لن تُنَال إلا بإيقاد نارِ الحربِ علىٰ أهلِ النَّار ، والهمَّةَ الهمةَ ! فإن البحارَ لاتُلقَىٰ إلا بالبِحار ، والملوكَ الكبارَ لايقفُ فى وجُوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلَّا نَهضةٌ تُورِثُ العُلَا * ليومِـك ماحَنَّت رَوَازِمُ نِيبُ !

ونحنُ فى هذه السنة ـ إن شاء اللهُ تعالىٰ ـ ننزِل علىٰ أنطاكيَة ، وينزِل ولدُنا الملكُ المظفَّر ـ أظفره الله ـ علىٰ طرابُلُس ؛ ويستقِرُّ الرِّكابُ العادلىّ ـ أعلاه الله ـ بمصر فإنها مذكورة عنـد العدُوّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطرَق ، وأنَّ الطلَب علىٰ الشام ومصرَ تفرَّق ؛ ولا غنًى عن أن يكونَ المجلسُ السيفى ـ أسمـاه الله ـ بحراً فى بلاد الساحل

يُزْجَرُ سلاحا، ويجرّد سيفا يكونُ على مافتحناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا؛ فإنه ليس لأحدنا للآخر من سُمْعة لهـا فى كل مَسْمَع مَنْعـه، وفى كلّ رُوع رَوْعه؛ وفى كل مَحْضَر مَحْضَر، وفى كل مسجد منبر، وفى كل مَشْهد مَخْبَر؛ فما يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم، ولا يُرْجىٰ لموقف الصبرِ الكَرِيمِ إلا الكريم؛ والأقدارُ ماضيه، وبمشيئة الله جاريه؛ فإنْ يشإ الله ينْصُرْ على العـدوّ المضعّف، بالعدد الأضعف؛ ويُوصَلْ إلى الجوهر الأعلىٰ، بالعَرَض الأدنىٰ؛ فإنّا لا نرتابُ بأنّ الله مافتح علينا هـذه الفُتوحَ ليُغْلقها، ولا جمع علينـا هـذه الأمـة ليُفرّقها؛ وأنّ العدوّ إنْ خرج من داره بَطَـرا، ودخل إلى دارنا كان فيهـا جَزَرا؛ وما بَقِيَ إن شاء الله تعـالى إلا أموالٌ تُساقُ إلى ناهبها، ورقابٌ تُقاد إلى ضاربها، وأسلحةٌ تُحمَلُ إلى كاسبها؛ وإنما نُؤْثِر أن لاتنطوىَ صحائفُ الحمد خاليةً من آسمه، ومواقفُ الرُّشد خاويةٌ من عَزْمه؛ ونُؤْثِرأنْ يُساهِم آلَ أيوبَ فى ميراثِهم منه مواقعَ الصبر، ومطالعَ النصر؛ فوالله إنّا على أن نُعطيَه عطايا الآخرة الفاخره، أشدُّ منّا حِرْصا على أن نُعطيَـه عطايَا الدنيا القاصره، وإنّا لايسُرّنا أن ينقضيَ عُمُره فى قتال غير الكافر، ونِزَالِ غير الكُفْء المُناظر؛ ولا شكَّ أنّ سيفه لو آتصلَ بِلِسانٍ ناطقٍ وفَمٍ، لقال : مادمْتُ هناكَ فلستُ ثَمّ؛ وما هو محمولٌ على خُطّة يخافُها، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحُكْمنا يَعافُها؛ والذى بيده لانَسْتكثِره، بل نَستقْصِره عن حقّه ونستَصْغِره؛ وما ناولْنَاه لفتح أرضه السِّلاح، ولا أعرْناه لِيلْك مركِزِه النَّجاح؛ إلا على سَخَاءٍ من النفس به وبأمثالِه، على علمٍ منّا أنه لا يقعُدُ عنا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نكْنْ به ظنّا أحسنَ منه فعلا، ولا نرضىٰ وقد جعلنا الله أهلاً أنْ لا نراه لنَصْرنا أهْلا؛ وليستَبْشِرْ أهلَ الرشاد فإنهم [لا يألُونه] (١) حقًّا وآستنهاضا، وليَغْضِ أهلَ الغَوَاية

---

(١) فى الأصل «يألوه حقا» كما تقدم أيضا فى ص ٢٧ من هذا الجزء والصواب ما أثبتناه فى الصلب كما يقتضيه المعنى وقواعد اللغة تأمل .

فإنهم إنمـا يتغالون به لمَصالحهم أغراضا؛ ومن بيته يظْعَن وإلىٰ بيته يَقْفُل، وهو يجيئُنا جوابَ مثـله لمثلنا، وينوِى فى هذه الزيارَة جمعَ شملِ الإسلامِ قبـل نِيَّة جمع شملِنا؛ ولا تقْعُدُ به فى الله نهضةُ قائم، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم؛ ولا يستفتِ فيها فَوْت طالب ولا تأخُذه فى الله لومةُ لائم؛ فإنمـا هى سَفْرة قاصده، وزَجْرة واحده؛ فإذا هو قد بَيَّض الصحيفـةَ والوجْهَ والذِّكْر والسُّمْعه ، ودانَ الله أحسن دِيْن ولا حرجَ عليه إنْ فاء إلىٰ أرضه بالرَّجعه ؛ وليتدبَّرْ ما كتبناه، وليتفهَّمْ ما أردْناه؛ وليُقَدِّم الاستخاره، فإنها سِراجُ الاستناره، وليَغْضبْ لله ولرسولِه ولدينِه ولأخيـه فإنها مكان الاستِغْضاب والاستثاره . وليحضُرْ حتّى يشاهد أولادَ أخيه يستشعِرون لفرقته غمّاً، وقد عاشُوا ماعاشُوا لايعرفُون أنّ لهم مع عمِّهِـم عمّـا؛ والله سبحانه يُلْهِمه توفيقا ، ويسْلُك به إليـه طريقا، ويُجْدِنا به سيفا لرقبة الكفر ممزقا ودَمه مُريقا ، ويجعله فى مِضْمار الطاعات سابقا لا مسبُوقا . إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى

(من المكاتبات إلىٰ صاحب اليمن ما الأمرُ عليه من ٱبتداء الدولة التركيه وهلُمّ جرّا إلىٰ زماننا، وهو علىٰ ثلاثة أساليب)

الأســـــلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «أدام الله تعالىٰ نعمةَ [أيام] المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كُتِب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جوابَ كتابٍ ورد من صاحب اليمن فى مقـابلة البُشرىٰ بدخُول العساكر المنصورة إلىٰ بلاد الأرمن، وطلبِ سَـلامش نائب التتار بالرُّوم الدخولَ فى الطاعة ؛ وذَكَرَ[1] أنّ نائبًا كان لأبيـه

(١) أى صاحب اليمن فى كتابه الذى ورد منه فى مقابلة البشرى .

فى قلعة طمع وعصى عليه فظفر به فبشّر بذلك ؛ ويحرّضه على الجهاد وإنفاذ الأموال، ويهدّده، ويوجّه به قصّاده إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله، وهى :

أدام الله تعالى نعمة أيام المقام العالى! وأنهضه بفرض الجهاد الذى بمثله يُبتهج، وأيقظه لمتعيّن الغزو الذى ما (١) له تُدرَك الرُّتب وترتفع الدَّرج، وأشهده فى سبيل الله مواقف النصر التى إذا أودعنا نشر بشرها الطروس عبقت بما فيها من الأَرَج، وأراه مشاهد فتوحنا التى إذا حدّثت الأحلامُ عن عجائبها حدّثتْ عن البحر ولا حَرَج ؛ وصان مجده عن إضاعة الوقت فى غير حديث الجهاد الذى هو أولى ما بُذلت له الذخائرُ وابتُذلت فيه المُهَج .

صدرتْ هذه المكاتبةُ تخصُّه بتحية تتضوّعُ نَشْرا ، وتُتحفُه من متجدّدات الظَّفَر بِشْرا ، يمْلأُ الوجودَ مسرّة وبُشرى ، وتقُصّ عليه من متجدّدات فتح يأتى على ما أتعبت فيه الأفكارُ قرائحَها من مشتهى التّهانى فلا يَدَعُ له ذكرا ، ولتتلو على من ظنّ بعد ما سمع من البَلاغ بلاغ العِدا أنّ إزالة والٍ عن مركزه فتحٌ كبير : لقد جئتَ شيئا نُكرا . وتُوضّح لعلمه الكريم أنّ مكاتبته الكريمة وردت مقصورةً على نبإ لا يُعتدّ بذكره ، محصورةً على خبر لا ينبغى لمثل مجده أن يُمرّه على فكره ، مطلقةً عِنانَ القلم فيما كان ينبغى طَىّ خبره وتعفّى أثره ، وإخفاء سببه وتركه نَسْيا منْسيّا فضلا عن التبجّح بذكره ، والتهنئة به ، إذ فى ذلك مقابلةُ البحر بالثّماد ، والرُّوح بالجماد ؛ والشمس بالذُّبال ، والهُدى بالضّلال ؛ فلم يكْمُل له فى ذلك المراد ، وأتى بما قالت له التهانى : (نحنُ فى وادٍ وأنتَ فى واد) ؛ وقابلْناها مع ذلك بالقَبول الذى أجتلى غُرَرَها ،

---

(١) بياض فى الاصل ولعله الذى بالقيام به تدرك الخ .

وأحمدت لديه وِرْدها وصَـدَرها ؛ فأحطنا عِلْمًا بمـا تضمّنته من الأحوال التى أبداها، والمتجدّدات التى عَظُم موقِـعُ نشرها عنده فأهْداها .

وأما[1] ماذكره من أمر القلعـةِ التى كان [النائب بها] لوالده شخصا اعتمد عليه، وولّاه مستحفِظًا ظنّـه مع تغاير الأحوال مؤتمنا علىٰ مافى يدَيْه؛ وأن ذلك الشخصَ بعد انتقال والده رحمه الله طمِع فيما استُودِع بجحدَ الوديعةَ والمُوادَعه، ورام المنازَعةَ والمقاطَعه ،وخالَفَ وحالَف، وقاربَ العِصْيان وقارَف؛ وأنه فى هذا الوقت قلعَ ذلك النائبَ، من تلك القلعـةِ المغتصَبه، وأراحَ من همِّه الناصِب، أفكارهُ ووصَبَه؛ إلىٰ غيرذلك ممـا أورده علىٰ وجه البشرىٰ لهذا السبب الضَّعيف ، وأبرزَه فى مَعْرِض التهنئةِ من هذا الأمرِ الطفيف؛ وأراد أنْ يتكثّر فيه بما لامَدْخَل له فى كُثْره وقُلّه، فذكّر بُروزَه بجمعه إلىٰ شخص واحد فى قُبالةِ ما اتصل به من نبإ كل موطِن برزَ فيه الإسلامُ كلُّه إلىٰ الشِّرْك كلّه؛ وظاهرُ الأمر أنّ ذلك الشخص ماعصىٰ بالمكان الذى كان فيه إلا لمـا رأىٰ بالمملكة اليمنيّة من اضْطِرابِ الأحوال ، وأسبابِ الاختلاف والاختلال ؛ والوَهْن الذى حسّن له الاحتِرازَ والاختِزَال؛ والخَلْوةِ التى حمَلتْـه علىٰ أنْ (طلَبَ الطعْنَ وحدَه والنِّزال) ؛ وامتدادِ الأيْدى العاديَة بكلِّ جِهةٍ إلىٰ مايليها، وضَياع رَعايا كلِّ ناحيـة بالاشتغال عن افتقادِ أحوال مَنْ يُباشرها وانتقاد تصرُّف مَنْ يليها؛ فهو الذى أوجب طمَعَه، وقوّى ضِلَعَه، وحمله من مَرْكَب العناد، وأراه نظراءه بتلكَ الجهة ممّنْ سلَكَ الفساد . وهذا الأمرُ ماخَفِيَ علينا خبَرُه ، ولا توارىٰ عنّا وِرْدُه ولا صَدَرُه ؛ فإن أخبار مملكة اليمن مازالتْ متواصلةً إلينا بما هى عليه من اضطرابٍ وافٍ ، واختلافٍ غيرِ خافٍ، وهَيْج لايرجِعُ الأمر فيه إلىٰ كافٍ كافٍّ؛ وما أخّرْنا لَحَقَ جيوشِنَا المنصوره، وعساكِرِنا التى ممـالكُ العِـدا بمَهابتها محصُوره؛

(١) لم يأت لأما بجواب واضح ولكنه يدرك بالتأمل .

عن الوُصول إلى المملكة اليمنيــة لتقويم أوَدِها، وتمكين شــنها، وإقامة أمر المُلْك فيها، وحَسْم مادّة الفَساد عن نَواحيها، وتَطْمين البلاد، وإنامة الرَّعايا من الأمْن فى أوطإ مهاد، والاحْتراز على الخَزائن والأموال، وصَوْنها عن الإنفاق فى غير جُنْد الله الذين منّعوا دعوةَ الشرك أن تُقام وكلمةَ الكُفْر أن تُقال، إلّا لأنّ عساكرنا كانت الآنَ فى الممالك والأقاليم التى بيد الكُفْر : من التّتار المخذولين ، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين، تقتُل وتأسِر، وتلقى الجيوشَ الكافرة فتكسِب وتكسِر، وتصْحَبهم حيثُ حلّوا طَلائِــعُ رُعْبها ، وتُصبِّحُهم منها أين طلّوا ريحُ عاد التى تُدَمِّر كُلّ شىْء بأمْرِ ربِّها .

وماسَطَّرْنا هــذه المكاتبةَ إلا وجُيوشُــنا المنصورةُ قد وَطِئت عُقْر بلادهم فأذلّتها وأذالَتْها، وغيّرت أحوالَها وحالَتَها، وقاسمتْهم شرَّ قسمة فلها منها الحُصُون والمصُون، ولهم منها الخَراب والتَّباب، والجنّاتُ الوارفة الغُصُون، والدارسُ الذى لا يحصُــل بكفّ دارِس بِنْيَته إلا التُّراب، وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمُها النصر، ويتقدّمُها من أسْر العِــدا وغنائمهم مايُرْبِى عن الحصر، ومابيْنَها وبين رُكُوب هــذا البحر لمُلْك تمهِّده، وعَدْل تُجَدِّده، وبُغَاة تكُفّ غَرْبَها، ورُعاة تؤمِّن بالمَهابة سِرْبَها، وتُصفِّى من أكدار الفِتَن شِرْبَها ، وخزائنَ لهــا عن غير الإنفاق فى سبيل الله تصونُها إلا بمقدار ماتستقِرّ بهــا المنازلُ آستِقْرار السِّنَة بالجُفُون لا النوم (١) ، وأضرمَتْ نواحِيَها، وآستاقتْ اهلَها ومواشِيَها، وجعلتْ قُصُورَها صَعِيدا، وزَرْعها حَصِيدا ، وعقائِلَها إماء ، ومعاقلَها هَبــاء ، وآبتــذلَتْ مَصُونَها الذى جعله اللهُ لهــا أثقالا ، وآختارتْ من حصونها لمُلْكنا ما كانتْ سيوفُنا له مَفَاتِحَ فلمّــا فُتح غُدْن له أقفالا ، وآقتلَعَتْ من القِلَاع التى كانتْ بيد الكُفْر كلَّ مَعْقِل أشِب، وحِصْنٍ شابَتْ نواصِى

(١) بياض بالاصل ولعله لاالنوم بالعيون فــا من جهة الهدا إلا وأضرمت الخ تأمل .

اللَّيْلِ وهو لم يَشِبْ؛ قد صُفِّح بالصِّفَاح، وشُرِّف بأسِنَّة الرِّماح، واستدارَ بِقُنَّة قلةٍ يَتَهَيَّب الترقِّىَ إليها هُوجَ الرِّياح؛ فطَهَّرتْه من النَّجَس، وعوضتْه بصوتِ الأذانِ عن صَوْتِ الجَرَس، وأخرَسَتِ الناقوسَ بسورةِ الفتح الذى عوَّذتْه نُوبُ الدهرِ بآياتِ الحَرَس؛ مع ما أُضيف إلى تلك القِلاع من بِلاد وتِلاد، وأغوار ونِجَاد؛ وجَنَّاتٍ وعُيون، وأموالٍ ارتُجِع بها ما كان للاسلام فى ذِمَّة الكُفْر من بَقَايا الدُّيون. وكلُّ تلك الغنائم مَنَحْناها جُيوشَنا المنصورة وأبَحْناها، وقوَّيناهم على أمثالها من الفُتُوح برفْعِ العوائق التى أزلْناها، بالقناطيرِ المقنطرة من الذهب والفِضَّة وأزَحْناها؛ وما وصل الآنَ قُصَّادُه إلى أبوابنا العالية إلا والبشائر تَنطِق بألسِنةِ التَّهانى، وتُحقِّق مجدَّدات هذه الفتُوح فى الأقاصى من ممالكنا والأدانى؛ وقد شاهَدُوا ذلك وشَهِدُوه، ورأَوْا ما رأى غيرُهم من نَوَادِرِ الفُتُوح التى أربَتْ على ما أَلِفُوه من قبلُ وعَهِدُوه. هذا وما وَضَعت الحربُ إلى الآنَ أوزارَها، ولا خَمَدتْ نارُ الوغى التى أعدَتْ جيوشُنا المنصورةُ للأعداء أُوَارَها؛ وما يَمضِى وقتٌ إلا والبشائرُ متواردةٌ علينا بفتح جديد، ونَصْرٍ له فى كلِّ يومٍ مُخَلَّقٍ تخلُّقٌ وفى كل بَرٍّ بريد. وقُصارى أمرِ العدوّ الآنَ أنهم ليس لهم بلَد، إلا وقد (أخنى عليه الذى أخنى على لُبَد)؛ ولا دارٌ إلا وقد أضحت كدارِمَيَّةَ التى (أقوتْ وطال عليها سالِفُ الأمَد)؛ ولا جيشٌ إلا وقد فرّ وأين يفرّ وهو يطْوِى فى قبضتنا المَرَاحل؟؛ ولا طرائدُ بحرٍ إلا وهى مَطْرُودة فى اللُّجَج لتيقُّنهم أن العَطَب لا السلامةَ فى الساحل.

فمن أجل ذلك رأينا أنَّ اشتغالَ جيش الإسلام بجانب الكُفْر هو المهمُّ المقدَّمُ على ماسواه، والغَرضُ الذى تيقَّنَّا فيه إنقاذُ أهل الإسلام من كلمةِ الكفر وتحكُّمه «ولكُلِّ امرِئٍ مانواه». ورأينا أنَّ أمرَ هذه الجهة مايفُوتُ بمشيئة الله وعونه وتمكينه، وإذا كان الله قد أقام بقُدْرته منا مَلِكًا لنصرة دينه فإنَّ اليَمَن وغيرَه فى يَمينه؛ وهى محسوبةٌ

من أعداد ممالكِنا المحروسه، ومعدودةٌ من أقسام بلادنا التى هى بوفُود الفُتُوح مأنُوسه؛ ولا بُدّ من النظر فى أمْرها ، وإعمال الفِكْر فى إزاحة ضُرِّها ؛ وتجريد العساكر المنصورة إليها، وإقدامِ الجيوش التى عادتُها الإقدامُ فى الوَغىٰ عليها؛ ليكونَ العملُ فى أمرها بما يُرْضِى الله ورسولَه ، ويبلُغَ مَنْ كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يُطيقُه سُولَه؛ فإن المملكةَ المذكورة توالتْ عليها المُدَد، ومضى عليها الأبَد؛ وهِمّةُ من فيها إلىٰ اللّهْو مصْرُوفه، وعلىٰ اللّذات موقُوفه؛ وأحكامُ الجهادِ عندهم مرفُوضة حتى كأنّ الجهادَ لم يبلُغْهم وغره حلمه(1)، ولا أحاطتْ أفكارهم بشيء من علمه؛ بل كأنه علىٰ غيرهم وجَب ، وكأنّ ما أعدّ اللهُ من الأجر عليه إنما أُرِيد به الذين يكْنِزُون الذهب ، وتمادَتِ الأيامُ وليس فى نِكايَةِ أعداء الله منهم مُصيب، وتفرّقت الأموالُ وما لجُنْد الله فيما احتَوَوْا عليه من ذلك منهُم ولا تَصيب؛ وأىُّ عذرٍ عند الله لمَنْ جعله مؤتَمنًا علىٰ مالِه فلم يكُنْ له فى سبيل الله إنْفاق؟ وأىُّ حجةٍ لمن [لم] يقِفْ موقِفَ جهاد وقد قال رسولُ الله صلّىٰ الله عليه وسلم : "مَنْ مات ولم يغْزُ ولم يُحدِّثْ به نَفْسَه ماتَ علىٰ شُعْبة من نِفَاق" .

والآنَ فإنّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ قد أقامَنَا لنُصْرةِ الإسلام ورَفْعِ كلمةِ الإيمان وتمهيد البلاد، وإجراء الأحوالِ فى القريب منها والبعيدِ علىٰ ما يُرضِى الله تعالىٰ ويُرضِى رسوله عليه السلام من السّداد ؛ وأهمُّ الأمور عندنا أمرُ الغُزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا مُمسِكٌ بعِنان فَرَسه، مكْتَحِلٌ بسُهَاد حَرَسه؛ لا يأمن العدُوّ مهاجمةَ خيله فى سُراه، ولا مفَاجَأة خَيَاله فى كَرَاه ، حِصْنُه ظهرُ حصانه ، وجوابُه علىٰ لسان سِنَانه، كلّما سَمِع هَيْعةً أو وَقْعةً طار علىٰ مَتْن فرسه يلتمِسُ الموتَ والقتلَ فى مظَانّه ، وهؤلاءِ هم جيوشُنا الذين دوّخُوا البلاد، وأذلُّوا أهلَ العناد، وطَهّروا السّواحل، وأجْرَوْا فى كل

(1) لعله «لم يبلغهم فرض حكمه» .

موطنٍ من أنهار الدماء ما يُروى البلدَ الماحل، وهزَموا جيوشَ التتار وهم فى أعداد الكواكب، وحصَدُوهم بسُيوفهم عرورة (؟) وهم فى نحو المائةِ ألف راكب؛ حتّى إن ملوك التتار الآنَ ليتمنّون إرضاءَنا وإغضاءَنا، ويستدعُون ويدّعون للآبادِ وَلاءَنا، ويطلُبون المسالمةَ منا، ويودُّون نَسمةَ قبول تصـدُر إليهم عنّا؛ والطويلُ العُمر منهم وممّن والاهم هو الذى يَهرُب من بين يدَىْ جيوشنا المنصورةِ ليَسْلَم بنَفْسه، وإنْ أسلَمَ ما يعِزُّ عليه من مالِهِ وولَده وعِرْسه. فمثلُ هؤلاء الذين يستحقُّون أموالَ المالك الإسلامية ليستَعينُوا بها فى جَهَازهم لِجهَادِهم، ويُنْفقُوها فى إعدادِهم لأعدائهم؛ ويَصْرِفوها فى ذَبِّهم عن دِينِ ربّهم.

وهذه المملكة اليمنيّة قد اجتمع فيها من الأموال ما يُربِى عن الحَصْر والحَدّ، ويزيدُ على الإحصاء والعَدّ؛ لا يُنْفَق منها شىءٌ فى الجهاد، ولا يُعَدّ منها مصروفٌ إلا بما لا تُحمَدُ عاقبتُه فى المَعاد؛ قد صُدَّ عنها جندُ الله الذين ينفِقُونها سِرًّا وجَهْرًا، ويستنزلون بها أرواحَ أعداءِ الله على حُكْم سُيُوفهم قَسْرا وقَهْرا؛ وأبِيحتْ لمن تأبَّى الجهادَ جانبا، ورضِى باللهو صاحبا؛ واقتنَى السِّلاح لغير يوم الباس، واعتنَى بارتباطِ الجياد بَطَرا ورِئاءَ الناس.

وكان كتابنا قد تقدّم فى أمر المجاهدين وما يحتاجُونه من الإعانة بما يحمَلُ إليهم من الأموال بالمملكة اليمنيّة: ليُصْرَف ذلك فى حقه، ويصل إلى مستَحقّه؛ ويكونَ قد أُعِدّ منها للإنفاق فى سبيل الله جانبٌ بحيث لا يُضَاع، ووصل إلى مجاهدى الأمة نصيبٌ من مال الله الذى هو فى يَدِ مَنْ وَلّاه شيئًا من أمور عباده على حكم الإيداع؛ ويدخُل ذلك[1] فى زُمْرة الذين يكْنِزُون الذهبَ والفِضّة ولا ينفِقُونها؛ فحصلتِ المكابرةُ فى الجواب عن ذلك، وأىُّ عُذْر فى المكابرة عن

(١) كذا فى الأصل ولعله «ويخرج بذلك من زمرة الخ» تأمل.

مثل هـذا الأمر وشَغْلِ الوقت بذكره ؟ ونحن عنـدنا فى كل وقتٍ من البشـائر بمَوَاهب الفتح، وغرائب المَنْح ،ومتجدّدات الظَّفَر والنصر، ومتجلّيات التأييد التى قسّمَتْ أعداءَ الله بين الحَصْد والحصر، مايهُبُّ نَشْرُه هبوبَ الرِّيح فى البرِّ والبِحار، ويودُّ الدهرُ لورقّه بذهب الأصيل علىٰ صَفَحات النّهار ؛ وكلُّ ذلك فى أشدّ أعداء الله تعـالىٰ : من التتار، الذين عُرِف عَدَدُهم وجلَدُهم ، والفـرَنج الذين طال وكثُر فى عَدَاوة الإسـلام أبَدُهُم ومَدَدُهم ، والأرمن الذين هم أكثرُ الطائفتينِ فى الظاهر وِفَاقا ، وأشـدّ الفئتينِ فى الباطن نَفْرا ونِفَاقا ؛ وهم هٰؤلاء وهٰؤلاء مادّة تمـير وتمير ، وتُغْريهم وتَغُرُّهم فتصيرُبهم من نارالحربِ المضَرَّسةِ لسيوفنا إلىٰ جهَنّمَ وبِئْس المَصير؛ وأىُّ شىءٍ من ذلك يُذْكَرعندمواقف جيوشنا المنصورة،وظَفَرِ عساكرنا المؤيَّدة؟ ، لوكان حَصَـل عنده الفكرُ الصائب ماوردتْ مكاتبَته إلا وهى مقْترِنةٌ بما يُرضى اللهَ ورسولَه وأهلَ الإسلام : من إمداد الغُزَاة بالأموال، وإعانتِهم علىٰ الكُلَف التى كلّما أعد لها مال[بدتْ]حال يُلائِمها الإنفاقُ فى سبيل الله ويَسْئَلُونَكَ عن الجبال ؛ وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمُها النصر،ويتقدّمُها من أسرىٰ العِـدا وغنائِمِهم مايُرْبى عن الحَصْر؛ وما بينها وبينَ رُكوبِ ثَبَج هـذا البحر لُمْلك تُمهّـده ، وعَدْلٍ تُجَدّده، وبُغَاة تَكُفُّ غَرْبها، ورَعايَا تُؤَمّن بالمَهَابة سِرْبَهـا، وتُصفّى من أكدار الفِتَن شِرْبهـا؛وأموالٍ تصونها، وخزائنَ يُنَزّه عن غيرالإنفاقِ فى سبيل الله مَصُونُها؛ إلا بمقْدَار ماتستقرُّ بها المنازلُ آستقرار السِّنة بالجُفُون لاالنوم،وتأْخُذُ أُهْبةً لذلك المُهِمّ فى يومٍ أو بعضِ يَوْم .

اللهم إلا أنْ تلبِّى دَعوةُ الجِهَاد من تلك الجهَة بألسِنة النّفير، وتُعبّى صُفُوفُ الجِلَاد فى الجَوَارِى التى تكادُ بأجنحة القُلُوع تَطـير،أو تنُوبَ عنها خزائنُ الأموال التى تُنْفَق فى سبيل الله تعالىٰ، أو تَقُومَ مَقَامهـا النفقاتُ التى تُصْرَفُ إلىٰ جنود الله التى تَنفِر فى سبيل اللهِ تعـالىٰ خفَافا وثِقَالا ، ليكُونَ قد آسـتدرَّ ببركة ذلك الطَّلّ

أخلاقَ الوابل ، وأنفقَ ما ٱختزنه فى سبيلِ الله الذى مَثَـلُ ما يُنْفَقُ فيه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبَتَتْ سبعَ سَنابِلَ ؛ وتَسْـتعدّ الجيوشُ المنصورةُ إلىٰ طوىٍ يَصُونُـ برأيه مُلْكه ويَصُول ،ويستَطِيلُ علىٰ الوجُود ولوأنّ البَرّ سُيُوف والبحرَ نُصُول ؛ والله تعالىٰ يُرْشِده إلىٰ ماهو أقرب للتقوىٰ ، ويُمَسِّكه من طاعتــه بالسبيلِ الأقوم والسَّبَبِ الأقوىٰ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الثـانى

(وهو المـــذكور فى " التعريف ")

أن تفتتَح المكاتبةُ بلفظ: «أعزّ الله تعالىٰ جانبَ المقام العالى» إلىٰ آخر الألقاب، ثم الدعاء، مثل: ولا زَال يُحْسِن وِلايةَ حَسَبه، ويَنْهَضُ بجناح نَسَبه، ويصُونُ مُلْكه بعدّ له أكثَرَ من قُضُبه، ويُثْبِت فى اليَمَن اليُمْنَ فى حالةِ إقامتِه ومنقَلَبه .

أصدرْناها إلىٰ مَقامه موشّحةَ المَعاطف بحُلِيِّه، شاكرةً مُلَا علِيِّه، ذاكرةً من محامده مايتكثّرُ السحابُ بوَلِيِّه، مُبديةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ .

وهذه أدعيةٌ وصدُور تناسِبُ كل سلطانٍ بها :

ولا زالَ به «تَعِزُّ» تَعِزُّ وتَفُوز بيره زَبِيــدُ ، ويخرُجُ من عَدَنَ عَدْنُ فضله المَدِيد، وتَمْتَلِي بوُفُود البَرّ والبحر : هــذا تطيرُ به المَراكبُ وهذه الركائبُ كِلَاهما من مكانٍ بعيد؛ ولا بَرِحتْ به آهلةَ الأوطان، مشتقّةً صفاتُ قُطْره اليَمَنِيّ من «الإيمانُ يمَانٍ» ؛ محجُوبًا بالجلالة أو محجُوجًا لمـا يُنْسَب إليه من أحَدِ الأركان .

أصدرْناها والســلام يبُارِى ما تُنْبت أرضه من نبـاتِها الطيِّب ، ويجارى بالثناء ما ينْهَلّ فى أكنافه الجَنُوبيّة من سَحَـابها الصيِّب؛ وتَسْرِى إليــه بتحيّاتنا الشريفة علىٰ قادمةِ كل نَسِيمٍ ، وفى طىِّ كلِّ عامٍ له وُقُوف علىٰ رسْمه وتَسْليم؛ وتوضّح لعلمه الكريم.

دعاءٌ وصدرٌ يختصُّ بالمجاهد علىّ، وهو :

ولازال أفضَــلَ متوَّجٍ فى يمَنِه، وأعلىٰ عَلِىّ إذا قِيسَ بابْنِ ذى يَزَنِه ، وأشجعَ مَنْ حمىٰ بسُهُوده مالا تقدِر السُّـيوف علىٰ حِمَايتِه من وطنه، ولا انفكَّ الملكَ المجاهدَ عن عِرْضه المَصُون، وسيْفَ الدين الذى يقومُ فى المَفْروض من مَرَاضى الله بالمَسْنُون، وأبَا الحَسَن لمـا يَحْسُن فى فِطْنته الحُسْـنىٰ أو فِطْرته من الظُّنون ، والعلىَّ قدرا إذا أخذتِ الملوكُ مراتِبَها وحدَّقت إليه العُيُون .

صدرتْ هــذه المفاوضةُ إلىٰ حضرته وسـلامُها يتفاوَحُ لديْها، ويُصافِحُ غمـائِمَه فى يدَيْها ، ويجرى سفائنُ إخلاصِه حتّى تقِفَ عليها ، وتَسْرِى بتحياتِنا محلّقةً بالبُشْرىٰ فى صباح كلِّ يومٍ يقرِّب من الوصُول إليها، وتبدى لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف علىٰ صورة مكاتبة مفتَتَحة بلفظ «أعز الله تعالىٰ جانب المقام» كُتِب بهـا إلىٰ بعض ملوك اليمن فى زمنٍ من الأزمان، فأورِدَها آستشهاداً لهذا الأسـلوب .

الأسلوب الثـالث

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرة المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كتب به إلىٰ صاحب اليمن أيضا، عن السلطان الملك المنصور قلاوون، مبشِّرا بفُتُوح[1] صافيتا، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهو :

---

(١) لم نجد لفتح مصدرا على فعول فإما أن يكون جارى العرف وإما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه ووقائعه وهو بعيد تأمل . . .

أعزّ الله تعالى نُصرة المقام العالى، المولوىّ، السلطانىّ، الملكىّ، المظفّرىّ، الشمسىّ؛ وأشركه فى كل بُشرى تُشَدّ الرحالُ لاستماعها، وتُحَلّ الحُبَى لاستطلاعها؛ وتتهافتُ التواريخُ والسِّيَر على استرفاعها، وتتنافس الأقلامُ والسيوفُ على الأفهام بأجناسها وأنواعها؛ ولا خلا موقفُ جهادٍ من اسمه، ولا مصرفُ أجرٍ من قَسْمه، ولا غَرَضُ هَناءٍ من سَهْمه، ولا أُفُق ابتهاجٍ من بُزُوغ شمسه وطُلُوع نجمه.. سطّر المملوكُ هذه البُشرى والسيفُ والقلمُ يستمدّان: هذا من دمٍ وهذا من نِقْس، ويَمْضيان: هذا فى رأس وهذا فى طِرْس؛ ويتجاوَبان: هذا بالصّليل وهذا بالصّرير، ويتناوَبان: هذا يستَميلُ وهــذا يستَمير؛ وكلٌّ منهما ينافِسُ الآخَر على المشافهة بخبر هذا الفتح الذى ماسَمَتْ إليه همُ الملوك الأوائل، ولا وُسِمَتْ به سِيَرُهم التى بدَتْ أجيادُها من حِلَاه عَوَاطِل؛ ولادارَ فى خَلَدٍ أنّ مثله يتهيّأ فى المُدَد الطويله، ولا تشكّلَ فى ذهن أنه سيُدْرَك بحَوْل ولا حِيله؛ وهو النّصر المرتّب على حركتنا التى طَوَى الله لركابنا فيهــا المَرَاحل، وأتى بدرَر عساكرِنا من بَحْر الحديد المــالح إلى الساحل؛ وهُجومنا على البلاد الفرنجيّة: وهى طرابُلُس وصافِيتَا وأنْطَرسُوس ومَرَقِيّة والمَرْقَب، كما يَهْجُمُ الغيث؛ ومُصادمتِنا صُدُورَها كما يَصْدِمُ الليث، وسلوكِنا منها حيثُ لم يبْقَ حيث؛ وما جرى فى هــذه الوِجْهة من إغاراتٍ أحسنَتْ متقلَّبَ الأعِنّه؛ ومتَعلَّق السيوف ومخترَق الأسِنّه؛ وماتهيّأ منها من فُتُوح صافِيتَا التى هى أمُّ البلاد، ومتجَعُ الحاضرِ والبــاد؛ وكونُها قدّمت نفسَها فى جملة ما يُقْرَى به الضيف، وقالتْ: هــذا فتوحٌ حضَر على هــذا الفُتُوح لهذا السيف؛ وتلطّفتْ فى مَسْح أطرافِ الأمان، وطلبَتْ شُكْرا ومنّا شُكْران؛ وأحضرتْ إلينا من أهلها الوقت وهمّتِ السيوفُ فى أعناقهم فتشبّهتْ بها الأغلال، وأنِفَت أيمــانُ أهــلِ الإيمــان من مُصافحتِهم لأنهُم أصحاب الشِّمال؛ فأطلقهُــم سيفُنا وأمّلَه يمتدُّ إلى مَنْ هو أعزُّ منهم مالا، وأكثر احتفالا،

وأبزما لا، وأهز سيوفا قصارا ورماحا طوالا، وأستطار منها شرار نار الحرب الموقدة الى غيرها من القلاع، وأستطال إلى سواها من الحصون منهم الباع؛ فلا حصن إلا وآفترت ثنيته عن نصر مسهل، وفتح معجل ومؤجل .

فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون؛ وغدا جاذبا بضبع الشام، وآخذا بمخانق بلاد الإسلام؛ وشللا فى يد البلاد، وشجا فى صدر العباد؛ تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسره، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائره؛ وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الآجام، وتفوق من قسيه سهام تصمى مفوقات السهام؛ تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون، ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون؛ كم شكت منه حماة تتى بنكرها قلة الإنصاف، وكم خافته معرة وما من معرة خاف؛ مازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصى، وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى؛ حتى نبه الله الحافظ سيوف الإسلام من جفونها، ووفى النصرة ماوجب من ديونها؛ وذاك بأنا قصدنا فسيح ربعه، ونزلنا ونازلنا محمى صقعه، وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه؛ وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهى كالأنامل، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة وهى منها بمنزلة الزوامل؛ ماخيمنا به حتى آستبحنا محمى تلك المدائن المكنى عنها بالأرباض، وأسحنا بساحاتها بحرا من الحديد ماآندفع حتى فاض؛ وأخذنا الثقوب فى أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص، ولا تقرأ المعاول ماالخواتم أبراجها من نقوش الفصوص؛ ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت فى شواهق الجبال، على رءوس الأبطال؛ فتيقظت السمهرية أن الذى تقوم به هذه تلك به لاتقوم، وأن مامنها إلا له من الأيدى والرءوس مقام معلوم؛ وصار يرمى بها كل

كمِيّ مختلس، وأروعَ منتهِس، وكلُّ ليثِ غابةٍ يحميها وتحميه! فشُكرًا لأسود حتّى غاباتُها تفترس، إلىٰ أن جثتْ أسوارُها علىٰ الرُّكب، وكانتْ سِهامُ مجانيقِها تميلُ من العُجب فصارتْ تَميدُ من العَجب، وكانتْ تطلُبُ فصارتْ تهْرُب من الطَّلب؛ واشتدّ الأمر علىٰ الكُفّار فقاتلوا قتالًا أقضَّ مَضاجعَ الأسلحه، وأطار حِجارةَ مجانيقهم بغير أجنحه، وأشجىٰ بشَجْو النُّصول المترنّمة علىٰ غُصون السِّهام المترنّحه؛ هذا وأهل الإيمان يتلقّون ذٰلك كلَّه بصبرٍ يستطعِمُون منه شُهْدا، وإقدامٍ يتلقّىٰ صَدىٰ الحديد بأكبادٍ مازالتْ إلىٰ مَوارِده قَصدا، يقتَحمون نارَ الحرب التي كُلّما أوقدُوها أطفأها اللهُ وقال يانارُ كُونِي بَردا، والبلادُ الفرَنجيّةُ قد غُضّت منها الأبصارُ وخَشعتِ القُلوب، واعتقد كلٌّ منها في نَفْسه أنه بعد هذا الحصن المطْلوب؛ فهذه تَوَدّ لو أكنّتْها البحارُ تحتَ جَناح أمواجها، وهذه لو أسبلَتِ الرياحُ العواصفُ عليها ذُيولَ عَجاجِها، وهذه لو اجتُثّت منْ فَوقِ الأرضِ مالها من قَرار، وهذه لو خُسِف بها الثَّرىٰ وعَفَت منها الآثار، وذٰلك لِمَا بلغهم وشاهَدُوه من وَيْلٍ حلَّ بأهل هذا الحصْن المَنيع، ومن قَتْلٍ أحلَّ رَبْعَه المَريع، وضَيّق مجالَهُ الوَسيع؛ وقِراعٍ أضْجَرَ الحديدَ من الحديد والأبطالُ لم تَضْجَر، ونضالٍ أسْهرَ كلَّ جفن حتّىٰ جفونَ السيوف لأنّا عوّدْناها مثلَ جفُونِنا أن تَسْهر؛ فكم شكَت الثُّقُوب من مَنّا كبِهم زِحاما، والشُّرُفات من ترقُّبهم الْتِزاما، والرِّقابُ من سيُوفِهم اقتساما؛ وكم حَملت التجارِبُ من رأيهم شيخا وحمدَ الإقدامُ من ثُبوتهم غُلاما؛ قد دَوّخوا البلاد فلا مَوطِنَ إلا لهم به مَعْركه، وأرملُوا الحلائل فلا مُشْرِكَ إلا وقد أرمَلَ من مُشْركه، وأزعجُوا الكفرَ فلا قلْبَ إلا به منهم خوفٌ ولا سَمْع إلا لهم به حَركه، وملئُوا الأرضَ كثرةً وكيف لايكثّر الله جمعاً للإسلام جعل اللهُ فيه بَرَكه.

وكتابُنا هذا والمولى بحمد الله أحقُّ من هُنِّئَ بهـذا الفتح الذى تُثْنِي على كتاب بشائره الحقـائب ، وتجرى إلى سَمَـاع أخباره الركائب ، وتتزاحمُ على المَسِير تحت البُرُد الواصلةِ به متونُ الصَّبا وظهورُ الجنائب ؛ وإذا ذُكِرت ملاحمة ، قال كلٌّ : هذا كتابٌ أم كتيبةٌ تلوح ، وإذا شُوهِدتْ حمْرةُ طِرْسه قيل : وهذا ما صبغَتْه فى اليد المعلَّمة عليـه دمُ الكفر المسْـفُوح ، ويتَمم ـ أعز الله نصرَه ـ بالإعلان بهذا النبإ الحسن الذى تستَرْوِح إليه الأسماع ، وتُسَرّ بالإفهام به أخواتُ هذا الحصن من مُدُنه ومن قلاعه العظيمةِ الامتناع ؛ فإنه ما بَرِحَ الأخُ يفرَح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما اشترك كلُّ شيءٍ فيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر إلى صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جوابَ تعزيةٍ أرسلها إليه فى وَلَده الملك الصالح فى ورقٍ أزرقَ ، وكانت العادة أن تكون فى ورق أصفرَ . ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعـالى نُصْرة المقام إلى آخر الألقاب ، وأحسَنَ بتسليتِه الصبرَ على كل فادح ، والأجرَ على كلِّ مصابٍ قَرحِ القرائح وجَرحِ الجوانح ، وأوفدَ من تعازيه كلَّ مسكِّن طاحتْ به من تلقاء صنعاءِ اليمن الطَّوائح ، وكتبَ له جزاءَ التصبُّر عن جارٍ من دمع طافح ، على جارٍ لسُويْداء القلب صالح .

المملوكُ يخـدُم خدمةً لا يذُود المواصـلةَ بها حادث ، ولا يؤخِّرها عن وقتها أمرٌ كارث ، ولا ينثَنِى بها عن تحسينها وترتيبها بواعثُ الاختلاف ولا اختلافُ البواعث ؛ ويُطْلِع العِلمَ الكريمَ على ورود مثالٍ كريم ، لولا زُرْقةُ طِرْسه وزرقةُ لِبْسه لقال :

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَـاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . تتضمّن ما كان حدث من رُزْءٍ تلافىٰ الله بتناسيه ، وتوافىٰ بعَوْد الصـبر فتولّى التسليمُ تليين تقاسيه وتمرين قاسـيه ؛ فشكرْنا اللهَ تعالىٰ علىٰ ما أعطىٰ وحمِدْناه علىٰ ماأخذ، وما قُلْنا : هـذا جزَع قد انتبَه إلا وقلنا هذا تثبُّتٌ قد انتبَذ، ولا توهّمنا أنّ فِلْذة كبد قد اختُطِفت إلا وشاهدْنا حولنا من ذرّيتنا والحمدُ لله فِلَذ ؛ واحسنّا الاحتساب ، ودخلتِ الملائكةُ علينا من كل باب، ووفّانا الله عز وجلّ أجرَ الصابرين بغـيرِ حساب؛ ولنا ـ والشكرُ لله ـ صبرٌ جميل لانأسَف معه علىٰ فائت ولا نأسىٰ علىٰ مفقود، وإذا علم الله سبحانه حُسْنَ الاستنابة إلىٰ قضائه، والاستكانة إلىٰ عطائه، عوّض كلّ يوم مايقول المبشّر به : هـذا مولًى مولود . وليست الإبلُ بأغلظ أكبادًا ممن له قلبٌ لايُبالي بالصّـدمات كثُرتْ أو قلّت ، ولا بالتّبـاريح حقُرت أو جلّت ، ولا بالأزمات إنْ هى توالتْ أو تولّتْ ، ولا بالجفُون إنْ ألقتْ بمـا فيها من الدّموع والهُجُوع وتخلّتْ ؛ ويخافُ من الدهر مَنْ لاحلَب أشطُرَه ، ويأسَفُ علىٰ الفـائت من لا باتَ بنبإ الخطوب الخطِره؛ علىٰ أنّ القادح بموتِ الولد الملكِ الصالح ـ رضى الله عنـه ـ وإن كان مُنْكيا، والنافح بشجوه وإن كان مُبكيا ، والنائح بذلك الأسـف وإن كان لنار الأسف مُذْكيا؛ فإن وراءَ ذلك من تثبيتِ الله عز وجلّ ماينْسِفُه نَسْفا، ومن إلهامه الصـبرَ ما يجدّد لتمزيق القلوب أحسَنَ مابه تُرفىٰ . وبكتاب الله تعالىٰ وبسُنّة رسوله صلى الله عليـه وسلم عندنا حُسْنُ اقتـداء يضرب عن كلّ رِثاء صفحًا ، وما كُنّا مع ذلك ـ والمنةُ لله ـ نُصْغى لمن يؤنّب ويؤبّن أُذُنا ، ولا نُعـيرها لمن يَلْحا إذ الولدُ الذاهبُ فى رضوان الله تعالىٰ سالكًا طريقًا لاعِوجَ فيها ولا أَمْتا، وانتقل سارًّا بارًّا صالحًـا صالِحا وما هكذا كلُّ الموتىٰ نَعْيا ونَعْتا ، ولئن كان نفَعنا فى الدنيا فها نحنُ بالصّدقات والترحّم عليـه ننفعُه ، وإذا كان الولدُ عملَ أبيه وقد رفَع الله تعالىٰ رُوحَ

ولدنا إلى أعلى عِلِّيِّين تحقق أنه العملُ الصالحُ يرفعُه، وفيما نحن بصَدَده من آشتغالٍ بالحروب، مايهونُ مايَهول من الكُروب، وفيما نحن ما كفُون عليه من مكافَحات الأعداءِ ما بينَ المرءِ وقلبه يحُول، بل عن تخيُّل أسَفٍ فى الخاطر يحُول .

إذا آعتادَ الفتىٰ خَوضَ المنَايا * فأهونُ ماتمرُّ به الوُحُول!

فلنا بحمد الله تعالىٰ ذُرِّيةٌ دَرِيَّه، وعقودٌ والشكرُ لله كلُّها دُرِّيَّه .

إذا سيِّدٌ منهم خَلَا قامَ سيِّدٌ * قئُولٌ لمـا قال الكِرامُ فَعُولُ!

مامنهم إلا مَنْ نُظِر ســعدُه ومن سَعْدُه يُنْتَظر، ومَنْ يحسُن أن يكونَ المبتدأَ وأن يسُدَّ حالُه بكَفَالَتِه وكفايَتِه مَسَدَّ الخبر، (والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّب القمر) ؛ لاسيما من الذى يراد هو صلاحه أعْرَف(1)، ومَنْ إذا قيل لبناءِ مُلْك هذا عليه قد وَهىٰ قيل هذا خير منه من أعلىٰ بِناءِ سعدٍ أشرف . وعلىٰ كلِّ حال لا عَدِمَ إحسانَ العمل الذى يتنوّع فى بِرِّه، ويُعـاجِلُ قضاء الحقوق فيُساعِفُ مرسومَه فى توصـيله طاعة بحره وبَرِّه؛ وله الشكرُ علىٰ مساهَمَة المولىٰ فى الفَرَح والتَّرَح ، ومشاركتِه فى الهَنَاء إذا سَنَح وفى الدمع إذا سَفَح ؛ وما مِثْلُ مكَارم المولىٰ من يعزُبُ ذلك عن عِلْمها ، ولا يُعْزىٰ إلىٰ غير حُكْمِها وحِلْمِها ؛ وهو ـ أعزه الله ـ ذو التَّجارِب التى مَخَضَتْ له من هــذه وهذه الزُّبْده، وعَرَضتْ عليه منها المَضْبِيَةَ والوَهْده . والرغبةُ إلىٰ الله تعالىٰ أن يجعلَ تلك المصيبةَ للرَّزَايَا خاتِمه ، كما لم يجعلْها للظُّهور قاصِمَه ؛ وأن يجعلَها بعــد حَمْل هذا الهَمّ وفِصالِه علىٰ عليِّه فاطِمَه؛ وأن يحبِّبَ إلينا كلَّ مايُلْهِى عن الأموال والأولاد، من غَزْوٍ وجِهاد ، وأن يخوّلنـا فليس يُحَدّ لدينـا علىٰ مفقود تأدُّبا مع الله عز وجل غيرُ السيوف فإنها تُحرَق بالحِدَاد، وأن لاتُقْصَف رِماحُنا إلا فى فَوْدٍ أو فُؤاد، ولا تُحوَّل سروجُ خيلنـا إلا مِن ظَهْر جَوادٍ فى السَّرايا إلىٰ ظَهْر جَواد ؛ وأن لاأُنْشق لَبَنا إلا

(1) كذا فى الأصل ولم ندرك مغزاه .

أكبادَ النـادّ، ولا تُجز غيرُ شعور ملوك التتار تُتوَّجُ بها رءوس الرماح ويُصْعَد بها على قِمَم الصِّعاد ؛ والله تعالىٰ يشكُر للولىّ سعْىَ مَراثيه التى لولا لُطفُ الله بمـا صـبرّنا به لأقامتِ الجنـائز، وآستخفّتِ النحائز، ولأهوتْ بالنُّفوس فى آسـتعمال الجائز من الأسَف وغير الجـائز، ولا شَـغَل اللهُ لُبَّ المولىٰ بفادِحه ، ولا خاطِرَه بسانِحة من الحُزْن أو بارِحَه ، ولا أسمَعَه لغير المَسَرّات من هواتف الإبهـاج صادِحه، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســــلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام الشريف العالى»
وعليها كان الأمرُ فى أوّل الدولة التركية)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك، كُتِب بهـا عن الملك المظفَّرقطز ـ وصاحبُ اليمن يومئـذ المنصور ـ بالبشارة بهزيمة التّتار . وأظنها من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

أعزّ اللهُ تعالىٰ أنصار المقرّ الشريف العـالى ، المولَوِىّ ، السلطانىّ ، الملَكىّ ، المنصورىّ، وأعلىٰ منَارَه ، وضاعف آقتِدارَه، تُعْلِمه أنه لمـا كان النِّصف من شهر رجب الفرد، فتح الله تعالىٰ بنصر المسلمين علىٰ أعداء الدين :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعُّرُ بأسِهِ * لاَخْضَرَّ جُودا فى يَدَيْهِ الأسْمَرُ

فصدرت هذه التهنئة إليه راويةٌ للصدق عن اليوم المحجَّل الأغرّ :

يَوْمٌ غَدَا بالنَّقْع فيـه يَهتدِى * مَنْ ضَلَّ فيـه بأنْجُمِ المُرَّان

فى أُذُنِ الدهر من وَقْعِه صَمَم ، وفى عِرْنِين البَـدْر من نقعه شَمَم، ترفعُـه رواةُ الأَسَل عن الأسنّة ، ويُسْـنِده مُجرُّ العوالى عن مُجرّ الأعِنّـه ، أما النصرُ الذى شهد

الضربُ بصحّته ، والطعْنُ بنصيحته؛ فهو أن التتر خذلهم الله تعالى آستطالُوا على الأيام، وخاضُوا بلادَ الشام، واسْتنجدُوا بقبائلهم على الإسلام :

سَعى الطَّمعُ المُرْدى بهم لحُتُوفهم * ومَنْ يُمْسِكنْ ذَيلَ المَطَامِعِ يَعْطَبِ

فاعتاضُوا عن الصحة بالمَرَض ،وعن الجَوْهر بالعَرَض؛ وقد أرْخت الغفلةُ زِمَامهم، وقاد الشيطانُ خِطَامهم؛ وعاد كيْدُهم فى نُحورهم : ﴿وردَّ اللهُ الَّذينَ كفروا بِغَيْظِهِمْ لم ينَالُوا خيْراً وكَفى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتالَ وكَانَ اللهُ قوِياً عزِيزاً﴾ .

رامُو الأمورَ فسُدُ لاحتْ عوَاقِبُها * بِضِدّ ما أمَّلوا فى الوِرْ والصَّدَر،

ظَلُّوا حَيَارى وكأْسُ الموتِ دائرةٌ * عليْهِمُ شَرَعا فى الوِرْ والصَّدَرِ!

وأَضْعفَ الرُّعْبُ أيْديهم فطَعْنُهُمُ * بالسَّمْهَرِيَّةِ مِثْلُ الوَخْزِ بالإبرِ!

لاجرمَ أنّهم لِسنّ النّدم قارِعُون، وعلى مقابَلَةِ إحساننا بالإساءة نادِمُون .

تدرَّعُوا بِدُرُوعِ البَغْى سابغة * والمَرْءُ يحْصُدُ من دُنْياه مازَرَعا!

فأقلعَتْ بهم طَرَائقُ الضَّلال، وسارتْ مراكبُ أمانيِّهم فى بِحَار الآمال؛ فتلك آمالٌ خائبه ، ومراكِبُ للظُّنُون عاطِبه ؛ وأقلَعُوا فى البحر بمرَاكبه ، والبرِّ بموَاكِبه؛ وساروا وللشيطان فيهم وَسَاوِس ، تغرُّهم أُمْنِيَّة الظُّنُون الهَوَاجِس ؛ فما وَسْوسَ الشيطانُ كُفْراً إلا وأحرقه الإيمانُ بكوكب (١) هذا

وعساكرُ المسلمين مستوطنَةٌ فى مَوَاطنها ، جاذِبَةٌ عِقْبانُها فى وُكُور ظُبَاها ،رابضةٌ آسادُها فى غِيل أقْنَاها، ماتزَلْزَلَ لمؤْمِنٍ قدَمٌ إلا وقدَم إيمانه راسِخَه ، ولاثبتَتْ لأحدٍ حجةٌ إلا وكانت الحجةُ لهـا ناسِخه ؛ ولا عُقِدَ[تْ] بُرْجُمة ناقوس إلا وحلّها الأذان، ولا نَطَق كتابٌ إلا وأخرسه القُرءان؛ ولم تزَلْ أخبارُ المسلمين تنتقلُ إلى الكُفَّار ،

(١) بياض بالاصل .

وأخبارُ الكُفّار تنقل إلىٰ المسلمين إلىٰ أنْ خلط الصّباحُ فِضّته بذَهَبِ الأَصِــيل ، وصار اليومُ كأمْس ، ونُسِخت آيةُ الليل بسُورة الشمس ، وآكتحلتِ الأعينُ بمِرْوَد السُّبات ، وخافَ كلٌّ من المسلمين إصدارَ البيَات

ينـامُ بإحـدىٰ مُقْلَتَيْــهِ ويتّقِي * بأُخرىٰ الأعادِي ، فهو يَقْظانُ نائمُ !

إلىٰ أن تراءت العينُ بالعين ، وآضطرمَ نار الحربِ بين الفريقَيْن ، فلم تَرَ إلا ضَرْبا يجعلُ البَرْقَ نِضْوا ، ويتركُ فى بطنِ كلٍّ من المشركين شِلْوا ، حتّى صارت المَفَاوِزُ دِلَاصا ، ومراتِعُ الظّبا للظُّبَا عِرَاصا ، وآقتنصتْ آسادُ المسلمين المشركينَ آقتناصا ، ورأىٰ المجرِمُونَ النارَ فظَنُّوا أنّهُمْ مُواقِعُوها ولم يجِدُوا عَنْها مَنَاصا ، فلا رَوضَةَ إلا دِرْعٌ ولا جَدْولَ إلا حُسَام ، ولا غمــامةَ إلا نَقْعٌ ولا وَبْلَ إلا سِهَام ، ولا مُدَامَ إلا دِماءٌ ولا نَغَمَ إلا صَهِيل ، ولا مُعَرْبِدَ إلا قاتِلٌ ولا سَكْرانَ إلا قَتِيل ، حتّى صار كافُورُ الدِّين شَقِيقا ، وتلوّنُ الحَصْباء من الدِّماء عَقِيقا ، وضَربَ النقعُ فى السماء طَرِيقا ، وآزدحمت الجنائبُ فى الفَضَاء بجعلته مَضِيقا ، وقُتِل من المشركين كلُّ جبّار عَنِيــد ، ذلك بمــا قدّمتْ أيْدِيهم (وما رَبُّك بظَلّام للعَبِيد) .

قلت : وهذه النسخة تلقَّفْتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها فى بعض المجاميع فحفظها منــه ، وهى فى غايةٍ من البَلَاغة ، إلا أنهــا لا تخلُو من تغْيــير وقع فى بعض أماكنها ، ولعــله من الناقل لهــا ، من حيثُ إنه ليس من أهــل هــذه الصــناعة . ولم يسَعْنِي تركُ إيرادها لمــا فيها من المحاسن ، ولآنفرادِها بأُسْــلوب من الأساليب التى كتب بها إلىٰ ملوك اليمن ، فأوردتُها علىٰ ماهى عليه ، وجزىٰ الله خيرا من ظَفِر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصحّحها وأصلح مافيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ما جرى عليه فى " التثقيف " أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ أعزّ الله تعالى أنصار المَقام العالى)

صدره على ما ذكره فى "التثقيف" أعزّ الله تعالى أنصار المقام العالى، السلطانىّ، المَلَكى، الفلانى، الفلانى، مثل أن يقال : الأفضلىّ السيفىّ، ثم الدعاء، ثم يقال : أصدرْناها وتُبْدى لعلمه الكريم كذا وكذا . قال فى "التثقيف" والمكاتبة اليه فى قَطْع النصف والطلب منه «والقصد من المقام العالى» وخاتمة الكتاب بالدعاء ، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب اليمن» . وفى دُسْتور المقرّ الشهابىّ بن فضل الله أنّ خطابَه يكون بالمقام العالى .

وهذه نسخة كتاب إليه ، ذكر المقرّ الشهابى بن فضل الله فى تذكرته أنه أنشأها جوابا عن هديّتــه ولم يكتُبْ بها إليه ، وهو يومئذ الملكُ المجاهد سيفُ الدين علىّ ابن داود .

أعزّ الله تعالى أنصارَ المَقام العالى، ولا زالتْ مكارِمُه تَخُصُّ من كلّ نوع بأحسَنِه، وتُتحِف بأزْيدِه وأزْينِــه ، وتجلُبُ كلّ غريبِ الديار من وَطَنه، وتَمنَح من السَّوابق بمــا تَمتدُّ المجرّةُ فى رَسَنِه ، ومن المحاسن بما يُمْلِي على (علىّ) أوصاف حُسْنه، ويُعْرِب عن الفَرَس والسيف والرمح بأطْيَبِ لَحْنٍ فى نصبِه وجرّه ورفْعه .

صــدرت إلى المقام العالى أعزّ الله جانبَه تصِــلُ بودادِه ، وتَصِــفُ حُبًّا عَلِق بفُؤاده، وتعرّض بِبُرَحَاء بِنيّــة أحلام الكَرى طمَعًا أنْ يرى طيفَــه فى رُقَاده . وتبــدى أن كتابه الكريمَ ورد جالبا لِدَرّ مِننه، جالِبًا لليُمْن من يَمَنِه، نافِحًا بالطِّيب

من عَدَنِه ، نافِذًا من قوة السيوف بمـا لايدّعيه ابنُ ذي يزَنِه ؛ فتؤمِّل ما حوىٰ من كَرَم لا يُجارىٰ ، ونِعَم تملأ البرّ برًّا والبحارَ بحارا ؛ وأبدَعَ فى الهبة التى قدر مُهْدِيها[1] ، وقدّر فيها من التُّحَف مالا يُوجَد إلا فيها ؛ وجاء بكلِّ ما يستعين به المُرابِط ، وتهتزّ به الخزائنُ والمَرَابط ؛ وتفتخرُ من الرِّماح بكل معتَدِل قاسِط ، و بمـا يُرْدِى العِـدَا من أسِنّته بكلِّ نجم هابط . كَمْ لهـا من فعلٍ جميل لايُشارَك ، وكَم قال طَعِين : إنَّ لهـا كَعْبا مُدَوَّرا وما قَدَر الطاعِنُ أن يقولَ إلا أنها كَعْبٌ مبارَك . ومن السُّـيوف بمـا لايُطْبِع النهر فى نَصْـله ، ولا يَطْمَع البرق فى مناضَلَة مِثْـله ، ولا يطمَعُ الهلال أن يستقيمَ علىٰ شَكْله ؛ كَم أخمدتْ أنفاسا ولهـا ٱلْتِهاب ، ولَمَعَتْ من نواحى الغُمود كما تصلّتْ أنمُلٌ من خِضاب . ومن الخيل بما ترْقُص فى أعِنّتها ، وتفتخِرُ علىٰ البُدور بأنها تدُوسُ علىٰ أهلّتها : من كلِّ أشهبَ يُحْسِنُ ٱبتِـدارا ، ويُحْسَبُ قمرًا قد تكمّل إبدارا ، ويُطْلِـع فى كلِّ ناحيةٍ نَهارا جِهارا . وأدهمَ قد غَصَب الظلام ، وٱستدارت غُرَّتُه فأسفرَ وجهُه تحتَ بُرْقُع من لِثَام . وأحْوىٰ أخضرِ الجلدة من بيْتٍ للعرب ، قد حوىٰ من الروض ماسَلَب . وكُمَيْت ينْضُو النَّقْع وهو سَبُوق ، وتقدّمَ فى مَيادينِه فجاء مضمَّخا بالخَلُوق . وأشقرَ قد كشفَ البَرْق عِذاره ، وأطار الرَّكْضُ منه شَرَاره ؛ ومعها كلُّ فِيـلٍ كأنّه غَمَـام تبدَّى ، أو مَلِكٌ مُفَدّى ؛ بخُرْطُوم يرتدُّ كالصَّوْلَجَان ، ويمتدُّ كالأُفْعُوان ؛ ويَهُولُ مَنْظَرُه كأنه من تمَـام الخَلْق بُنْيان ، ويتحرّكُ فتحسَبُه كَمْ راقصةٍ تُشير به إلىٰ النُّدْمان ؛ تقشَعِرُّ منها الجلود ، وتقتُلُ نَفْسَها بنِيرانِ الحِقْد محافَظةً علىٰ عُهود الهُنُود ؛ كم أحسنَتْ بخراطِيمها لهـا من صُـدُورها الضيِّقةِ مَخْرَجا ، وأضاءتْ من فُروجها بين أنيابها طُرّةَ صُبْح تحتَ أذيالِ الدُّجىٰ ؛ وزَرَافة ، لها إنافةٌ ، كأنَّها شفَقٌ بينه نُجُوم ، أو بُروقٌ تكلّلتْ بقَطْر الغُيوم ؛ لهـا فى المَدْخَل علىٰ القُلُوب

---

(١) لعله التى ذلت على اخ تأمل .

حذاقه، وولُوج من بابٍ ودُخولُ من طاقه. وحمارةٍ وحشيّة جاءتْ بوَصْف الرَّبيع فى آعتدالِ الليـل والنَّهار، وجمعتِ الهـالاتِ والأقمـار، ودلّتْ علىٰ أصلٍ كريم تفتّحتْ فى فُروعه الأزهار، وحكَتْ بخُطُوطها الدَّوْحَ ممـا تراكم ظِلُّه فأظلم وآنفرج فأنار. ونَمِرٍ يُؤلِّف علىٰ نِفَاره، ويَسْبَحُ ليلُه فى أنهارِ نَهاره؛ يتدفّق فى مثل أنبوب القَنَاة المضْطَمِر، ويُصَدِّق من شَبّه ركُودَ الرُّبا علىٰ الرِّمال بِقِطْعـةٍ من جِلْدة النَّمِر. وقِطَ الزَّبَاد الذى لاتُحْكِيه الأُسْودُ فى صُوَرها، ولا تسمَحُ غِزْلانُ المِسْك بما يَخْزُنه من عَرْفِـه الطيِّب فى سُرَرِها؛ كم تَنَقَّل فى بيوتٍ وطابَتْ مَوْطِنا، ومشىٰ من دار أصحابه فقالوا: رَبَّنَا عَجِّـلْ لَنَا قِطَّنَا؛ وكذلك مِن الطِّيب مايَطيب، ومايَزُور بنَفْحه الحبيب؛ قد بعثَ أكْبَرَه، وأفاد أكْثَرَه؛ وآستخدم المتنعِّمون به صَـنْدَلَه وكافُورَه وعنْبَرَه. وغيرهذه الأنواعِ مما جاد بإرساله، وأتىٰ من كلّ بديع به وبأمثالِه؛ فقُوبِلتْ بالقَبُول هذه التُّحَف، وأُكرِمَتْ إكرامَ مَنْ لها عَرَف و[بها] آعترَف، وحُمِد سحابُه الذى تسرَّعتْ مَوَاطِره، وبعثتْ من طُرَفهـا بالروض وماتنوءُ عنه أزاهِرُه، وشرعت بمـا آتّصلتْ بمصر أوائلُه وباليَمَن أواخِرُه؛ والله تعـالىٰ يشكُرُ هِمَمَه التى تعالَتْ، وشِيَمَه العَـلَوِيّةَ التى لأجلها المحامدُ قد توالَتْ. وقد جَهّزنا له من التُّحَف المنعم بها ما أمكن تعجيلُ حَمْله، وجرتْ عوائدُ ملوكِ الأقاليم بالتشريف من خزائننا العالية بمثله؛ وحمَّلنا رُسُلَه من السلام ما تعبَق به الفِجاج، وتعذُبُ به البحار وهى مِلْحٌ أُجَاج. والمرادُ منه أن يواصِلَ بمكاتَبَاته التى تتناوَبُ الصُّدُور، وتنوب عن لمحة البُدُور، وتُـوبُ بما تقدَّمَ به من السرور؛ والله تعالىٰ يُديم لسلطانه التأييد، ولمُلْكه التأبيد، ولاِقتداره مابه تعِزُّ تعِزُّ وتَمِيدُ زَبِيد. إن شاء الله تعالىٰ.

فائدة — المكاتبـةُ إلى صاحب اليمن عن ولىّ العهد بالسلطنة كالمكاتبةِ إليـه عن السلطان نفسه فى جميع المكاتبة علىٰ السَّواء.

وعلىٰ ذلك كتب القــاضى محيى الدين بن عبــد الظاهر عن « الأشرف خليل آبن قلاوون» قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلىٰ صاحب اليمن، بالبشرىٰ بفتح طرابُلُس .

وهذه نسخته :

أعزّ الله تعالىٰ نُصرةَ المقام! وأوْفَدَ عليــه كلّ بُشْرىٰ أحسَنَ من أختها ، وكلّ تهنئةٍ لايجلّيها إلا هو لوقْتِها، وكلّ مُبْهِجةٍ يَعْجِز البنانُ والبيانُ عن نَبْتها ونَعْتها، وتتبلّج فتودّ الدُّرَر والدّرارِىّ لو رَقَتْ هذه إلىٰ ترقِّيها وسَمَتْ هذه إلىٰ سَمْتِها . وصبّحه منهــا بكل هاتفةٍ أسْجَعَ من هَواتِف الحمائم، وبكل طارفةٍ أسرَعَ من عَوَارِف الزَّهر عنــد عَزَائم النّسائم ؛ وبكلّ عاطفةٍ أعِنّــةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكَرتْ الصّفاحُ منه أعظَمَ قادرٍ والصحائفُ أكرَمَ قادمٍ ؛ والغَزْوِ الذى لا يَخُصُّ تِهــامةَ بِبُشْراه بل جميعَ النُّجود والتّهــائم ، وذَوِى الصّوارم والصّرائم، وأُولِى القُوىٰ والقوائم ، وكلّ ثغرعن آبتهاج الإسلامِ باسم، وكلّ بَرٍّ برٍّ بتوصيل ماترتّب عليه من مَلاَحم، وكلّ بَحْرٍ عَذْبٍ يمونُ كلّ غازٍ لايَحِيس عن جِهاد الكُفّار فى عُقْر الدّار الشّكائم، وكلّ بحرٍ مِلْحٍ كم تَغيّظ من مجاورةِ أخيه لأهل الشرك ومشاركَتِهم فيه فراحَ وموجُه المتلاطِم .

المملوكُ يَخْدُم خدمةً يقتفِى فيها آثرَ والده، ويجْرِى فى تجميلهــا علىٰ أجملِ عَوَائده، ويستفْتِح فيها آســتِفتاحًا تَحُفُّ به من هُنا ومن هُنا تُحَفُ محامِده، ويصِــفُ وَلاَءً قد جعله الله أجملَ عُقُوده وأكملَ عقائده، ويَشْفَعُها باخلاصٍ قد جعله مَيْلَه أحسن وسائِلِه وقلبُهُ أزينَ وسائِده، ويُطلِــعُ علمَه علىٰ أنّ من سَجَايا المتعرّضين إلىٰ الإعلان بشكرِ الله تعالىٰ فى كلّ مايعرِضُ للمســلمين من نصر ، ويُفْتَرض لهم من أجر غَزْوٍ كم قَعَد عنه مَلك فيا مضَى من عَصْر، أن يَقْدُروا هذه النعمةَ حقّ قَدْرِها من التحدّث

بنعمتها ، والتنبيه بسَماع نَغْمتها ، وإرسال أعنّة الأقلام بها فى ميادين الطُّروس ، وإدارة حِرْباءِ وصف حَرْحرب (؟) إلى مُواجَهة خير الشُّموس .

ولما كانتْ غَزَواتُ مولانا السلطانِ ملكِ البسيطة الوالدِ خَلَّد الله سلطانه قد أصبحَتْ ذِكْرىٰ للبَشَر، ومواقِفُه للنصر كم جاءتْ هى والقَدَرُ على قَدَر، وقد صارت سِيَرُها وسَيْرُها هذه شَدْو فى الأسمار، وهذه جادَّةٌ تَسْتطِيبُ منها حُسْنَ الحَدْو السُّفَّار، فكَمْ قاتلتْ مَنْ يليها من الكُفَّار، وكم جعلَتْ من يُوَاليها وهو مَنْصُورها منصورا بالمهاجِرين والأنصار .

ولَّما أذلَّ الله بيأسها طوايفَ التَّتار فى أقاصى بلادِ العَجَم ، وجعلَ حَظَّ قلوبهم الوَجَع من الخَوْف ونَصيبَ وجُوهِهم الوجَم ، وأخلىٰ الله من نُسُورهم الأوكارَ ومن أُسُودهم الأَجَم ، وقَصَرتْ بهم هِمَمُهُم حتّى صارُوا يخافُون الصُّبحَ إذا هَجَم ، والظَّنَّ إذا رَجَم ، وصارتْ رُؤية الدماء تُفْزِعُهم فلو آحتاج أحدُهم لتنقيص دم لمرِض لأَجْفَل من خَوْفه وما آحتَجَم . وأباد اللهُ الأرمَنَ فحل بالنِّيل منهم الوَيْل ، وما شمّر أحد من الجنود الإسلاميّة عن ساعد إلا وشمّر هو من الذُّلّ الذيل ، ولا أثارَتِ الجِيادُ من الخيل عِثْيَرًا منعقِدا إلا وظَنُّوه مَساءً قد أقبل أو لَيْل ، وآنتهتْ نوبةُ القتل بهم والإسَار إلى التكفور ليفون ملك الأرمن الذى كان يحمِى سَرْحَهم ، ويمدُّ صَرْحهم ، ويستنطِقُ هَتَفَ التّتار ويسترجِع صَنْحَهم ، وتعتزُّ طرابُلُس الشام بأنَّه خالُ ابْرَنْسها الكافر، ولسان شُورته السَّفير ووجهُ تدبيره السّافر . وطالَما غَزا وأغْرىٰ ، وأجَرَّ وأجْرىٰ وضَرّ وأضْرىٰ ؛ فلما توكّل مولانا السلطان وعزم فتوكّل ، وتحقّق أنّ البلاء به قد نَزل وما تشكّك أنّ ذلك فى ذِهن القَدَر قد تصوّر وتشكّل ، وأنّ يومَه فى القَتْك سيكونُ أعظَمَ من أُمنِيّته ، وأعظمُ منهما مُعاداة غَدِه ،

وأنَّ نصر الله لن يُخْلِفَــه صادقُ وعده؛ أكَلَ يَدَه ندامــةً علىٰ ما فَرَّط فى جَنْب الله وساق الحَتْفَ لنفسه بيده، فَعَمَر اللهُ بِرُوحه الخبيثة الدَّرْكَ الأسفلَ من النار، وسقاه الحَتْفَ كأسًا بعد كأس لم يكن لها غيرُ المَلَك من خَمَّار . وكانتْ طرابُلُس هى ضالّةَ الإسلام الشَّريده، وإحدىٰ آبقاتِه من الأعوامِ العَديده؛ وكلما مَرَّتْ شَمَخَتْ بأنفِها ، وتأنَّقتْ فى تحسِــينِ مَنَازِه منازِهِها وتزيِين رَيْحانِهــا وعَصْفِها، ومَرَّتْ وهى لاتُغازِلُ مَلِكا بطَرْفها ، وكلّمــا تقادَمَ عهــدُها تكثَّرت بالأفواج والأمْواج من بين يَدَيْها ومن خَلْفِها . إذِ البحرُ لها جِلْباب والسَّحابُ لهــا خِمَار، وليس لهــا من البَرِّ إلا بمقْــدار ساحَةِ الباب من الدار؛ كأنها فى سِيف ذلك البحر جبلٌ قد انْحطّ، أو مَيْلُ استواءٍ قد خرج عن الخطّ، وما قصد أحدٌ شطَّها بِنكايةٍ الاشَطَّ واشتطّ .

قدر اللهُ تعالىٰ أنْ صَرَفَ مولانا السلطانُ إليها العِنَان، وسبَقَ جيشُه إليها كلَّ خَبَرٍ و"ليس الخَبَرُ كالعِيَان"، وجاءها بنَفْسه النفيسةِ والسعادةُ قد حرسَــتْه عيونُها وتلك المَخاوِفُ كُلُّها أمان، وقد اتَّخذ من إقدامه عليها خيرَ حبايِلَ ومن مُفَاجاته لها أمدَّعتَانِ؛ وفى خِدْمته جنودٌ لاتستَبعِدُ مَفَازه، وكم راحتْ وغدَتْ وفى نفسها للأعداء حَزَازه؛ فامتطَوْا بخُيولِهم من جبال لُبْنانَ نِيبًا لهــا صاغَتْها الثُّلوج، ومَعارِجَ لامُرافِقَ بها غيرُ الرياحِ الهُوج ، وانحطَّتْ تلك الجيوشُ من تلك الجَنَــادل ، انحطاطَ الأجادِل ؛ واندفعُوا فى تلك الأوْعار ، اندفَاعَ الأوعالِ؛ ولم يحْفَلْ أحدٌ منهــم بسَرْب لاصق ، ولا جبــلٍ شاهق ؛ فقال : أهــذا مُنْخَفِضٌ أو عالٍ، وشرَعُوا فى التحصــيلِ لمــا يُوهِى ذلك التحصــين، وابتَنىٰ كلَّ سورا أمامَ أسوارها من التــدْبيرِ الحَسَن والرأْى الرَّصين؛ فمــا لَبِثُوا إلا بمقدار ماقِيــلَ لهم دُونَكُمْ والاختطاب ، ونَقْــلِ المجانِيقِ علىٰ الخيــلِ وعلىٰ الرقاب ؛ حتّى جَرُّوها بأسرَعَ من جَرِّ النَّفَس ، وأجْرَوْها علىٰ الأرض سفائِنَ وكم قالوا : السَّــفينةُ لاتجرى علىٰ يَبَس ؛ وفى الحــال نُقِلتْ إليها فرأَوْا من

متوقِّلها مَنْ يمشي بهـا على رجلين ومنهـم مَنْ يمشي على أربع ، ووجّهتْ سهامُهـا وجُوهَها إلى مَنَافذها فـا شُوهدتْ منها عينٌ إلا وكان قُدّامَها منها إصْبَع ، وأُلقِيت العَدَاوةُ بين الحجارةِ من المجانيق والحجارة من الأسوار ، فكم تعبت وتعبت عن فلْذة كبدها ، من (١) وأُوقدت نيرانُ المكايد ثمّ فكم حولَهـا من صافِن ومن صافِر ، وكم رمتهم بشَرَر كالقَصْر فوقَع الحافِر كما يقال على الحافِر ، وما برحتْ سُوقُ أهلِ الإيمان فى نَفَاق ، على أهل النِّفاق ، وأكابرُهم تُساقُ ، أرواحُهم الخبيثةُ إلى السّاق .

وكان أهلُ عكّا قد أنجدُوهم من البحر بكل برّ ، ورمَوْا الإسـلام بكل شَرَر وبكل شرّ ، فصـار السّهمُ الذى يخرُجُ بهـا لا يخرُج إلا مقترِنا بسهام ، وشُرُفاتُ ذلك الثغر كالثّنايا ولكنها لكثْرة مَنْ بهـا لا تفتَرُّ عن ابتسام .

وما زالتْ جنودُ الإسلام كذلك ، ومولانا السلطانُ لا تُرى جماعةٌ مقدمة ولا متقدّمة إلا وهو يُرى بين أولئك . واستمرّ ذلك من مستهَلّ ربيع الأوّل إلى رابع ربيع الآخر ، فزحف إليها فى بُكْرة ذلك النهار وهو الثّلاثاء زَحْفا يقتحِم كلّ هَضْـبة ووَهْده ، وكلّ صُـلْبة وصَلْده ، حتى أنجز الله وعْدَه ، وفتحها المسـلمونَ مجازًا وفى الحقيقة فتَحَها وَحْده ، وطلعتْ سناجِقُ الإسلام الصُّفْر على أسوارها ، ودُخلَتْ عليهم من أقطارها ، وجاستِ الكسابة إلى دِيَارها ، فاحتـازها مولانا السلطان لنفســه مِلْكا ، وما كان يكون له فى فتحها شريكٌ وقد نَفَى عنها شِركا ، وكُلّما قيل هذه طرابُلُس فُتحتْ قال النصْرُ لمن قُتِل فيها من النّجد الواصلة : وأكثر عكّا وأهلَ عكّا ، وأعاد الله تعالى بها قوّةَ الكفر أنكاثا ، فكان أخذُها من مائة سنةٍ وثمانين سنةً فى يومِ ثُلاثا ، واستُرِدّت فى يوم الثُّلاثا .

(١) بياض بالاصل .

ولما عمّت هذه البشائر ، وكّل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلى حسان هذه العرائس ، ويستحلى نفيس هذه النفائس .

سيّر مولانا السلطان إلى المولى كلّ بشرى تقعقع بها البريد ، لتتلى بأمره على كلّ من ألقى السمع وهو شهيد ؛ وكما عمّ السرورُ بذلك كلّ قريب قصــد أن يعمّ الهناءُ كلّ بعيد .

وأصدر المملوكُ هذه الخدمةَ يتجرّب بين يديه نجواها ، ويتوثّب بعد هذه الفاتحة المباركة لكلّ سانحة يحسُن لدى المولى مستقرّها ومثواها ؛ لابرح المقامُ العالى يستبشر لكُماة الإسلام بكلّ فضل وبكل نُعمى ، ويفرح بسرح الكُفر إذا انتُهك وبسفح المُلك إذا يُحمى ، وبسمع الشِّرك إذا يُصمّ وبقلبه إذا يُصمى ؛ والله الموفق .

الجـــــملة الثـــانية

(فى المكاتبات إلى عرب البحرين ومن انضاف إليهـم)

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنّ بلاد البحرين لم تزل بيد العرب ، وأنها صارت الآن بيد بنى عُقَيل ــ بضم العين ــ من بنى عامر بن صعصعة ، من هوازن ، من قيس عيلان ، من العدنانية . قال فى " التعريف " : ومنهم قومٌ يصلُون إلى باب السلطان وصُولَ التجّار ، يجلُبون جيادَ الخيل وكرَام المهارى واللؤلؤ وأمتعةً من أمتعة العِراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحِباء والإنعام والقُماش والسكّر وغير ذلك ؛ ويُكتب لهم بالمسامحة فيَرِدُون ويَصْدُرون . قال : وبلادهم بلاد زرع وضَرع ، وبرّ وبحر ، ولهم متاجرُ مُربحة ، وواصلُهم إلى الهند لاينقطع ، وبلادُهم مابين العِراق والحِجاز ، ولهم قُصور مبنيّه ، وآطامٌ عليّه ، وريفٌ غير متّسع ، إلى مالهم من النَّعم والمــاشية ، والحاشية والغاشــية ؛ إلا أنّ الكلمة قد صارت بينهم شتّى ،

والجماعة متفرّقة . وقد سبق الكلامُ على بلادهم مستوفًى فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلى كُبرائهم «السامىّ» بالياء . والعلامة الشريفة «أخوه» ثم مادُونَ ذلك لمن دُونَهم .

واعلم أنه فى "التثقيف" قد جمع بين عَرَب البحرين وعربِ البصرة وما وَالى ذلك ، وجعل المكاتبةَ إليهم على ثلاث مراتبَ .

المرتبة الأولى — مَنْ يكتب إليه «السامىّ» باليـاء والعلامةُ الاسم ، وذكر أنَّ بهـا يكاتب أميرهم ، وسماه حينئذ «صَدَقة بن إبراهيم بن أبى دلف» وأن تعريفه فلان بن فلان . وذكر فى رتبته فى المكاتبة يومئذ محمدَ بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلىّ بن منصور .

المرتبة الثانية — من يكتب إليـه «السامى» بغير ياء والعلامة الاسم . وذكر منهم بَدْرانَ بنَ مانع — رُومِىّ بن أبى دلف — زَيْن بن قاسم — يُوسُف بن قاسم — سَعيد بن مَعْدى — راشد بن مانع — عيسى بن عَرَفة — ظالم بن مُجَاشع — إسماعيل ابن صوارى — كَلْبى بن ماجد بن بَدْران — مانع بن علىّ — مانع بن بَدْران .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه «مجلس الأمير» والعلامة الاسم . وعدّ منهم جماعةً ، وهم عظيم بن حسن بن مانع — موسى بن أبى الحسن — سَعد بن مُغَامس — زيد بن مانع — هلال بن يحيى — معمر بن مانع — محمد بن خَليفة .

قلتُ : وحاصلُ ما ذكره فى "التعريف" و"التثقيف" أنّ جملةَ المكاتبة إليهم لاتجاوزُ المراتبَ الثلاثَ المذكورة ، والكاتبُ يستخبِر أخبـارَهم فى المِقْدار ، ويُنَزِّل كلَّ واحد منهم على قدر مرتبته من ذلك كما فى الأسماء المتقدّمة الذكر .

المَهْيَــــعُ الرابع
(فى المكاتبة إلى صاحب الهِنْد والسِّنْد)

وقد ذكر فى " التعريف " أن صاحبــه فى زمانه كان آسمُه أبا المجاهــد محمدَ بن طُغْلُقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقًا وغَرْبا وجَنُوبا وشَمَــالا ، وبرًّا وبحرا ، وسَهْلا وقَفْرا ؛ وأن سِمَته فى بلاده « الإسكندر الثانى » ثم قال : وتالله إنه يستحِقُّ أنْ يسـمَّى بذلك ويُوسَم به : لاتِّساع بلاده ، وكَثْرة أعْدادِه ، وغُزْرِ أمداده ؛ وشَرَف مَنَابت أرضه ، ووُفُور مَعادِنه ، وما تنبتُه أرضُــه ، ويُخْرِجه بحره ، ويُجْبىٰ إليه ، ويَرِدُ من التُّجّار عليه . وأهلُ بلاده أممٌ لاتُحصىٰ ، وطوائف لاتُعَدّ . ثم حكىٰ عن قوم ثقات منهـم قاضى القُضاة سِراجُ الدين الهنـدىّ الحَنَفىّ ، وهو يومئـذ مدرِّس اليِبُغْمرِيّة بالقاهرة ، والتاجُ البَزِّى ، والشيخ مبارك الأنْبايِىّ : أن عسكرَ هذا السلطان نحوُ التسعمائة ألفِ فارس ، وعنده زُهاءُ ألفَىْ فِيل يقاتِل عليها ، وخَلْقٌ من العبيد تقاتِلُ رَجَّالة مع سَعَة المُلْك والحال ، وكَثْرة الدَّخْل والمال ؛ وشَرَف النَّفْس والإباء ، مع الاتِّضاع للعلمــاء والصُّلَحاء ؛ وكثرةِ الإنفاق ، وعميم الإطلاق ؛ ومعامَلةِ الله تعالىٰ بالصَّدَقه ، وإخراجِ الكِفَاية للمرتَزِقه ؛ بمرتَّبات دائمة ، وإدْرارات متَّصِـلة ؛ بعــد أنْ حكىٰ عن رسُوليّــه دميرخوان(1) وافتخار ما قال : إنه لو سكنتِ النفوسُ الى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجائب ، وحدَّث عنه بالغرائب ؛ ثم ذكر أنه أرسل مَرَّة مالا برَسْم الحرمين وبيتِ المَقْــدِس ، وهديةً للسلطان تزيد علىٰ ألف ألف دينار ؛ فقُطِع عليها الطريقُ باليمن ، وقُتِــل مُحضِرُها بأيدى ممــاليك صاحب اليمن ، لأمرٍ بُيِّت بليل ؛ ثم قُتِل قاتلُوه ، وأخذ أهل اليمن المــال وأكلُوه ؛

---

(1) فى التعريف ص ٤٩ دمّرخوان والافتخار .

وكتب عن السلطان إلى صاحب اليمن فى هذا كتاب منه « وقد عدّدت عليه فَعْلَته » وقيل فيه : « وفعل ما لا يليق ، وأمسى وهو يُعَدّ من الملوك فأصبح يعدّ من قُطّاع الطريق » . وقد سبق[1] فى الكلام على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعظم قدر رجالها ما فيه كفايةٌ عن الإعادة .

قال فى " التعريف " : ورسمُ المكاتبة إليه رسمُ المكاتبة إلى القانات الكبار المقدّم ذكرهم ، فى هيئة الكتاب وما يُكتب به والطُّغْراة والخُطْبة . وألقابه « المقام الأشرفُ ، العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، الأعظمىّ ، الشاهنشاهىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المرابطىّ ، المثاغرىّ ، المظفّرىّ ، المؤيّدىّ ، المنصورىّ ، إسكندرُ الزمان ، سلطانُ الأوان ، منبع الكرم والإحسان ، المعفّى على ملوك آل ساسان ، وبقايا أفراسياب وخاقان ، ملكُ البسيطة ، سلطانُ الإسلام ، غياثُ الأنام ، أوحدُ الملوك والسلاطين » ويُدعى له . قال : ولم يكتب إليه فى ذلك الوقت لقبٌ ينسب إلى الخلافة نحو « خليل أمير المؤمنين » وما يجرى هذا المجرى ، إذ كان قد بلغنا أنه يَرْبأ بنفسه إلى أن يدّعى الخلافة ، ويرى له فضل الإنافة .

قلت : مقتضى ما ذكره فى " التعريف " حيث قال : إن رسم المكاتبة إليه رسم المكاتبة إلى القانات الكبار فى هيئة الكتاب وما يكتب به ، والطُّغراة والخُطْبة ، أن المكاتبة إليه تُفتتح بخُطبة مبتدأة بـ « الحمد لله » كما تقدّم فى افتتاح المكاتبات إلى القانات . والذى ذكره فى " التثقيف " أن المكاتبة إليه تكون فى قطع البغدادىّ الكامل بالذهب والأسود ، كما جرت العادةُ به ، يعنى فى كُتب القانات ، إلا أنه جعل رسم المكاتبة إليه : « أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام ، العالى ، السلطانىّ ،

(١) فى الأصل وقد سبق القول فى الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالى" ، العادلى" ، المَلكىّ ، الفلانى" » . ثم قال : وهذه الألقابُ سطران كاملان وبينهـــما بيت العلامة على العادة ، وبعد الســطرين المذكورين فى الجانب الأيمن من غير بياض «أبو المُجاهد محمدُ ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمته» . ولا يذكر لقبه . والدعاء ، والعلامة « أخوه » . وتعريفـــه « صاحب الهند » . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير على هذه الصورة :

أعـــز الله تعـــالى أنصـــار المقـــام العـــالى

بيت العلامـــة

الســـلطانى" ، العـــالى" ، العـــادلى" ، المـــلكى" ، الفـــلانى"

قال فى "التعريف" : والعُنوانُ جميعُـه بالذهب وهو ســطران ، وتعريفه « صاحب الهند » . وبقية الكتاب بالسواد والذهب أسوةَ القانات ؛ وبه يُشْــعِر كلام "التعريف" فيما تقدّم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يليق به ، ذكره فى "التعريف" وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُبيرا، وزمانُه بمـا يقضى به من خُلُود مُلْكه خبيرا، وشأنه وإن عَظُم يتدَفّق بحرا ويُرْسِى ثَبِيرا، ومكانُه ـوإن جلّ أن يجليَه مِسْكىّ الليلـ يملأُ الأرجاءَ أرَجًا والوجودَ عبيرا ، وإمكانه يستكين له الإسكندر خاضعًا وإن حاز نعيمًا جمًّا ومُلْكا كبيرا، ولا برحت الملوك بولائه تتشرّف، وبآلائه تتعرّف، وبمـا تطّلعُ مهابتُه من البيض بيض الهند فى المُهَج تتصرّف . المملوكُ يخدُم بدعاء يحلّق إلى أفقه، [ويُحِلّ العلياءَ والمجرّة فى طَوْقه][1]، ويُهْدى منه مايعتدلُ به التاج فوقَ مفرَقه، ويعتدُّ له النجمُ ولايثنيه إلّا وسادة تحتَ مِرْفَقه؛ ويسمو إلى مقام جلاله ولا يسأمُ

(١) الزيادة من "التعريف" وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلُّ له إذا ملّت النجوم عن السير، ولا يزال يَصِفُ ملكه المحمّدىّ بأكثر ممـا وُصف به المُلْكُ السليمانى، وقد قال: وأُوتِينا من كلِّ شَىْء ، وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطير .

قلت : وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد ٱبتداء المكاتبة بالدعاء، خلافا لمـا تقدّم أنه مقتضى تصوير كلامه فى "التعريف" .

وٱعلم أنّ فى هذه المكاتبة على ما ذكره فى " التعريف" شيئين قد خالف فيهـما قاعدةَ المكاتبات عن الأبواب السلطانية .

أحدهما ـ إتيانه فى "التعريف" فى ألقابه بالمولوىّ . والثانى ـ قوله فى الصدر المتقدّم الذكر «المملوك يخدم» . فقد ذكر صاحب "التعريف" فى كتابه "عرف التعريف": أن السلطان لا يكتب عنه فى العلامة «المملوك» وإنمـا خالف القاعدةَ فى ذلك هنا تعظيماً لمقام المكتوب إليـه وإعلاءً لرتبته ، حيث قال فى أوّل كلامه : إنه أعظمُ ملوك الأرض على ما تقدّم ذكره ، فعبّر عن مقامه بمـا يليقُ به ، وخاطبه بمـا يليق بخطابه، كما تقدّم أنه كان يُكْتَب إلى أبواب الخلافة « المملوكُ » أو «الخادم يلتثِمُ ثرى الأعتـاب » أو « يقبّـل الأرض » ونحو ذلك تعظيما لمحل الخلافة ، لا سيمـا وقد تقدّم أن صاحب الهند حينئذ كان يدّعى الخلافةَ ، إلا أنّ نظام هذا الملك قد ٱختَلّ ونَقَصَ عمّا كان بموت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفى ، وٱستقر مكانه ٱبن خالته فَيْرُوز شاه .

ولعل المكاتبةَ التى ذكرها فى " التثقيف " إنمـا رُتّبت على حُكْم ما كان فى أيّامه بعد[1] ذكر المكاتبة المذكورة، بعد أن ذكر أنّ محمد بن طغلقشاه مات وقام فَيْرُوز شاه

(١) لعل هذه البعدية برمتها من زيادة الناسخ أو طغيان القلم كما لا يخفى .

مَقامه ، إلا أنه مثل المكاتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضىٰ أن يكون هو المعنىّ بالمكاتبة . ثم تفرّقتِ المملكةُ بعـد ذلك فى سلطانين، فيما أخبرنى به بعضُ أهل الهند، ثم تزايد نقصُها بعد أن غزا[ها] تمرلنك وغَلَب عليهـا ، ثم نزح عنها . وبكل حال فلاينبغى أن يقَصّر بصاحب الهند عن رُتْبة القانات . ولم أقف علىٰ نص مكاتبةٍ كتب بها إلىٰ صاحب الهند فأذكُرَها .

المقصـــد الثـانى

(من المصطلح المستقرّ عليه الحال من المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية فى المكاتباتِ إلىٰ ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجمــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات إلىٰ صاحب أفريقيّة ، وهو صاحب تُونُس ، وتنضم إليها بجايةُ وقُسَنْطِينةُ تارةً، وتنفرد عنها أخرىٰ)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أنّ حدّ هذه المملكة غَرْبا من جزائرِ بَنِى مزغَنّانَ إلىٰ عَقَبـة بَرْقة الفارقةِ بين طرابُلُس وبين بَرْقة ، وهى نهـايةُ الحدّ الشرق ، ومن الشام البحرُ[1]، ومن الجَنُوب آخر بلاد الجريد والأرضُ السَّوّاخة ، إلىٰ ما يُقـال إنه موقعُ المدينة المسمّاة بمدينة النُّحاس . ثم قال : وهو أجلُّ ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدّم هُنَاك أيضا ذكر حال مملكتها ومَنْ ملكها جاهليـة وإسلاما ، وأنهـا كانت قبلَ الإسلام بيـد البَرْبَرِ حين كان معهم جميعُ المَغرِب، ثم انتزعها منهم الرُّوم

---

(١) أى الرومى كما تقدم فى ج ٥ أثناء الكلام علىٰ مملكة تونس .

والفَرَنْج إلىٰ أن آنتهتْ حالَ الفتح الإسلامىّ إلىٰ جرجيس ملك الفَرَنْج فى جملة ممالك المغرِب، ودارُ مُلْكه يومئذ سُبَيطِلَةُ، إلىٰ أنْ فُتِحت فى خلافة عثمان رضى الله عنه علىٰ يدِ عبدِ الله بن أبى سَرْح، وتوالتْ عليها نوّاب الخُلَفاء، وصارتْ دارُ المملكة بها القَيْرَوان حتّى صارَتْ منهم إلىٰ [بنى الأغلب](1) ثم إلىٰ العُبَيْديين بنى عبيد الله المهدىّ؛ ثم الموحِّدين أصحاب المهدىّ بن تُومَرْت، وهى بأيديهم إلىٰ الآنَ. وهى مستقرّة الانَ بيد الحَفْصيِّين منهم، وهم يدّعون النسبَ إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه فيقولون: أبو حَفْص عمرُ بن يحيىٰ بن محمد بنِ وانُّود بن علىّ بن أحمد بن والّال بن إدريس بن خالد بن اليَسَعَ بن إليَاس بن عُمر بن وافتن آبن محمد بن نُجَيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وباعتبار ذلك القائمُون بها من بنى أبى حفص يدّعُون الخلافةَ، ويُدْعىٰ القائم منهم فى بلاده بأمير المؤمنين، وربّما كاتبه بها بعضُ ملُوك المغرب. قال فى "التعريف": ومن أهل النسب من يُنْكِر ذلك، ويجعلُهم تارةً بنَسبٍ إلىٰ عَدِىّ بن كعب: رهْط عمرَ بن الخطاب دُونَ بنى عمرَ. ومنهم من ينْسُبهم إلىٰ هَنْتَاتَةَ من قبائل البربر بالمغرب، وهى قبيلة عظيمةٌ مشهورة.

وهى الآن (إلىٰ حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبى فارس عَزُّوز؛ وقد دوّخ البلاد وأظهر العدلَ ورفَع مَنارَ الإسلام. وقد ذكر فى "التعريف" أنّ السلطان بها فى زمانه كان المتوكّل علىٰ الله أبو يحيىٰ أبو بكر.

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" أن يُكتَب بعد البسملة. «أما بعد حمدا لله» بخطبة مختَصَرة فى مقتضىٰ الحال، ثم يقول فهذه المفاوضةُ، أو النجوىٰ، أو المذاكرة، أو المطارَحة، أو ما يجرى مجرىٰ ذلك، تُهْدى من طِيب السلام (ومن

(١) بيض له فى الاصل والتصحيح مما تقدم فى ج ٥ ص ٢٢.

هذا ومثله) إلى الحضرةِ الشريفة ، العليّـة ، السنية ، السريّة ، العالمية، العادلية، الكاملية ، الأوحدية ، حضرة الإمارة العدَوِيّة ، ومكان الإمامة القُرَشِـيّة، و بقية السُّلالة الطاهرة الزكيّة، حضرة أمير المسلمين ، و زعيم الموحّدين، والقائم فى مصالح الدنيا والدين، السلطانِ السـيّد الكبير، المجاهِد، المؤيّد، المرابط، المثاغِر، المظفَّر المنصور، المتوكّل على ربه ، والمجاهد فى حبِّه، والمناضل عن الإســلام بذَبِّه، فلان ويُدْعىٰ له بما يناسب مختصَرا، ثم يذكر ما يليق بكرم الجُدُود .



صدر آخر ــ من "التعريف" أيضا :

صــدرت إليه يُهدِى إليه من طِيبِ السلام ما تَرِقُّ فى جانبـه الغربىِّ أصائلُه ، ويَرُوقُ فيما يَنْصَبُّ لديه من أنهار النّهار جداوله ، ويحمله لكلّ غادٍ ورائح، وتجرى به السُّفُن كالمُدُن والركائبِ الطّلائح ،وتخصّ ذلك المقرّ منه بثناءٍ يعِزُّ لأن يُنِيبَ لبُعْده الدار ، ويستطْلِـع ليلَ العِراق به من فَرْق أفْرِيقيّة النهار ، وتحاكى مِصرُ عن جارتها الممنّعه، وتَفْخَر بجاريّها الشمس التى لا تُرىٰ فى أفْقِها إلا مُبَرْقَعه .

ولم يذكر فى " التعريف " قَطْعَ الورق، ولا العُنْوانَ ، والخاتمة، والعلامة، وما فى معنىٰ ذلك . والذى ذكره فى " التثقيف" أنّ رسم المكاتبة اليه فى قطع الثلث بقَلَم التوقيعات ، نظيرُ ما كُتِب به لصاحب فاس؛ وهو أن يكتَبَ بعـد البسملة بحيث يكون تحتها سواءً فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبدُ الله ووليُّه » ثم يخلَّى مقدارُ بيت العلامة، ثم تكتب الألقـابُ الشريفة من أوّل السطر مسامتًا للبسملة . وهى «السلطانُ ، الأعظمُ، المـالكُ، المَلِك، الفلانىُّ، السيدُ، الأجلُّ، العـالمُ، العادلُ، المؤيّد، المجاهد، المرابِط، المثاغِر، المظفَّر، الشاهنشاه ــ وهــذه

تختصر غالبا ـ ناصرُ الدُّنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، مُنْصِف المظلومين من الظالمين ، وارثُ المُلْك ، سلطانُ العرَب والعجَم والتُّرْك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، إسكنْدَرُ الزَّمان ، مُولِي الإحسان ، جامعُ كلمة الإيمان ، مُمَلِّك أصحابِ المَنابر والتُّخُوت والتِّيجان ، ملكُ البحرين ، مسلِّكُ سبيل القبلتين ، خادم الحَرَمين الشريفين ، ظلُّ الله في أرضه ، القائم بسُنَّته وفَرْضه ، سلطان البسيطة ، مؤمِّن الأرض المُحيطة ، سيدُ الملوك والسلاطين ، وليُّ أميرِ المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلانى فلان الدين والدنيا » ويرفع فى نسبه إلى منتهاه «خلَّد اللهُ سلطانَهُ ، ونصَرَ جيوشَه وأعوانَه . ويجتهد أن يكون «وأعوانه» آخرَ السطر أو قريبًا من آخره . قال : والواجبُ بدل ولىّ أمير المؤمنين قَسِيم امير المؤمنين ، ثم يقول : يخُصُّ الحضرةَ ، العاليةَ ، السَّنِيّةَ ، الشَّرِيفة ، الميمُونة ، المنصُورة ، المصُونَة ، حضرة الأميرِ العالم ، العادل ، العابِد ، المؤيَّد ، الأوحد ، فلان ، ذُخْر الإسلام والمسلمين ، عُدّة الدنيا والدِّين ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، سيف جماعةِ الشاكرين ، صَلاَح الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمد اللهِ بخُطْبة مختَصَرة جِدًا ، فإنا نوضِّح لعلمه الكريم ، وتعريفه «صاحب تونس» .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر "برقُوق" من إنشاء علاَّء الدين ، وهى

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله ووليِّه .

السلطانِ الأعظم المالك ، المَلِك الظاهرِ ، الأجلِّ العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المثاغر المؤيَّد ، المظفَّر ، سيف الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ،

مُحيي العدل في العالَمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، قامع الخوَارج والمتمرِّدين؛ وارث المُلْك، مَلِك ملوك العَرب والعَجم والتُّرْك، مُبيـد الطُّغاة والبُغاة والكُفَّار، مُمَلَّك الممـالك والأقاليم والامصار؛ إسكَنْدرِ الزمان، ناشِر لواء العدْل والإحْسان؛ مليك أصحابِ المَنابِرِ والأسِرَّة والتُّخُوت والتِّيجان؛ مالكِ البحرين، صاحبِ سُبُل القِبلتين، خادمِ الحَرَمين الشريفين؛ ظلِّ الله في أرضه، القائم بسنَّته وفَرْضه، سلطانِ البسيطه، مؤمِّن الأرض المحيطه، سـيدِ الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين؛ «أبي سـعيد بَرْقُوق» خلد الله سلطانَه، ونصر جُنُودَه وأعوانَه، وأفاض على العباد والبلاد جُودَه وإحسانَه؛ تحيـــةٌ تتأرّج نَفْحا، وتتبلّج صُبْحا، وتَطْوِي بعَرْفها نَشْرَ الخُزامى، وتعِيدُ ميْتَ الأشواق حَيًّا إذا ما؛ تخُصُّ الحضرةَ العلية، السنيّة السرِيّة؛ المظفَّرة الميمُونه، المنصورةَ المَصُونه؛ حضرةَ الأميرِ العالم، العادلِ، المجاهِد، المؤيَّد، الأوحد، ذُخْرِ الإسلام والمسْلمين، عُدّةِ الدنيا والدين، قدوة الموحِّدين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، سيف جماعةِ الشاكريـن، صلاح الدول، المتوكِّل على الله أحمد، آبن مولانا الأميرِ أبي عبـدِ الله محمد، آبن مَوْلانا أمير المؤمنـين أبي يحيىٰ أبي بكر، آبن الأمراء الراشـدين، أعزّ الله دولتـه وأذلّ عُداتَه، وأنجز من صُعُود أوليـائه وسُعود آلائِه صادِق عِدَاتِه .

بعدَ حمد الله جامع الشمل بعد تفْريقه، راتِق خَلَل المُلْك عند تمزيقِه؛ والشهادة بأنْ لا إله إلا هو مُبيدُ الباطل بحقِّ سِرّه وسِرّ تحقيقه؛ والصلاةِ والسلام على سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه موضِّح سبيلِ التوكُّل على الله وطريقه . وإهـداءِ سلامٍ ما الزَّهَر بأعبَق من فَتِيقه، وثناءٍ ما الروضُ بأعطَر من خَلُوقه؛ فإننا نُوضِّح لعلمه الكريم أنّ كتابه الكريم ورَدَ ورُودَ السِّنة على الجَفْن الساهر، أو المُزْنة على الروض الزّاهر؛ أو الزُّلال على الأُوَام؛ أو البُرْء على السِّقام؛ فمدَدْنا إليـه يَدَ القُبول، وآرتَحْنا له آرتياحَ الشمائل

إلى الشَّمُول، ومِلْنا إلى مُفاكهته ميلَ الغُصُون إلى الرِّياح، وامتزجنا بمُصافاته امتزاجَ الماءِ بالراح؛ وفضَضْنا خِتامَه من فِضِّيِّ كلامه، وذهبْنا إلى ذهبِيِّ نثاره ونظامه؛ وتأملناه تأمُّلا كلُّ نظرٍ عبدُه وخادمُه، ووقفْنا عليه وقوف شحيحٍ ضاعَ فى التُّرب خاتمُه؛ ونظَمْنا جواهرَ اعتباره فى قلائد الأفكار، وصَبَوْنا إلى اختياره كما صبَت النُّفوسُ إلى الإدِّكار؛ وفتحْنا له جُهْد الطاقة باباً من المحبة لم يُغْلَق، ونُقْسِم بمَنْ خَلَق الإنسانَ من عَلَق أنَّها بغير قُلوبنا لم تَعْلَق؛ فإذا سطورُه جنودٌ مُصْطَفَّه، أو قِيَانٌ بها الحسان محتفَّه؛ وإذا رقْمُه طِرازُ حُلَّه، أو عقْدٌ شدّه البَنانُ وحلَّه؛ وإذا لفظُه قد رَقَّ وراق، ومرَّ بالأسماع فلأْ بحلاوته الأوراق؛ وإذا معناه ألطَفُ من النَّسيم السارِى، وأعذَبُ مَذَاقاً من الماء الجارِى؛ وإذا سجْعه يفوقُ سَجْع الحَمَائم، ويُزْرِى بالرَّوْض الضاحك لبُكاء الغَمَائم؛ وإذا سلامُه قد حيَّته الأزاهِر، وطوى بعَرْفه نَشْرَ الروض الزاهِر؛ وإذا هَناؤُه قد ملَكَ عِنانَ التَّهانى، واستمْطر عَنانَ الأمانِ من سَماء الأمَانِى؛ فعبَّرلنا لفظُ عَبيره عن معنى المحبّه، وقرَّب شاسِعَ الذِّكر وإنْ بعُد المدَى بينَ الأحِبَّه؛ وأقام شاهِدَ الإخاء على دعوى الإخلاص فقبِلْناه، ونادى مُطيعَ المودّة فاستَجَبْنا له ولبَّيناه؛ سَقْياً له من كتاب غُذِّى بلِبان الفَصاحه، وجرى جوادُ التماحه من مِضْمار المَلَاحه؛ لاعيبَ فيه، سِوى بلاغةٍ فيه، ولا نقْصَ يعتريه، سِوى كمالِ باريه؛ لعمرى لقد فاق الأواخِرَ والأوائل، فما أجدر كلامَه بقول القائل :

وكَلَامٍ كدَمْعِ صَبٍّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الهواءُ يَكْثُفُ عِنْده!

راق لَفْظًا ورَقَّ معنًى فأضحَى * كُلُّ سِحْرٍ من البَلَاغة عَبْدَه!

لله دَرُّه من كتابٍ حلَب دَرَّ الأفراح، وجدّد من أثوابِ المَسَرَّة ما كان قد أخلقته يدُ الأتْراح؛ فهِمْنا معناه فهِمْنا، وشرحْنا متْنَ فحواه فانشرَحْنا؛ وعلِمنا ما اتَّصل

بسمعكم من خبرنا العجيب ، وحديث أمرنا القـديم الغريب ، الذى أظهر فينا لله أسرارا ، وكتب لنا منه عناية كبت بها أشرارا ، جل جلاله خافض رافع ، مُعِل بحكمته واضع ، سبحانه أوجد بعد العدم وأنسى ثم أنشا ، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشا ، كسر وجبر ، وقرن المبتدأ بالخبر ، وهب ما كان سلب ، وجعل لصبرنا حسن المنقلب ، أعادنا إلى الملك مع كثرة الأعداء وقـلة الأنصار ، وأظهرنا بعـد الخفاء فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وأبرز إبريزنا بعـد السبك خالصا يروق الناظر ، ويفوق برونقه وجه(١) الروض الناضر ، فاعلموا أن لله فى ذلك سرا خفيا ، لم يزل ببركة رسوله صلى الله عليه وسلم بنا حفيا ، فتم لنا فيه بوابح المنا ، وأحاط بنا طولكم الطويل من جاهنا وهاهنا ، فاستجلينا من كتابكم عرائس بشراه ، وحمدنا عند صباح طرسه ليل مسراه ، وشكرنا له هذه الأيادى التى تقصر عنها الأيدى المتطاوله ، وثنينا إليكم عنان الثناء الذى فاق بخمايله الروض الأريض وخمائله .

ولما تمثل إلينا رسولكم المكرم ، وصاحبكم الكامل المعظم ، ذو الأصل الطاهر ، والنسب الباهر ، والرأى السديد ، والبأس الشديد ، فلان : لازال على مقامه حسنا ، وجفن علمه لايمحث الجهل عليه وسنا ، فأبدى إلينا مالى وطابه ، وأثلج الصدور بحكمة فضله وفصل خطابه ، وأخذ يحاذبنا عنكم أطراف الأحاديث الطيبه ، ويرسل علينا من سماء محبتكم مزنها الصيبه ، وأطربنا بسماع أخباركم ، ونصر أعوانكم وأنصاركم ؛ ونبه على ما أودعه كتابكم ، وتضمنه من النصرة خطابكم ؛ ودوس جنودكم جزيرة «غودش» وعودهم بالمن والمنح ، وتلاوتهم عند الانتصار ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ وقفولهم متفيئين من الجهاد بظله ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، بعد أن نعقت منهم على الكفار الغربان ، واقتنصت الرجال أبطالهم اقتناص العقبان ، وجاءتهم كالجبال

(١) أى « حسن الروض » .

الرّواسى ، وظَفِرت بهم أظافيرُ الرُّماة ومخالبُ المرَامى ؛ وغنّتْ عليهم أوتارُ القِسِىّ فأرقصتْ رءوسَهم على الضَّرب ، وسقتْهم كُئُوسَ الرّدىٰ مُتْرَعةً ونِعم هـذا الشُّرْبُ لأولئك الشَّرْب ؛ وأعادتِ المسلمين بالغنائم إلىٰ الأوطان بعد نيْل الأوْطار ، وبشّرت الخواطرَ بما أقرّ العُيونَ من النّجاح والنّجاة من الأخطار ، هذا والعدوّ المُلقى السَّلَمَ عند الجهاد ، جِىءَ بهم مقرّنِينَ فى الأصْفاد ؛ يالهَــا غزاةً أشرق نُورُها كالغزاله ، وأشرق يومُ إسلامها على ليل الكُفْر فأزَالَه ؛ وتولّدمنها الجهـادُ فلا يرىٰ بعدها إن شاء اللهُ عقيما ، وتلا لسانُ الشّوقِ إليه ﴿ ياليتَنِى كُنتُ معهُمْ فأفُوزَ فوزًا عظِيما ﴾ . لا زالتْ رقابُ الأعداء لأسيافكُمْ قِرابا ، وغَزَواتكم الصالحةُ تُنيلكم من الله أجْرا وثوَابا .

ولـما عُرِضتْ علينا من جُودكم عنـد العَشِىّ الصافناتُ الجِيـاد ، وحَلّينا منهـا بقلائدِ مَنّها الأجياد ؛ تُقْسِم لقد حيّرتنا ، ألوانُها إذ خيّرتنا .

فمن أشهبَ ــ كأنّ الشُّهُب له قَبِيصه ، أو الصّباحَ ألبسه قيصَه ؛ أو كأنمـا قُلِب من اللُّجين فى قالَب البياض ، وسُقِى سوادُ أحداقِه أقداحَ الرِّياحة من غير حِياض .

ومن أدهمَ ــ كأنّ النّقْس لمسه(1) فى مِدَاده ، أو الطّرْف أمدّ طرفه بسَوَاده ؛ أو كأنما تقمّص إهابَ الليل ، لمّـا طلع عليه بفجر غُرّته فولّى مشمِّر الذيل .

ومن أحمر ــ كأنما صِيغَ من الذهَب ، أو كُوِّن من النار واللّهَب ؛ أو كأنّ الشّفَق ألقىٰ عليه قيصَه ثم أشفق ، أو الشَّقيقَ أجرىٰ عليه دمعه دمًا وجَيْبَه شقّق .

ومن أشقر ــ كأنمـا أُلبِس ثوبَ الأصيل ، وبَشَّر السرِيّةَ يُمْنُ طلْعته بالنصر والتحصيل ؛ أو كأنّ النُّضار كساه حُلّةَ العُشّاق ، وقد أدرَعُوا بأسواق المحبّة مطارِفَ الأشواق ؛

(1) لعله غمسه فتأمل .

ومن أخضرَ - كأنما تَقَمّع من الروض الأَرِيض بأوراقه، أوصُبِـغَ بالعِذار المخضرّ وقد شُقّتْ عليه مرائرُ عُشّاقه ؛ أوكأنّما الزُّمُرّد تلوينُه، أومن شاربِ الشادنِ تكوينُه ؛ كلٌّ بِطِرْف منها يسبِقُ الطَّرْف، ويروقُ الناظرَ بالحُسْن الناضرِ والظَّرْف ؛ تُقامُ به حجّةُ الإعراض وهو باعترافِ ممتَطِيه قادرملى، وينصب إلى الادراك حسنَ السير كجُلْمُود صَخْرٍ حَطّه السَّـيْلُ من عَلِ - فاسرَجْنا[1] لهـا جواد القَبُول ، وآمتطَيْنا منها صَهوةَ كلّ مأمول ؛ وأعددْناها مَرَاكبَ للمَوَاكب ، ولليلِ المهمّات الواقعة بدُورًا وكواكب ؛ وأطلَقنا أعِنّةَ شُكْرِها فى ميادينِ المحامد ، وطَفِقنا نُرجّع ذكرها بين شاكرٍ وحامِد .

مكاتبة وزير تونُس

رأيت فى الدستور المنسوب للقرّ العلائىّ بن فضلِ الله أنه كتب إلىٰ أبى عبد الله آبن سلاص .

صدرَتْ هذه المكاتبةُ الى[2] الشّيْخىّ ، الكبيرىّ ، العالِى ، الفاضلىّ ، الأوْحَدِىّ ، الأكْمَلىّ ، الأرشَـدى ، الأمجدِىّ ، الأثيرىّ ، البليغِىّ ، الفلانى ؛ مجدِ الإسلام ، بَهاءِ الأنام ، شرفِ الفضلاء ، زينِ العلماء ، نجل الأكابر ، أوْحدِ الأعيان ، بركةِ الدّوْلة ؛ صَفْوة الملوك والسلاطِين ؛ (ويدعىٰ له بما يناسبه) . وتوشّح لعلمه المبارك كيت وكيت ؛ ولم يذكر قطع الورق ولا العلامة ولا التعريف . والذى يظهر أنّ قَطْع الورق العادة ، والعلامة «أخوه» . والتعريف «وزير تونُس» .

---

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لمـا عرضت قد قرن بالفاء وهو جائز بعد لمـا وحتى اذا تأمل .

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه " إلىٰ المجلس الشيخىّ الخ " .

الجملة الثانية

(فى مكاتبة صاحب الغرب الأوسط ، وهو صاحبُ تِلِمْسانَ)

وقد تقدّمَ فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المَسَالك والمَمَالك الكلامُ علىٰ هـذه المملكة ومَنْ ملكها جاهليّةً وإسلامًا ؛ وهى الآنَ بيد بَنِى عبـد الوادِ من زَنَاتةَ من قبائل البربر ـ والقائمُ بها الآنَ منهم إلىٰ حدود الثمانمائة من الهجرة هو السـلطانُ أبو زَيّان ، ابنُ السلطانِ أبى حَمُّو : موسىٰ بن يوسُف ، بن عبد الرحمن ، بن يحيىٰ ، ابن يَغْمَراسن ، بن زَيّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن زكدار (١) ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، ابن علىّ ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هـذه المملكةَ فى "مسـالك الأبصار" مضافةً إلىٰ مملكة فاس : لانضمامها حينئذٍ إليها فى مملكة السلطان أبى الحسن المَرِينىّ : صاحب فاس فى زمانه ، ولذلك لم يذكُر لصاحبها مكاتبةً فى "التعريف" . على أنّى رأيت من صاحبها موسىٰ ابن يغمراسن مكاتبةً إلىٰ الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتى إيرادُها فى جملة المكاتباتِ الواردةِ إلىٰ هذه المملكة . وذكر صاحب "التثقيف" أن صاحبها فى زمانه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسـين » أى سلطانَها يومئذ أبو حفص عمرُ بن أبى عمران موسىٰ ، وأن المكاتبة إليه مثلُ المكاتبة إلىٰ صاحب تونُس المقدّم ذكره علىٰ السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأىٰ جماعةَ كُتّاب الإنشاء يكتُبونه ، وكذلك رأيته فى الدَّستور المنسوب إلىٰ المقرّ العلائى بن فضلِ الله ، ولم أظفَر بصورة مكاتبةٍ فأذكُرَها .

---

(١) فى "العبر" ج ٧ ص ٧٥ زكراز ويحرر .

الجمـــلة الثـــالثة

(فى المكاتبة إلى صاحب الغرب الأقصى)

وهو صاحبُ فاس، وتعرف مملكته ببرّ العُدْوة . وقد تقدّم الكلامُ على مملكتها وأحوالهـا ومَنْ ملكها جاهليّةً وإسـلاماً فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممالك، وأنها الآنَ بيد بَنى عبد الحق من بَنى مَرِينٍ من زناتةَ من قبائل البربر، وأنها الآنَ بيدِ السلطان أبى فارسٍ عثمانَ، آبنِ السلطان أبى العبّاس أحمد، آبنِ السلطان أبى سالمٍ إبراهيمَ ، آبنِ السلطان أبى الحسن علىّ ، آبنِ السلطان أبى سعيدٍ عثمانَ ، آبن السلطان أبى يوسفَ يعقوبَ، آبن عبد الحق، بن محيُو، بن أبى بكر، بن حَمَامةَ، آبن محمد، بن ورزصيص(1)، بن فكّوس ، بن كوماط، بن مَرِين، بن ورْتاجن، آبن ماخُوخ، بن وجريج(2)، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتبيض، آبن المعز، بن إبراهيم ، بن رجيك ، بن واشين ، بن بصلتن، بن شرا(3) ، بن أكيا ، آبن وَرشيك، بن أديدت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر فى " التعريف " أن السلطنة فيهم فى زمانه فى الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» صاحب مصر كانت فى السلطان أبى الحَسَن علىّ بن عثمان المقدّم ذكره . ثم قال : وورث هذا السلطانُ مُلْكَ العزفيّين بسَبْتةَ، وملكَ بنى عبد الواد بتلِمْسانَ ، وأطاعه ملكُ الأندلُس ، ودانَ له ملكُ أفريقيّة ، وعرض عليـه آبنته فتزوّجها ، فساقها إليـه سَوْقَ الأمَة . ثم قال : وبنو مَرِينٍ رجالُ الوغى وناسُها ،

(1) تقدم فى ج ٥ ص ١٤٤ " ورزيز " .

(٢) تقدم " جليج " .

(٣) تقدم " ورمشد " .

وأبطالُ الحربِ وأحلامُها، وهم يفخَرُون بغَزَارة علمه وفضْل تقواه . قال : وهو اليوم ملِكُ ملوك الغرب، ومُوقدُ نار الحروب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" بعد البسملة :

من السلطان الأعظم الملك الفلانىّ، إلى آخر الألقاب المذكورة فى المكاتبة لصاحب تونُس، إلى قوله ونصر جيوشَه وجنودَه وأعوانه . ثم يقول : تحيةٌ يفتتح بها الخطاب، ويقتسم منها ما زكا وطاب ؛ ويقال هنا تحياتٌ مختصرة نحو أربع أو خمس، يخُصُّ بها الحضرةَ الشريفة العلية، الطاهرة الزكيّة، حضرةَ المقام العالى، السلطان، السيد، الأجلّ، العالم، العادل، المجاهد، المرابط، المثاغر، المؤيّد، المظفّر، المنصور، الأسرى، الأسنى، الزكىّ، الأتقى ؛ [المجاهد فى الله](١) المؤيّد على أعداء الله، أمير المسلمين، قائد الموحّدين، مجهّز الغُزاة والمجاهدين، مجنّد الجنود، عاقد البُنود، مالىء صدور البَرارِى والبحار، مُزَعْزِع أسِرّة الكُفّار، مؤيِّد السنة، معزّ الملة، شَرَف الملوك والسلاطين، بقيّة السّلَف الكريم، والحَسَب الصّميم، رَبيبِ المُلْك القديم، أبى فلانٍ فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أوّل نسبه . ويقال : فى كل منهم : أمير المسلمين أبى فلان فلان ؛ ثم يُدْعَى له : نحو أعز الله أنصاره أو سلْطانَه أو غير ذلك من الأدعية الملوكية بدعاء مطوّل مفخّم . ثم يقال : أما بعدَ حمد الله، ويخطُب خُطبة مختصرة . ثم يقال : أُصدِرتْ إليه، وسُيِّرت لتُعْرَض عليه، لتُهدِى إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال : ومما تبديه كذا وكذا .

صدر : يليق بهذه المكاتبة ـ تُهْدى إليه من السلام مايطّلع عليه نهاره المُشْرِق من مَشْرِقه، ويحييه به الهلالُ الطالع من جانبه الغَرْبىّ على أُفُقه، وتصِف شَوْقا أقام

(١) زدناها من "التعريف" .

بين جَفْنَيْه والكَرَى الحَرْب ، ووِدَادا يملأ برسله كلّ بحر ويأتى بكل ضَرْب ، وثناءً يُستروَح بنسيمه وإن كان لا يستروَح إلا بمـا يهُبّ من الغرب ؛ مقدّمةً شكرا لمـا يبهَـر من عَزَماته التى أعزّتِ الدين ، وغَزتِ الملْحدين ؛ وحلّقتْ على مَنْ جاورها من الكُفّار [تحليقَ](1) صُقور الرجال على مُسِفَّة الغِرْبان ، وتُقيم عند الشجاع عُذْرَ الجبان ؛ وتبيّن آثارَها فى أعناق الأعداء وللسُّيوف آثارُ بيَان ؛ وإن كان فعلُه أكثرَ مما طارَتْ به الأخبَـار ، وطافَتْ به مُحَلِّقات البشائر فى الأقطار ؛ وسار به الحجيجُ تَعْرِف آثارَه عَرَفات ، وصارت تَستَعْلِم أخبارَه وتندُبُ قبل زمانه مافات .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان السـلطان فى زمانه فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبى الحَسَن على المقدّم ذكره ؛ وذكر أنّ المكاتبة إليه فى قطع النّصف ، وأنه يكْتَب تحتَ البسملة فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله «عبدُ الله ووَلِيُّه» ثم يخلَّى بيت العلامة ، ثم تكْتَب الألقابُ السلطانيةُ فى أوّل السطر مسامتاً للبسملة «السلطانُ الاعظمُ الملك الفلانى» إلى آخر الألقـاب السلطانية المـذكورة فى المكاتبة إلى صاحب تونس ، إلى قوله : ونصر جُيوشَه وأعوانَه . ثم يقول : تخُصّ المقـام العالى ، السلطان ، الملك ، الأجلّ ، الكبيرَ ، المجاهدَ ، المعاضدَ ، المرابطَ ، المثاغرَ ، المُكرَّم ، المعظَّم ، المظَفَّر ، الموقّر ، المؤيَّد ، المسدّد ، الأسعد ، الأصعد ، الأرشَد ، الأنجَد ، الأوحَد ، الأمجد ، البَهِىّ ، الزّكىّ ، السّنىّ ، السّرىّ ، فلان ، أمير المسلمين آبن أبى فلان فلان ، إلى عبد الحق المَرِينى . والدعاء بمـا يُناسب ذلك المقـام ؛ ثم أمّا بعـد حمـد الله ، بخطبـة لطيفة ، فإنا نُفاوضُ علمه الكريم ونحو ذلك . وأكثرُ مخاطبته بالإخاء ، ونُختم بالدعاء ،

---

(1) زدنا هذه الكلمة وإن لم تكن فى الاصل ولا فى التعريف لمـا لايخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه «ملك الغرب» . وفى الدستور العلائى أن الطلب منه بالمستمدّ، ويختم باستعراض الحوائج والخدم مكمّلا بالدعاء .

وهذه نسخة كتاب من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبى الحسن المرينىّ، فى جواب كتاب ورد عليه منه وهى :

عبدُ الله ووليُّه ، السلطان الملكُ الناصر، ناصرُ الدنيا والدين ، سلطانُ الإسلام والمسلمين ، محيي العدل فى العالمين ، مؤمّن أولياء الله المؤمنين ، ظلُّ الله الممدود ، وميسّر السُّبُل للوُفُود ، حامِي القبلتَيْن بحُسَامه من أهل الجحود ، وخادمُ الحرمين الشريفين متّبعا للسنة الإبراهيمية فى تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والرُّكّع السُّجود، والقائم بمصالح أشرف روضة وطِيبُه يعطّر طِيبَها فى الوجود، ولىّ أمير المؤمنين جمعَ الله به كلمة الإسلام بعد الافتراق ، وقمَع برُعْبه أهلَ العناد والشّقاق، وأوزعه شُكْرَ نعم الله التى ألْفتْ على وَلاَئه قلوبَ ملوك الآفاق ، وأمتعه بها منحةً صيِّرت له الملك بالإرث والاستحقاق ، وسيّرت كواكبَ مناقبه فلها بالمغارب إضاءةٌ وبالمشارق إشراق. ابن السلطانِ السعيد الشهيد الملك المنصور، سيف الدنيا والدين ، سقى الله عهدَه عِهادَ الرحمة ذواتِ إغراق، وأبقى مجدَه بمحمّده الذى للأمة المحمدية على تعظيمه إجماعٌ وعلى تقديمه اتّفاق ، يخُصّ المقام العالىَ ، الملكَ الأجلَّ الكبيرَ، المجيرَ، العاضد، المُثاغِر، المظاهِر، الفائز، الحائز، المنصُور، المأثُور، الفاتح ، الصّالح ، الأمكن ، الأصوَن ، الأشرف ، الأعرف ، الكريمَ، المعظمَ، أبَا الحسن علياً أميرَ المسلمين ، ابنَ السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر، الفاخرِ، الماهد، الزاهد، الأورع، الأروَع، أمير المسلمين، أبى سعيد عثمان، ابن السلطان، السعيد، الرّشيد، السابق، الوامق، الجامع، الصادع، أميرالمسلمين

أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق، ناظم مُفَرّق الفَخَار، وهازِم فِرَق الفُجّار، والملازم لإحياء سنّة الجهاد المتروكة فى الأقطار، حتّى يجمع فى ملكه أطرافَ الغرب الأقصى للاستيلاء والاستظهار، ويُخضِع لفتكه كلّ متكبّر جبّار، ويُرصّع فى سِلكه ماتأبّى وصَعُب من تلك الديار، ويرفَع لنُسُكه أعمالاً من الجهاد والاجتهاد تَسُرّ الحفَظة الأبرار، يظهَر فيها لبرَكة الاسم العَلَوِىّ من نَشْر الهدى، وقَهر العِدا، أوضحُ الأدلّة وأبينُ الآثار، ويؤثِر سلطاننا المحمدىّ من علِىّ عَزْمه، وحمِىّ حَزْمه، بأعزّ الأعوان والأنصار، فتَظْفَر دارُ الإسلام من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يقَرّ لهم بأمّ القُرى قَرار، ويَسِير سَوَاهم للبيت ذى الحَجَر والحِجْر والباب والميزاب والملتزَم والجدار والأستار، بسلام مُشْرِق الغُرَر، مُونَق الحِبَر، وثناء مع ريّاه لا يُعبأ بالعَبِير مع نَشْره ولا يعتبَر، ووِدَاد مُخفِيّ الخبر، واعتـدادٍ يطُول منه فى ألسِـنَة الشكر عن إحصائه واستقصائه قِصَر، وإيرادٍ لمفاخره التى مبارتْ بها الأخبار والسِّير، واعتقادٍ لمآثِره التى سبق عثمانُها إلى إحراز مزَايا الفضل وجاء عَلِيُّها على الأثر.

أما بعـدَ حمدِ الله الذى أمر أولياءه المؤمنين بالمُعاونة والمُظافره، ونَهى عبادَه الصالحين عن المباينة والمُنافَره، ورعى لحُجّاج بيتـه حرمةَ القَصْـد وكتب لهم أجر المهاجَره، ودعا إلى حَرَمه، من أهّله من خَدَمه، فأجابه بالتلبية وأثابه وآجَره. والشهادة له بالواحدانيّة التى تُسْـعِد بمصاحبة المصابره، وتُصْـعِد إلى الدرجات الفـاخره. والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المَنَاقب الباهره، والمواهب الزّاخره، والمراتب التى منهـا النّبوّة والرسالةُ فى الدنيا والوسـيلةُ والشفاعةُ فى الآخره، وعلى آله وصَحْبه الذين أفنَى الله الشركَ بصَوَارمهم الحاصدة وأدْنى القتـلَ بعزائمهم الحاضره، صلاةً إلى مظانّ الرِّضوان متواتِره، ماربحتْ وفودُ مكةَ البركةَ الوافره، ووَضَحتْ لقاصدى الكعبة البيت الحرام أوجهُ القبول سافره.

فإنه ورد ـ أورد الله تعالى البُشرىٰ على سمعه ، وأيّد آهتمامه بتأليف شَمْل السَّعْد وجمعه ـ من جانبه المُكَرَّم ومَعْهَده ورَبْعه ، كتابٌ كريم نسبُه ، فخيم أدَبُه ، علىٌّ منصِبه ، مَلِيٌّ إذا أخلف السَّحابُ بما يَهَبُه ، سَرىٰ سرَتْ إلىٰ بيتِ الله وحَرَم رسوله القريب قُرَبُه ، على يد رسوله : الشيخِ الأمينِ الأزكىٰ ، الأورَع الأتقىٰ ، الخطيب البليغ ، المدرِّس ، المفيد أبي إسحاق ابنِ الشيخ الصالح أبي زيد ، عبد الرحمن بن أبي يحيىٰ ، نفع الله به ، وحاجبه الكبيرِ المختار ، المرتضىٰ ، الأعزّ ، أبي زَيَّان عريف آبن الشيخ المرحوم أبي زَكَرِيَّا ، أيده الله تعالى ، وكاتبِهِ الأمجد الأسعدِ أبي الفضل آبن الفقيه المُكَرَّم أبي عبد الله ، بن أبي مَدْيَنَ ، وفقه الله تعالىٰ وسدّده ، ومَنْ معهم من الخاصَّة والزعماء والفُرسان الماثِلين في خدمة الجهة المصونة بلَّغها الله أرَبها ، وقَبِل قُرَبها ، الواصلةَ بركْبكم المبارَكِ الرَّواح والمَغْدىٰ ، المُعَانِ على إكمال فرض الحج المؤدَّىٰ ، المَرْحُولِين بحمد العقبىٰ كما حُمِد المَبْدا ، ففضَضْنا ختامه الذَّكىّ ، وأفضْنا في حديث شكره الزَّكىّ ، وعرَضْنا منه بحضرتنا روْضًا يانعَ الروض به مَحكِىّ ، وحضَضْنا ثوابَنا على إعانة خاصَّة وفْدِه وعامتهم علىٰ قضاء النُّسُك بذلك الحرم المكِّىّ ، وتلمَّحنا فصولَه الميمونة فإذا هي مقصوراتٌ على مَثُوباتِ محضه ، ورَغَبات تُؤدَّى من الحج فَرْضَه ، وهِباتٍ يعاملُ بها مَنْ يضاعِفُ أجرَه ويُوَفِّيه قَرْضه ، وقُرُباتٍ يَحْمَدُ فاعلُها يوم قيام الأشهاد نَشْرَه وحشْرَه وعَرْضَه .

فأمَّا ما ذكره من ورود الكتابين الواصلين إلىٰ حضرته صُحْبَة الشيخين الأجلَّين « أبي محمد عبد الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبي لحان » وأنه أمضىٰ حكمهما ، وأجرىٰ رسمَهما ، فقد آثرنا للأجر حَوْزَه ، وآخترنا بالشُّكر فوزه ، وقصدْنا بهما تجديد جلباب الودَاد ، وتأكيدَ أسباب الولاء على البِعاد ، وإلا فمع وجودِ إنصافه الحقوقَ

من غاصبها تُستعاد ، والوثوقُ بنصره للظلوم وقهره للظالم لا يختلف فيه آعتقاد ؛ وقد شكرنا لكم ذلك الآحتفال ، وآثرنا حمدكم فى المحافل والحال .

وأما ما نعته مما أشرتم إليه مما يتعيّن له التقديم ، ويستحقّ توفية حقه من تكرير التكريم ؛ وهو تجهيزُ ركبكم المحروس فى السُّرى والمُقام ، فى خدمة مَنْ يقوم مقام الوالدة المرحومة فى الآحترام ؛ سقى الله صوبَ الرحمة صفيحَها ، ورقّى إلى الغُرُفات روحها ؛ ومعها وجوهُ دولتكم الغرّ ، وأعيانُ مملكتكم من سُرَاة بنى مَرِينٍ الذين تُبْهِج مرائيهم وتَسُر ؛ وما نبهتم عليه من آرتفاع شأنهم ، وآجتماع فُرْسانهم ، وآستيداع أمانتنا نفائسَ أنفُسهم وأديانهم ؛ فقد آستقبلناهم على بُعْد بالإكرام ، وأحللناهم من القُرْب فى أعلى مقام ، وصرفنا إلى تلقائهم وجهَ الإقبال والآهتمام ، وعرّفنا حقّهم أهلَ الإسلام ؛ ونشرنا لهم بفنائنا الأعلام ، ويسّرنا لهم باعتنائنا كلّ مرام ؛ وأمرنا بتسهيل طريقهم ، وتوصيل البرّ لفريقهم ، وأسدلنا الخلع على جميعهم ، وآحتفلنا بهم فى قدومهم ومُقامهم وتشييعهم ؛ وأجزلنا لهم أقسامَ الإنعام فى توجيههم ، وكذلك يكون فى رُجُوعهم ؛ وعرضوا بين أيدينا ما آصحبتهم من الطُّرَف والهدايا ، التى لا تحملها ظهورُ البحار فكيف ظهورُ المطايا ؛ من عُقُود منظّمه ، وبُرودٍ مسهمه ، ومطارفَ معْلمه ، ولطائفَ بالإمكان والإتقان مُعلمه ، وصنائعَ محكمه ، وبدائعَ للأفهام مفحمه ، وذخائرَ معظّمه ، وضرائرَ للشموس فى الكون والسمه ، ونوادرَ تفرّق بين الهام والأجسام والهام ملحمه ، وأخايرَ بمقدار مُهديها فى الجلال مُفهمه ، وخيولٍ مسوّمه بالأهلّة مُسْرجة وبالنجوم ملجمه ، معوّدةٍ نزال الأبطال معلّمه ، ذواتِ صدور مبقُورةٍ وأكفالٍ مسلّمه ، تسحبُ من الحرير أذيالا ، وتصْحب من الوشى سربالا ، وتميسُ بحُلّلها وحلاها عُجْبا وآختيالا ، ويقيسُ مشبّهُها سُرعتَها بالبرق فلا يتغالى ؛ عاتيات الأجسام ، عاليات كالآكام ؛ لفحولها صهيل يذعر الأسود ، ولسنابكها

وقع يفطر الجلمود، أتعبت الرُّوّاض ، وركبت منها صهوة كل بحر سابح حيث لجج الموت تخاض ؛ وقرنت مرابطها بحماية جواهر النفوس من الأعراض ، وجنيبة تجر من ذيولها كل فضاض ؛ وحسبت لاختلاف شياتها كأنها قطع الرياض : من شهب كأنما ارتدت الأقاح ، أو غدت رافلة فى حلل الإصباح . ودهم نفضت عليها الليالى صبغها فلا براح، وربما أغفلت من ذلك غرر وأوضاح . وكمت كأنها قتح[(١)] صلب البطاح ، تطير إلى الظفر بجناح . وحمر كأنها خلقت للنجاح، وأطلقت أعنتها فقالت ألسنة أسنتها للطرائد : لا براح . وخضر كأنها البزاة الموشاة الوشاح، أو مشيب فى الشباب قد لاح . وشقر تكبو فى طلبها الرياح، وتخبو نار البرق إذا أسنى بسنا سنابكها اقتداح .

ووراءها البغال، التى تحمل الأثقال، ولا تزل فى الأوحال بحال؛ وعليها الزناريات الموشعه ، وحليها الجلال الملمعه ؛ وهى تمشى رويدا ، وتبدى قوة وأيدا ؛ كأن قلامتها قناه عيدا (؟) وهى وافرة الأمداد ، فاخرة على الجياد ، باهرة العدد متكاثرة الأعداد، راسخات القوائم كأنها أطواد، شامخات الرءوس حاليات الأجياد، باذخات الأكفال غلاظ شداد ، وسارت لها إلى رحابنا انقياد ، وصارت من محل إسعاد إلى مواطن إصعاد؛ فتقبلنا أجناسها وأنواعها ، وتأملنا غرائبها وإبداعها ؛ وجعلنا يوما أو بعض يوم فى حواصلنا إيداعها؛ ثم استصفينا منها نفائس آثرنا إلينا إرجاعها، وفرقنا فى أوليائنا اجتماعها ؛ وقسمنا مشاعها، وغنمنا لما أفاء الله صفاياها ومرباعها؛ فتوالت لكل ولى منها منح ، وسارت إلى كل صفى منها ملح؛ وقالت الألسنة وطالت فى وصف ما عليه به فتح ، فاستبان ووضح ؛ وكان لأهل الإيمان بنعته أعظم هناء وأكبر فرح .

(١) من جملة معانى القتح الماء الجارى على وجه الأرض شبهها فى جريها بالماء الجارى على البطحاء الصلبة تأمل .

وسطّرناها ، وركبكم المبارك قد رامت السُّرىٰ نجائبهم ، وأمّت أمّ القرىٰ ركائبهم ؛ يسايرهم الأمنُ ويصاحبهم ، ويظاهرهم اليُمْن ويواظبهم ؛ فقد أعلت لهم المِيَر في جميع المَنازل ، وشُيِّدت لهم الحِبَانُ البَوَازِل ؛ وأُتْرِعت لهم الموارِدُ والمناهل ، وأُمْرِعت لهم بالمِيرة القِفارُ والمَراحل ؛ ووُكِّلت بهم الحَفَظةُ في المَخاوف ونُصِبَتْ لهم الأدلّةُ في المَجاهل ؛ وجُرِّد معهم الفُرْسان ، وجُدِّد لهم الإحْسان ، وأُكِّد لهم حَقَّان حقُّ مُرْسِلهم وحقُّ الإيمان ، وقُلِّد دَرَكَ حياطتهم أمراءُ العُرْبان ، وشُوهِد من تعظيمنا لهم مايَحْسُدهم عليه ملوكُ الزمان بكلِّ مكان ؛ وكتبْنا علىٰ أيديهم إلىٰ أُمراء الأشراف بالنُّهوض في خدمتهم والوقوف ، وأن يُحيط بهم كلُّ مقدّمِ طائفةٍ ويَطوف ، يتسلّمهم زعيمٌ من زعيم ، إلىٰ أن تُحطّ رحالُهم بالحَطِيم ؛ ويَحُلَّ كلٌّ منهم بالمَقام ويُقيم ، وتَكْمُلَ مناسكُهم بشُهود الموقف العظيم .

وكذلك كتبنا إلىٰ أُمراء المدينة المشرَّفه ، أن تتلقَّى بالقَبول الحَسَن مُصْحفَه ، وتُحلَّه بين الروضة والمِنْبر ، وتُجِلّه فقد ربِحَ سَعْيُ كاتبه وبَرّ ، وكتبَتْ له بعدد حُروفه أُجورٌ تُوفَّر ؛ ويمكَّن مَنْ يرقُّ لتلاوته في الآصالِ والبُكَر ، ويُهَيْمَن علىٰ ذلك فإنّه من بيتٍ هم المَلاكُ الأعلىٰ وعندهم وفيهم جاءت الآياتُ والسور .

وعمّا قليل يتمّ حجُّهم واعتمارُهم ، ويَؤُمُّ طَيْبةَ الطيِّبةَ العاطرةَ زُوّارُهم ، فيُكْرَمُ جِوارُهم ويَعْظُم فَخارُهم ، وتنْعَم بإشراقِ تلكَ الأنوار بصائرُهم وأبصارُهم ؛ وتفوحُ أرواحُ نجد من ثِيابهم ، وتلُوح أنوارُ القبول علىٰ شِيبهم وشَبابهم ؛ ثم يعُودُون إلينا فنُعِيدُ لهم الصِّلات ، ونُفِيد كلّا منهم دِيَمَ النِّعم المُرْسَلات ؛ ثم يَصْدُرُونَ إن شاء الله إليكم ركائبُهم بالمنائح مُثْقَلات ، ومطالبُهم بالمَناجح مكمَّلات ؛ ويظفرون من الله في الدارين بقسم النِّعم المُجْزلات حتّىٰ يُلْقُوا برحابكم عصا التَّسْيار ، ويصونوا حُرَّ وجوههم بالصبر علىٰ حَرِّ الهَجير [من] لَفْح النار ، ويدّخروا بما أنفقوا عند الله من

دِرْهم ودينار، أجرا جمًّا وما عِنْدَ الله خيرٌ للأبرار، والله تعالىٰ يقرّبه من تلك المواطن، ويُدْنيه منها بالظاهر وإنْ كان يَسْري إليها بالباطن، ويسهّل [له] ذُلُل الحَرَم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتّىٰ تحُلّ ركائبُه بين المَرْوتينِ وتجيز، ويكونَ له بذلك علىٰ مُلُوك الغَرْب تميز، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

لازالتْ مقبولةً علىٰ المَدىٰ هَدَاياه، مجبولةً علىٰ النّدىٰ سجَاياه، مدلولةً علىٰ الهدىٰ قضَاياه، منصورةً علىٰ العِـدَا سَرَاياه، مبرورةً أبدا تحَاياه. والسلامُ الأتمُّ الذى يعبَق ريّاه، والثناء الأعمُّ المشرق محيّاه، عليكم ورحمة الله وبركاته، والخير يكون، إن شاء الله تعـالىٰ.



وهذه نسخة جوابِ الكتاب الوارد علىٰ الملك النـاصر «محمد بن قلاوون» من آبن أبى الحسن علىّ المَرِينىّ، صاحب فاس المغرِب، بالبشـارة بفتح بِجاية، والآنتصار علىٰ تلِمْسان.

وآستفتاحُه بعد البسملة بقوله تعالىٰ: ﴿يٰأيُّها الذين آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقدامكُمْ والَّذِين كَفَرُوا فتَعْسًا لَهُمْ وأَضَلَّ أعمـالَهُمْ﴾.

ثم المكاتبة المعهودة: من ألقاب المَلِكين، والدعاء، والصدر:

قَهر اللهُ ببأسه مَنْ ناواه من أئمة الكُفْر وطُغَاتِه، ونَصَره علىٰ مَنْ لاواه من حِزْب الشيطان وحُماتِه، ونشر أعلامَه بالظَّفَر بمن خالفه من عُداةِ اللهِ وعُدَاتِه، وأجراه من بلوغ الوَطَر فى سُكُونه وحَرَكاته، علىٰ أجملِ أوضاعه وأكمل عاداتِه، ويسّر له بدوام سُعوده فَتْح ما آستَغْلق من مَعَاقل الحائدين عن مَرْضاته، ولا زالتْ ركائبُ البشائر عنه تَسْرى وإليه من تِلقائنا تَسِـير، ومَصيرُ الظَّفَر حيثُ يصير، ويدُورُ الفَلَك المستدير، بسَعْده الأثيل الأثِير، ويُنوّر الحَلَك بضَوْء جبينه الذي يهتدى به الضالُّ

ويلجأ إليــه المستجير، وتغورُ أعينُ العــدا إن عاينُوا تحفّله الجرّارَ وناهدُوا جيشــه المبير. بتحيّةٍ تحكى اللّطائمَ[(١)] عَرْفَها الشميم، وتَوَدّ الكمائمُ لو تفتّقت عن مثــل مالهــا من نَضارةٍ أو نسيم، ويودّ عِقْدُ الجَوْزاء لو آنتظم فى عِقْدِها النَّضيد النظيم.

وكيف لا وهى تحيّةٌ صادرةٌ عن مقــام شريف إلىٰ روضة غَنّــاء تُزرى بالنّبْتِ العَميم، واردةٌ من محلّ عظيم، علىٰ مُحَيّاً وَسيم، منطويةٌ علىٰ[(٢)] الأرض من سلامةٍ وللملوك الإسلام من سلامٍ سليم، وطُرْفةٍ نَشْرُها كالمسك الذى ينبغى أن يختم به هذا الكتاب، وثناءٍ يستفزّ الألباب، ويستقرّ فى حَبّات قلوبِ الأحباب، ويستدرّ أخلافَ الوُدّينِ المتحابّين فى الله فلا غَرْوَ أن دخلَتْ عليهم ملائكةُ النصر من كلّ باب.
يتسابقانِ إلىٰ ذلك المجد الأسنىٰ فى أسعَدِ مِضْمار، ويتساوَقان بحيازِ قَصَبات السَّبْق إلىٰ تلك العُصْبة المشرقة الأنوار، ويزداد فيهما بالوُفود عليه طِيبا، ويغدُو عُودُ الوُدّ بهما رَطيبا؛ حيثُ الرَّبْع مَريع، والمَهْيَعُ منيع، والعزّ مجدّد والقَدَر مُطيع، وسُحُبُ الكَرَمِ ثَرّه، ورياضُ الفضل مُخْضَرّه، وعساكرُ النصر تحُلّ نحوَه من المَجَرّه؛ حيث تَسْتَعِرُ الحَرْب، ويَستحِرُّ الضَرْب، وتشرقُ شموسُ المَشْرَفيّات لامعه[(٣)].

أما بعدَ حمدِ الله مُظْهِر دينه علىٰ كلّ دين، ومُطَهّر أرجاء البسيطة من المــارِدين المــارِقين، ومجرّد سيف النصر علىٰ الجاحدين الحائدين، ومُوهِنِ كيدِ الكافرين، ومُجْزِل أجرِ الصابرين، ومُنْجِز وَعْدِ مَنْ بَشَّرهم فى كتابه المبين بقوله : ﴿بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وهو خَيْرُ الناصِرِين﴾.

---

(١) هى أوعية المسك أو أسواقها واحدها لطيمة وفى الأصل الظائم وهى تصحيف.

(٢) بياض بالأصل ولعله علىٰ ملء الارض.

(٣) بياض فى الاصل يسير.

الذى عَصَم حِمىٰ الإسلام بكل ملك قاهر ، وفَصَم عرىٰ الشِّرْك بكلِّ سلطان غَدَا علىٰ عدُوِّ الله وعدُوِّه بالحقِّ ظاهر ، وقَصَم كلَّ فاجِرٍ بمهابةِ أئمة الهُدىٰ الذين مامنهم إلا مَنْ هو للمحاسن ناظِمٌ ولِقِمَم العِدا ناثر ؛ ناشِرِ علَمِ الإيمان بحُمَاة الامصار ، وناصِرِ علم الإسلام بملُوك الأقطار ، وجاعِلِ كلمته العُلْيا وكلمة الذين كَفَرُوا السفلىٰ ، لاجَرَم أنَّ لهُمُ النَّار ؛ جامع قلوب أهل الإيمان علىٰ إعلاء عَلَم الدِّين الحنيف وإن بعُدت بينهم شُقّة النّوىٰ وشَطَّ المَزَار .

والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيِّدنا محمد الذى أرسله اللهُ رحمةً للعالمين ونِقْمة علىٰ الكُفَّار ؛ ونصره بالرُّعْب مسيرةَ شهر وبالملائكة الكِرام فى إيراد كلِّ أمرٍ وإصدار ؛ وألانَ ببأسه صليبَ الصَّلَبُوت وأهانَ بالتنكيسِ عَبَدةَ الأصنام وسَدَنةَ النار ، وأيّده بآلٍ وأصْهار ، وأصْحابٍ وأنصار ، وجنودٍ تهون النَّقع المُثَار ؛ وأتباعٍ ما أظلم خَطْب إلا أجالوا سيُوفَهم فبدا نَجم الظَّفَر فى سماء الإيمان وأنار ، وأمةٍ ظاهرةٍ علىٰ من ناواها ، ظافرةٍ بمَنْ عاداها ، ما تعاقبَ الليلُ والنَّهار ، صلاةً وتسليماً يدُومان بدوام العَشِىِّ والإبكار .

فقد ورد علينا كتابٌ مختومٌ بالتكريم ، محتومٌ بالتبجيل والتقديم ؛ محتوٍ علىٰ وَصْف فضلِ الله العَمِيم ، ونصرِه العظيم ، ومَنِّه الجسيم ؛ فأكرمْنا نُزُلَه ، ونَشَرْنا حُلَله ، وتفهَّمنا تفاصيلَه وجُمَلَه ؛ فتيمَّنَّا بوصوله ، وتأمَّلْنا مخايِلَ النصر العزيز من فُصُوله ؛ ووجدناه قد اشتمل من سعادة مُرْسِله علىٰ أنواع ، ومن وَصْف تَعْدادِ نُصْرته علىٰ عونٍ من الله ومَنْ يُعِنِ اللهُ فهو المنصورُ المُطاع .

فأما ماذكره المقامُ العالى من أمر الوالدةِ المقدَّس ضَرِيحُها ، المغمورِ بالرحمة صَفِيحها ؛ وما كانت عزمتْ عليه من قصد مبْرور ، وتجارةٍ لن تبُور ، وأمِّ إلى البيتِ

الآمنِ والحرمِ المعمور، وما فاجأها من الأجَل، وعاجلَها من أمر الله عزّ وجلّ ؛ فالمقامُ أجزل اللهُ ثوابَه يحقّق أنّ النيّةَ فى الأُجور أبلغُ من العمل ، وأنه مَنْ أجاب داعِيَ الحِمَام فلا تقصيرَ فى فعله ولا خَلَل ؛ والله نسأل أن يكتُب لها ما نوته من خير، وأن يُطيف رُوحَها الزكية ببيته المعمورِ فى جَنّاتِ عدنٍ كما أطافَ أرْواح الشهداء فى حَوَاصل ذلك الطّيْر .

وكنّا نودُّ أن لو قَدِمتْ ليتلقّاها منّا زائدُ الإكرام، ويُوافِقَ مَضاربَها وافدُ الاحتِفالِ والاهتمام ؛ ونستَجْلب دعواتِها الخالصةَ الصالحه، وتَظْفر هى من مشاهـدةِ الحَرَم المعظّم والمَثْوى المكرّم والبيتِ المقدّس بالصَّفْقة الرابحه . على أنّه مَنْ ورد من تلقائكم قابَلْناه من جميل الوِفادةِ بما به يَليق، وتقدّمْنا بمعاملته بما هو به حَقيق ؛ ويسّرْنا له السبيلَ وهدَيْناه الطريق ، وأبلَغْناه فى حِرْز السلامة مع رَكْبِنا الشريف أملَه من قضاء المَنَاسك والتّطْواف بالبيت العَتيق .

وأمّا ما أشار إليه من أمرِ مَنْ كان «بتلمسان» وأنه ممن لا يَعْرِف مواقِعَ الإحسان، وما وصَفه المقامُ العالى من أحوالٍ ليس الخَـبَرُ فيها كالعِيَان ، وأنه اعتدى على مَن يتاخِمُه من الملوك، وخرج عن القَصْد فيما اعتمَدَه من ذلك السُّلوك ، حتّى أن ملك تُونُس أرسل إلى المقـامِ ابنَه ووزيرَه، وسأله أنْ يكونَ ظهيرَه على الحق ونَصيرَه، وأن المقامَ العالىَ أرسـل إلى ذلك الشّخص منكِرًا اعتمادَه ، طالبًا إصلاحَه لا إفسادَه، راجيًا أن يكون ممن تنفَعهُ الذِّكرى ، ظانًّا أنه ممّن يأبى أن يُقَال له : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ وأنه بعـد ذلك تمادى على غَيِّه ، وأراد أن يذُوق طَعْمَ الموت فى حَيِّه ، وأبى الظالمُ إلا نُفُورا، وذكر الملكُ عنه أنه قَتَل أباه بعدَ أن آتاه اللهُ به نِعمةً ومُلْكًا كَبيرا . وإن المقامَ العالى أتاه نَبأٌ عن أخيـه المقيم بسِجِلْماسه، وخَبَرٌ صِدْقٌ أوْجَب أن يُعامَلَ بما يليقُ بجميل السـياسة وحَرِيزِ الحراسة ؛ بحَنَد المقام له

جنُودا ، وعقَــد بنُودا ، وأضرىْ أُسُودا اوهنتْ كَيْده ، وأنهبَتْ أيْدَه ، وعاجلَتْ صيْدَه، وأذالَتْ باسه، وأزالَتْ عنــه سِما المُلْك ونزعَتْ لباسَــه . وأنهُ فى غُضُون ذلك أتاه سلطانُ الأندَلُس يستصْرِخ به علىٰ عدُوّ الله وعدُوّ المؤمنين، ويستَعْديه علىٰ الكَفَرة المعتدين . وأنّ المقام لبّىٰ دَعوته مسْرِعا، وأكرم نُزُلَه مُمْرِعا، ووعَده الجميل، وحقّق له التأميــل . وأن صاحب تِلمْسان لمــا غَرّه الإمهال ، وظنّ هــذه المَهامّ توجب للقام بعضَ آشـتغال، أعمل أطماعَه فى التجرّى علىٰ بعض ممــالكه المحروسة ومَدّ،وسار إلىٰ محلّ هو بينهما كالحَدّ. وأنّ المقام عند ذلك صَرَف اليه وجْهَ العَزْم، وأخذ فى حفْظ شانه بمــا لأعلام النصر من نَصْب وما للاعتداء من رَفْع وما للاهتمام من جَزْم . وأنه لم يَقدِرْ عليه إلا بعد أنْ حَذّره من أليم العقاب حُلُولا، وتمسك فيه بقوله تعــالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [ولمّا][1] لم ينفَــعْه الإنذار، وأبىٰ إلا المداومةَ والإصْرار، أرسل اليه المقــامُ العالى من جيشه الخِضَمّ ، وعسكره الذى طالمَــا تُعَضّــده ملائكةُ السماء وإلىٰ أمداده تنْضَمّ ، كلّ باسِــل يقوم مَقامَ الكتيبه، وكلّ مُشاهد يشاهَد منه فى العَرِين كلُّ غَريبه ؛ وكلّ ضِرْغام تَعْرِف العدا مواقع ضَرْبه لكنها تجهَل نِدّه أو ضَريبــه، فأذاقُوه كأس الحِمَــام صِرْفا ، ولم يتقبَّلوا عن نجَــاه بدُون نفْســه عدْلا ولا صَرْفا ؛ إلى أنْ أخذوه فى جماعةٍ من بنى أبيــه ، وشِرْذمةٍ قليلةٍ ممّن كانتْ تخالصُه فى الشدائد وتُوا فيه، وأن المقام العالى بعد ذلك سيَّر مَطارِفَ العَدْل فى الرعيّه، وأقرّ أحوالَهُمْ فى عدم التعرّض الى الأموال والذُّرّيه، علىٰ ما هو المَســنونُ فى قتال البُغَاة من الأمور الشرعيّه . وفَهِمْنا جميعَ ما شرحه فى هذا الفصل، وما أخبر به من هذا الظَّفَر الذى آبيضّ به وجهُ الفتح وإن كان قد آحمرّ به صَدْرُ النصل ؛ والله تعالى يزيدُ مُلْكه رُقيّا، ويجزيه لقَبُول النّعم لُقيّاً، ويجعلُه دائما

(١) فى الأصل "فلم ينفعه" بدون لما .

كوصفه مظفَّرا وكاسمه عليّا . وأن المقام العالى لما فرغ وجهُه من هــذه الوجْهة، وحاز هــذا المُلْك الذى لم يحُزْ آباؤه كُنْهه، عاد إلىٰ المهـمّ الذى قدم فيـه سلطان الأندلُس لأنه ابدئ ما المسلمونَ فيه من محاورة الأذىٰ، ومجـاورة العِـدا ، وقُرْب المسافة بينَ هذين العدُوّيْن كالشَّجا . وفى عيونهم كالقذىٰ . وأنه ثوىٰ به من الطُّغاة من أسْدل علىٰ المسلمين أرديةَ الرّدىٰ . وأنه علىٰ جانب البحر المعروف بالزُّقاق، و به قُطّانٌ يمنَعُونَ الإرفادَ والإرفاق، و يصُدّون عن السبيل مَنْ قصد سُلوكَه من الرفاق. وأن البرّ أيضا مملوءٌ منهم بصُقُور صائده، وعُلُوج مُكايده ، وكُفّار معانِده، وفُجّار علىٰ السُّـوء متعاضده، والبحْرَ مشحونٌ بغِرْبان طائرةٍ بأجنحة القـلوع طارِدَه، صادرةٍ بالموت وارده، جاريةٍ فى فَلَك البحر كالأعلام إلا أنها بالإعلام بالخبر شاهده، تختطف كلَّ آمٍّ وقاصد، وتقعُدُ لأهل الإيمـان بالمَراصد، وتُدْنِى الموتَ الأحمر، ممن ركب البحرَ الأخضر، وتمنعُ السـالك، إلا أن يكون من أهل الضّلال الهالك، من بَنِى الأصْفر .

وأنّ المقامَ العالىَ عند ذلك قام لله وغار، وأنجد جُنودهُ فى طلب الثار من أهل النار وأغار، وأنجد قاصدَ حرمه ببُعُوث كرمِه وأعار، وأرسل عِقْبانَ فُرسانه محلّقـةً إلىٰ ذلك الجبل الشّامخ الذّرىٰ وأطار، إلىٰ أن احاطت بهـم جنودُه إحاطةَ الآساد بالفرائس لا إحاطةَ الهالاتِ بالأقْمار، فما مِنْهم إلّا مَنْ أعمل علىٰ العدا رحىٰ المَنُون وادار، وسار وناعِى البيْن يَقْدُمه إلىٰ أينَ سار، وقدمَ عليهم ولَدَه الميمونَ النّقيبه، الممنوحَ غَرْبُه من مَواقع النصر بكلِّ غَريبه، الجارىَ علىٰ سَـنَن آبائه الكِرام، المظفّر أنَّى سرىٰ الممدوحَ حيث أقام، وأنه مَزّق جُوعَهُم الكثيفه، وهَدَم مَعاقِلَهم المُنيفه، واستَنْزَل منهم القاصِى، واستَتْرك العاصِى، وأخذ بالأقْدام والنّواصى، وأحلّ العذابَ والنّكال، بمن يستحقّه من أهل الإلحاد والمَعاصى، وقرن بينَ الأرواح والآجال .

وأذكرهم بهذا النصر أيامَ ابنِ نَصْر وأعاد ، وأثبت لهـذا الجبَل حقيقة اسم المدح، واستقرّ فى صحائف فِعْله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلِمْنــا أيضا ما اعتَمَده الطاغِى المُغْتال لعنه الله من الحضور بنَفْســه ، وجَمْعه المُلْحِدين من أبناء خَدَمته والمــارِقين من جِنْسه . وأنّه أعظَمَ هذا الأمرَ وأكبَرْ ، وأبْدى الزفيرَ لهذا المُصَاب وأظهر ، وأقسَمَ بمعبُوده المُصوّر وصَليبه المكَسّر ، أن لا يعُودَ إلا بعْـدَ أنْ يظْفَر بمـا سلَبَه الحقُّ إيّاه وتبصّر ؛ فأبى اللهُ والمؤمنونَ أن تكونَ النيّة إلا خائبه ، وقضت سـعادةُ الإسلام أن تكون الأيامُ لـا عَقَده من الطَّوِيّة الرّدِيّة ناكبه ؛ فلمّــا طال عليه الأمَدُ وحان الحَيْن ، عاد صِـفْرَ اليدين ولكن بخُفّىْ حُنَين ؛ ناكصًا على عَقِبــه ، خاسئًا لسُوء منْقَلَبه ، وأسرَعَ إلى مَقرّ طاغُوته سُرًى وسَــيْرًا ، ولو كان من ذَوِى الألباب لتعقّل فى أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِـمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ . وأنّ المقام العــالىَ ألزمه بعــد ذلك ما كان على أهــل «أغَرْنَاطة» له فى كلّ عام موظّفا ، ووُضِــع عنهم إصْرما بَرِح كالأسر مُجْحِفا .

وهــذه عِزّةٌ إسلاميّة جدّد اللهُ على يد المَقَام بذلك القُطْر صــدُورَها ، وسَــطّر فى صحائف حَسَناته أجُورَها ، وأبقى له مَذْخُورَها ، وأعدّها له ليوم تَجِدُ فيه كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلتْ من خيرٍ مُحْضَرا إذا شاهدت عَرْضَها ونشرها . ومِنّةٌ من الله أرْبَتْ على العَدّ ، وتجاوَزَت الحدّ ، ومَزِيّة لا تطمَحُ الآمال إلى مَيْلها فى جانبها ولا تَمتَدّ ، ورُتَبُ جِدّ يَلْحَق بها الولدُ الناجمُ فى سماء المعالى رُتَب الكِرام من أب له وجَدّ ـ واللهُ يجعلُه مظَفّرا على العِــدا ، منصُورا على مَنْ حاد عن سَــواء السبيل واعْتَدى ؛ مستحقا لمحاسن الأخبار على قُرْب المُدّة وبُعْد المَدى .

وقد كان أخُونا أمير المسلمين ـــ ، وسلطانُ الموحِّدين ، والمُلْك الشهيدُ قدّس اللهُ سرّه ؛ وبوّأه دارَ النعيم وبها أقرّه ؛ فى كلّ آونَة يُخْبِرنا بمثل هــذا الفتح ، ويذكُر لنا

ماناله من جَزِيل المنح؛ (فهذه شِنْشِنةٌ نَعرِفُها من أَخْزَم)، وسُنّةٌ سلك فيها الشِّبلُ الصائدُ سَنَنَ ذلك الضَّيغَم الأعظَم، ونحن نحمَدُالله الذى أقام المَقامَ مقامَ أبيه لنُصْرة الإسلام وأبقَى، وصَدّق بمـا تُنْشِئه من حُسْن أفعالك وسـعيد آرائك أنّك أبو الحُسيْن وأنّ أباك أبُو سعيد حقّا .

وحيثُ سلك المقامُ سَنَنَ والده الشهيد، وأتحفَنا من أنبائه بكُلّ جَديد؛ وقصّ علينا أحاديثَ ذلك الجـانبِ الغَرْبىِّ المُشرِقِ بأنواره، ونَصّ متجَدّداته مفصّلةً حتّى صِرْنا كأنّا مشاهِدُون لذلك النصرِ ومَوَاقِعِ آثارِه، فقضَى الودُّ أن نُتحفَه من أحاديث جَيْشِنا الذى أشرقَتْ لَمَعاتُ سُيوفِه فى الشَّرْق الأعلىٰ بما يُشَنِّف سَمْعه، ويسُرُّ معشَرَ الإسلام وجَمْعه، ومَوطِنَه ورَبْعه : ليتحقّق أنّ نِعَم الله لكلّ مَنْ قام بتشييد هذا الدِّين المحمّدىّ عامّه، ومِننه لديْهِم تامّه، وألطافَهُ بهم حافّه، ومُناصرتَه لِيَد سُلطانِ الإسلام فى أعناق العِـدا مُطلَقةٌ ولأَكُفّ أهلِ الشِّرْك كافّه، ﴿وأمّا بِنعْمةِ رَبّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فمِمّا نُبْدِيه لعلمه ، ونُهْدِيه لسـعيد فَهْمه ، أنّ من جُملة من يَحمِلُ لأبوابنا الشريفةِ من ملوك الكُفر القَطيعـةَ فى كلّ عام ، ويَرىٰ أنّ ذلك من جمـلة الإفضال عليـه والإنعام؛ متملّكَ سِيس، الذى هو فى مِلّته من سا كِنى البَرِّ كالرَّئيس، وبين بطارِقَته وطُغاته كالكَبِد الأعظَم أو كالقِدِّيس النفيس؛ وعليـه مع ذلك لأبوابنا الشريفةِ من القناطيرِ المقنطَرة من الذهب والفِضّـة والخَيْل المُسَوَّمة مالا يَحِيد عنه ولا يَحِيص، ومرَتَّب لايقبَل التنقيص ولايسمَح لِخناقه بتنفيس، تحمِلُه نُوّابه إلى أبوابنا الشريفةِ عن يَدٍ وهم صاغِرون، ويقومُون به علىٰ قَدَم العُبُوديّة وهم ضارِعُون .

ولـمّا كان فى العام المـاضى سوّف ببعْضِه وأخّر، ودافَع عند إبّانه وقَصّر، وسأل مَراحمَنا فى تنقيص بعض ذلك المُقرّر، وأرسل ضَرَاعاتِه إلىٰ نُوّابنا بالممـالك الشامية

فى هذا المعنىٰ وكَرَّر، وقدر فى نفسه المُراوغةَ وأسرَّ خُسْرا فى ارتما (؟) والله أعلم بما قدر، فاقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أنْ نُرسل إليه بَعثًا يذلّل قِياده، ويُنكّس صِعادَه، ويخرّبُ بِلادَه، ويوطِئُ أطواده، ويُوهِن عِنَاده، ويُذهِب فَساده، ويُفرّق أجْناده، ويمزّق أمْجاده، ويقلّل اعدادَه، ويُغلّل جموعه، ويُدكدك رُبوعَه، ويُذْرِى علىٰ مُلْكِه دُموعَه، ويُدْنِى خُضوعَه، ويفصل تلك الأبدانَ التى هى للطُّغيان مجموعه، فأنهضْنا إليه من الأبطال كُلَّ باسل، وأنهَدْنا إليه منهم كُلَّ ضِرْغام خادِرٍ يظُنُّ الجاهلُ أنه مُتكاسِل، وأشهَدْنا حَرْبَه كلَّ مؤمنٍ يرىٰ الشهادة مَغْنَمًا، والتخلُّفَ مأْثَمًا والتَّباطُؤَ مَغْرَما، والعُذْرَ فى هذا المُهِمِّ أمْرًا محرَّما. ويعدُّ الرُّكوبَ إلى هذا السَّفَر قُرْبه، والرُّكونَ إلى وَطنِه غُرْبه، ويرْغَبُ فيما وعد الله به جَيْشَه المنصورَ وحِزْبَه، ويربأُ بنفْسه أن يكون من الخالفين حُبًّا لها وتكريمًا، ويبادرُ إلىٰ ما أُمِرَ به رغبةً فى قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ المجاهِدِينَ عَلَىٰ القاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. علىٰ صافنات جياد، ليس لها غيرُ الطَّيْر فى سُرْعة المَرام أضداد، وعادياتٍ عاديات علىٰ أهل العِنَاد، وضابِحات ذابحات لِذَوِى الفَساد، ومُغيرات طالمَا أسْفَر صُبْحُها عن النَّجاح، ومُثيرات نَقْعٍ يتبلّج غيهبُها عن تحقُّق النَّجاة وإزالة الجُناح. وصَوَاهِلَ عِراب، كَمْ للفضل بها من كُمُون ولِلموت اقتراب، وأصائِلِ خَيْل، تُخيِّل لراكبها أنها أجْرىٰ من الرياح وأسرىٰ من اللّيل، قد عُقِد الخيرُ بنَواصيها، وعُهِد النصْرُ من أعرافها وصَيَاصِيها، وتَسَنَّمَ راكبُوها لذِرْوة العِزِّ من ظُهُورها، واحتَوَوْا علىٰ الكبيرِ الأعلىٰ من نُصْرتها علىٰ العِدا وظُهورها، بسُيُوف تبدِّدُ الأوهام، وتُزيل الإيهام، وتَقُدّ الهَامْ، وتُدْنى الموتَ الزُّؤام، وتُطَهِّر بمِيَاهِها نَجس الشرك ودَنَسَه، وتَقرعُ أجسادَهم فتغدو كلُّها عُيونا ولكنْ بالدِّماء مُنْبجسه، قد تَسَرْبلَ كلُّ منهم من الإيمان دِرْعًا حَصِينا، واتّخذ لُبْسه جُنّةً ولكن من الذهب والإستَبْرَق ليكون

لفضل الله مُظهِراً ولإحساننا مُبِينا، واتّخذ لِسهَام القِسِيّ ليوم اللّقاءِ الألسُنَ الحِدَاد، ومدّ يَدَ المُظاهَرة ببِيض قِصارٍ وسُمْرٍ صِعَاد .

فلمّـا جاسُوا خِلالَ تلكَ الدِّيار، وماسُوا يرفلون فى حُلَل الإيمـان التى تَشـفِى صُدورَ قومٍ مؤمنين وتَغيظُ الكُفّار، لم يسلُكُوا شِعْبا إلا سلك شيطانُ الكُفرِ شِعْبًا سواه، ولا وطِئُوا مَوْطِئا إلّا وكلُّ كافرٍ يأباه؛ ولا نالُوا من عَدُوٍّ نَيْلا إلّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ كما وعدَهُم الله؛ وما أتوْا لهم على ضَرْعٍ حافلٍ إلا جَفّ، ولا مَرُّوا على زَرْعٍ حافلٍ إلا أصبح هشِيما تَذْرُوه الرِّياح أو حَطِيما تكْفيه الكَفّ، ولا هَشِيمٍ إلا حَرّقُوه، ولاجمعٍ إلا فرّقوه، ولا قطيعِ شاءٍ إلاقطَّعوه ومَزّقوه، ولاضائزٍ إلا ضَنُّوا عليه أن يَدَعُوه لهم أو يُطْلِقُوه، ومابرِحوا كذلك إلى أن نازلُوا البَلَد المسمّى بآيَاسَ، فحصل لأهـلِهِ من مسمّاه الاشتقاقُ الأصغر والاشـتقاق الأكبر بقَطْع الأمل منـه واتّصال الإيَاس؛ فناداهم مَنْ بذلك الحصْن من أسارى المؤمنين :

يارحمـةَ اللهِ حُـلِّى فى منـازِلِنـا * حَسْبِى برائحـةِ الفِرْدَوْس مِنْ فِيك

ويانَصْرَ الله ائْسُرِ بالظَّفَرِ راياتٍ مُوَاجِهِنا ومنـازِلِنا فطالمـا كُنّا نُؤمِّلك ونرتجيك؛ وياخيلَ اللهِ اركبى، وياخيْلَ الكُفّار اذهبى، وياجُنْدَ إبليس ارهبى، من جُنْدِ الله الغـالِبين؛ وانْ وَجَدْتِ مناصًا فانفِرى، ويامَا لِلإسـلام من جُنُودٍ وأنصار، قاتِلُوا الذين يلُونَكم من الكُفّار .

وكانتْ موافاةُ عسكرِنا المنصور إليهم عندَ الإسْفار، فلم يملِكُوا القَرار، ولا استطاعُوا الفِرَار، ولم يجِدُوا ملْجأً من اللهِ إلّا إليه . وقال : لاوزَرَ وكيفَ به لمن يُلَبِّى الأوْزار، ورأوا ما أعدَدْنا لحِصارِهم من مجانيقَ تَقُدّ الصُّخُور، وتُدَكْدِك القُصور، وتَفِيض بها مياهُ نفوس تلك الأجساد الخبيثةِ فلا يجتمعانِ إلى يوم البَعْث والنُّشور؛ وأنا أمدَدْنا

جُيوشَنا بجاريات في بحر الفُرات، مشحونةٍ بالأموال والأقوات، والعُدَد والآلات؛ وأرفَدْناهم من الذَّهب والفِضّة بالقناطير المقَنْطَرات ، وأوفَدْنا عليهم من أنجادِنا بالديار البَكْرِيّة ، وأطراف البلاد الشامية ، جُيوشًا كالسَّحاب المتراكِمْ، وأطَرْنا عليهم عِقْبانَ اقتناصٍ من عِقْبان التَّراكِمينَ اعتادَتْ صَيْدَ الأراقِمِ ، وأسْرَ الضَّراغِمِ ؛ فلمّا تحقَّقُوا الدَّمار، لم يلْبَثُوا إلا كما وصف اللهُ تعالىٰ حالَ مَنْ أهلك من القَوْم الفاسقين ساعَةً مِنْ نَهار .

فعنْد الظهيرة حَمِيَ الوَطيس ، ونَكَص عِنْد إعلان الأذانِ علىٰ عَقِبه ابليس ؛ وشاهدُوا[(1)] الموتَ عِيانا، وتحقَّقُوا الذَّهابَ أموالًا وإخوانا ووُلْدانا ؛ أذعنُوا إلىٰ السِّلْمْ، ونادَوُا الأمانَ الأمانَ يأهل الإيمانِ والعِلْمِ ؛ والكَفَّ الكَفَّ يأجُند الملِك الموصُوف عند الشِّقاق بالحزم ؛ وعند القُدْرة على العِقَاب بالحِلْم . وأرسل طاغِيَتُهم الأكبرُ ليفون، يُقْسِم بصليبه : إنّا من القوم الذين يقُومُون بما عليهم من الجِزْية ويُوفُون ؛ ومن الرَّعِيّة الذين يُطيعون أمر مَليكهم الأعظم وعن حمىٰ الإسلام يكُفُّون ؛ فعند ذلك رأىٰ نوّابُنا بذلك العسكر أن تُكَفّ عنهم شُقّة الشِّقاق وتُطوىٰ ، ولانَتْ قلوبُهم لتذكار قوله تعالىٰ : ﴿وأنْ تَعْفُوا أقْرَبُ للتَّقْوىٰ﴾ . وطالَعُوا طُولَنا بما سأله القومُ من الرحمة والرَّأفه، وما ضَرعوا إليهم فيه من الأمانِ والألْفه ؛ وإعطاء ما كُنّا رَسَمْنا به من تسليم قلاعٍ معْدُوده، وتسويغ أراضٍ مَحْدوده، تستقر بيد نُوّابنا وتُقْطَع بالمناشير الشريفةِ لأهلِ الجِهاد من أبوابنا ، مع استقرارِ ما رسَمْنا به من قَطيعه، وعقْد المدنة علىٰ أمورٍ هى عندنا مُحَبَّبة ولَدَيْهِم فظيعة .

هذا بعدَ أنِ استولت عساكرُنا علىٰ قِلاعٍ لهم وحُصُون، ومُحْرَزٍ من أموالهم مَصُون ؛ وطلعت أعلامنا المحمّديّة علىٰ قَلْعة آياس ، ونزل أهل الكُفْرعلى حُكْم

(١) لعله وحين شاهدوا الخ ليتعلق به أذعنوا بعد .

أهل الإيمان وزال التحفُّظ والاحتراس، وأُعْلِن بالأذان فى ذلك الصَّرح ، وظهرتْ كلمةُ الإيمـان كما بدأتْ أوّلَ مرّة وهذا يُغْنى عن الشّرح ؛ وعلَت الملّةُ الحنيفيّةُ بذلك القُطْر وقام أهلُها وصالُوا ، وغُلّت أيدى الكُفّار ولُعِنوا بمـا قالُوا .

وكان جيشُنا قبـلَ ذلك أخذ قلعـةً تسمّى « بكاوَرًا » واستنزلُوا أهلها قسْرا ؛ واستزالُوهم عنها ماىينَ قتْلىٰ وأسْرىٰ ؛ وهى قلعةٌ شامخةُ الذُّرىٰ ، فسيحةُ العَرا ، وثيقـةُ العُرا ، يكاد الطرفُ يرجع عنها خاسئا .

ولمـا آتّصل بأبوابنا هذا الخبرُ السّارّ ، وشَفَع لنا مَنْ نرىٰ قبولَ شفاعته فى إجابة ماسأله هذا الشّعبُ من إرجاء عذابِ أهـل الكُفر إلىٰ نار تلْكَ الدار ؛ مَنَنّا عليهم بالأمان ، وقابلْناهم بعـدَ العدْل بالإحسان ؛ وتقـدّم أمرُنا إلىٰ نُوّابنا بكفّ السيف وإغماده ، وإطفاءِ مُسَعَّر الحرب وإخماده ، وأنْ يُجرىٰ المَنّ علىٰ مألوفه منّا ومعتاده ، بعـد تسليم تلكَ القِلاع ، وهَـدْم الأسوار التى كان بها لأهْـل الكُفر الإمْتنـاع ؛ واستبْقاء الرعيّه ، واستحْيَاء الذُّرّيه ، وإجراء الهُدْنة المسئُولة علىٰ القواعد الشرعيّة ؛ وعاد عسـكَرُنا منشُورَ الذوائب ، مظفَّـر الكتائب ، مؤيَّد المواكب ، مشْـحُونا بغرائبِ الرّغائب .

وعندَ وُصُولهم إلى أبوابنا فتحْنا لهم أبوابَ العطاء الأوْفر، وبذلْناهم بالتى هى أحسَنُ وعوّضْـناهم الذى هو أكْثر ؛ وأفضْنا عليهـم من خِلَع القَبُول ماأنساهم مشَقّةَ ذلك السُّرىٰ وشُقّةَ السّيْر ، وتلا عليهم لسانُ الإنصاف ﴿ولِبَاسُ التّقوىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ﴾ .

وبعدَ ذلك ورد علينا كتابُ بعض نُوّابنا بالأطرافِ مِن أولاد قرمان ، القائمين بمَشَارق ممالكنا علىٰ وجه الأمن وسَعَةِ الأمان ، بأنّهم عِنْد عودهم من سِيس ، ونُصرتِهم علىٰ حزْب إبليس ، استطرَدُوا فأخذُوا للكُفر تِسعَ قِلَاع ، مابرحَتْ شديدةَ الإمتِناع ،

لا تمتدّ إليها الأطماع ؛ فتكمّل المأخوذُ فى هـذه السفرة وما قبلها خمسَ عشرةَ قلعـة ، وبدّد الله شَمْلَ الكُفر وفرّق جَمْعه ، وآثرنا أن نُعـلِم المقامَ العالى بلَمْحة ممـا لله لدينا من النِّعم ، ولبره من شارة يُسْـتَدلُّ بها على أثر أخلاق كالدِّيَم ، ونُطْلِعَه علىٰ دُرّة من سَحاب ، وغَرْفة من بحرٍ عُباب ، وطُرْفة نَشْرها كالمِسْـك الذى ينبغى أن يختتم بها هذا الكتاب .

ونحن نرغَبُ الى المقام أن يواصلَ بكُتُبه المفتتَحةِ بالوِدَاد ، المشتملةِ علىٰ النُّصْرة علىٰ أهل العِناد ، المشحونةِ بمَوَاقع الفتح والظَّفَر التى تتضاعَفُ إنْ شاء الله وتَزداد ؛ المحتويةِ علىٰ الطّـارف من الإخلاص والتّـلاد ، المتّصـلِ سببُها بين الآباء الكِرَام ونُجباء الأولاد ، والله تعالىٰ يجعـلُه دائمـا ثمَرات النصر من الرماح يجتنى ، ولوُجُوه الفتح من الصّوارم يجتلى ؛ ويُديم علىٰ الإسلام مزيدَ العِزِّ الذى يتجدّد كلَّ آونةٍ من طلائـع راياتِ محمدٍ وبدائع آراءِ علىٍّ ، بمنه وكرمه .

⁂

وهذه نسـخة كتاب جواب إلىٰ صاحب فاس حيثُ ورد كتابه بالتعرُّض لوقعة « تمرلنك » من إنشاء مؤلّفه ، كُتِب بذلك عن السـلطان الملك الناصر « فرج بن برقوق » وهو .

عبـد الله ووليُّه السـلطان الأعظم (إلى آخر ألقاب سلطاننا) أجرىٰ الله تعـالىٰ الأقدار برفعة قَدْره ، وأدار الأفلاك بتأييده ونَصْره ، وأذلَّ رِقابَ الأعداء بسَطْوته وقَهره ، وشحن الأقطارَ بسُـمْعته وملأ الآفاقَ بذِكْره ، يخُصُّ المقامَ العالى (إلىٰ آخر الألقاب) : رفع اللهُ تعالىٰ له فى مُلْكه الشامِخِ مَنارا ، وجعل النصْرَ والظَّفر له شِعارا ، وأحسن بحُسْنِ مُواتاته إلا لأهل الكفر جِوارا ، بسَلَام يفوق العَبِير عَبِيقه ، ويزرى

بفتيق المسك الدارىّ فتيقه ، ويُخجِل الروضَ المنمنمَ إذا تزيّن بالبهار خلوقه ، وثناء تكلّ الالسنةُ البليغةُ عن وصفه، ويعجز بُناةُ المجد الأثيل عن حُسْن وصفه ، وتعترف الأزاهرُ بالقصور عن طيبِ أرَجه ومسك عَرْفه ، وشُكر يوالى الوِردُ فيه الصَّــدَر ، ويحقّق الخُبْرُ فيه الخَبَر ، ويُشيع فى الآفاق ذكْره فتتّخذه السُّمار حديثَ سَمَر .

أما بعدَ حمدِ اللهِ واصلِ أسبابِ المَودّة وحافِظِ نظامها ، ومؤكّدِ علائقِ المحبّة بشدّةِ التئامها ، ورابطِ جأشِ المُعاضــدةِ باتّحاد كلمتها وتنَــاسُب مَرامها ، ومجدِّدِ مسرّات القلوب بتَوالِى أخبارها المُبْهِجة عن عالى مقامِها . والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدنا محمد أفضلِ نبىّ رعىٰ الذِّمام علىٰ البِعاد ، وأكرمِ رسولٍ قرنَ صِــدْقَ الإخاء منه بصحّة الوِداد ، صلاةً تبلّغ من رُتْبة الشّرف مُنتهاها ، وتَنْطوى الشُّــقّة البعيدةُ دُونَ بلوغِ مَدَاها ؛ فإنه ورد علينــا علىٰ يدِ رسُولكم فلان كتابٌ كريم طاب وُرُوده ، وتهلّلتْ بالبِشر سُــعُودُه ، وشهِدَ بصِدْق المحبــة الصادقةِ شُهُوده ، وطلَع من الجانب الغَرْبىّ هلالُه فلاحَتْ بالمشرِق بحُسْن التلَقّى سُعُوده ، فقرّ منه برُؤيته الناظر ، وابتهج بموافاته الخاطر ، ولاحَتْ من جوانبه لوائحُ البِشْر فاحسَنَ تلقّيَه سلطانُنا الناصر .

وقابلنامن القَبُول بما كاد باطِنُه لكمالِ الموافاة يكونُ عُنْوانا للظاهر ، وفضَضْنا ختامَه المصونَ عن بَديع كلامٍ مخترَع ، وبناتِ فكرٍ قبلَه لم تُفتَرَع ، وفصاحةٍ قد أحكم اللَّسَنُ مبانِيها ، وبلاغةٍ تناسبَتْ ألفاظُها فكانَتْ قوالبَ لمَعانيها ، وبراعةٍ قد أحسنتِ البديهةُ ترتيبَها بخاءتْ وتواليها تتبع هواديهــا ؛ وفَهِمنا ما أظهره من كَوامِنِ المحبة التى بلغَتْ من القلب الشِّــغَاف ، وبَوارِح الشوق الذى عِنْــدنا من مثله أضعافُ أضعاف ؛ وانتهينا إلىٰ ما أشار إليه المقامُ العالى من التلويح إلىٰ ماطَرَق أطرافَ ممالكنا الشريفة مِنْ طارق الاعتدا ، وما كان من الواقعةِ التى كاد خَبَرُها لفظاعته يكونُ كالمُبتدا .

ونحن نُبْدِى لعلم المقام العالى مايوضِّح له أنّ ماوقع من هذه القِصّة لم يكُنْ عن سُوءِ تدبير، ونُورِد عليه من بيان السبَبِ مايحقّق عنده أنّ ذلك لم يكُنْ لعجز ولا تقصير، بل لأمرٍ قُدِّر فى الأزَل، ومقدُور الله تعالىٰ لايُدْفَع بالحِيَل .

وذلك أنه لما آتّصل بمسامعنا الشريفة قَصْدُ العدوّ إلىٰ جِهتنا، وتجاوُزُه حَدّ بلاده إلىٰ أطرافِ مملكتنا، بادَرْنا الحرَكةَ إليه فى عَسْكرٍ لجَب، وجُيوشٍ يضيقُ عن وُسْعها الفضاءُ الرَّحْب، من كل بطلٍ عركَتْه الحرُوب، وثقّفته الخُطُوب، وحنكَتْه التّجارِب، وعَجَم عُودَه بكَثْرة المُنازلات قِراعُ الكتائب. قد آمتطىٰ طِرْفًا عربىَّ الأصل كريمَ الحَسَب، خالصَ العِتْق صريحَ النَّسَب، يفوتُ الطَّرْف مَدىٰ باعه المَديد، ويَسْبِقُ حافِرُه موقِعَ بصرِه الحديد . ولبس دِرعًا قد أُحْكِم سَرْدُها، وأُبْرِم شَدُّها، وبالغَتْ فى السُّبُوغ فاتّصفَت بصِفَات الكِرام، وضاقَتْ عيُنها فمنعَتْ شَبحا حتّى ذُبَابَ السِّهام. ووَضَع علىٰ رأسه بيضةً يَخْطَف الأبصارَ وميضُ بَرْقِها، وتُزلِقُ السِّهامَ الراشقةَ صلابَةُ طَرْقِها، وترفَعُها الأبطالُ علىٰ الرءوس فلا تَرىٰ أنها قامتْ ببعض حقِّها. وتقلّد سيفًا يَمْضِى علىٰ الرِّقاب نافِذُحكمه، ويقْضِى بانقضاء الأجلِ آنقضاضُ نجمِه، لايَنْبُو عن ضَرِيبة فيرُدّ، ولايَقِف حدُّه فى القَطْع عند حَدّ. وآعتقل رُمْحا يُجْرِى الدماءَ سِنَانُه بأنابيبه، ويمدّ إلى الفارس باعَهُ الطويلَ فيأخُذُ بتَلابيبه، وتَمَسَّك المَنَايا بأسبابه فتتعلّق منه بالأذيال، وتُضَرِّسُ الحربُ بزُرْق أنيابه كأنها أنيابُ أغْوال .
وتنكّب قَوْسا مُوعِزُ الآجالِ هِلالُ هلالها، ومُورِد المَنُونِ إرسالُ نبالها، ومُدرِكُ الثار رنّةُ وَتَرِها، ومُوقِدُ نارِ الحرب قَدْحُ شَرَرِها، قد آقترَنَ بها سِهامٌ تُسابِقُ الريحَ فى سُرْعتها، وتُعاجِلُ الموتَ بصَرْعتها، وتختطفُ العُيون فى مَرِّها، وتختلِسُ النفوسَ من مَقَرِّها، تدخُل هَجْمًا كُلّ محتجِب، وتأتِى الحَذِرَ من حيثُ لايحتسِب . وتَناولَ عَمُودًا يهجُم علىٰ الأضالع بأضلاعه فيفْدَغُها، ويُصافِحُ الرُّوس بكَفِّه الملتحمةِ الأصابعِ

فيدمغها ؛ يُقرِّب من الأجل كُلَّ بعيد ، ويُخْلِق من العُمْر كلَّ جديد ، ولا يُقاومه في الدّفاع بيضةٌ وأنّى تُقاوِمُ البيضةُ زُبْرةٌ من حديد .

وتحرّكْنا من الديار المصرية في جُيوش لا يأخذُها حَصْر، ولا يلحقها هَصْر، ولا يُظَنّ بها على كثرة الأعداد كَسْر، ولم نزل نَحُثُّ السير، ونُسْرِع الحركة لِلقاء العدو إسراعَ الطير، حتّى وافينا دِمَشْــق المحروسةَ فنزلْنا بظاهرها ، مستمطِرين النصرَ في أوائل حركتنا وأواخِرِها، وانْضَمَّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها، وتركمانها الزائدة على العَدّ وعشرانها، مالا ينقطِع له مَــدَد، ولا يدخُل تحتَ حَصْر ولا عدد . وأقبــل القومُ في لفيف كالجَراد المنتشِر، وأمواج البحر التي لا تنحصر : من أجنــاس مختلفــه ، وجموع على تبايُنِ الأنواع مُؤْتلِفه، وتراءى الجمعانِ في أفسح مكان، ورأى كُلُّ قبيلِ الآخَر رأيَ العين وليس الخبرُ كالعيــان، واستعدَّ الفريقانِ للنّزال ، واحتفَروا خنادقَ للاحتراس وتبوّأنا مَقاعِدَ للقتال، ولم يبْقَ إلا المُبارَزه، والتقاءُ الصُّفوفِ والمُناجزه، إذ ورد وارِدٌ من جهتهم بطلب الصُّلْح والمُوادَعه، والجُنوح إلى السِّلْم وقَطْع المنازَعه؛ فأجَبْناهم بالإجابه، ورأينا أنّ حَقْن الدماء من الجانبين من أتمّ مواقِع الرأى إصابَه؛ وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لَـمّـا أتانا منكُــم قاصِــدٌ * يَسأَلُ في الصُّلْحِ وَكَفِّ القِتَال
قُلْنَـا لَهُ نِعْــمَ الّذِى قُلْتَــهُ * والصُّلْحُ خيرٌ وأجبنا السُّؤَال

فبينا نحن على ذلك، واقفون من المواعَدة على المُوادَعة على ما هنالك، إذ بلغَنا أن طائفةً من الخَوَنة الذين ضَلّ سعْيُهم ، وعاد عليهم بالوبالِ ولله الحمدُ بَغْيُهم ، توجَّهوا إلى الديار المصرية للاستيلاء على تَخْتِ مُلْكنا الشريف في الغَيْبه ، آملين مالم يحصُلوا منه إلا على الخَيْبه ؛ فلم يسَعْ إلا الإسراعُ في طَلَبِهــم ، للقبْض عليهم وإيقاع النَّكال

بهم، وجازيناهم بما يُجازى به الملوك مَنْ رام مَرامهم، وظنّ العدوّ أن قصْدَنا الديارَ المصرية إنما كان لخوفٍ أو فَشَل، فأخذ فى خِداع أهل البلد حتّى سلّموه إليه وفعل فَعْلتَه التى فَعَل، لِيَقْضِىَ اللهُ أمْرا كانَ مَفْعُولا .

ثم لم نزل تدأبُ فى تحصين البلادِ وتَرْويج أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل أحوالها، حائطين أقطارَها المتسعةَ بجيوش لايكِلُّ حدُّها، ولا يُعقَب بالجَزْر مَدُّها، لِيكُونُوا للبلاد أسْوارا، وللدولةِ القاهرةِ إن شاء الله تعالى أعوانًا وأنصارا، وأعاد الله تعالى المملكةَ إلى حالها المعروف، وترتيبِها المألوف، فاستقرّتْ بعد الاضْطراب، وتوطّنت بعد الاغتراب .

وفى خلال ذلك تردّدت الرسُل إلينا فى عَقْد الصلح وإمْضائه، ودفْن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه، فلم يسَعْنا التلكُّؤ عن المصالحة [بل سعَيْنا] سعْيها، والله تعالى يقول : ﴿ وإنْ جنحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَها ﴾ . فعقَدْنا لهم عقدَ الصُّلح وأمضَيْناه، وأحكمْنا قواعدَه توكّلا على الله تعالى وأبرمْناه، وجهّزْنا إليهم نسخةً منه طمغت بطمغة قانهم عليها، وأعيدَتْ إلينا بعد ذلك ليكونَ المَرجِعُ عنْدَ الاختلاف والعياذ بالله تعالى إليها : ﴿فمَنْ نَكَثَ فإنّما ينكُثُ على نَفْسه ومَنْ أوفى بما عاهَدَ عليْهُ اللهَ فسيُؤْتِيهِ أجْرا عَظِيما﴾ .

والله تعالى يجنّب إخاءكُم الكريمَ مواقع الغِيَر، ويقْرِن موَدّته الصادقة بصفاءٍ لايشُوبُه على ممرّ الزمان كَدَر، والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجمـــــــــلة الرابعة

(فى مكاتبة ملك المسلمين بالأندلس)

وهو صاحب غَرْناطة ، وقلعتها تسمى حَمْراء غَرْناطة . وقد تقـدّم فى المقالة الثانية فى المسالك والممالك ذكْرُ هذه المملكة وأحوالها ، ومَنْ مَلَكها جاهليّة وإسلاما ، وأنها الآنَ بيَدِ بَنِى الأحمر . وقد ذكر فى "التعريف" أنهم من وَلَدِ قيس بنِ سعد ابن عُبَادة سيد الخزرج الأنصارىّ : صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وهى منهم الآنَ بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد المخلُوع آبن يوسُفَ بن إسمـاعيل آبن الرئيس أبى سعيد فرج بن إسمـاعيل بن يوسـف بن نصر ؛ وقد أزلّ اللهُ من يجاوره من نَصارىٰ الفَرَنْج بسيفه ، وآمتنع فى أيامه ما كان يؤدّيه مَنْ قَبْله من أواخر ملوك الأندلس إلى مَلِك الفَرَنج من الإتاوة فى كل سنةٍ ، لآستقبال سنةِ ثنتين وسبْعين وسبعمائة وإلى آخر وقت .

وقد ذكر فى "التعريف" أنّ سلطانها كان فى زمانه فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» أبا الفضـل يوسف ؛ ولعله يوسف بن إسمـاعيل المقدّم ذكره . قال : وهو شابٌّ فاضل له يدٌ فى الموشّحات . ورسم المكاتبة إليه على ماذكره فى "التعريف" بعد البسملة "أما بعد" بخطبة مختصرة ، «فهذه المفاوضَةُ إلى الحضرة العلية ، السنيّة ، السريّة ، العالميّة ، العادليّة ، المجاهدية ، المؤيّديّة ، المرابطيّة ، المثاغرية ، المظفّرية ، المنصوريّة ، بقيّة شجرة الفَخَار ، وخالصةِ سَلَفِ الأنْصار ، المجاهد عن الدين ، والذابّ عن حوزة المسـلمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمِ الجيوش ، خُلَاصـة الخلافة المعظمة ، أثيرِ الإمامة المكّرمة ، ظهيرِ أمير المؤمنين ، أبى فلان فلان . »

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" وهو .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إليه متكفِّلةً بالنصر علىٰ بُعْد الدار ، مجرِّدةَ النصل إلا أنه الذى لا يؤخِّره البِدَار ، مُسعَدةً بالهِمَم ولولا الآشتغالُ بجهاد أعداءِ الله فيمن قَرُب لَمَا تقدّمتْ سَرَعانُ الخيل، ولا أقبلت إلّا وفى [أوائل][1] طلائعها للأعداء الوَيْل، ولا كُتبَتْ إلا والعَجَاج يُتَرِّب السُّطور، والفِجَاج تقذفُ مافيها علىٰ ظُهور الصَّواهل إلىٰ بُطون البُحور . مبديةً ذكرَ ماعندنا بسببها لمجاورة الكُفّار، ومحاورة السيوف التى لاتَمَلُّ من النفار، مع العلم بما لها فى ذلك من فَضيلة الجهاد، ومَزِيّة الجَلَد علىٰ طول الجِلَاد ، ومصابَرةِ السَّهر لأوقات منيمه ، ومكاثرةِ هــذا العدوِّ بالصبر ليكونَ لهـا غنيمه ، ونحن علىٰ إمدادها ـ أيدها الله ـ بالنصر و بالدعاء الذى هو أخفُّ إليها من العساكر، وأخفىٰ مسيرًا إذا قدَّر حقَّه الشاكر ، ثقةً بأن الله سينصُر حزبَه الغالب، و يكُفُّ عدوَّه المغالب، ويصل بإمداد الملائكةِ بجُنْده، ويأتى بالفتح أوْ بأمرٍ من عنده ، لتجرى ألطافُه على ماعوّدتْ ، ويُؤخذَ الأعداء بالجريرة، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره و ينظُرُ إلى أهل هذه الجزيره .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه مثل صاحب تونس فى القطع والخطابة، والاختتام، والعلامة، والتعريف "صاحبُ حمراء غَرْناطةَ" .

وهذه نسخة جوابٍ إلى صاحب حمراء غَرْناطة . وقد ورد كتابه فى ورقٍ أحمر يتضمّن قيامَه بأمر الجهاد فى الكُفّار، وما حصل من آستيلاء بعض أقاربه علىٰ مُلْكه ونَزْعه منه، وأنه استظهر بعد ذلك علىٰ المذكور وقتَلَه، وعاد إلىٰ مُلْكه علىٰ عادته . فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وستين وسبعمائة، وهى :

(١) من "التعريف" زدناه .

تخُصُّ الحضرةَ العلية، حضرة الأمير فلان، وألقابه، جعل الله له النصرَ أينَ سارَ قرينا، والظَّفر والاستظهارَ مصاحِبًا وخدينا، وزاد في محلّه الأسنىٰ تمكينا وتأمينا، ومنحَ أفقَه الغربيَّ من أسرّةِ وجهه المتلألئِ الإشراق، ومهابة بطشه الذي يُورِد العِدا مَوارد الرّدىٰ بالاتّفاق، تحسينًا وتحصينا ـ بإهداء السلام، ـ يأرجُ عَرْفا، ويتبلّج وصْفا، ويكاد يمازجُ النّسيم لُطفا ـ وإبداء الشُّكْر الذي جلّلَه ملابِس الإكرام وأضفىٰ، وأجملَ منه نفائسَ عقْدِ المودّة التي أظهرها فلم تكُنْ تخفىٰ .

ثم بعدَ حمدِ الله مؤكّد أسباب عُلاه، ومؤيِّد موجِباتِ نَصْره وما النصرُ إلا من عنـد الله؛ والصلاةِ والسـلام علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أمدّه بملائكته المقرّبين، ونصَره بالرُّعب مسـيرةَ شهرٍ كما ورد بالنصّ والتعيين؛ ورفع باسمه ألويةَ المؤمنين الموحّدين، وقمع ببأسه ثائرةَ البُغاة والمتمرّدين .

وعلى آله وصَحْبـه الذين لازَمُوا التمسكَ بأسباب الدين، وجاهدُوا في إقامة منَار الإسلام لمـا علِمُوا مِقدارَ أجرهم عِلْمَ اليقين، صلاةً متواليةً متواتِرةً علىٰ ممرِّ الأحقاب والسنين؛ فإنا نوضّح لعلمه الكريم أنّ كتابه ورد علينا مشتمِلا علىٰ المحاسن الغرّاء، مُغْرِبا بل معرِبا لنا بحمرة لونه أن نسبَته إلىٰ الحمراء، مُشْبِهًا وَرْدَ الخدُود والنَّقْسُ فيه كالخال، أو شقائقَ النُّعمان كما بدَا روضُه غِبَّ السحاب المتوال . فوقفْنا علىٰ مضمونه جميعه، وتلمّحنا بديعَ معانيه من جميل توْشيعه وترصيعه، وعلِمْنا ما شرحه فيه : من استمراره علىٰ عادة سَلَفه في القيـام بأمر الجهاد، وقطع دابر الكفَرة ذوي الشِّقاق والعِناد، وتوطيـد ما لديه من تلك البِلاد، وتطمينِ ما بها من العِباد؛ وما اتفق من قريبِه في الصورة لا في المعنىٰ، وكيف أساء إليه فِعلا وقد أحسَنَ به ظنًّا، وأنه رَصدَ الغفلةَ من جنابه، وأقدمَ على ما أقدَمَ عليـه من اقترافِ البغْي والتمسُّك بأسبابه، ولم

إكمالات "

نُب صبح الأعشى هـذا على بعض كلمات مطموسـة بالحبر
الآن فى بعض المكتبات الأهلية على أصلٍ لذلك الجزء فرؤى
تمارىُ فى مواضعه إن أراد . وتسهيلا لمعرفة مواضع البياض من
كان ساقطا لطمسه بين قوسين هكذا (   ) . وهى :

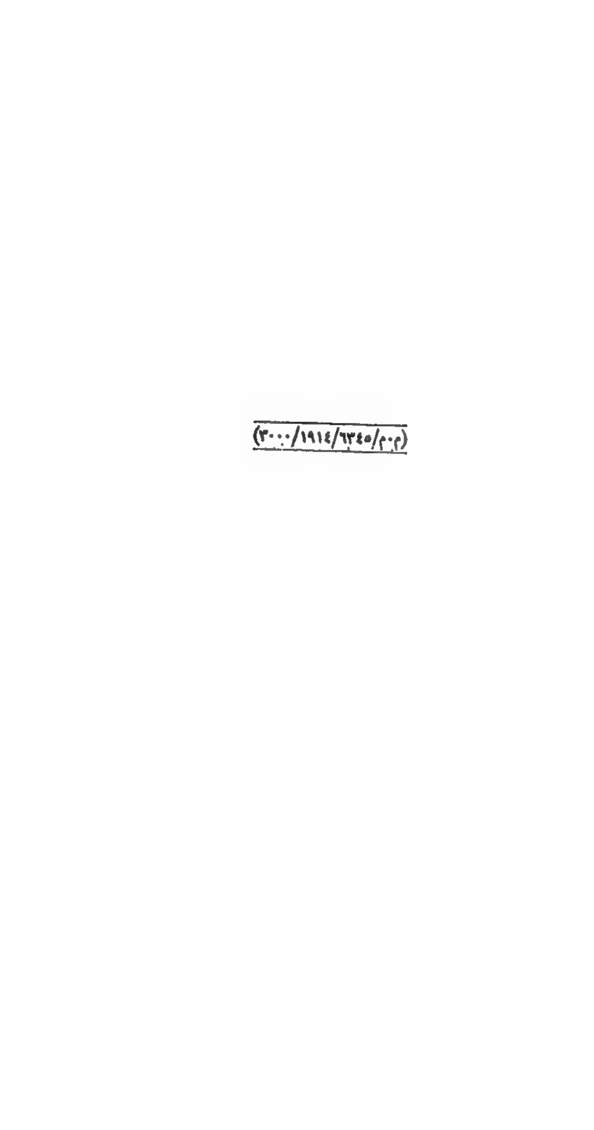
مده لأقلام من وُلَاة الوجه القِبلىّ ، ويُؤْتَى بها فتحفظ عند
بها مايحتاج إليه (فى كتابة السلطان و) يوضع فى دواته بقَدْر الحاجة .

منهاج الإصابة" : ولا بدّ فيه (من ثلاثة شقوق أو أكثر) بقدر مايحتاج
ب مَجِّ القلم الحِبْرَ فى القرطاس .

وآعلم أن للكُتَّاب فيه طريقتين — إحداهما طريقةُ التلُث ، فتجرى الحال فيه على
الميل إلى (التقوير — و)الثـانية طريقة المُحقّق ، فتجرى الحال فيه على الميل إلى
(البَسْط دون التقوير وسيأتى إيضاح الطر) يقتين وكيفية (تشكيل حروفهما فيا بعدُ
إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر السِّرَّمَرِّىّ فى أرجوزته آختصـاص قلم الطومار بأمور : أحدهـا أن
مستداراته كلها تكون بوجه القلم ، والمدّات بسِنّه ، والتعاريق بوجهه مفتلا فيا على
اليمين — الثانى أن الميم منه تكون مفتوحة مدوّرة) والفاء والقاف فيه (أوساطها ممتدّة
وجنباتها) مدوّرة — الثالث (أن يكون البياض بين الأحرف كمثله بين السطور) —
الرابع أن يكون (الفضل من جانبي القرطاس متسـاويا فى المقدار — الخامس أن
لايكون) فيه صاد مدوّرة (ولا) كاف مشكولة .

وذكر المولى زين الديـن شعبان الآثارىّ فى ألفيته (أنه يدخل) فيه الترويس
فى الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (والراء ، والطاء ، والكاف المجموعة) واللام
والنون فى الإفراد والتركيب عنـد الابتداء وأنه (لايجوز فيـه) الطمس فى شىء من
عُقَده كالصاد، والطاء، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة
بحال، والمعنى فيه أن الطمس لايليق بالخط الجليل .



(٣٠٠٠/١٩١٤/٦٣٤٥/م٠م)

